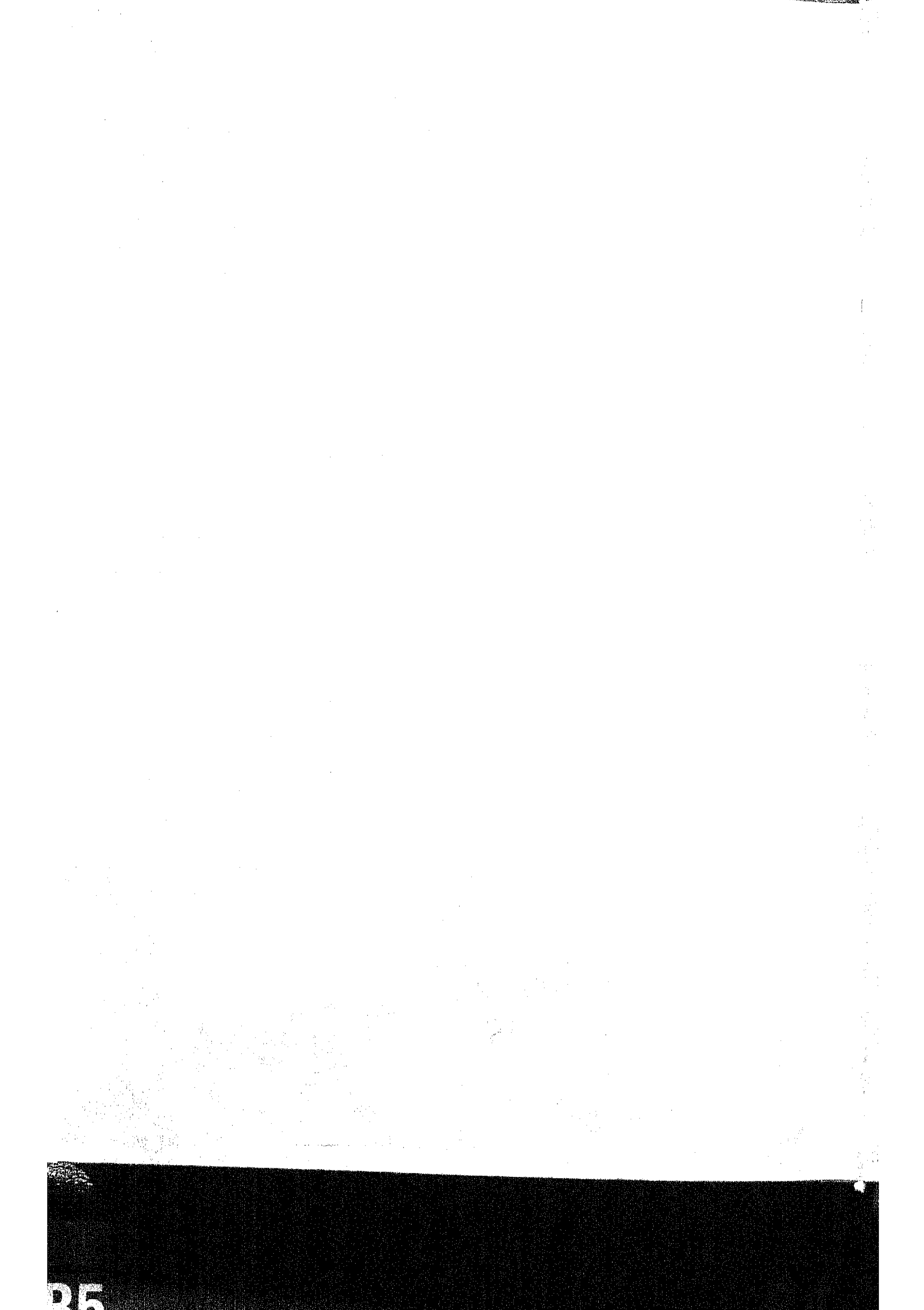
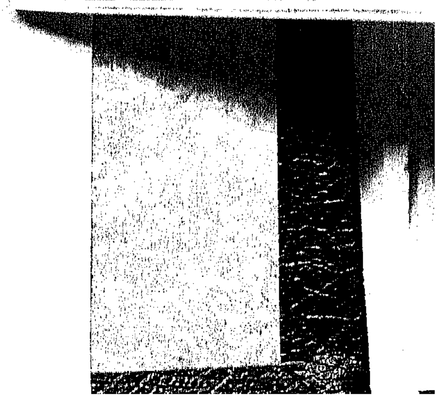

Bibliotheca Alexandrina
0095828





سيرتي الذاتيّة



برتراند رسل

سيرتي الذاتية

١

١٨٧٢ - ١٩١٤

ترجمة

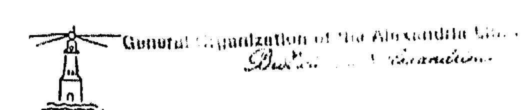
الدكتور عبد الله عبد الحافظ — الدكتور فايز اسكندر

الدكتور شفيق مجلي — الدكتور أمين العيوطي

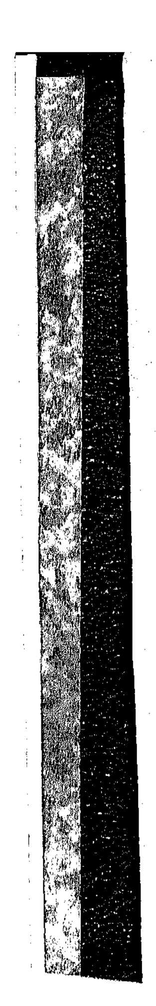
مراجعة

الدكتور شوقي السكري





دار المعارف بمصر



الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. ع. م.

المحتويات



استهلال

ماعشت من أجله

لقد تحكمت فى حياتى انفعالات ثلاثة، بسيطة بيد أنها متناهية فى القوة : الحنين للحب ، والبحث عن المعرفة ، والإشفاق الشديد على الذين يقاسون ويتعذبون . ولقد تقاذفتنى هذه الانفعالات ، كالرياح العاتية فى طريق غير مستقيم فوق بحر عميق من العذاب ، يصل إلى حافة اليأس ذاتها .

تلمست الحب ، أولاً ، لأنه يجلب النشوة ، وهى نشوة وصلت من العمق حداً كان يمكن معه أن أضحى بما بقى من الحياة من أجل بضع ساعات من هذه السعادة . ثم تلمسته ، ثانياً ، لأنه يخفف الوحدة ، هذه الوحدة الرهيبة التى يشرف فيها الوعى الراجف على حافة عالم يدلف إلى هوة باردة سحيقة لا يسبر لها غور ولا حياة فيها . ثم تلمسته ، أخيراً ، فى الرؤية التى تتمثل للشعراء والقديسين حينما ينظرون بعين الخيال إلى الفردوس وذلك عن طريق الحب الذى يربط بين قلبين ربطاً كاملاً فيستشعران تجاوب العشاق الإلهيين . هذا هو ما سعيت إليه ، وبالرغم من أنه قد يبدو أفضل مما تمنحه حياة الإنسان ، فقد كان — فى النهاية — هو ما وجدته .

وبنفس الدافع سعيت إلى المعرفة . كنت أرغب فى فهم قلوب الناس ، ومعرفة السبب الذى يجعل النجوم تضىء . كما حاولت أن أتبين القوة التى قال بها فيثاغورس والتى بمقتضاها يسيطر بها العدد على فيض الكائنات . ولقد حققت شيئاً من ذلك ، ولكنى لم أصل إلى الكثير .

وقد أدى بى ذلك الحب وتلك المعرفة ، بقدر ما توفر لى منهما ، إلى التسامى الذى بلغ بى عنان السماء . ولكن عاطفة الإشفاق كانت تعيدنى ثانية إلى

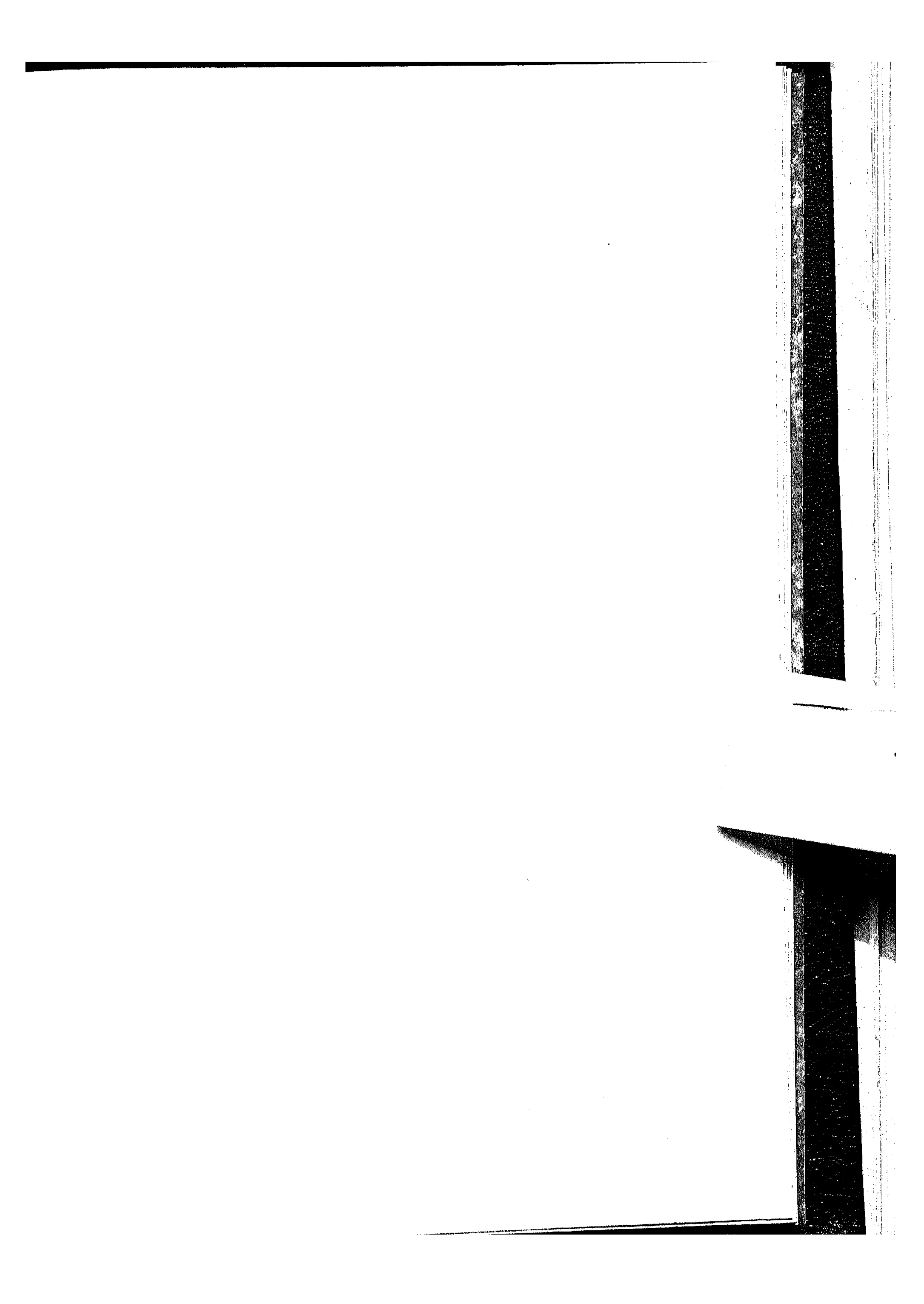
الأرض . إن صرخات الألم تتردد أصداؤها فى قلبى . إن وجود أطفال يتضورون جوعاً وضحايا يتعذبون على أيدى الطغاة ، وشيوخ عاجزين قد أصبحوا عبئاً مقيتاً على أبنائهم — إن وجود عالم من الوحدة والبؤس والألم لمما يحيل الحياة الإنسانية كما يجب أن تكون إلى سخرية للساخرين . إننى أتوق إلى تخفيف وطأة الشر ، ولكنى لا أستطيع ، فإننى أعانى منه أنا الآخر .

تلك كانت حياتى . لقد وجدت فيها ما أستحق أن أعيش من أجله ، ولو منحت الفرصة لأسعدنى أن أعيشها مرة أخرى .

إلى إديث

عبر الأعوام الطوال
ظللت أبحث عن السلام
ولكنى وجدت النشوة ووجدت العناء المضنى
ووجدت الجنون
ووجدت الوحدة
ووجدت الألم الموحش
الذى يحز فى القلب
أما السلام ، فلم أجده
والآن ، وقد أدركتنى الشيخوخة
وأشرفت على النهاية
عرفتك
ومن خلال معرفتى بك
وجدت النشوة ووجدت السلام
وعرفت الراحة
بعد سنوات عديدة من الوحدة الموحشة
عرفت كيف تكون الحياة ، وكيف يكون الحب
فإذا ما رقدت الآن
فإننى أرقد راضى النفس .

برتراند رسل



الفصل الأول

مرحلة الطفولة

كان أول ما أذكره بوضوح وصولى إلى « بمبروك لودج » فى فبراير ١٨٦٧ . ولكى أكون دقيقاً أقرر أنى لا أذكر لحظة وصولى إلى ذلك المنزل ، ولو أن ذاكرتى ما تزال تعى السقف الزجاجى الكبير لإحدى محطات لندن التى تقع فى نهاية الخط الحديدى ، وأغلب الظن أنها بادنجتون ، التى فيها غادرت القطار والتى خلتها جميلة إلى حد يفوق كل تصور . وكل ما أذكره من أحداث يومى الأول فى « بمبروك لودج » هو الشاى الذى قدم فى قاعة الخدم ، وهى حجرة رحيبة عارية من الأثاث بها منضدة ضخمة ، كما كان هناك عدد من المقاعد أحدها عال وبغير مسند . وفى هذه الحجرة كان الخدم جميعاً يتناولون الشاى باستثناء المشرفة على المنزل ، والطاهى ، والوصيفة ، والساقى ، وهؤلاء كانوا يكونون فيما بينهم نوعاً من الأرستقراطية تتخذ مكانها فى حجرة مدبرة البيت . ولقد أجلست على الكرسى العالى لأتناول الشاى ، وأذكر بمنتهى الوضوح أنى عجبت للسبب الذى حدا بالخدم إلى الاهتمام بأمرى إلى درجة كبيرة. ولم أكن أعرف فى ذلك الحين أنى كنت بالفعل موضع مداولات جادة بين كبير الأمناء وعدد من أعضاء مجلس الملكة النابهين وغيرهم من الأشخاص البارزين ، ولم أتنبه للإحاطة بالأحداث الغريبة التى سبقت مجيئى إلى « بمبروك لودج » إلا بعد أن تقدم بى العمر .

كان والدى « اللورد أمبرلى » قد توفى منذ زمن وجيز ، بعد فترة طويلة من التدهور الذى أخذ يتفاقم ، ثم ماتت والدتى وشقيقتى على إثر إصابتهما بالدفتريا بعد عام ونصف من وفاته . ولقد كانت والدتى ، كما عرفتها من خلال

مذكراتها وخطاباتها ، قوية البنية ، تفيض حيوية ، لماحة ، جادة ، قادرة على الابتكار ، لا يتطرق إليها الخوف . ولابد أنها كانت جميلة كما توحى صورها . أما والدى فكان يميل للفلسفة ، والدرس ، عزوفاً عن الدنيويات . سوداوى المزاج ، متزمتاً . وكان كلاهما متشيعين متحمسين للإصلاح وصاحبى نظريات فيه ، كما كانا مستعدين لتطبيق أية نظرية كانا يعتنقانها . وكان والدى من مريدى الفيلسوف جون ستيوارت مل كما كان صديقاً له . ومن هنا كان تشيعه لتحديد النسل ولحق المرأة فى التصويت مما أدى إلى فقده مقعده فى البرلمان . كما تعرضت والدتى فى بعض الأحيان للمتاعب نتيجة لآرائها المتطرفة ، وقد حدث فى حفل أقامه والدا الملكة مارى أن قالت دوقة كامبردج فى صوت مرتفع : « أجل ، إنى أعرف من أنت ، إنك زوجة الابن . بيد أنى أسمع الآن أنك لا تحبين سوى الراديكاليين[1] والأمريكيين القذرين . إن لندن كلها تعرف ذلك ، وجميع المنتديات تتحدث عنه . لابد أن أتفحص ثيابك الداخلية ، لأرى ما إذا كانت نظيفة !! »

ولعل الخطاب التالى من القنصل البريطانى فى فلورنسا لا يحتاج إلى توضيح :

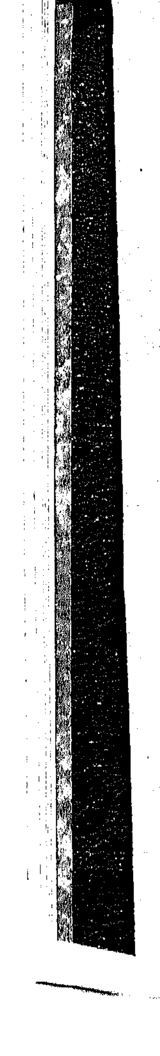
٢٢ سبتمبر ١٨٧٠

عزيزتى الليدى أمبرلى

لست من المعجبين بماتزينى[2] ، بل إنى أكره شخصيته ومبادئه أشد الكراهية وأمقتهما إلى أبعد الحدود ، وبالإضافة إلى هذا فإن المنصب الذى أشغله يمنعنى من أن أكون وسيلة تتبادلان بها المراسلات ، بيد أنى لا أود أن أسبب لك ضيقاً فى هذا الصدد ، ولهذا فقد اتبعت السبيل الوحيد الذى يمكننى اتباعه حتى يتسلم خطابك ، وهو أن أضعه فى مكتب البريد وأرفق به العبارة التالية « طرف بروكيوراتورى ديل رى ، جايتا » .

المخلص

ا . باجت



(١) الراديكاليون هم أعضاء الأحزاب السياسية التى تؤمن بالسياسة الليبرالية التحررية .

(٢) ماتزينى هو الزعيم الإيطالى الثائر الذى كان ينادى بوحدة إيطاليا وحريتها .

ولقد أهدى ماتزينى والدتى حافظة ساعته ، وهى الآن فى حوزتى .

ولقد درجت والدتى على إلقاء الخطب فى جانب إعطاء المرأة حق التصويت ، وفى مذكراتها وردت فقرة تتحدث فيها عن جماعة « أخوات بوتر » ، وهى تضم مسز سيدنى ويب والليدى كورتنى بوصفهما من زهرات المجتمع . ولقد تهيأت لى فيما تلا من سنوات فرصة التعرف إلى مسز سيدنى ويب عن كثب ، وشعرت نتيجة لهذا باحترام كبير لوالدتى لما كان لها من رصانة وجدية عندما ذكرت ما كانت تحسه فى شخصية مسز ويب من خفة وعبث ، فى حين كنت أرى من خلال خطاباتها هى ، وأسوق منها على سبيل المثال خطابها لهنرى كرومبتون ، وهو من دعاة الفلسفة الوضعية[1] ، أنها كانت فى بعض المناسبات تلجأ للخفة والتدلل . بحيث إن الجانب من شخصيتها الذى واجهت به العالم ربما كان أقل إزعاجاً من ذلك الذى بدا فى مذكراتها .

كان أبى متحرر الفكر ، وقد كتب مؤلفاً ضخماً نشر بعد وفاته ، أسماه « تحليل العقيدة الدينية » ، كما كان يملك مكتبة غنية تضم مؤلفات آباء الكنيسة ، وكتابات عن البوذية ، ودراسات عن الكونفوشيوسية ، إلى غير ذلك . ولقد قضى وقتاً طويلاً فى الريف لإعداد كتابه . على أنه درج ، هو ووالدتى ، فى المرحلة المبكرة من زواجهما على قضاء بضعة أشهر من كل عام فى لندن ، حيث كانا يقيمان فى منزلهما فى « دينزيارد » . وقد تنافست والدتى وشقيقتها ، مسز جورج هوارد ، (التى أصبحت تدعى بعد زواجها الليدى كارليل) فى الاهتمام بالتعبير الفنى فى صورة حياة المنتديات الأدبية أو الصالونات ، فكنت تشهد فى « صالون » مسز هوارد جميع الرسامين الذين ينتمون إلى مدرسة ما قبل رافائيل[2] ، فى حين ضم المنتدى الأدبى الذى كانت تقيمه والدتى جميع الفلاسفة البريطانيين ابتداء من مل إلى من هم دونه .

---

(١) الفلسفة التى أسسها أوجست كونت وهى تؤمن بالحقائق الثابتة وترفض المطلقات .

(٢) تأسست سنة ١٨٤٨ فى إنجلترا وتهدف إلى العودة إلى ما قبل الفنان رافائيل الذى عاش فى عصر النهضة فى إيطاليا ، وذلك من ناحية الروح الابتكارية والبعد عن التقاليد الجامدة السائدة .

وفى عام ١٨٧٦ سافر أبى وأمى إلى أمريكا ، حيث توثقت أواصر صداقتهما بجميع الراديكاليين فى بوسطن ، ولعل بصرهما لم يمتد إلى المستقبل فيتصورا أن من كانا يعجبان بحماسهم للديمقراطية وبمعارضتهم الناجحة للرق من أمريكيين وأمريكيات ، سيأتى من صلبهم من يقتل « ساكو وفانزينى » .

لم يكن أبى وأمى قد تجاوزا الثانية والعشرين عندما تزوجا ، وكان ذلك فى عام ١٨٦٤ ، ثم رزقا بشقيقى بعد تسعة أشهر وأربعة أيام من زواجهما ، وهو أمر كان يراه — أى شقيقى — مبعث فخر كما يبدو من سيرته الذاتية . وقبل أن أولد بقليل أقام والدى فى منزل موحش تماماً يدعى «رافنزكروفت» (واسمه الحالى « جليدان هول ») وهو يقع فى غابة تمتد فوق جانبى نهر « واى » الشديد الانحدار . ومن هذا المنزل ، كتبت أمى بعد أن ولدت بأيام ثلاثة ، تصفنى لوالدتها : يزن المولود $8\frac{3}{4}$ رطل ، ويبلغ طوله إحدى وعشرين بوصة ، وهو مكتنز الجسم ، قبيح الصورة إلى حد بعيد والكل يراه شبيهاً « بفرانك » ، عيناه زرقاوان متباعدتان ، وذقنه يكاد لا يبين ، وهو يشبه فرانك تماماً حينما كان رضيعاً . إن لبنى الآن غزير . لو أنى تأخرت فى إرضاعه لحظات ، أو لو أنه كان يعانى من الغازات أو أية متاعب أخرى ، فإنه يثور ثورة هائلة . . ويصرخ ويركل وينتفض حتى يهدئ أخذ من ثائرته . . . وهو يرفع رأسه وينظر إلى ما حوله بكثير من الحيوية .

ولقد جاءوا لأخى بمدرس على درجة كبيرة من العلم ، كما أتصور على الأقل من خلال الإشارة لأبحاثه التى وردت فى مؤلف وليم جيمس ، « علم النفس »[1] . وكان هذا المدرس من المتشيعين « للداروين » ، كما كان مهتماً بدراسة غرائز الدجاج ، مما حدا بأفراد أسرتى ، تسهيلاً لدراسته ، أن يتركوا الدجاج يعيث فساداً فى كل حجرة فى البيت ، بما فى ذلك حجرة الاستقبال . أما عن تكوينه الجسمانى ، فقد كان مصدوراً برح به الداء ، ولم يمهله الأجل

(١) انظر بالإضافة إلى هذا مقالة ج . ب . س هولدين : « المجلة البريطانية لسلوك الحيوان » الجزء الثانى رقم ١ ، ١٩٥٤ .

طويلاً بعد وفاة والدى . ويبدو أن أبى وأمى قررا ، على أساس نظرى بحت ، أنه بالرغم من أن الواجب يقضى بألا ينجب هذا المعلم أطفالاً نظراً لعلته، فإن من الظلم له أن يعيش كالأعزب محروماً من رعاية امرأة . ومن ثم فقد سمحت له والدتى بأن يعيش معها ، ولو أنه ليس هناك ما يدل على أنها كانت سعيدة بذلك . ولم يستمر هذا الترتيب سوى فترة قصيرة ، إذ بدأ تنفيذه عقب ميلادى ، ثم ماتت أمى بعد ذلك بعامين فقط ، على أن أبى رأى أن يبقى المدرس بعد هذا إلى حين ، وعندما حانت منية أبى وجدوا أنه أوصى بأن يتولى الرجل ، بالاشتراك مع كوبدن ساندرسون ، وقد كان كلاهما ملحداً ، مهمة الوصاية على ولديه .

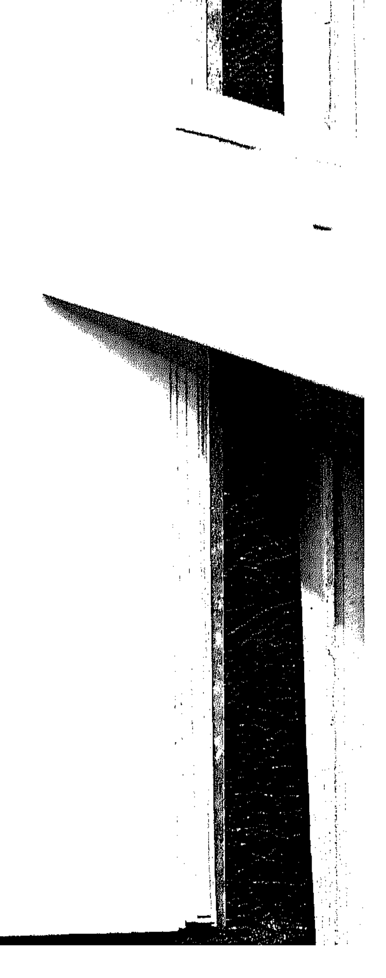
غير أن جدى وجدتى اكتشفا من خلال كتابات أبى الراحل ما حدث فيما يختص برعاية أمى لهذا المعلم ، مما سبب لهما ذعراً بالغاً يتفق وتزمت الفكتوريين ، ومن ثم قررا أن يحتكما إلى القضاء إذا اقتضى الأمر حتى ينقذا طفلين بريئين من براثن كافرين متآمرين . واستشار الكافران المتآمران سير هوراس دافى (اللورد دافى فيما بعد) فأكد لهما أن الدعوى لن تكون فى صفهما ، ولعله اعتمد فى تقديره على سابقة مشابهة فى حالة الشاعر شيللى . ولهذا أرسلت أنا وأخى إلى تشانسرى لتنفيذ الوصاية علينا ، وهكذا سلمنى كوبدن ساندرسون إلى جدى وجدتى فى اليوم الذى أشرت إليه . وما من شك أن هذا الجانب من حياتى ساعد على اهتمام الخدم بأمرى .

أما عن أمى فلا أذكر من أمرها شيئاً ، فيما عدا سقوطى يوماً من عربة يجرها مهر ، ولابد أن أمى كانت موجودة وقتئذ . وأعتقد أن هذا الجانب من ذكرياتى حقيقى ، فقد تأكدت من صحته فى مرحلة متأخرة ، وبعد أن ظللت أحتفظ به فى نفسى مدة سنوات . أما فيما يختص بأبى فإنى أذكر عنه أمرين : أولهما أنه أهدانى صفحة عليها طباعة باللون الأحمر ، وهو لون بعث فى نفسى الرضا ، كما أذكر أنى رأيته يوماً فى الحمام . ولقد دفن أبى وأمى فى حديقة منزلهما فى رافنزكروفت بيد أن رفاتهما نقل بعد هذا إلى مقبرة العائلة فى تشينيز . وقد كتب أبى إلى أمه الرسالة التالية قبل وفاته بأيام :

رافنزكروفت
مساء الأربعاء
أمي العزيزة

سيسعدك أن تعلمى أنى أنتوى أن أعرض نفسى على رادكليف بمجرد استطاعتى ذلك ، ويؤسفنى أن أحيطك بالسبب ، وهو أنى أعانى من نزلة شعبية حادة يحتمل أن تلزمنى فراشى فترة من الوقت . تسلمت رسالتك المكتوبة بالقلم الرصاص ، وأسفت إذ علمت أن المرض قد ألم بك أيضاً . وبالرغم من أنى فى حالة من الإعياء فقد رأيت أنه لا بأس فى الكتابة إليك ، حيث إنى مسهد . ولا حاجة بى للقول إن مرضى ليس خطيراً ، كما أنه ليس من المتوقع أن يتفاقم . غير أن خبرتى عن سرعة استفحال الأمراض كانت من المرارة بحيث لم أعد فى منأى من القلق ،أو أفترض السلامة حيث لا سلامة . إن رئتى ملتهبتان وقد تزداد حالتى سوءاً . أتوسل إليك ألا تبرقى أو تتصرفى بشىء من التسرع . إن لدينا طبيباً شابًّا رقيق الحاشية بدلاً من أودلاند، ولعله سيقوم بكل ما يمكن عمله من أجلى إثباتاً لقدرته حيث إنه قد بدأ يباشر عمله هنا . أكرر القول إنى أتوقع أن أتماثل للشفاء ، على أنه لو ساءت حالتى فإنى أتمنى أن أموت بنفس الهدوء والسكينة اللذين يستشعرهما ذلك الذى « يلم أطراف الغطاء حوله ثم يستسلم لنوم تتخلله الأحلام السعيدة » .

أما عنى فلست أحس قلقاً ولا تردداً ، ولكنى أشعر حقًّا بألم عميق بالنسبة لقلة سأضطر أن أفترق عنها ، وبالأخص أنت . وإنى إذ أكتب والألم والضعف يلازماننى لست أجد ما أقدم لك سوى هذا التعبير القاصر عن تقديرى العميق لحبك الخالص الذى لا يتحول ، وعطفك علىّ ، حتى لو بدا أنى لا أستحقهما . وإنه لمما يسبب لى أسفاً عميقاً أنى اضطررت فى بعض الأحيان أن أبدو فظًّا ، وإن كان كل ما رجوت أن أستظهره لا يعدو المحبة . لم أنجز إلا القليل جدًّا مما كنت أرجو أن أؤديه ، ولكنى آمل ألا يكون هذا القليل قد أنجز بصورة خاطئة . لو وافتنى المنية فإنى أموت وفى نفسى إحساس بالرضا



إذ أنجزت عملاً هامًّا واحداً فى حياتى . أما عن طفلى الحبيبين فآمل أن تزوريهما كثيراً وبقدر ما يمكنك ، وأن يجدا فيك أمًّا لهما . إن جثمانى سيجد مستقرًّا كما تعلمين فى الغابة التى أحببتها وفى البقعة الجميلة التى أعدت لى . لست من التفاؤل بحيث آمل أن تشيعى جثمانى ، بيد أنه يسعدنى أن أتصور إمكان حدوث ذلك .

ولعلى جد أنانى إذ أسبب لك ألماً من خلال هذه الرسالة ، وكل ما هناك هو أنى أشفق أن أصبح فى حالة من الضعف لا تمكننى من الكتابة . وسأوالى الكتابة ما دام فى استطاعتى ذلك . أود أن أقرر أيضاً أنى لم أجد من أبى الحبيب سوى العطف والرقة طوال حياتى ، وهو أمر أحس إزاءه بامتنان عميق . وآمل مخلصاً أن تجنبه الأقدار فى نهاية حياته الطويلة النبيلة الألم الناشئ من فقدان الابن . ولا يسعنى سوى أن أبعث بحبى العميق لأجاثا ورولو وويللى المسكين إذا أمكن .

ابنك المحب

إن « بمبروك لودج » ، حيث كان يسكن جدى وجدتى ، منزل رحيب يقع فى « ريتشموند بارك » ويتكون من طابقين وقد كان هذا المنزل نفحة من نفحات الملك ، وقد اشتق اسمه من الليدى بمبروك التى أغرم بها جورج الثالث عندما أصيب بالجنون . وكانت الملكة قد أهدت هذا المنزل إلى جدى وجدتى فى الأربعينات من القرن التاسع عشر ليسكناه مدى الحياة ، وفى هذا المنزل تم الاجتماع الشهير لمجلس الوزراء ، ذلك الاجتماع الذى وصفه الكاتب كينجليك فى مؤلفه « غزو شبه جزيرة القرم » ، وذكر كيف استغرق عدد من أعضاء مجلس الوزراء فى النوم حين اتخذ قرار دخول حرب القرم . ولقد عاش كينجليك فى الفترة المتأخرة من حياته فى ريتشموند وإنى لأذكره جيداً . وقد سألت سيرسبنسر وولبول يوماً عن السبب الذى حدا بكينجليك أن يبغض نابليون الثالث إلى هذا الحد ، فأجاب أنهما تشاجرا بسبب امرأة . وكان من الطبيعى أن أسأله « هـلا سردت علىّ القصة ؟ » وكان رده « لا يا سيدى لن أفعل » . ومات بعد ذلك بقليل .

وكانت مساحة حديقة بمبروك لودج أحد عشر فداناً ، معظمها متروك على حاله . وقد لعبت هذه الحديقة دوراً فى غاية الأهمية فى حياتى حتى ناهزت الثامنة عشرة من عمرى . فإذا اتجهت شمالاً طالعك منظر رائع يمتد من أبسوم داونز إلى وندسور كاسل بين هايند هيد وليث هل . وقد تعودت عيناى مرأى الآفاق الفسيحة ومنظر الغروب الذى لا يعوقه شىء . ولقد فقدت سعادة العيش منذ أن حرمت التطلع إلى هذين المنظرين . كان هناك الكثير من الأشجار الجميلة ، البلوط والزان وشهبلوط الهند والقسطل الأسبانى والزيزفون والأ ز البالغ الجمال وأشجار الكريبتوميريا والديودارا التى أهداها أمراء الهند . كما كان هناك أخصاص وأسوا من نبات العليق وخمائل من نبات الغار ، وكل الأماكن المتوارية التى يمكن أن يتوارى فيها المرء عن الكبا بصورة لا يمكن معها كشفه . كما كان هناك عدد من الحدائق المخصصة للزهور بها أسوار من النبات . واقد زاد إهمال الحديقة تدريجياً خلال الأعوام التى قضيتها فى بمبروك لودج ، إذ تساقطت الأشجار الكبيرة ، ونمت الشجيرات فى الممرات ، واستطالت الحشائش المنفرة على الخضيرة ، ونمت هذه الأسوار من النبات حتى طاولت الأشجار . وبدا كما لو أن الحديقة تعود بالذاكرة أسفاً إلى أيام مجدها الخاليات ، عندما تمشى فوق خضيراتها سفراء الدول ، وأعجب الأمراء بأحواض زهورها . عاشت الحديقة فى ماضيها ، وعشت معها فى ذلك الماضى . ونسجت فيها أوهاماً عن والدى وشقيقتى . وتصورت ما كان عليه جدى فى عنفوانه . وكان معظم الأحاديث التى سمعتها يدور حول أشياء حدثت فى القديم ، منها ما كان يتردد من أن جدى زار نابليون فى جزيرة إلبا ، وأن العم الأكبر لجدتى تولى الدفاع عن جبل طارق أثناء حرب الاستقلال الأمريكية ، وأن مجلس الولاية قاطع جدها لأنه قال إن العالم خلق قبل عام ٤٠٠٤ ق . م ، واستند فى رأيه إلى وجود كثير من الحمم على سفوح إتنا . وتدرجت الأحاديث فى بعض الأحيان إلى فترات زمنية أحدث ، وهنا قد يقول لى البعض إن كارليل[١] نعت هربرت سبنسر[٢] بأنه

(١) كارليل (١٧٩٥ – ١٨٨١) مؤرخ وأديب إسكتلندى .
(٢) سبنسر (١٨٢٠ – ١٩٠٣) فيلسوف إنجليزى معروف .

« سطحى تماماً » ، وإن داروين أحس أنه قد حظى بشرف رفيع لما زاره مستر جلادستون[1] . وكان أبى وأمى قد توفيا واعتدت أن أتساءل : ترى أى نوع من الناس كان والداى ؟ كما كان من عادتى أن أتجول فى الحديقة وحيداً ، أجمع بيض الطيور أو أتأمل فى دورة الزمن . وإذا جاز لى أن أحتكم إلى ذكرياتى الشخصية فإن انطباعات الطفولة الهامة ذات الأثر الفعال لا تصل إلى مستوى الشعور إلا فى اللحظات العابرة وأثناء انشغال الأطفال باهتماماتهم ، والأطفال لا يصرحون بهذه الانطباعات مطلقاً للكبار . وأعتقد أن فترات الاطلاع الحر من جانب الصغار حيث لا تفرض التزامات من الخارج ، لها أهمية بالنسبة لهم حيث إنها تتيح الفرصة لتكوين هذه الانطباعات التى تبدو عابرة ولكنها جوهرية فعلاً .

كان جدى كما أذكره شيخاً جاوز الثمانين ، يتنقل على مقعد ذى عجلات فى أرجاء الحديقة أو يجلس فى حجرة يقرأ هانسارد (مضبطة البرلمان) . وكنت فى السادسة عندما مات جدى وأذكر يوم وفاته أنى رأيت شقيقى (وكان يومئذ فى المدرسة) وهو يستقل عربة فى طريقه إلى المنزل على الرغم من أن الفصل الدراسى لم يكن قد انتهى . وهتفت صائحاً « مرحى » ، وقالت مربيتى « صه لا تقل اليوم (مرحى) » . ومن هذا يمكن استنتاج أن جدى لم تكن له أهمية كبيرة عندى .

ولكن الأمر كان على العكس من هذا فى حالة جدتى . كانت تصغر جدى بثلاثة وعشرين عاماً ، كما كانت أهم شخص بالنسبة لى خلال طفولتى . كانت إسكتلندية الأصل ، تعتنق المذهب الكنسى المشيخى ، كما كانت ليبرالية فى معتقداتها السياسية والدينية (ثم أصبحت تؤمن بالوحدانية فى سن السبعين) ، غير أنها كانت غاية فى الصرامة فى كل ما يتعلق بالأخلاق . كانت صغيرة السن ، حيية وخجولاً ، عندما تزوجت جدى ، فى حين كان هذا الأخير

---

(١) جلادستون (١٨٠٩ — ١٨٩٨) تولى رئاسة الوزارة الإنجليزية بوصفه زعيم الأحرار من ١٨٦٨ — ١٨٧٤ ومن ١٨٨٠ إلى ١٨٨٥ ومن ١٨٩٢ — ١٨٩٤ .

أرمل ولديه طفلان من زوجته الأولى عدا أربعة من أبنائها هى . وقد وصل إلى منصب رئيس الوزراء بعد أعوام قليلة من زواجه بجدتى . ولابد أن أعباء هذا المنصب كانت ثقيلة الوطأة على هذه الأخيرة ، وهى تقص كيف دعيت يوماً لتناول الإفطار فى منزل الشاعر روجرز ، وكيف أن المضيف بعد أن لاحظ خجلها واضطرابها قال : « عليك بقليل من هذا اللسان . إنك فى حاجة إليه يا عزيزتى». وكان واضحاً من حديثها أنها لم تستشعر يوماً أحاسيس الحب . ذكرت لى مرة أنها أحست هدوءاً عميقاً عندما جاءتها أمها أثناء شهر العسل . وفى مناسبة أخرى سمعتها تبدى أسفها لما تراه من أن كثيراً من القصائد يدور حول موضوع الحب بالرغم من شدة سخافته . ولكنها كانت زوجة وفية لجدى ، ولم ألحظ يوماً، بقدر ما تهيأ لى من الإدراك ، أنها تقاعست فى أى وقت من الأوقات عن أن تؤدى ما كانت تعتبره ، بحكم مقاييسها الصارمة ، واجبات عليها إزاءه .

ولقد كانت بعد هذا ، كأم وكجدة، شديدة الحنان . وإن لم يكن حنانها دائماً فى محله . وفى تصورى أنها لم تكن تقدر مطالب الغرائز الحيوانية فى الإنسان أو الطاقة المتوثبة فيه. وكانت تتطلب من الناس أن ينظروا إلى كل شىء من خلال ضباب عاطفى كذلك الذى تميز به العصر الفكتورى [1] . وأذكر أنى حاولت مرة أن أقنعها أنه مما لا يستقيم مع المنطق أن تطالب بأن يجد كل فرد مسكناً لائقاً ثم ترتاع فى الوقت نفسه من بناء المساكن الجديدة لأن منظرها قذى فى العيون . كانت ترى أن لكل عاطفة من العواطف حقوقاً خاصة بها ، بحيث لا يضحى بواحدة منها فى سبيل الأخرى من أجل شىء بارد كالمنطق . وكان تعليمها على السنن المعهودة فى عصرها ، فكانت تتكلم الفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية دون ما خطأ بل دون أن تلحظ فى إحداها لكنة الأجنبى . كما أنها درست بتمعن شكسبير وملتون وشعراء القرن الثامن عشر . وكانت تحفظ عن ظهر قلب أسماء الاثنى عشر برجاً وأسماء ربات الشعر التسعة . كما كانت

(١) أى العصر الذى حكمت فيه الملكة فكتوريا وهو عصر متميز بالجمود على تقاليد معينة ويتشدد فى السلوك الشخصى .

ملمة إلماماً دقيقاً بتاريخ إنجلترا من زاوية حزب الأحرار ، هذا علاوة على إحاطتها بالأعمال الأدبية الخالدة الفرنسية والألمانية والإيطالية . وتركزت معرفتها بالسياسة وإدراكها الشخصى الوثيق بها فى الفترة التى تلت ١٨٣٠ . ولكن لم يكن هناك فى تربيتها وثقافتها محل لأى شىء يتطلب إعمال الفكر أو يمت بصلة لحياتها العقلية . فما كانت تفهم مطلقاً كيف يعمل الهويس فى مجرى النهر ، مع أنى سمعت الكثيرين يحاولون أن يشرحوا لها فكرة الهويس . وكان دستورها الخلقى هو الدستور الشائع بين المتزمتين فى عصر ڤكتوريا ، فما كان يمكن أن تقتنع بأن من استخدم عبارة بذيئة فى إحدى المناسبات ، يمكن أن يتوفر له رغماً عن هذا بعض الخصال الحميدة . بيد أنها كانت تستثنى من هذه القاعدة الأخيرة بضع حالات ، منها أنها كانت تعرف آنستين من عائلة بيرى وكانتا صديقتين لهوراس وولبول[1] ، وقد قالت لى يوماً دون أى تحفظ « كانتا تنتميان للجيل القديم ، وتستخدمان بعض ألفاظ السباب فى أحيان قليلة » . وكانت جدتى كالكثيرمن هن على شاكلتها تستثنى بايرون[2] بطريقة لا تستقيم مع منطقها الأخلاقى ، فتعتبره ضحية تعسة لحب فاشل أيام الشباب . أما بالنسبة لشيللى[3] فلم تكن بهذا التسامح ، إذ كانت تعتبره إباحياً كما كانت تعتبر شعره متهافتاً . أما كيتس[4] فلا أظن أنها سمعت به يوماً . وعلى حين كانت متفقهة فى دراســة الأعمال الخالدة لكتاب أوربا حتى جوتة وشيلر فإنها لم تكن تعرف شيئاً عن كتاب أوربا المعاصرين لها . ولقد أهداها مرة تورجينيف[5] إحدى قصصه ولكنها لم تقرأها قط ، بل لم تكن ترى فيه أكثر من ابن عم لبعض أصدقائها . وكانت تعرف أنه مؤلف ، غير أن هذا كان شأن الكثيرين فى ذلك الوقت . وبالطبع كانت خاليــة الذهن تماماً عن علم

---

(١) هوراس وولبول (١٧١٧ – ١٧٩٧) نبيل إنجليزى اشتهر بكتابة قصص الرعب التى أشهرها (قلعة أوترانتو) .

(٢ و ٣ و ٤) بايرون وشيللى وكيتس من شعراء الرومانسية الإنجليزية الذين عاشوا فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر . . .

(٥) تورجينيف (١٨١٨ – ١٨٨٣) قصاص روسى معروف .

النفس بمعناه الحديث . وكل ما كانت تعرفه هو أن هناك دوافع معينة للسلوك الإنسانى ، فحب الوطن وروح الخدمة العامة ، وحب المرء لأطفاله ، كلها دوافع محمودة . أما حب المال ، وحب السلطة والغرور ، فكلها دوافع ذميمة . وكان رأيها أن الصالحين من الناس يتصرفون دائماً بوحى من دوافعهم الخيرة ، ولكن الأشرار ، حتى أسوأهم ، ليسوا مجردين من الخير ، ولو فى بعض لحظات. وكانت ترى فى الزواج نظاماً محيراً ، كان واضحاً لديها أن واجباً على الزوج والزوجة أن يحب كل منهما الآخر ، ولكنه واجب لا ينبغى المغالاة فيه . فإذا كانت الرغبة الجنسية هى التى تجمع بين الزوجين فلابد أن هناك شيئاً مريباً . ما كانت بالطبع لتفصح عن رأيها هذا فى مثل هذه العبارات ، وإنما كان غاية ما تستطيع قوله فى هذا الصدد ، وما قالته بالفعل هو : « لست أعتقد ، كما تعلم ، أن حب الأزواج يرقى فى مستواه إلى حب الوالدين للبنين ، لأن هناك دائماً شيئاً من الأنانية فى الحب الذى يربط بين الأزواج » . وكان هذا أقصى ما يمكن أن تصل إليه أفكارها فيما يتعلق بموضوع الجنس . وأظننى سمعتها يوماً تقترب من هذا الموضوع المحرم بدرجة أكبر ، وذلك عندما قالت إن اللورد بالمرستون كان مختلفاً عن غيره من الناس من حيث إن سلوكه لم يكن طيباً تماماً. ولم تكن جدتى تميل لشرب الخمر ، وتكره الطباق ، وتكاد تتحول إلى شخص نباتى . كانت حياتها غاية فى التقشف . طعامها فى منتهى البساطة ، وإفطارها فى الثامنة . وإلى أن ناهزت الثمانين لم يحدث أن جلست يوماً على مقعد مريح إلا بعد الانتهاء من تناول الشاى . وكانت متجردة تماماً عن الدنيوية ، كما كانت تحتقر أولئك الذين يقدرون ما تمنحه الحياة من جاه وشرف . ويؤسفنى أن أقرر أن موقفها من الملكة فيكتوريا لم يكن ينطوى على شىء من الاحترام . وكان من عادتها أن تروى بكثير من الاستمتاع كيف أنها كانت ذات يوم فى قصر وندسور وألمت بها وعكة فتفضلت الملكة قائلة : « لا بأس فى أن تجلس الليدى رسل . أما الليدى كذا والليدى كذا فعليهما أن تقفا أمامها » .

ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرى بدأت أضيق بقصور جدتى الفكرى ،

كما بدا لى دستورها الأخلاقى البيوريتانى صارماً متطرفاً . ولكن حبها العميق لى وأنا طفل ، واهتمامها الكبير بكل ما فى صالحى ، جعلانى أحبها ، وهيأ لى شعوراً بالأمن والطمأنينة ، وهو ما يفتقر إليهما الأطفال . وأذكر عندما ناهزت الرابعة أو الخامسة من عمرى أنى رقدت فى فراشى متيقظاً أفكر فيما يمكن أن يكون عليه الموقف من بشاعة لو ماتت جدتى . وعندما توفيت فعلاً ، وكان هذا بعد أن تزوجت ، لم أهتم مطلقاً . ولكنى إذ أسترجع الذكريات ، وقد تقدم بى العمر ، يزداد إدراكى لأهمية الدور الذى لعبته فى تشكيل نظرتى إلى الحياة . ولقد أعجبت بشجاعتها ، واهتمامها بالقضايا العامة ، وعدم اكتراثها بالمواضعات أو برأى الأغلبية ، وكان لهذه الصفات أثرها على نفسى باعتبارها تستحق التقليد . ولقد أهدتنى إنجيلاً كتبت على صفحته الأولى النصوص الأثيرة لديها . ومن هذه « لا تتبع المجموع فى فعل الشر » . ولقد كان من أثر توكيدها لهذا النص ما جعلنى فى فترات متأخرة من حياتى لا أخشى الانتماء إلى أقليات ضئيلة العدد .

وعندما كنت غلاماً كان لجدتى أربعة أشقاء ما زالوا على قيد الحياة ، وشقيقتان ، وكان من عادتهم جميعاً المجىء من وقت لآخر إلى بمبروك لودج . كان أكبر الأشقاء لورد منتو ، وكنت أناديه باسم الخال ويليام . والثانى سير هنرى إليوت وقد أمضى حياة حافلة فى الميدان الدبلوماسى ، بيد أنى لا أذكر عنه الكثير . أما الثالث – الخال تشارلى – فأذكره جيداً نظراً للمساحة الطويلة التى يشغلها اسمه وألقابه على أغلفة الرسائل : الأميرال المبجل سير تشارلس إليوت ، حامل الرتبة الثانية من وسام K.C.B ؛ وسمعت أيضاً أنه تقلد منصب أمير البحار وأن هناك رتبة أرفع هى أميرال الأسطول ، وأذكر أن هذه الإشارة آلمتنى وشعرت أنه كان يجب على خالى ألا يسكت على ذلك .

ويأتى أخيراً جورج إليوت – الشقيق الأصغر – وكان أعزب . كنت أعرفه باسم الخال دودى . وكان أهم شىء طلب إلىّ ملاحظته فيما يختص به هو شبهه الوثيق بجد جدتى ، المستر بريدون ، الذى أدت فكرة حمم بركان إتنا به إلى

هرطقة يؤسف لها . وفيما عدا ذلك لم يكن هناك ما يميز الخال دودى . وأعود إلى الخال ويليام فأذكر عنه شيئاً كان غاية فى الإيلام .جاء مرة إلى بمبروك لودج فى إحدى أمسيات شهر يونيو ، وكان اليوم كله مشمساً بحيث استمتعت بكل لحظة فيه . وعندما حان الوقت لأقرئ القوم تحية المساء قال لى فى وقار إن قدرة الإنسان على الاستمتاع بشيء تتناقص مع مرور الأعوام ، وإنه لن يتوافر لى التمتع بيوم آخر من أيام الصيف كذلك الذى انقضى . وانفجرت باكياً . . انهمرت الدموع من عينى كأنها نهر يفيض . . وظللت أبكى مدة طويلة بعد أن رقدت فى فراشى . ولقد أثبتت تجربتى فيما بعد أن ملاحظته هذه لم تكن صحيحة بقدر ما كانت قاسية .

كان الكبار الذين عشت بينهم قاصرين بشكل واضح عن فهم حدة انفعالات الأطفال . اصطحبونى يوماً ، وكنت فى الرابعة من عمرى ، إلى مصور فى ريتشموند . ولاقى الرجل صعوبة كبيرة فى إقناعى بالجلوس دون حركة ، وأخيراً وعدنى بفطيرة إذا فعلت . وكنت حتى ذلك الوقت لم آكل مثل هذه الفطيرة سوى مرة واحدة . وظل هذا الإحساس يمثل فى نفسى قمة النشوة . ولهذا حبست أنفاسى ونجحت الصورة . بيد أنى لم أحصل على الفطيرة .

وفى مناسبة أخرى سمعت أحد الكبار يقول لآخر « متى سيأتى ليون[1] الصغير ؟ » وأرهفت أذنى وسألت « هل تنتظرون قدوم أسد ؟ » وكانت الإجابة «نعم ، سيأتى يوم الأحد . إنه أليف جداً ، وستراه فى حجرة الاستقبال » . وظللت أعد الأيام حتى كان يوم الأحد ثم مرت ساعات الصباح ، وأخيراً قيل لى إن الأسد الصغير فى الغرفة وإن فى استطاعتى أن أذهب إلى هناك لأراه. وفعلت هذا ، وإذا به شاب عادى يدعى ليون . وهنا غلبنى الشعور بخيبة الأمل ، وما زلت أذكر العذاب الذى برح بى وأنا أتقلب فى أعماق اليأس .

لنعد بعد هذا إلى عائلة جدتى . لا أذكر سوى القليل عن شقيقتها ليدى

---

(١) الكلمة تحتمل معنى أسد .

إليزابيث روميل، فيما عدا أنها كانت أول من ذكر أمامى اسم رديارد كبلنج[1]، وكانت تعجب أشد الإعجاب بمؤلفه « قصص بسيطة من التلال » . وأما الشقيقة الأخرى ، ليدى تشارلوت بورتال ، وكنت أدعوها الخالة لوتى ، فكانت أكثر حيوية . قيل إنها سقطت من فراشها وهى طفلة ، ثم تمتمت دون أن تستيقظ « نكست رأسى ، وفقدت كبريائى » . وقيل أيضاً إنها إذا سمعت الكبار يتحدثون عن المشى فى أثناء النوم ، نهضت من فراشها فى الليلة التالية وأخذت تسير بطريقة تمنت أن تقنع الآخرين بأنها تمشى وهى نائمة . أما الكبار ، وقد رأوها يقظى ، فقد قرروا ألا يتناولوا الموضوع بالحديث . وكان لهذا الصمت ما ملأ الصبية بالأسى والخيبة ، وأخيراً قالت « ألم يرنى أحد بالأمس أسير وأنا نائمة ؟ » . وظلت فى حياتها معرضة لأن يجانبها التوفيق فى تعبيرها عما تشعر به . أرادت مرة أن تطلب عربة لثلاثة أشخاص ، وحارت كيف تتصرف ، فالعربة ذات العجلتين أصغر من أن تتسع لثلاثة ، وذات العجلات الأربعة أكبر من أن يستخدمها ثلاثة ، ولذا طلبت من الخادم أن يأتى بعربة ذات عجلات ثلاثة . وفى مناسبة أخرى توجهت إلى المحطة فى طريقها إلى القارة وكان فى توديعها خادم يدعى جورج . ودار فى خاطرها أن من المحتمل أن تكتب إليه فى شأن خاص بالمنزل ، وتذكرت فجأة أنها لا تعرف اسمه الكامل . وتحرك القطار وأخرجت المرأة رأسها من النافذة وصرخت « جورج ، جورج ، ما اسمك ؟ » وجاءها الرد « جورج يا سيدتى » . وعند هذا الحد كانت المسافة قد بعدت فتعذر عليه سماعها .

وبالإضافة إلى جدتى كان يقيم فى المنزل شخصان هما العم روللو والعمة أجاثا ، ولم يكن أى منهما متزوجاً . لعب عمى روللو دوراً هاماً فى سنى الأولى ، حيث كان يحدثنى كثيراً عن أمور علمية ، وكان يعرف الكثير عن العلم . كان يعانى طوال حياته من خجل مرضى وصل من الحدة أن منعه من إنجاز أى شىء يقتضى اتصالاً بالآخرين . ولكنه فى صلته بى ، وطالما كنت طفلاً ، لم يكن

---

(١) كبلنج (١٨٦٥ - ١٩٣٦) شاعر وقصاص اشتهر بتحمسه للإمبراطورية البريطانية.

يستشعر الخجل ، بل درج على أن يتحدث إلىّ بشيء من الدعابة والمجون لم يعتدهما الكبار فيه . وأذكر أنى سألته يوماً لماذا يحتفظون بالزجاج الملون فى نوافذ الكنائس ، فأجاب فى وقار شديد أن الأمر لم يكن بهذه الصورة قديماً . وإنما حدث يوماً ، بعد أن اعتلى القس المنبر ، أن رأى من خلال النافذة شخصاً يحمل على رأسه دلواً به طلاء أبيض . وإذا بقاع الإناء يسقط والطلاء يسيل على الرجل فيغطيه باللون الأبيض . وانتابت القس نوبة من الضحك أعجزته عن الاستمرار فى العظة ، ومنذ هذا التاريخ وضع الزجاج الملون فى نوافذ الكنائس لحجب المرئيات . كان يعمل فى وزارة الخارجية . ولكنه كان يعانى ألماً فى عينيه . وعندما عرفته أولاً لم يكن يستطيع أن يقرأ أو يكتب . وتحسنت حالته بعد ذلك ، ولكنه انقطع بعد هذا عن العمل فى المكاتب . كان أحد علماء الأرصاد الجوية ، وقام بأبحاث قيمة عن الآثار التى ترتبت على ثورة بركان كراكاتوا عام ١٨٨٣ ، وقد تسبب عن هذا الانفجار فى إنجلترا اضطراب فى غروب الشمس ، بل لقد ظهر يوماً فى سمائها قمر أزرق . وكان من عادته أن يحدثنى عن الدليل على أن كراكاتوا هو السبب فى غروب الشمس فى غير الساعات المألوفة . وكنت أستمع إليه بكل جوارحى . وكان لحديثه أثر كبير فى شحذ اهتماماتى العلمية .

كانت عمتى أجاثا أصغر الكبار المقيمين فى بمبروك لودج . إذ كانت تكبرنى بتسعة عشر عاماً أى أنها كانت تناهز الثانية والعشرين عندما جئت أولاً إلى المنزل . وقد حاولت مراراً أن تلقى علىّ دروساً فى العام الأول من وصولى ، ولكنها لم تلاق نجاحاً واضحاً . كانت تحتفظ بثلاث كرات ملونة : حمراء وصفراء وزرقاء . وأذكر أنها كانت تمسك بالكرة الحمراء وتسأل : « أى لون هذا ؟ » فأقول « الأصفر » . وهنا تقربها من العصفور الكناريا وتقول « هل تظن أن هذا هو نفس لون العصفور ؟ » فأجيب « لا » . ولكن لأنى لم أكن أعرف أن لون الكناريا أصفر لم تفدنى محاولاتها كثيراً . ولابد أنى تعلمت التمييز بين الألوان بمرور الزمن ، ولكنى لا أذكر سوى الفترة التى كنت فيها عاجزاً عن التمييز بينها . ثم حاولت عمتى أجاثا أن تعلمنى القراءة ولكن الأمر كان

أصعب من أن أنجزه ، وإن كنت – كتلميذ لها – قد نجحت فى قراءة كلمة واحدة وهى « أو » . أما الكلمات الأخرى فلم تستوعبها ذاكرتى ، وإن كانت كلها بنفس الطول . ولابد أن هذا كان مثبطاً لعزيمتها ، حيث إنى أرسلت إلى مدرسة للأطفال قبل أن أناهز الخامسة بقليل ، وهذه نجحت أخيراً فى تعليمى هذه العملية العسيرة وهى القراءة. وقد تولت عمتى أجاثا العناية بى وأنا فى السادسة أو السابعة وعلمتنى تاريخ تطور الحركة الديمقراطية فى إنجلترا . ولقد شغفت بهذه الدراسة فعلاً ، وما زلت أذكر حتى اليوم الكثير مما علمتنى فى هذا السبيل .

إنى أحتفظ حتى الآن بالكراسة الصغيرة التى كتبت فيها أسئلتها وأجوبتها ، وقد أملتها علىّ . ولعل بعض الأمثلة توضح رأيها .

س: ولماذا تشاجر هنرى الثانى[١] وتوماس بكيت[٢] ؟

ج : لأن هنرى أراد أن يضع حداً للشرور التى ترتبت على وجود حاشيةقوية – كالحاشية الملكية – تحيط بكل أسقف – من الأساقفة ، وبذلك أصبح هناك قانونان منفصلان ، أحدهما للكنيسة والآخر لسائر الناس . ولم يقبل بكيت أن يقلل من نفوذ الأساقفة ، ولكنه اضطر أخيراً أن يوافق على دساتير كلارندن[٣] (وسترد أحكامها فيما بعد) .

س : وهل حاول هنرى الثانى أن يصلح حكومة البلاد أم لا ؟

ج : نعم ، فهو لم ينس مطلقاً ، خلال فترة حكمه المزدحمة بالأعباء ، أن يصلح القانون ، فازدادت أهمية قضاة المحاكم الجزئية الجوالين الذين لم يفصلوا فقط فى أمور المقاطعات المالية ، كما كانوا يفعلون فى أول الأمر ، ولكنهم أيضاً نظروا فى الدعاوى ، وفصلوا فى القضايا . ويرجع

---

(١) هنرى الثانى ولد سنة ١١٣٣ وكان ملكاً من ١١٥٤ إلى ١١٨٩ على إنجلترا وأيرلندة .

(٢) أما بكيت فقد كان رئيساً لأساقفة كانتربرى ودافع عن استقلال الكنيسة ضد هنرى الثانى .

(٣) فى ١١٦٤ أصر هنرى الثانى على السيطرة على الكنيسة الإنجليزية .

الفضل فى ظهــور بدايات نظام المحاكمة أمام المحلفين ظهوراً واضحاً إلى الإصلاحات التى قام بها هنرى الثانى .

ولم يرد ذكر لمقتل بكيت فى هذه الأسئلة والأجوبة ، فى حين جاء ذكر إعدام تشارلز الأول ، دون تعقيب على إدانته .

وبقيت عمتى أجاثا بلا زواج . وكانت قد خطبت لقس ، ولكنها كانت تصاب أثناء فترة الخطبة بنوبات جنون ، مما أدى إلى فسخ هــذه الخطبة . وأصبحت بخيلة ، تعيش فى منزل كبير لا تستعمل إلا القليل من حجراته حتى توفر الفحم ، ولم تكن تستحم إلا مرة واحدة فى الأسبوع للسبب نفسه . كما كانت ترتدى جوارب سميكة من الصوف تسترخى دائماً على كعبيها . وفى معظم الأوقات كانت تتحدث حديثاً عاطفيًّا عن طيبة بعض الأشخاص المتناهية ، أو سفالة بعض الأشخاص الآخرين . ولم يكن هؤلاء وأولئك إلا من صنع الخيال . وكانت تكره كلاًّ من زوجتى وزوجة أخى طالما كان كل منا على وفاق مع زوجته . ولكنها أحبتهما بعد انفصالهما عنا . وحينما اصطحبت زوجتى الثانية إليها لكى تراها للمرة الأولى وضعت صورة زوجتى الأولى على المدفأة ، وقالت لزوجتى الثانية : « حينما أراك لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير فى أليس العزيزة وإنى لأتساءل عما يمكن أن يحدث لو أن برتى تركك ، لا قدر الله » . وفى إحدى المرات قال لها أخى : « إنك يا عمتى دائماً لا تعرفين إلا الزوجة قبل الأخيرة » . وبدلاً من أن تثور غضباً لهذه الملاحظة ضجت بالضحك وأخذت تسرد هذه الملاحظة لكل من قابلها . وكانت أحياناً تثير دهشة من يحسب أنها امرأة عاطفية ترتج عليها الأمور بسرعة ، بما تظهره فجأة من فطنة وذكاء . لقد كانت ضحية تزمت جدتى . ولربما استطاعت أن تعيش سعيدة ، وناجحة ، وقادرة على التصرف ، لو لم يعلموها أن الجنس إثم .

وكان أخى يكبرنى بسبع سنوات . ولذا لم يكن يرافقنى طويلاً . فلم أكن أراه إلا فى العطلات لتغيبه الدائم فى المدرسة . وكنت أكن له ذلك الذى يحسه بالطبيعة كل أخ إزاء أخيه الأكبر ، وكنت أشعر فى بداية العطلات بسعادة

لعودته ، ولكنى سرعان ما كنت أتمنى أن تنتهى هذه العطلات ، لأنه كان يسخر منى ويضايقنى . وأذكر أنه فى إحدى المرات حين كنت فى السادسة من عمرى ، صاح ينادينى بصوت عال قائلاً : « يا ولد » ورفضت غاضباً أن أرد عليه معتبراً أن هذا ليس اسمى . وقد قال لى فيما بعد إنه كان يحمل عنقود عنب كان يزمع تقديمه لى لو أننى ذهبت إليه . ولما كنت ممنوعاً منعاً باتاً من أكل الفاكهة ، فقد آلمتنى هذه الخسارة . وكان هناك أيضاً جرس صغير كنت أعتقد أنه يخصنى ، ولكن أخى كان يدعى كلما عاد أن هذا الجرس يخصه هو ، فكان يأخذه منى ، رغم أنه كان أكبر سناً من أن يشعر بسعادة لامتلاكه هذا الجرس . . . وظل يحتفظ بالجرس حتى بعد أن كبر . وظللت أشعر بالغضب كلما وقعت عيناى عليه . ولقد عانى والداى (كما يظهر من الخطابات المتبادلة بينهما) الأمرين من أخى . وعلى كل فقد كانت أمى تفهمه لأنه كان ينتمى بطبعه ومظهره إلى آل ستانلى وهم آلها . ولم يكن آل رسل يفهمونه مطلقاً . بل كانوا ينظرون إليه منذ البداية على أنه من أعوان الشيطان[١] . ولما وجد أخى أن هذا هو رأيهم فيه ، حاول بطبيعة الحال أن يكون أهلاً لهذه الشهرة . وكانت هناك محاولات لإبعادى عنه . ولكنى ما كدت أعلم بهذه المحاولات حتى استنكرتها . وكان بالرغم من ذلك طاغى الشخصية ، ولقد شعرت بعد أن قضيت معه بعض الوقت ، وكأننى لا أستطيع أن أتنفس . وظللت طوال حياته أشعر نحوه بمزيج من الحب والخوف . وكان هو يفتقد من أعماقه حب الناس له ويتمناه . ولكنه لم يستطع أن يبقى على حب أحد له لفرط غلظته . وكان يشعر بمرح داخلى حينما يفقد حب أحد له ، ويصير قاسياً ، مجرداً من الضمير . غير أن أسوأ أفعاله كانت ترجع إلى أسباب عاطفية .

وفى سنواتى الأولى فى « بمبروك لودج » كان الخدم يلعبون فى حياتى دوراً

(١) كتب جدى فى إحدى المناسبات لوالدى يطلب منه ألا يأخذ مشاغبات أخى مأخذ الجد ولاسيما أن تشارلز جيمس فوكس كان أيضاً طفلا مشاغباً ، وبالرغم من هذا فقد سطع نجمه (أصبح رئيساً للوزراء) .

أهم من دور أفراد الأسرة . كانت هناك مدبرة المنزل العجوز ، وتدعى مسز كوكس ، كانت تعمل مربية لجدتى حينما كانت جدتى طفلة . وقد كانت منتصبة القامة قوية البنية ، حازمة ، مخلصة للأسرة ، كما كانت دائمة العطف على . كذلك كان هناك ساق يدعى ماكالبين وهو اسكتلندى قح كان يجلسنى على ركبتيه ويقرأ لى عن حوادث القاطرات فى الصحف اليومية . وكنت إذا رأيته تسلقت ساقيه وقلت : « أخبرنى عن حادثة حدثت » . وكانت هناك أيضاً طاهية فرنسية تدعى ميشو . وكانت مخيفة ، ولكن بالرغم من صفاتها التى كانت تثير الرهبة لم أكن أستطيع أن أمنع نفسى من الذهاب إلى المطبخ لكى أتفرج على اللحم وهو يدور على الشواية العتيقة الطراز ، ولكى أسرق قطع الملح الذى كنت أحبه أكثر من السكر ، وكانت هى تجرى خلفى وفى يدها سكين اللحم . غير أنى كنت أهرب منها بسهولة . وفى خارج المنزل كان يوجد بستانى يدعى ماكروبى غير أنى لا أذكر عنه إلا القليل لأنه ترك الخدمة حينما كنت فى الخامسة من عمرى . وكان هناك أيضاً ، إلى جانب هؤلاء ، الحارس وزوجته ، مستر ومسز سنجلتون ، وكنت أحبهما لأنهما كانا يعطيانى التفاح المشوى ، والبيرة ، وكانت من الممنوعات بالنسبة لى . وقد خلف ماكروبى بستانى آخر يدعى فيدلى ، ذكر لى أن الإنجليز هم القبائل العشرة المفقودة من بنى إسرائيل . ولا أظن أننى صدقته تماماً وقتئذ . وحينما جئت « بمبروك لودج » للمرة الأولى ، كانت لى مربية ألمانية تدعى مس هتشل ، وكنت حينئذ أتكلم الألمانية بنفس الطلاقة التى أتكلم بها الإنجليزية . ولقد تركت الخدمة بعد أيام من وصولى إلى « بمبروك لودج » ، وخلفتها مربية ألمانية تدعى ويلهلمينا ، أو مينا من باب الاختصار . وأذكر جيداً الليلة الأولى التى أرادت أن تعطينى فيها حماماً فقد وجدت أنه من الحكمة أن أقاومها ، فلم أكن أعرف ما تنوى أن تفعله . وأخيراً اضطرت أن تطلب مساعدة من الخارج ، بعد أن باءت محاولاتها بالفشل . ولكنى سرعان ما أحببتها ، فعلمتنى أن أكتب الحروف الألمانية . وأذكر أننى قلت لها بعد أن تعلمت كل حروف التاج والحروف العادية الألمانية : « والآن

بى أن أتعلم الأرقام » وشعرت بالارتياح والدهشة حين علمت أن الأرقام فى الألمانية هى نفس الأرقام فى الإنجليزية . ولقد كانت تصفعنى أحياناً ، وأذكر أننى كنت أبكى كلما فعلت ذلك . غير أن ذلك لم يكن ليقلل من صداقتى لها . وظلت معى حتى بلغت السادسة . وكانت لى ، أثناء وجودها ، خادمة تدعى آدا كانت توقد المدفأة فى الصباح وأنا ما أزال فى سريرى . وكانت تنتظر حتى تتوهج الأخشاب ثم تضيف الفحم . وكنت أتمنى ألا تضع فحماً لأنى كنت أحب قصف أعواد الخشب وتوهجها ، وكانت المربية تنام معى فى الغرفة . ولا أذكر أبداً أنها ارتدت أو خلعت ملابسها . وليفسر أتباع فرويد ذلك كما يحلو لهم .

أما من ناحية الطعام ، فقد كنت أعامل فى سنواتى المبكرة بأسلوب إسبرطى صميم ، مما قد لا يتفق فى نظر الناس فى هذه الأيام مع قواعد الصحة . فقد اعتادت سيدة فرنسية عجوز ، تقطن فى ريتشموند ، وتدعى مدام ديتشيجويان — وهى ابنة أخ تاليران وزير خارجية نابليون — أن تقدم لى علباً كبيرة من أفخر أنواع الشيكولاتة ، ولم يكن يسمح لى إلا بعلبة واحدة فى أيام الأحد . ولكنى كنت أضطر إلى تقديم هذه العلب للكبار ، سواء كان اليوم يوم أحد ، أو أحد أيام الأسبوع . كما كنت مغرماً بتكسير الخبز فى الصلص ، وكان يسمح لى أن أفعل ذلك فى حجرة نومى ، وليس فى حجرة الطعام . وكانت عادتى أن آخذ قسطاً من النوم قبل تناول طعام العشاء ، فإذا تأخرت فى نومى تناولته فى حجرتى . أما إذا استيقظت فى الوقت المناسب فكنت أتناوله فى حجرة المائدة . ولذا كنت أتظاهر بأننى تأخرت فى نومى حتى أتناول طعامى فى حجرتى . وأخيراً خامرهم الشك فى أننى أتظاهر بالنوم ، ففى أحد الأيام ، وبينما أنا راقد فى سريرى ، لكزونى ، فصلبت جسدى حاسباً أن هكذا يكون الناس أثناء النوم . ولكنى سمعتهم يقولون : « إنه ليس نائماً ، لأن جسده متصلب » ، ولم يكتشف أحد لماذا كنت أتظاهر بالنوم . وأذكر مرة فى وقت الغداء ، وبعد أن استبدلت الأطباق ، أن أعطى كل واحد برتقالة إلا أنا . ولم تقدم لى برتقالة للاعتقاد

الراسخ بأن الفاكهة ضارة بالأطفال . وكنت أعرف أنه لا ينبغى أن أطلب واحدة ، لأن ذلك يدل على سوء الأدب . ولكن ما إن أعطيت صحفة فارغة حتى جمعت أطراف شجاعتى وقلت : « طبق ، ولا شيء عليه » . وضحك الجميع ، ولكنى لم أحصل على برتقالة .

ولم أكن أتناول فاكهة ، أو سكراً بالمرة ، ولكنى كنت أتناول الكثير من المواد الكربوهيدراتية . وبالرغم من ذلك لم أمرض يوماً واحداً ، إلا حينما أصبت بالحصبة ، إصابة خفيفة ، فى سن الحادية عشرة . ومنذ أصبحت أهتم بالأطفال ، وذلك بعد مولد أطفالى ، لم أعرف طفلاً يتمتع بنفس الصحة التى كنت أنا فيها . وإنى واثق أن أى خبير بتغذية الأطفال قد يظن أنه كان لابد أن أصاب بمختلف أمراض سوء التغذية . وربما أنقذتنى عادة سرقة التفاح البرى ، وهى عادة لو عرفها أهلى لأصيبوا بالرعب والانزعاج الشديدين . ولقد كانت غريزة المحافظة على النفس ، هى السبب فى أول كذبة كذبتها . فقد حدث أن تركتنى مربيتى لمدة نصف ساعة بعد تعليمات صارمة بألا آكل التوت فى غيابها . ولما عادت كنت أقف إلى جانب الشجيرات بشكل يدعو إلى الريبة . فقالت : « كنت تأكل توتاً » فقلت : « لا » فقالت : « أرنى لسانك » . وتملكنى الخجل ، وشعرت بأنى من الأشرار .

ولقد كان عندى فى حقيقة الأمر استعداد للشعور بالذنب . وحينما كنت أسأل عن الترنيمة المفضلة عندى كنت أقول : « أتعبتنى الحياة . وأثقلت كاهلى الذنوب » . وفى إحدى المرات ، حينما قرأت جدتى قصة الابن الضال ، أثناء صلاة الأسرة ، قلت لها بعد أن انتهت : « أعرف لماذا قرأت هذا ... لأنى كسرت إبريقى » . وقد اعتادت أن تسرد هذه الحكاية فى سرور بعد ذلك بسنوات ، غير واعية أنها كانت مسئولة عن ظاهرة مرضية سببت عند أولادها نتائج خطيرة تدعو للأسى .

وتدور أوضح ذكرياتى الأولى حول المواقف التى كنت أتعرض فيها للامتهان ، فلقد استأجر جداى فى صيف عام ١٨٧٧ ، من رئيس أساقفة كنتربرى ،

منزلاً بالقرب من برودستيرز ، يسمى « ستون هاوس » . وكانت الرحلة بالقطار تبدو لى طويلة جداً . حتى بدأت أتخيل بعد فترة من الوقت أننا لابد أن نكون قد وصلنا إلى اسكتلندا ، ولذلك قلت : « فى أى قطر نحن الآن ؟ » . فضحكوا جميعاً وقالوا : « ألا تعرف أنه لا يمكنك أن تخرج من إنجلترا دون أن تعبر البحر ؟ » . ولم أشأ أن أشرح لهم لم تساءلت ، وتولانى خجل شديد . وحينما كنا هنالك نزلت إلى البحر فى عصر يوم مع جدتى ومع عمتى أجاثا ، وكنت أرتدى حذاء جديداً . وكان آخر شىء قالته لى مربيتى وأنا خارج هو : « حاذر أن تبل حذاءك » . غير أن المد أحاط بى وأنا فوق صخرة ، فطلبت إلى جدتى وعمتى أجاثا أن أخوض فى الماء كى أبلغ الشاطئ . ولكنى لم أشأ أن أفعل ذلك ، فخاضت عمتى وحملتنى . وحسبوا أننى كنت خائفاً ، إذ أننى لم أخبرهم بأوامر مربيتى . ولذلك تقبلت صاغراً محاضرة عن الجبن كان لابد منها نتيجة لسلوكى هذا .

وجملة القول ، أن الوقت الذى أمضيته فى « ستون هاوس » كان ممتعاً بوجه عام . وما زلت أذكر « نورث فورلاند » التى كنت أحسب أنها إحدى زوايا إنجلترا الأربعة ، لأنى كنت أتخيل إنجلترا ، فى ذلك الوقت ، على أنها مستطيل . وما زلت أذكر الآثار القديمة فى ريتشبورو التى راقت لى ، « والحجرة المظلمة » فى رامسجيت ، التى جذبتنى أكثر . وأذكر أيضاً حقول القمح المتموجة ، والتى اختفت ، لأسفى الشديد ، حينما عدت إلى هذا المكان بعد ثلاثين عاماً . وما زلت ، بالطبع ، أذكر مباهج الشاطئ المعتادة من أصداف وكائنات بحرية وصخور ، ورمال ، وقوارب صيد ، ومنارات . وأدهشنى أن الأصداف تزداد التصاقاً بالصخور ، حينما يحاول الإنسان أن ينتزعها منها . فقلت لعمتى أجاثا : « هل الأصداف تفكر يا عمتى ؟ » فأجابت : « لست أعرف » . فأضفت قائلاً : « إذن يجب أن تتعلمى » .

ولست أذكر جيداً الواقعة التى عرفتنى بصديقى هوايتهد (الفيلسوف ألفريد نورث هوايتهد) . فلقد قيل لى إن الأرض مستديرة ولكنى رفضت أن أصدق

ذلك . فكان أن دعت أسرتى قس الأبرشية الذى كان بالمصادفة والد هوايتها ، لكى يقنعنى بذلك . وتحت تأثير هذا العامل الدينى تبينت هذا الرأى وبدأت فى حفر ثقب يوصل إلى الجهة المقابلة لى من سطح الأرض . وعلى كل فأنا أعرف عن هذه الحادثة سماعاً فقط .

وحينما كنت فى برودستيرز ، أخذونى كى أرى موسى مونتفيورى ، وهو يهودى عجوز كان يعيش فى المنطقة ويلقى كثيراً من التبجيل ، (وفى دائرة المعارف ـــ الإنسيكلوبيديا بريتانيكا ـــ ذكر أنه تقاعد عام ١٨٢٤) . وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها عن وجود يهود ، خارج الكتاب المقدس . ولقد شرح لى أفراد أسرتى شرحاً جيداً ، قبل أن يأخذونى لزيارة هذا العجوز ، مدى ما يستحقه من احترام وإعجاب ، والمظالم التى منى بها اليهود قبل أن يعمل جاهدى على إزالتها . وكان لتعاليم جدتى فى هذه المناسبة ، تأثير واضح على ، ولكنها كانت تتركنى حائراً ، فى مناسبات أخرى . ولقد كانت شديدة التحمس لفكرة اقتصار إنجلترا على حدودها ، وكانت ترفض الحروب الاستعمارية بشدة . وقد أخبرتنى أن حرب الزولو حرب آثمة غاية الإثم ، وأن المسئول الأول عن هذا الإثم هو السير بارتل فرير ، حاكم رأس الرجاء الصالح . ومع ذلك ، فحين جاء السير بارتل ليقيم فى ويمبلدون ، واصطحبتنى لزيارته ، لاحظت أنها لم تعامله على أنه وحش ضار . وقد وجدت هذا التناقض شديد العسر على فهمى .

وقد اعتادت جدتى أن تقرأ لى بصوت عال ، وخاصة قصص ماريا إدجويرث . وكانت بين قصص الكتاب قصة بعنوان : « المفتاح المزيف » ، وصفتها جدتى بأنها قصة غير مهذبة . قائلة إنها تفضل لذلك ألا تقرأها لى . ولكنى قرأت القصة بأكملها ، إذ كنت فى كل مرة أحضر فيها الكتاب لجدتى من فوق الرف ، أقرأ جملة . ولقد باءت محاولاتها لمنعى من معرفة الأشياء بالفشل . ففى أثناء قضية طلاق السير تشارلز ديلك المثيرة ، التى نظرت بعد ذلك ، كانت تحرص على أن تحرق الصحف كل يوم ، ولكنى اعتدت أن

أذهب لإحضار هذه الصحف لها من عند بوابة الحديقة ، وأن أقرأ كل كلمة عن الطلاق قبل أن تصل الجرائد إليها . ومما زاد اهتمامى بهذه القضية أننى كنت قد ذهبت معه ، فى إحدى المرات ، إلى الكنيسة وكنت أتساءل عن مشاعره وهو ينصت إلى الوصية السابعة من الوصايا العشر . وحينما تعلمت أن أقرأ بطلاقة ، اعتدت أن أقرأ لها ، وبهذه الطريقة استطعت أن ألم بالأدب الإنجليزى إلماماً كبيراً . فقرأت معها شكسبير وملتون[1] ، ودرايدن[2] وقصيدة « الواجب » لكوبر[3] و« قصر الخمول »[4] لطومسون ، وروايات چين أوستن[5] ، ومجموعة كبيرة من الكتب الأخرى .

وهناك وصف جيد لجو « بمبروك لودج » فى الكتاب الذى ألفته آمابل هوث جاكسون (واسمها جرانت دف قبل الزواج) وعنوانه : « طفولة فيكتورية » : وكان أبوها هو السير ماونتستيوارت جرانت دف ، وكانت أسرتها تقطن فى منزل كبير فى تويكنام . وقد كنا ، أنا وهى ، أصدقاء منذ سن الرابعة إلى أن ماتت أثناء الحرب العظمى الثانية . ومنها سمعت لأول مرة عن الشاعر فيرلين[6] ، والروائى دستويفسكى[7] ، وعن الرومانسيين الألمان ، وكثيرين غيرهم من كبار الأدباء . ولكنها فى كتابها تتحدث عن ذكريات فترة باكرة أسبق من هذه الفترة فتقول :

« كان صديقى الوحيد هو برتراند رسل ، الذى كان يعيش فى بمبروك لودج ، فى حى "ريتشموند بارك" . وقد كنا ، برتى وأنا ، صديقين حميمين ، وكنت

---

(١) ملتون هو الشاعر الإنجليزى جون ملتون صاحب ملحمة الفردوس المفقود .

(٢) درايدن هو الشاعر الإنجليزى الذى مات فى سنة ١٧٠٠ ولكنه عدّ من أئمة شعراء القرن الثامن عشر ، وقد كتب قصائد ومسرحيات كثيرة ومشهورة .

(٣) كوبر هو الشاعر وليام كوبر الذى عاش فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا .

(٤) طومسون هو الشاعر جيمز طومسون الذى عاش فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا .

(٥) جين أوستن روائية إنجليزية مشهورة عاشت فى أواخر القرن الثامن عشر فى إنجلترا .

(٦) فيرلين شاعر فرنسى يعد زعيما للمدرسة الرمزية وعاش من ١٨٤٨ إلى ١٨٩٦ .

(٧) دستويفسكى (١٨٢١–١٨٨١) قصاص روسى مشهور صاحب (الجريمة والعقاب) و (الإخوة كارامازوف) وقصص أخرى .

أكن لأخيه فرانك الجميل الموهوب ، إعجاباً شديداً فى السر . و يؤسفنى أن أقول إن فرانك كان يوافق أخى فى نظرته إلى الفتيات الصغيرات . وكان من عادته أن يربطنى من شعرى إلى الأشجار . أما برتى ، الولد الصغير الجاد الذى كان يرتدى سترة من القطيفة الزرقاء ، و يصطحب معه مربية جادة مثله ، فقد كان دائماً كريم الخلق ، وكنت أسعد كثيراً بتناول الشاى فى بمبرولك لودج . ولقد تحققت ، برغم أنى كنت لاأزال طفلة ، أن هذا المكان لا يصلح لتنشئة الأطفال .. ولقد كانت الليدى رسل تتحدث حديثاً هامساً . أما الليدى أجاثا فكانت تتشح دائماً بشال أبيض وتبدو مغلوبة على أمرها . أما رولاو رسل فلم يكن يتكلم أبداً . وكان يصافح الإنسان بطريقة تكاد تحطم عظام أصابعه . ولكنه كان ودوداً للغاية . وكانوا يدخلون الحجرات و يخرجون منها وكأنهم أشباح . ولم يبد أن أحداً منهم يشعر أبداً بالجوع . لقد كانت هذه تنشئة غريبة لولدين صغيرين موهوبين وغير عاديين » .

وكانت أهم ساعات يومى ، خلال الجزء الأكبر من طفولتى . هى تلك التى كنت أقضيها بمفردى فى الحديقة . وكان أكثر جوانب حياتى وضوحاً ، هو ذلك الذى كنت فيه وحيداً . وكنت لا أذكر أفكارى الجادة للآخرين إلا فيما ندر . وكنت أشعر بالندم دائماً كلما فعلت ذلك . كنت أعرف كل ركن فى الحديقة ، وكنت أترقب سنة بعد أخرى ورود الربيع البيضاء فى مكان ما وعش الطير فى مكان آخر ، وزهرة اللبخ وهى تبرز من اللبلاب المتشابك . وكنت أعرف أين توجد أول زهور البنفسج ، وأى أشجار البلوط تورق قبل غيرها . وأذكر أنه فى عام ١٨٧٨ أورقت شجرة بلوط فى الرابع عشر من أبريل . وكانت نافذتى تطل على شجرتين من شجر الحور اللومباردى ، يبلغ ارتفاع كل منها مائة قدم . واعتدت أن أراقب ظل المنزل يزحف مرتفعاً عليهما أثناء غروب الشمس . وكنت أستيقظ مبكراً جداً ، وأحياناً كنت أرى كوكب الزهرة يطلع . وفى إحدى المرات ظننت أن الكوكب مصباح فى الغابة . وكنت أرى الشروق فى معظم الأيام ، وفى أيام أبريل المشرقة ، كنت أتسلل من المنزل

لأقوم بجولة قبل الإفطار . وكنت أرقب الغسق وهو يصبغ الأرض بالحمرة والسحب بلون الذهب . وأصغيت للريح ، وهللت للبرق . وكان ينتابنى طوال طفولتى شعور متزايد بالوحدة وباليأس من مقابلة إنسان يطيب لى الحديث معه . ولقد أنقذتنى الطبيعة والكتب والرياضيات (فيما بعد) من اليأس التام .

ومع ذلك كانت سنوات طفولتى الأولى سعيدة ، ولم تصبح هذه الوحدة غير محتملة إلا مع اقتراب المراهقة . لقد كان عندى مربيات ألمانيات وسويسريات وكنت أحبهن ، ولم يكن ذكائى قد نما نمواً يجعلنى أعانى من نقص أسرتى فى الذكاء . ولابد أننى ، برغم ذلك ، كنت أشعر ببعض الحزن ، لأنى أذكر أننى كنت أتمنى لو أن والدى كانا على قيد الحياة . ولقد عبرت ذات مرة عن شعورى هذا لجدتى ، وكان عمرى حينئذ ست سنوات ، فقالت لى إنه من حسن حظى أنهما ماتا . ولقد تركت ملاحظتها هذه أثراً سيئاً فى نفسى ، فى ذلك الوقت ، ونسبتها إلى الشعور بالغيرة . ولم أكن بطبيعة الحال أعرف أنها قالت ما قالته لسبب وجيه ، من وجهة النظر الفيكتورية القائمة على التزمت فى الأخلاق . ولقد كان وجه جدتى من الوجوه المعبرة ، وبالرغم من تجربتها العظيمة فى العالم الكبير ، لم تتعلم مطلقاً فن إخفاء عواطفها ، وكنت ألاحظ أن أية إشارة للجنون كانت تصيبها بنوبة من العذاب ، وكنت أتساءل عما يمكن أن يكون سبب ذلك . ولم أكتشف ، إلا بعد سنوات عديدة ، أن لها ولداً فى مستشفى للأمراض العقلية ، كان ضابطاً فى كتيبة من كتائب النخبة ، ثم فقد عقله بعد بضع سنوات . والقصة التى سمعتها ، ولا أستطيع التثبت من صحتها برغم ذلك ، هى أن زملاءه الضباط كانوا يعابثونه لأنه كان طاهراً لا يقرب النساء . وكانوا يحتفظون بدب ، كحيوان الكتيبة المدلل ، وذات يوم من باب التسلية ، أطلقوا الدب عليه فهرب ، وفقد ذاكرته . وحينما عثر عليه يتجول فى شعاب الريف ، وضع فى ملجأ للعمال لأن شخصيته لم يمكن التعرف عليها . وفى منتصف الليل قفز صائحاً : « الدب . الدب » . وخنق أحد المتشردين ، وكان ينام فى السرير المجاور له . ولم يسترد ذاكرته بعد ذلك ، ولكنه عاش حتى تعدى الثمانين من عمره .

وحينما أحاول أن أتذكر كل ما يمكنني أن أسترجعه من طفولتي المبكرة، أجد أن أول شيء أذكره بعد وصولي إلى بمبروك لودج هو السير في الثلوج التي كانت الشمس الساطعة قد بدأت تذيبها، بعد حوالي شهر من وصولي. ورؤيتي شجرة زان كبيرة ملقاة على الأرض، تقطع إلى كتل خشبية. والشيء الثاني الذي أذكره هو عيد ميلادي الرابع، حين أهدى إليّ بوق أخذت أنفخ فيه طيلة اليوم، وتناولت الشاي مع كعكة عيد ميلادي في منزل صيفي. والشيء التالي الذي أتذكره، هو دروس عمتي عن الألوان والقراءة، ثم فصل الروضة الذي بدأ قبيل بلوغي الخامسة، واستمر ما يقرب من عام ونصف. ولقد ملأني ذلك بالسرور البالغ. وكان الدكان الذي اشترى منه البوق كما يتبين من العبارات المكتوبة على الصندوق، في شارع برنرز المتفرع من شارع أكسفورد. وما زلت حتى يومنا هذا، أفكر في شارع برنرز، ما لم أستجمع انتباهي. كشيء أشبه بقصر علاء الدين (في قصص ألف ليلة وليلة). وعرفت في فصل الروضة هذا أطفالاً آخرين، لم أعد أعرف شيئاً عن معظمهم. ولكني قابلت واحداً منهم، وهو جيمي بيللي، في عام ١٩٢٩ في فانكوفر وذلك حينما كنت أهبط من أحد القطارات. وأعلم الآن أن السيدة الطيبة التي كانت تقوم بتعليمنا كانت تنتهج منهج فروبل السليم، مما كان يعتبر، في ذلك الوقت. أحدث الأساليب. وما زلت أتذكر، إلى حد ما، كل الدروس بالتفصيل، ولكني أعتقد أن ما هزني طرباً أكثر من أي شيء آخر، هو اكتشافي أن اللونين الأصفر والأزرق يكونان اللون الأخضر.

وحينما بلغت السادسة مات جدي. وبعد ذلك بوقت قصير ذهبنا إلى سانت فيلانز في برتشاير، لكي نقضي الصيف. وأذكر الحانة القديمة الغريبة، ذات الأبواب الخشبية، والجسر الخشبي فوق النهر، والخلجان الصخرية في البحيرة، والجبل الذي يرتفع في الناحية الأخرى. وأذكر أن الوقت الذي قضيته هناك كان وقتاً سعيداً.

أما الذكرى التالية، وهي أقل إمتاعاً، فعن حجرة في لندن، في منزل رقم ٨

فى ميدان شيشام ، حيث ثارت مربيتى علىّ وأنا أحاول أن أستذكر جدول الضرب ، غير أن دموعى كانت تعوقنى باستمرار . وقد استأجرت جدتى منزلاً فى لندن لبضعة أشهر حينما كنت فى السابعة ، فبدأت حينئذ أرى أسرة أمى . وكان جدى لأمى ميتاً ، أما والدة أمى ، وهى الليدى ستانلى أوف آلدرلى ، فكانت تعيش فى منزل كبير ، رقم ٤٠ ، شارع دوفر [١] ، مع ابنتها مود . وكنت كثيراً ما أذهب لأتناول الغداء معها . وبالرغم من أن الطعام كان شهيًّا ، لم يكن سرورى كاملاً ، لأنها كانت سليطة اللسان ، ولم تكن تلقى اعتباراً لأحد مهما كان عمره أو جنسه . وكان الخجل يتملكنى فى حضرتها . وكان هذا يضايقها لأنه لم يكن هناك فى أسرة ستانلى إنسان خجول . وكنت أبذل جهد المستميت كى أثير إعجابها ، ولكن جهودى كانت تفشل بشكل لم أكن لأتنبأ به . فأذكر أننى قلت لها إن طولى ازداد بوصتين ونصف بوصة فى الأشهر السبعة الماضية ، وإننى طبقاً لهذه النسبة ، سوف أنمو $4\frac{2}{7}$ بوصة فى السنة . فقالت : « ألا تعلم أنه لا يصح أن تتكلم عن أية كسور إلا الأنصاف والأرباع ؟ هذه حذلقة » . فأجبت : « أعلم هذا الآن » . فقالت وهى تلتفت إلى خالتى مود : « من شابه أباه فما ظلم » . كانت أحسن جهودى تضيع بصورة أو أخرى كما حدث فى هذه المناسبة .

واستدعتنى فى إحدى المرات ، وكنت فى الثانية عشرة تقريباً ، إلى حجرة مليئة بالزائرين ، وسألتنى إذا كنت قد قرأت سلسلة كاملة من الكتب التى تتناول العلوم بأسلوب مبسط، وأخذت فى سردها كتاباً كتاباً . ولكنى لم أكن قد قرأت أيًّا منها . وأخيراً تنهدت ، والتفتت إلى الزائرين قائلة : « ليس لدىّ أحفاد أذكياء » . لقد كانت عقليتها من طراز العقلية الإنجليزية فى القرن الثامن عشر ، فكانت عقلانية ، يعوزها الخيال ، تؤمن بحركة التنوير وتحتقر التزمت الفيكتورى الذى ليس له ما يبرره . وكانت من الشخصيات الرئيسية التى كان لها شأن فى

(١) دمر تماماً فى الحرب العظمى الثانية ، أثناء الهجوم الذى كانت تشنه الطائرات الألمانية .

إنشاء كلية جيرتون[١] ، ولها صورة معلقة فى قاعة جيرتون ، غير أنه بعد مماتها ضرب بآرائها عرض الحائط إذ كانت دائماً تقول : « ما دمت على قيد الحياة فلن تبنى كنيسة فى جيرتون » . فبدأ البناء فى الكنيسة الحالية فى نفس اليوم الذى توفيت فيه . وما كدت أبلغ دور المراهقة حتى بدأت تحاول إلغاء ما اعتبرته سيئاً فى تربيتى . فكانت تقول : « لا يستطيع أحد أن يقول شيئاً ضدى ، ولكنى أقول دائماً إن كسر الوصية السابعة من الوصايا العشر لا يعد شيئاً إلى جانب كسر الوصية السادسة . لأن ذلك يتطلب على أى حال . رضا الطرف الآخر[٢] » . ولقد أدخلت السرور على نفسها فى إحدى المناسبات حين طلبت رواية تريستام شاندى[٣] كهدية لعيد ميلادى . فقالت : « لن أكتب فيه إهداء ، لأن الناس سوف يقولون ما أغرب جدتك » . ومع ذلك فقد كتبت الإهداء . وكانت النسخة طبعة أولى ممهورة بإمضاء المؤلف . وهذه هى المناسبة الوحيدة ، على ما أذكر ، التى استطعت فيها أن أبعث السرور فى نفسها .

وكانت تحتقر بشدة كل ما تعتبره سخيفاً . واعتادت أن تقيم فى أعياد ميلادها حفل عشاء لثلاثة عشر شخصاً ، وأن تجعل أكثر الموجودين إيماناً بالخرافات يخرج أولاً . وأذكر ذات مرة ، أن إحدى حفيداتها ، وكانت متكلفة فى تصرفاتها جاءت لزيارتها وفى صحبتها كلب مدلل أثار جدتى بنباحه . فاحتجت الحفيدة بأن كلبها ملاك . فقالت جدتى ساخطة : « ملاك ؟ — ملاك ؟ — . ما هذا الهراء ؟ أتعتقدين أن له روحاً ؟ » فقالت السيدة الصغيرة على الفور : « نعم ، يا جدتى » . وظلت جدتى ، طول فترة العصر ، وحفيدتها فى صحبتها ، تقول لكل زائر على حدة : « أتدرى ما تقوله هذه الفتاة الغبية جريزل ؟ إنها تقول إن للكلاب أرواحاً » . وكان من عادتها أن تجلس بعد ظهر كل يوم فى حجرة الاستقبال الكبيرة حيث تأتى جماعات من الزائرين وبينهم

(١) بجامعة كامبردج ، وهى إحدى كليتين للبنات بالجامعة .

(٢) الوصية السادسة : لا تسرق .
والوصية السابعة : لا تزن .

(٣) من أشهر قصص الكاتب لورانس ستيرن (١٧١٣ — ١٧٦٨) .

أشهر كتاب العصر ، لتناول الشاى . وإذا ما ترك أحدهم الغرفة التفتت إلى الآخرين قائلة بأسى : « إن الأغبياء متعبون جداً » . ولقد نشأت يعقوبية [١] ، إذ كانت تنتمى إلى عائلة ديلونز الإيرلندية ، التى هربت إلى فرنسا بعد معركة بوين ، والتى كان لها فرقة خاصة بها فى الجيش الفرنسى . وعقدت الثورة الفرنسية الصلح بينها وبين إيرلندا ، ولكن جدتى نشأت فى فلورنسا ، حيث كان أبوها وزيراً . وفى فلورنسا كانت تذهب مرة كل أسبوع لزيارة أرملة الشاب المطالب بعرش إنجلترا . وكانت تقول إن الشىء الوحيد الذى كانت تعتبره سخيفاً فى أسلافها هو انتماؤهم لليعاقبة . ولم أكن أعرف جدى لأمى ، ولكنى سمعتهم يقولون إنه اعتاد أن يمتهن جدتى ، وشعرت أنه إذا كان الأمر كذلك فلابد أنه كان رجلاً رائعاً [٢]. ولقد كانت لها أسرة ضخمة من الأبناء والبنات ، كان معظمهم يأتى لتناول الغداء معها فى أيام الأحد . وكان ابنها الأكبر مسلماً ، ويكاد يكون أصم تماماً . أما الثانى ، ليولف ، فقد كان حر التفكير . وكان ينفق وقته ، وهو فى مجلس إدارة مدرسة لندن ، فى مهاجمة الكنيسة . وكان الابن الثالث ، الجرنون قساً كوثوليكياً ، وياوراً بابوياً ، كما كان أيضاً أسقف أموس . وبينما كان ليولف فطناً ، واسع المعارف ، سليط اللسان ، كان الجرنون بديناً ، شرهاً ، حاضر النكتة . أما هنرى المسلم ، فقد كان محروماً من كل مزايا الأسرة ، كما كان ، فى رأيى ، أثقل من عرفت طول حياتى ظلاً . فبالرغم من صممه كان يصر على أن يسمع كل ما يقال له . وكان غداء الأحد تتخلله مناقشات عنيفة ، إذ كان بين البنات وأزواج البنات من ينتمى إلى الكنيسة الرسمية ، كنيسة إنجلترا ، ومن يمثل الفلسفة الوضعية ، ومن يؤمن بوحدانية الله وينكر التثليث . هذا إلى جانب المذاهب الدينية التى كان أزواج البنات يمثلونها . وحينما كان الجدل يصل إلى درجة كبيرة من العنف ، كان هنرى يشعر أن هناك ضجة ، فيسأل عن السبب ، وحينئذ كان من يجلس

---

(١) أى حزب الوريث الاسكتلندى المطالب بعرش إنجلترا فى القرن الثامن عشر .

(٢) هذا حقيق ، انظر « سيدات آلدرلى » بقلم نانسى ميتفورد ١٩٣٨ .

قريباً منه ، يصيح فى أذنه بأقوال تدل على التحيز فيصيح الآخرون : « لا ، لا ، يا هنرى ، ليس الأمر هكذا » . وهنا كانت الضجة تصبح شنيعة حقاً . وكانت لعبة خالى ليولف المفضلة أثناء تناول غداء الأحد هى أن يسأل : « من منكم يؤمن بالمعنى الحرفى لقصة آدم وحواء ؟ » وكان هدفه من توجيه هذا السؤال هو أن يرغم المسلم والقس على أن يتفقا معاً وهو الشىء الذى كانا يكرهانه . وكنت أذهب إلى مآدب الغداء هذه فى خوف وارتعاد ، لأنى كنت أخشى أن تنقلب هذه الطغمة علىّ . وكانت هناك صديقة واحدة كنت أعتمد عليها ، ولم تكن تنتمى ، من ناحية المولد ، إلى آل ستانلى . وكانت هذه الصديقة هى زوجة خالى ليولف ، شقيقة السير هيو بل . وكانت جدتى دائماً تعتبر نفسها واسعة الأفق جداً ، لأنها لم تعترض على زواج ليولف من بنت تاجر أو ما كانت تسميه مصاهرة الأرستقراطية لمهنة « التجارة » . ولكنى لم أكن أتأثر بكلامها هذا ، لأن السير هيو كان أكثر من مليونير .

وبالرغم من أنه كان لجدتى شخصية طاغية ، كانت لها نقائص . فى أحد الأيام ، وحينما كنا ننتظر مستر جلادستون لتناول الشاى معنا ، قالت لنا إنها سوف تبين له أوجه الخطأ فى سياسته نحو منح الحكم الذاتى لإيرلندا . وكنت حاضراً من أول الزيارة حتى نهايتها ، ولكنى لم أسمعها تتفوه بكلمة نقد واحدة لهذه السياسة . حتى هى ، استطاع جلادستون أن يفحمها بنظرة من عينه التى تشبه عين الصقر . وقد أخبرنى اللورد كارليل ، زوج ابنتها ، بقصة أخرى أكثر إذلالاً لها حدثت ذات مرة حينما كانت تقيم فى « نورث كاسل » . فقد كان مع الفنان المصور بيرن جونز ، الذى كان يقيم هناك أيضاً ، حافظة للتبغ على شكل سلحفاة . وكانت توجد هناك سلحفاة حقيقية تسللت خطأ ، ذات يوم ، إلى المكتبة . وأوحى ذلك بحيلة لطيفة إلى الحاضرين من الشباب . إذ وضعوا حافظة التبغ ، أثناء الغداء ، بجوار مدفأة حجرة الجلوس . وحينما عادت السيدات من حجرة الطعام اكتشف أحدهم بطريقة مسرحية كيف أن السلحفاة قد تسللت إلى حجرة الجلوس . وحينما رفعت من مكانها ، صاح أحدهم بدهشة

قائلاً إن ظهر السلحفاة قد أصبح رخواً . وهنا أحضر لورد كارليل الجزء المطلوب من دائرة المعارف ، وتظاهر بأنه يقرأ فقرة فى الكتاب تقول إن الحرارة الشديدة قد ينتج عنها ذلك الأمر (ليونة ظهر السلحفاة) . وأظهرت جدتى اهتماماً كبيراً بما ظننته حقيقة ومن ظواهر التاريخ الطبيعى ، وقالت إنها كثيراً ما أشارت إليها فى مختلف المناسبات . وبينما كانت تتشاجر مع ابنتها الليدى كارليل ، أخبرتها ابنتها فى خبث ، بحقيقة ما حدث . فقالت جدتى : « قد تكون لى نقائص عديدة ، غير أنى لست غبية ، وأنا أرفض أن أصدقك » .

وكان أخى ، الذى كان له طبع آل ستانلى ، يحب هؤلاء ، ويكره آل رسل . أما أنا فكنت أحب هؤلاء الأخيرين ، وأخشى آل ستانلى . غير أن عواطفى تغيرت حينما كبرت . فأنا مدين بخجلى ، وحساسيتى ، وحبى للميتافيزيقا ، لآل رسل . ومدين لأسرة ستانلى بطاقتى ، وصحتى الجيدة وروحى المعنوية العالية . وعلى العموم ، فإن ما ورثته عن هؤلاء الأخيرين ، أفضل مما ورثته عن الأولين .

وأعود إلى الحديث عما أتذكره من طفولتى ، فأقول إن ما أذكره بوضوح بعد ذلك هو شتاء ١٨٨٠ — ١٨٨١ ، الذى كنا نقضيه فى بورتموث . ولقد عرفت هناك لأول مرة اسم توماس هاردى ، الذى كانت روايته « نافخ البوق » ، ذات الأجزاء الثلاثة ، موضوعة على منضدة حجرة الجلوس ، وأعتقد أن السبب الوحيد فى أنى أذكره ، هو أننى تساءلت حينئذ عما يكون نافخ البوق ، وعرفت أن الرواية كانت بقلم مؤلف « بعيداً عن الحشد المائج » ، ولم أكن أعرف أيضاً ما هو الحشد المائج . وبينما كنا هناك قالت لى مربيتى الألمانية إنه لا يمكن لأحد أن يحصل على هدايا عيد الميلاد ما لم يؤمن « ببابا نويل » . ولقد أبكانى هذا لأنى لم أستطع أن أومن بمثل هذه الشخصية . والشىء الآخر الذى أذكره عن هذا المكان هو العاصفة الثلجية التى لم أر لها مثيلاً ، وأذكر أننى تعلمت هناك الانزلاق على الجليد ، وهى التسلية التى كنت شديد الولع بها فى صباى . ولم تكن تفوتنى فرصة واحدة للانزلاق على الجليد ، ولو كانت الثلوج غير مأمونة . فبينما كنت أقيم ذات مرة فى شارع دوفر ، ذهبت إلى حديقة سان

جيمس لأتزحلق ، وهناك سقطت . وأحسست بالعار ، وأنا أجرى مبتلاً فى الشوارع ولكنى لم أقلع عن عادة الانزلاق على الثلوج الرقيقة . ولا أذكر شيئاً بالمرة عن العام التالى ، غير أن عيد ميلادى العاشر ما زال عالقاً بذاكرتى بوضوح تام ، وكأنه كان بالأمس . كانت الدنيا مشرقة ودافئة . وكنت أجلس فى شجرة لبرنون مزدهرة . ثم بعد ذلك جاءتنى سيدة سويسرية لتلعب معى بالكرة . وكانت قد جاءت للاختبار الشخصى ، وبعد ذلك ألحقت بالعمل كمربية لى . وصححت لها لفظة « امسك » بالكرة التى أخطأت فى استعمالها . وحينما كان علىّ أن أقطع كعكة الميلاد ، شعرت بخجل شديد لأننى لم أستطع أن أسحب القطعة الأولى . غير أن الشىء الذى ما يزال عالقاً بذاكرتى ، هو إشراق الشمس .

وفى سن الحادية عشرة بدأت دراسة هندسة إقليدس ، وكان أخى يقوم بتدريسها لى . وكان ذلك من أهم أحداث حياتى ، وقد بهرنى كأنه الحب الأول . لم أكن أتخيل أن هناك فى الحياة شيئاً أكثر إمتاعاً . وبعد أن تعلمت الاستدلال الخامس ، قال لى أخى إنه من الأجزاء التى يجمع الآخرون على صعوبتها . ولكنى لم أجد صعوبة تذكر . وهذه هى المرة الأولى التى تحققت فيها من أننى على شىء من الذكاء . ومنذ هذه اللحظة حتى انتهائى أنا وهوايتهد من تأليف « أصول الرياضيات » ، وكنت حينئذ فى الثامنة والثلاثين . كانت الرياضيات هى شغلى الأول ، ومنبع سعادتى الرئيسى . غير أنها ككل سعادة لم تكن خالصة بغير شوائب . فلقد قيل لى إن إقليدس قد أثبت أشياء ، ثم أصبت بخيبة أمل شديدة عندما عرفت أنه ابتدأ ببديهيات . ورفضت فى أول الأمر أن أقبل بديهياته ما لم يقدم أخى لى الأسباب التى تدعونى لقبولها ، ولكنه قال : « إذا لم تقبلها فلن تستطيع الاستمرار ، ولما كنت أرغب فى الاستمرار فقد قبلتها مؤقتاً على مضض . ولقد لازمنى الشك الذى خامرنى حينئذ بخصوص مقدمات الرياضيات ، وحدد اتجاه العمل الذى قمت به بعد ذلك .

ووجدت أن بدايات الجبر أكثر صعوبة ، وربما كان ذلك نتيجة

لتدريسها بأسلوب سيئ . فلقد كان علىّ أن أحفظ الآتى عن ظهر قلب : « إن مربع مجموع عددين يساوى مجموع مربعيهما مضافاً إليه ضعف ما ينتج عنهما » . ولم تكن لدىّ أدنى فكرة عن معنى هذا الكلام . وحينما كنت أنسى هـذه الكلمات كان مدرسى يرميني بالكتاب ، وهو شيء لم ينشط ذكائى بأى شكل . ومع ذلك سار كل شيء على ما يرام بعد البدايات الأولى للجبر . ولقد اعتدت أن أثير إعجاب المدرس الجديد بمعلوماتى . وفى إحدى المرات ، وكنت فى الثالثة عشرة من عمرى ، برمت ، أمام مدرس جديد ، بنساً ، فقال لى : « لماذا يدور هذا البنس ؟ » فأجبت : « لأنى أديره بازدواج إصبعى » فقال : « ومـاذا تعرف عن الازدواج » ؟ فقلت : « إنى أعرف كل شيء عن الازدواج » . وكانت جدتى فى خوف دائم من أن أرهق نفسى بالعمل ، لذلك قصرت من ساعات دراستى . وكانت النتيجة أننى اعتدت أن أعمل فى غرفة نومى فى الخفاء مستعيناً بشمعة واحدة . وكنت أجلس إلى مكتبى فى قميص النوم فى الليالى الباردة على استعداد لأن أطفئ الشمعة وأقفز إلى السرير عند سماع أقل صوت .

وكنت أكره اللاتينية واليونانية ، وأعتقد أنه من الغباء أن أتعلم لغة لا يتكلمها أحد . وكنت أحب الرياضيات أكثر من أى شيء آخر ، وبعدها التاريخ . ولما لم يكن هناك إنسان آخر أقارن نفسى به ، فقد بقيت لوقت طويل لا أعرف إن كنت أحسن أو أردأ من الأولاد الآخرين . ولكنى أذكر أننى سمعت يوماً عمى روللو يقول « وداعاً » لجويت ، عميد كلية باليول بأكسفورد ، عند الباب الخارجى ، ثم يردف قائلاً : « نعم ، إنه يتقدم بطريقة حثيثة حقاً » وعرفت ، بالرغم من أنى لا أدرى كيف ، أنه كان يتكلم عن دراستى . وما كدت أتحقق من أننى ذكى ، حتى قررت أن أقوم بشيء ذى أهمية فكرية إذا كان ذلك فى الإمكان . وصح منى العزم فى مرحلة الشباب كلها على ألا أسمح لشيء مهما كان أن يقف فى سبيل تحقيق طموحى هذا .

إن الزعم بأن طفولتى كانت كلها جداً ووقاراً ينطوى على تضليل تام . لقد

نعمت بالحياة غاية ما أستطيع . وإن كان بعض ما استمتعت به ينبع من نزعة شريرة . فقد اعتاد طبيب العائلة ، وهو اسكتلندى عجوز بسوالف تشبه صوف الغنم ، أن يزورنا فى عربته التى كانت تنتظره عند الباب الخارجى ريثما ينتهى من علاج مرضاه . وكان لسائقه قبعة عالية توحى بعلو كعبه فى مهنته . فكنت أصعد إلى سطح المنزل حيث أطل على غطاء الرأس الفاخر هذا ، وألقى على حافته المستوية بأكمام الورد المتعفن الذى كنت أجمعه من البالوعة . فكانت تتناثر هنا وهناك محدثة صوت ارتطام بالقبعة مما كنت أطرب له . وسرعان ما كنت أخفى رأسى حتى يعتقد أنها تتساقط عليه من السماء . بل إننى كنت أحياناً أقوم بأسوأ من ذلك ؛ كنت أقذفه بالكرات الثلجية وهو يقود السيارة معرضاً حياته وحياة سيده ، الثمينتين ، للخطر . كما كانت لى تسلية أخرى تطيب لى كثيراً . فحينما كانت الحديقة تزدحم أيام الآحاد بالناس كنت أتسلق شجرة زان كبيرة تقوم عند نهاية أرضنا . وحينما كنت أصل إلى أعلى قمة فيها ، كنت أتدلى منها ورأسى إلى الأرض ، ثم آخذ فى الصياح . وكنت أرقب الجماهير التى احتشدت وأخذت تتناقش باهتمام بالغ فى الطريقة المثلى لإنقاذى . وحينما كنت أرى أنهم على وشك أن يتخذوا قراراً فى هذا الشأن ، كنت أعتدل ، وفى هدوء أهبط إلى الأرض . وكنت آتى أعمالاً أشد عبثاً ، فى تلك الأثناء التى كان جيمى بيلى يقيم فيها عندنا . فقد اكتشفنا مقعد الحمام ذا العجلات ، وأذكر أن جدى كان يجلس عليه ويدفع من مكان إلى آخر ، فأخذناه من الحجرة التى كان مخزوناً فيها ، وأخذنا ندفعه على كل التلال التى عرفناها . وحينما علم أفراد أسرتى بذلك ، اعتبروه كفراً ، وأنبونا تأنيباً شديداً . كما كنا نقوم ، إلى جانب ذلك ، بأشياء لم يكن الكبار يعرفون عنها شيئاً . فكنا مثلاً نربط حبلاً فى غصن شجرة ، ونتأرجح ، بعد مران طويل ، فى دائرة تامة لنعود إلى النقطة التى بدأنا منها . ولولا مهارتنا الفائقة لتوقفنا عند المنتصف ، وارتطمنا بجذع الشجرة ، ذلك الارتطام الذى يؤلم الظهر . وكنا ، إذا ما زارنا أولاد آخرون ، نعرض عليهم هذه اللعبة بنجاح . فإذا ما حاولوا أن يقلدونا ، كنا نشعر بفرح

خبيث طاغ ، إذا ما فشلوا فى مسعاهم وتألموا . وكان لعمى رولو الذى ظللنا بعض الوقت نقضى معه ثلاثة أشهر فى العام ، ثلاث أبقار وحمار . ولما كان الحمار أكثر ذكاء من الأبقار ، فقد تعلم أن يفتح البوابة التى تفصل بين الحقول . وكانوا يقولون إنه حمار جامح عديم الجدوى . ولكنى كنت لا أوافقهم على ذلك ، فقد تعلمت ، بعد محاولات غير موفقة ، أن أركبه بلا سرج أو عنان . وكان يرفس ويقفز ولكنه لم يفلح فى الإلقاء بى إلا فى تلك المرة التى ربطت فيها بذيله صفيحة مليئة بالأحجار . ولقد اعتدت أن أمتطيه وأطوف به الريف ، حتى حينما كنت أذهب لزيارة ابنة اللورد ولزلى الذى كان يعيش على مسافة تقرب من ثلاثة أميال من منزل عمى .

الفصل الثانى

مرحلة المراهقة

كانت طفولتى ، بوجه عام ، سعيدة ومستقيمة ولا التواء فيها . وشعرت أثناءها بإحساس ودى نحو معظم الكبار الذين تم احتكاكى بهم . ولكنى أذكر تغييراً واضحاً محدداً طرأ علىّ عندما بلغت ما يسمى فى علم نفس الطفل الآن بمرحلة (البلوغ) فنى تلك المرحلة كان يلذ لى أن أستخدم اللغة الدارجة وأتظاهر بانعدام الشعور وأتشبه « بالرجال » عامة ، وبدأت أحتقر أهلى لذعرهم الشديد من تلك اللغة واعتقادهم السخيف بأن تسلق الأشجار يفضى إلى المهالك . وبلغ من كثرة ما حرم علىّ أن أفعله أن تولدت عندى عادة الكتمان والمخادعة التى لازمتنى حتى سن الحادية والعشرين . وأصبحت بعد ذلك أصدر عن طبع راسخ حين أحتفظ لنفسى بما أريد أن أفعله ، لا أفضى به لأحد . ولم يفارقنى ذلك الشعور الطاغى أبداً بل كان يدفعنى بشكل غريزى نحو الإخفاء والتعمية . وما زالت عندى إلى الآن نزعة إلى إخفاء الكتاب الذى أقرأ فيه عندما يحل علىّ الوافدون ، وإنى لأمسك لسانى عادة عن الإفضاء بالمكان الذى كنت فيه والإفصاح عما كنت أفعله . ولا يتسنى لى التغلب على هذه النزعة إلا بعد جهد جهيد من فعل الإرادة ، ذلك أنها تولدت عندى، ونمت على مر السنين التى كان يتعين علىّ فيها أن أشق طريقى بين مجموعة من المحرمات السخيفة التى لا معنى لها .

كانت سنوات المراهقة بالنسبة لى يملؤها الإحساس بالوحدة والشقاء . وكنت مضطراً فى حياتى العاطفية والعقلية إلى التذرع بالكتمان عن الناس ، وكانت اهتماماتى موزعة بين الجنس والدين والرياضيات . وذكرياتى فيما يتعلق بموضوع الجنس إذ ذاك يشوبها شعور من عدم الارتياح ، ولا أحب أن أعود بالذاكرة

إلى ما كنت أشعر به في تلك السنين ، ولكني سأبذل قصارى وسعى فى سرد ما وقع لى بالفعل لا ما كنت أود أن يحدث . كانت المرة الأولى التى وقفت فيها على حقائق الجنس عندما كنت فى الثانية عشرة من عمرى وعلى يد صبى اسمه إرنست لوجان كان أحد رفاقى فى روضة الأطفال ونحن صغار . وقد نمت معه ذات ليلة فى نفس الغرفة ، فأخذ يشرح لى طبيعة العملية الجنسية ودورها فى إنجاب الأطفال معتمداً فى توضيح ما يقوله على الحكايات اللطيفة التى تثير الضحك . ووجدت ما قاله مثيراً للاهتمام إلى أقصى حد ، ولكن كلامه لم يثر فى جسمى أى رد فعل لصغر سنى . وبدا لى بديهيًّا إذ ذاك أن الإباحية الجنسية هى النظام الأمثل ، وأن نظام الزواج المسيحى مرتبط بالخرافات المسيحية التى تجاوز حد العقل (وأنا واثق أن هذه الفكرة لم تطرأ إلا بعد مرور فترة وجيزة على إدراكى الحقائق) .

وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرى ، ذكر لى مؤدبى الخاص أنى بصدد الدخول فى مرحلة هامة من التغير الجسمانى . وكنت إذ ذاك قادراً ، على نحو ما ، أن أفهم مرماه ، إذ كان معى فى تلك المرة غلام آخر اسمه جيمى بيلى. وهو نفس الشخص الذى قابلته فى مدينة فانكوفر فيما بعد فى عام ١٩٢٩ ، وكنت وإياه نقلب وجوه الرأى ، بل كنا نشرك معنا الخادم الذى كان فى مثل سننا ، ولعله كان يكبرنا بسنة وكان يعرف أكثر مما نعرف . وعندما تسرب الخبر بأننا قضينا فترة العصر فى حديث مريب مع الخادم تعرضنا لكلام فيه لهجة الأسى العميق وأمرنا بالذهاب إلى الفراش ولم يصرف لنا من طعام إلا الخبز والماء . والغريب أن هذه المعاملة لم تصدنى عن الاهتمام بموضوع الجنس بل قضينا وقتاً طويلاً فى حديث يعد خارجاً عن حدود اللياقة وفى التعرف على أشياء كنا نجهلها ، وقد وجدت القاموس الطبى مفيداً فى هذا الصدد . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرى أخذت تجتاحنى مشاعر الجنس . بحيث لم أكن أقوى على احتمالها . فبينما كنت أجلس مستعدًّا للعمل أحاول التركيز كان ذهنى يتشتت على الدوام بسبب الرغبة الجنسية . وتولدت عندى العادة السرية ولكنى كنت دائماً ألزم

حدود الاعتدال ولا أشتط ، وظللت أمارسها حتى سن العشرين ثم أقلعت عنها فجأة حين عرفت الحب .

كان المؤدب الذى أخبرنى بقرب حلول فترة البلوغ هو نفسه الذى تحدث معى بعدها بعدة أشهر عن صدر الرجل ونهدى المرأة (والكلمة الإنجليزية التى تدل على المعنى الثـانى هى نفسها التى تدل على المعنى الأول مع زيادة الحرف s الذى يبين صيغة الجمع) وكان لملاحظته هذه من شدة الوقع فى نفسى ما جعلنى أبدو وقد صدمت ، وقد عاوننى على استجماع حيائى وتزمتى بعدها . وفى فترة البلوغ بددت ساعات طويلة كل يوم فى اشتهاء النظر إلى جسد أنثى . وكنت أسترق النظر من خلال النوافذ إلى الخادمات وهن يقمن بارتداء ملابسهن على أمل رؤيتهن ولكن دون جدوى . وقضيت أنا وصديقى فترة فصل من فصول الشتاء فى بناء بيت تحت سطح الأرض ، كان يتكون من نفق طويل يتعين على المرء لكى يجتازه أن يزحف على يديه وركبتيه وينتهى إلى غرفة من ست أقدام مكعبة . وكانت عندنا خادمة كنت أتوسل إليها كى تصحبنى إلى المنزل وهناك كنت أحضنها وأقبلها . وفى مرة طلبت إليها أن تقضى معى ليلة . ولكنها قالت إنها تؤثر الموت على أن تجيبنى إلى ما طلبت . وصدقتها فقد ظهرت عليها الدهشة وقالت إنها كانت تظننى ولداً صالحاً ، ووقفت عند هذا الحد فلم أتماد معها . وكنت فى ذلك الوقت قد تخليت تماماً عن الاتجاه العقلى فى تناول موضوع الجنس بعد أن تمسكت به فى مرحلة النمو السابقة . وتقبلت الآراء السائدة حينئذ على أنها آراء سديدة تماماً وركبنى الهم فأصبحت أعد نفسى من الأشرار الفجار . وفى الوقت نفسه زاد شغفى بدراسة نفسيتى إذ عكفت على دراستها بعناية وبغير قليل من الذكاء . ولكن قيل لى إن الانشغال بعملية الاستبطان ظاهرة مرضية . فاستقر فى روعى أن هذا ليس إلا دليلاً آخر على شذوذى وخروجى على المألوف ، ولكنى بعد سنتين أو ثلاث فى الاستبطان أدركت فجأة أن هذا هو السبيل الوحيد القائم للحصول على قدر كبير من المعارف الهامة ومن ثم لا يصح استنكاره ووصمه بأنه ظاهرة مرضية . وشعرت بارتياح عندما وصلت إلى هذه النقطة .

هذا الانشغال الجسدى كان يلازمه تعلق شديد بالمثاليات ولم أفطن إذ ذاك إلى أن لهذا التعلق أساساً جنسيًّا . وأصبحت أستمرئ جمال الغروب والسحب والأشجار فى فصلى الربيع والخريف ، وكان شعورى نحوها مشبوباً بالعاطفة المتقدة نظراً إلى أن هذا الشعور ليس إلا تسامياً بالجنس فى اللاوعى ومحاولة للهرب من الواقع . وأقبلت على قراءة الشعر . وابتدأت بالشعر الردىء والبالغ الرداءة كشعر قصيدة « الذكرى » للشاعر تنيسون أمير شعراء الإنجليز فى عصر فكتوريا ، ثم قرأت فى السادسة عشرة والسابعة عشرة من عمرى ، على قدر ما أتذكر الآن ، كل أشعار ملتون ومعظم أشعار اللورد بايرون وعدداً كبيراً من مسرحيات شكسبير ، وأجزاء كبيرة من شعر تنيسون ثم انتهيت بالشاعر شيللى ، وقد عثرت عليه بمحض المصادفة ذات يوم حين كنت جالساً فى غرفة الاستقبال فى بيت خالتى مود الكائن بشارع دوفر . فنى فترة الانتظار فتحت ديوان شيللى عند قصيدته « ألاستور » . وبدت لى أجمل قصيدة قرأتها فى حياتى، وكان السر الأكبر فى إعجابى بها كامناً ، بطبيعة الحال ، فى بعدها عن الواقع . وسألت الكبار عما إذا كان شيللى يعتبر شاعراً عظيما فوجدتهم يسيئون الظن به، ولكن هذا لم يصدنى عنه فاندفعت إلى قراءته فى وقت فراغى كله وحفظته عن ظهر قلب وأنا أعلم أنه ليس هناك من أفضى إليه بما يجول فى ذهنى وخاطرى بشأنه ، وكنت أتمنى فى قرارة نفسى لو أنى التقيت بشيللى وعرفته فى حياته فما كان يخطر لى أن هناك إنساناً أتجاوب معه فى الشعور بقدر ما تجاوبت مع شيللى .

وإلى جانب اهتمامى بالشعر كنت أهتم بالدين والفلسفة اهتماماً كبيراً وكان جدى لأبى من أتباع الكنيسة الإنجليكانية (كنيسة إنجلترا) فى حين كان جدى لأمى من أتباع الكنيسة المشيخية الاستكلندية ، ولكنه انتهى تدريجيًّا إلى مذهب التوحيد . وكانوا يصحبوننى يوم الأحد ، إلى الكنيسة الأسقفية الخاصة بالأبروشية فى بيترشام أسبوعاً ، ثم يصحبوننى فى الأسبوع التالى للكنيسة المشيخية فى ريتشموند ، فى حين كانوا يلقنوننى فى البيت مذهب التوحيد،

وقد آمنت به حتى سن الخامسة عشرة تقريباً . فى تلك السنة بدأت بشكل منظم فى تمحيص الحجج والبراهين العقلية التى تساق لإثبات الأركان الأساسية التى تقوم عليها الديانة المسيحية . وقضيت ساعات لا تنتهى فى تأمل ذلك الموضوع ، ولم أستطع مفاتحة أحد فى شأنه خوفاً من إيذائه فى مشاعره ولحاجتى أنا أيضاً إلى الهدوء . وخيل إلىّ أنى لو توقفت عن الإيمان بالله وبحرية الإرادة وبالخلود أصبت بالشقاء . ومع ذلك بدت لى الأسباب المبررة لها غير مقنعة إطلاقاً . وكان أول ما تخليت عنه هو الاعتقاد فى حرية الإرادة ، ففى سن الخامسة عشرة أصبحت مقتنعاً بأن حركة المادة ، سواء كانت هذه المادة حية أم ميتة ، تتبع تبعية تامة قوانين الديناميكا . ومن ثم لا يمكن أن يكون للإرادة من أثر على الجسم . وقد تعودت فى ذلك الوقت كتابة كل ما يعن لى من أفكار خاصة فى لغة إنجليزية تكتب بحروف يونانية وجدتها فى كتاب « التمرينات اليونانية » ، وفعلت ذلك لكيلا يطلع أحد على ما كنت أفكر فيه . وقد أثبت فى مذكرتى اعتقادى بأن الجسم البشرى ليس إلا آلة . وكان ينبغى أن أجد لذة عقلية فيما صرت إليه من التعلق بالمذهب المادى ، ولكننى توصلت استناداً إلى أسس مطابقة تقريباً لما ذكره الفيلسوف ديكارت (وكانت كل معرفتى به قائمة على أنه مخترع الإحداثيات فى علم الرياضيات) توصلت إلى الاعتقاد بأن الوعى حقيقة لا يمكن إنكارها ؛ ومن ثم فإن المادية المطلقة لا يمكن أن تقوم . كان هذا فى سن الخامسة عشرة . وبعد ذلك بسنتين تقريباً أصبحت أعتقد أنه لا توجد حياة بعد الموت ، ولكنى بقيت على اعتقادى فى وجود الله لأن « العلة الأولى » كانت فى نظرى حجة على وجود الله لا يمكن دحضها . ومع ذلك فلما بلغت الثامنة عشرة من عمرى ، وقبيل التحاقى بجامعة كامبردج وقعت على كتاب لمل هو (سيرته الذاتية) قرأته فلفتت نظرى جملة فيه مؤداها أن والده علمه أن هذا السؤال : من خلقك؟ ؟ لا يمكن العثور له على جواب شاف . وذلك لأنه يوحى مباشرة بسؤال آخر : ومن الذى خلق الله ؟ وصرفنى هذا عن حكاية « العلة الأولى » وأصبحت بعدها ملحداً . ولكنى فى أثناء تلك الفترة الطويلة من الشكوك

الدينية كان ينتابني الشعور بالشقاء والتعاسة لأني كنت أتخلى تدريجيًّا عن عقيدتي ، غير أن هذه العملية ما كادت تتم وتصل إلى قرار حتى وجدت لفرط دهشتي أنني مسرور جدًّا لأنني تخلصت من الموضوع برمته .

ولكني لم أتخل عن القراءة قط طيلة تلك المدة . بل كنت أقرأ بشراهة وعلمت نفسي وقرأت من اللغة الإيطالية ما كان يكفيني لقراءة الشاعر دانتي صاحب « الكوميديا الإلهية » والمفكر السياسي ماكيافيللي صاحب « الأمير » . كما قرأت للفيلسوف الفرنسي أوجست كونت غير أني لم أعبأ به كثيراً ، كذلك قرأت للفيلسوف جون ستيوارت مل كتابيه في « الاقتصاد السياسي » و « المنطق » ولخصتهما تلخيصاً دقيقاً . وقرأت للمفكر كارليل بشغف كبير ولكني رفضت رفضاً باتًّا تلك الحجج العاطفية التي كان يسوقها لإثبات الدين ، إذ كان رأيي الذي ثبت عليه منذ ذلك الوقت ، أن القضية الدينية يجب ألا تقبل إلا إذا كان لها سند كالسند المطلوب في قضية علمية . وقرأت المؤرخ جيبون[1] وكتاب ميلمان المسمى « تاريخ المسيحية » كما قرأت رواية « أسفار جليفر » للأديب سويفت في الطبعة الكاملة غير المنقحة . وكان لما ذكره كاتب الرواية في معرض حديثه عن قوم اسمهم « ياهو » أثر كبير في نفسي ، وأخذت أنظر إلى المخلوقات البشرية في ضوء تلك الرؤية .

أرجو أن يكون مفهوماً أن تلك الحياة العقلية التي كنت أحياها لم يفتضح أمرها لأحد ممن كنت أعاشرهم بل ظلت مدفونة في خاطري ، فقد كنت من الناحية الاجتماعية خجولاً وكان في تصرفي شيء من الطفولة وقلة الكياسة وكنت أتحرى الأدب وأحب الخير للناس ولكني كنت أحسد أولئك الذين يدخلون في علاقات اجتماعية ببساطة وبلا تحرج أو مضاضة في النفس . أذكر أنه كان هناك شاب اسمه كاترمول لم يكن يتمتع بسمعة طيبة من الناحية

---

(١) إدورد جيبون (١٧٣٧ — ١٧٩٤) هو المؤرخ الإنجليزي المشهور وصاحب (سقوط الإمبراطورية الرومانية) .

الأخلاقية . لاحظته مرة يمشي مع فتاة أنيقة وقد ارتفعت بينهما الكلفة . وكان واضحاً أنه يسرها ، فآليت على نفسى ألا أتصرف أبداً بطريقة تسر أى فتاة أتعلق بها . وقبل حلول عيد ميلادى السادس عشر كانت قد تجمعت لدىّ القدرة أحياناً على التحدث عن بعض الأشياء مع الذين كانوا يتولون تعليمى الخاص . فحتى ذلك الوقت كان تعليمى كله فى المنزل ولكن القائمين عليه من المدرسين الخصوصيين لم يكونوا يعملون أكثر من ثلاثة أشهر ، ولم أدر لهذا سبباً ولعل ذلك مرجعه إلى أنى كنت أحملهم على الدخول معى فى مؤامرة نخادع بها أهلى كلما اشتطوا فى مطالبهم منى ، وكان أحد هؤلاء المدرسين من أنصار مذهب اللاأدرية . وكان يسمح لى بالتجادل فى الدين معه وأظن أن هذا كان هو السبب فى طرده عندما انكشف أمره . أما أقرب أولئك المدرسين إلى أهلى وأطولهم بقاء معى ، فرجل مصدور على شفا الموت كان نفسه كريه الرائحة إلى حد لا يحتمل . ولم يخطر ببال أهلى إذ ذاك أن وجودى فى محضره على الدوام شىء غير مستحب من الناحية الصحية .

وقبيل عيد ميلادى السادس عشر أرسلونى إلى أحد المدرسين الملحقين بالجيش فى أولد ساوثجيت التى كانت إذ ذاك بقعة ريفية ، ولم يكن يقوم بالتدريس ليعدنى لدخول الجيش ، بل لكى أنجح فى امتحان المسابقة لدخول كلية ترينتى بجامعة كامبردج ، وكان الآخرون جميعاً تقريباً يستعدون للالتحاق بالجيش فيما عدا واحداً أو اثنين كانا يستعدان للتقدم إلى الدراسات اللاهوتية . وكانوا ، باستثنائى ، فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة . فكنت أصغرهم سنًّا . وكانوا فى السن التى تسمح لهم ببدء الاتصال الجنسى بالعاهرات ، وكان هذا الموضوع هو شغلهم الشاغل كلما تحدثوا . وكان أشدهم إثارة للإعجاب شابًّا يتشدق بأنه أصيب بالزهرى وشفى منه ، مما أثار زهوه . فكانوا يجلسون حوله يتندرون ببذىء الحكايات ، وكلما أتوا على حدث من الأحداث أتاح لهم ذلك فرصة لإبداء ملاحظات غير لائقة . وأذكر أن المدرس أرسل أحدهم مرة ومعه مذكرة منه إلى منزل مجاور ، فلما عاد حكى للآخرين

أنه دق الجرس فخرجت له خادمة قال لها : « إننى أحمل رسالة (والكلمة فى الإنجليزية تحمل معنى الرسالة ومعنى الغلاف الواقى من الحمل) فردت عليه : « إننى مسرورة لأنك تحمل الرسالة » . وفى مرة سمعوا إحدى الترانيم الكنسية ترتل وفيها هذه الجملة « سأقيم نصباً تذكارياً من الحجر » فتهامسوا فيما بينهم ، وكأن فى هذه الكلمات تلميحات جنسية . وعلى الرغم من انشغالى الصامت بالجنس — فيما سبق — فقد سببت لى مواجهتى له على هـــذا النحو الفاضح صدمة عميقة . وأصبحت متزمتاً فى آرائى وقررت أن الجنس بلا حب عميق ليس إلا عملية بهيمية ، فأجفلت عنه وانطويت على نفسى وقللت من احتكاكى بالآخرين بقدر الإمكان ، ومع ذلك وجدوا فىّ مادة طيبة للمداعبة ، فكانوا يجعلوننى أجلس على كرسى فوق مائدة وأغنى الأغنية الوحيدة التى كنت أعرفها إذ ذاك وهى :

إبراهيم العجوز مات وانطوى
ولن نراه بعد الآن مرة أخرى
وقد اعتاد أن يلبس سترة كبيرة بالية
مزررة تماماً من الأمام
وكانت له أيضاً سترة أخرى
من نوع مختلف
وبدلاً من أن يزررها من الأمام
كان يزررها من الخلف

وسرعان ما أدركت أن فرصتى الوحيدة للإفلات منهم كانت فى تذرعى بروح الفكاهة السمحة . وبعد فصل دراسى أو اثنين وفد عليهم فتى آخر يصلح لعبثهم ويمتاز عنى بأنه كان يستثار بسهولة وسرعة فانصرفوا عنى وتركونى لشأنى ، كما أنى تعودت بالتدريج حديثهم ولم يعد يسبب لى صدمة . ومع ذلك تولانى شعور عميق بالتعاسة . وكان هناك ممر ضيق عبر الحقول يؤدى إلى نيوساوثجيت كنت أسلكه كلما أردت مشاهدة الغروب وحدى أو التفكير

فى الانتحار . ولكنى لم أنتحر لأنى كنت توّاقاً إلى الاستزادة من الرياضيات . ولو عرف أهلى نوع الأحاديث التى كانت تدور إذ ذاك لأصابهم الذعر طبعاً ، ولكن لما كان تقدمى فى الرياضيات يسير بشكل مرض فقد كانت رغبتى على العموم فى أن أبقى حيث أنا ولم أفه بكلمة عن نوع المكان الذى كنت أتردد عليه . وفى نهاية السنة ونصف السنة ، دخلت امتحان المسابقة فى ديسمبر عام ١٨٨٩ وحصلت على منحة دراسية صغيرة . وطيلة الشهور العشرة التى سبقت ذهابى إلى كامبردج لزمت المنزل أستذكر مع الشخص الذى أحضره مدرس الجيش ليعلمنى .

وكان لى أثناء ترددى على المدرس الخصوصى صديق ، هو إدوارد فتزجرالد . وكانت أمه أمريكية وأبوه كنديًّا . وقد اشتهر إدوارد فتزجرالد فى السنين الأخيرة بوصفه من أعظم متسلقى الجبال الذين قاموا بمجهودات باهرة فى جبال الألب النيوزيلندية وجبال الأنديز . وكان أهله من الأثرياء الذين يسكنون فى قصر منيف هو رقم ١٩ فى رتلاند جيت[١] . وكانت له أخت تكتب الشعر ، كما كان هو نفسه صديقاً للشاعر روبرت براونينج[٢] الذى كنت أقابله كثيراً عنده فى القصر . وقد أصبحت فيما بعد زوجـــة للورد إدموند فتزموريس . ثم زوجة لرجل أسبانى تسمت باسمه فأصبحت سنيورا دى فليبى . وكانت هذه الأخت تكبره بكثير ، كما كانت على إلمام تام بالدراسات الكلاسيكية . وقد أضمرت فى نفسى إعجاباً رومانسيًّا شديداً بها ، إلا أننى عندما قابلتها بعد ذلك بمدة ، تبين لى أنها ثقيلة الظل بشكل لا يطاق . وكان أخوها إدوارد قد تلقى تنشئته الأولى فى أمريكا ، كما كان على جانب كبير جدًّا من الثقافة . ولكنه كان يميل إلى

---

(١) انهدم القصر الآن .

(٢) براونينج (١٨١٢ – ١٨٨٩) شاعر إنجليزى من أئمة شعراء القرن التاسع عشر .
كنت قد قابلت براونينج قبل ذلك وعمرى سنتان عندما كان مدعوا للغداء فى بمبروك لودج . وكان براونينج يتحدث بلا انقطاع فى حين كان الجميع يريدون الاستماع إلى الممثل سلفينى الذى كان قد أحضره . وعند ما فاض بى الكيل صرخت قائلا :
« كم أود أن يكف هذا الرجل عن الكلام» ، وقد كف بالفعل .

الكسل والتكلف المرذول وكان متصدراً جداً فى مجالات كثيرة وخاصة فى الرياضيات إذ كان فى وسعه أن يذكر السنة التى صنع فيها نوع مشهور من الخمور أو السيجار الفاخر ، كما كان يستطيع أن يبتلع ملء ملعقة من المستردة المخلوطة بالتوابل الحرافة . وكانت له معرفة وثيقة بمواخير أوربا ، كما كان إلمامه بالأدب واسعاً .وفى أثناء فترة التحضير للدرجة العلمية الأولى بجامعة كامبردج ، جمع مكتبة عظيمة من الطبعات الأولى لبعض الكتب . ولما تقابلت وإياه للمرة الأولى ، أنست إليه فى التو لأنه كان ، على أى الأحوال ، بعكس الآخرين ، إنساناً مهذباً رقيق الحاشية . (مات فى تلك الفترة الشاعر روبرت براونينج ، فلم يبد على أى من الآخرين أنه سمع به على الإطلاق) . وكنت وإدوارد نتوجه لقضاء عطلة آخر الأسبوع معاً فى منزله فنتغدى أولاً مع أهله ثم نقضى فترة السهرة الباكرة معاً . وكان أهلى قد أخذوا يجمعون المعلومات عن أهله فأكد لهم روبرت براونينج أنه لا غبار عليهم . وحتى ذلك الوقت كنت أشعر بالوحدة والانزواء . فلما توثقت عرى المودة بينى وبين إدوا د اندفعت فى حبى له إلى حد سخيف . ولما حل شهر أغسطس دعانى ، لفرط سرورى ، إلى اصطحابه هو وعائلته فى رحلة إلى خارج البلاد . وكانت تلك هى المرة الأولى التى أخرج فيها منذ أن كنت فى الثانية من عمرى . ولذلك تطلعت بشغف إلى مشاهدة بلاد أجنبية . ذهبنا أولاً إلى باريس حيث كان يقام معرض ١٨٨٩ وصعدنا إلى قمة برج إيفل التى كانت جديدة فى تلك السنة . ثم ذهبنا إلى سويسرا حيث تنقلنا فى السيارة من مكان إلى آخر لمدة أسبوع . وكانت نهاية المطاف عند إنجادين . وقد تسلقت ، أنا وإدموند ، جبلين هما بيزكورفاش وبيزبالو . وفى كلتا المناسبتين هبت علينا عاصفة ثلجية أصابتنى الأولى بدوار يعرف بدوار الجبال وفى المرة الثانية أصابه هو الدوار . وهذه المناسبة الثانية كانت مثيرة للغاية فقد هوى أحد المرشدين الذين كانوا يرافقوننا من فوق صخرة عالية وكان لابد من تدلية حبل لالتقاطه . وأثرت فىّ رباطة جأشه إذ كان وهو يهوى إلى أسفل يسب ويلعن .

حدث فى تلك الفترة لسوء الحظ أن اختلفت مع إدوارد فتزجرالد اختلافاً

خطيراً نوعاً ما ، إذ كان يتحدث مع أمه بلهجة نابية لا تغتفر . ولما كنت صغيراً ومتحمساً فقد عنفته على ذلك مما أثار حفيظته ، وقد أسرها فى نفسه لعدة شهور . فلما عدنا من الرحلة ، وكنا نسكن معاً ،حرص على أن يوجه إلى كلاماً موجعاً كان يتفنن فيه . وأصبحت أمقته مقتاً شديداً ، وهو شىء غير مفهوم لى الآن حين أنظر إليه بعد كل تلك السنين . وأذكر أنه فى مناسبة من المناسبات ، استبد بى الغضب إلى حد أنى قبضت على عنقه وبدأت أضغط عليه حتى أخنقه ، وكان فى نيتى أن أقتله ولكن عندما بدأ لون وجهه يمتقع تراجعت . ولا أعتقد الآن أنه كان يعرف أنى كنت أنوى قتله . على كل حال أصبحنا بعد ذلك وطوال تلك المدة التى قضاها فى كامبردج والتى انتهت بزواجه فى نهاية العام الثانى ، أصدقاء على جانب كبير من المودة .

كنت فى خلال هذه الفترة أبتعد بعواطفى شيئاً فشيئاً عن أهلى . صحيح أننى ظللت متفقاً معهم فى الآراء السياسية ، ولكنى كنت أختلف معهم فيما عدا ذلك . وحاولت فى أول الأمر أن أتحدث معهم أحياناً فى أشياء كانت تشغلنى ، ولكنهم كانوا يسخرون منى دائماً وأدى هذا بى إلى أن أمسكت ولم أعد أفتح فمى بكلمة . كان يبدو لى بديهياً فى ذلك الوقت أن الغاية من وراء كل عمل يجب أن تكون سعادة بنى الإنسان ولكنى اكتشفت ، لفرط دهشتى ، أن هناك أناساً لا يقرون هذا الرأى ؛ وكان الاعتقاد فى سعادة بنى الإنسان ، فيما عرفت بعد ذلك ، يقرن بمذهب المنفعة[1] . وكان يعتبر مجرد نظرية من بين نظريات أخرى فى علم الأخلاق . ولذلك تمسكت بذلك المذهب بعد أن اكتشفته واندفعت بطيشى وحماقتى إلى جدتى لأمى كى أعلنها بذلك . فأغرقت فى السخرية منى ، وأخذت منذ ذلك الحين تعرض على عقداً أخلاقية وتطلب منى حلها طبقاً للمبادئ النفعية . ولاحظت أن رفضها للمذهب النفعى لم يكن يعتمد على أسس قوية ، وأن معارضتها له لا تستند على أفكار ذات بال . وعندما اكتشفت أننى أهتم بالميتافيزيقا (أى ما وراء الطبيعة) . ذكرت لى أن

(١) Utilitarianism

الميتافيزيقا كلها يمكن إيجازها فى هذه العبارة : « ما هو العقل ؟ إنه شىء غير المادة . وما هى المادة ؟ إنها شىء لا داعى لأن تشغل عقلك به » . وعندما كررت هذه الملاحظة للمرة الخامسة عشرة أو السادسة عشرةفقدت طرافتها بالنسبة لى . على أية حال لقد استمر تحيز جلدتى ضد الميتافيزيقا طوال حياتها ، كما يبدو من هذه الأبيات التالية :

يا علم الميتافيزيقا ،
الملىء بالألغاز ،
إنك تزيد متاهة الحياة تيهاً ،
وأنت تباهى بأنك تلقى الضوء ،
على ألغاز معتمة مثل الإرادة والقدر ،
ولكنك تزيدها تعقيداً وغموضاً .
إنك تشرح بطريقة مرضية ،
سبب كل عمل
وفى غياهب العقل وجنباته
تدعىّ أنك تجولت ،
وتسمى البديهيات كشوفك العلمية ،
تناولت الصواب والخطأ بالتشريح ،
وجمعت أشتاتهما ،
أما معتقداتنا فلا تهمك فيما يبدو ،
ولكن أنسجة العنكبوت التى نسجتها
وما وقع فيها من ذباب تافه
لا تحتاج إلى مكنسة عجيبة لإزالتها .
إنك لا تدرك أكثر منى
ما معنى الضحك أو الدموع أو التنهدات
أو معنى الحب أو البغض ، أو الغضب ، أو الرثاء .

إذن ، وداعاً ، يا علم الميتافيزيقا ،

واعتقادى أنك ستصبح علماً بالياً عما قريب .

وأذكر أنها قالت لى ذات مرة عندما كبرت : « سمعت أنك تكتب كتاباً آخر » قالتها فى لهجــة من يريد أن يقول : « سمعت أن لك طفلاً آخر غير شرعى » . ولم تعترض على الرياضيات بشكل قاطع . ولكن كان عسيراً عليها أن تدرك أن لها نفعاً . وكانت تأمل أن أصبح قسًّا فى الكنيسة التوحيدية . ولزمت الصمت بالنسبة لآرائى الدينية حتى بلغت الحادية والعشرين من عمرى . وفى الحقيقة لقد وجدت أن حياتى فى المنزل لن تكون محتملة إلا إذا لزمت الصمت التام تجاه كل شىء يثير اهتمامى. لقد كانت جدتى تمارس نوعاً من المزاح ملينًا ، على الرغم من طرافته الظاهرية ، بالتجريح والتعريض . ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت كيف أرد عليها بالمثل ، ولذا كان نصيبى الألم والشقاء . وكانت أجاثا لا تقل سوءاً ، وكان عمى رولاو قد انطوى على نفسه حزناً على وفاة زوجته الأولى . أما أخى الذى كان يدرس فى كلية باليول فقد أصبح بوذيًّا ، واعتاد أن يذكر لى أن الروح يمكن أن يحتويها أصغر مظروف خطاب . وأذكر أنه جالت بخاطرى كل الأغلفة الصغيرة التى رأيتها ، وتخيلت أن الروح كانت تنبض بداخلها كالقلب ، ولكن حديث أخى عن غرائب البوذية لم يقدم لى شيئاً ذا فائدة . ولم أره إلا لماماً بعد أن بلغ سن الرشد ، لأن العائلة اعتبرته آثماً خبيثاً . ولهذا ابتعد عن البيت . وكانت تسيطر على جوارحى الرغبة فى أن أقوم بعمل جليل فى مضمار الرياضيات عندما أكبر ، ولكنى لم أعتقد أننى سألتقى يوماً ما بشخص يمكن أن تربطنى وإياه أواصر الصداقة ، أو يمكننى أن أفضى له بأفكارى فى حرية ، كما أننى لم أكن أتوقع أن يخلو أى جانب من حياتى من شقاء كبير .

وطوال حياتى فى ساوثجيت كنت كثير الاهتمام بالسياسة والاقتصاد . فقرأت كتاب مل « الاقتصاد السياسى » الذى كنت أميل إلى الموافقة تماماً على ما فيه من آراء . كذلك قرأت للفيلسوف هربرت سبنسر الذى بدا لى جامداً أكثر من اللازم فى تمسكه بالنظريات ، وذلك فى كتابه « الإنسان ضد الدولة » ،

ولكنى كنت أوافق بوجه عام على اتجاهه المتحيز . وأرشدتنى عمتى أجاثا لمؤلفات الكاتب الاشتراكى هنرى جو ج صاحب كتاب « التقدم والفقر » . وكانت معجبة بمؤلفاته أيما إعجاب . واقتنعت بأن تأميم الأرض سيأتى بكل المزايا التى يأمل الاشتراكيون أن يجنوها من الاشتراكية ، وظللت أومن بهذا الرأى حتى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) .

وتحمست جدتى لأبى وعمتى أجاثا فى تأييد سياسة جلادستون فى منح الحكم الذاتى لإيرلاندا ، واعتاد كثير من أعضاء البرلمان الإيرلاندى زيارة بمبروك لودج . وكان هذا فى الوقت الذى أعلنت فيه جريدة « التايمز » أن لديها وثائق تثبت أن الزعيم الإيرلاندى بارنيل ، الداعية الكبير لاستقلال إيرلاندا ، كان شريكاً فى جريمة قتل . وهو رأى شارك فيه كل علية القوم تقريباً ، بما فى ذلك الغالبية العظمى من الرجال الذين ظلوا يناصرون جلادستون حتى عام ١٨٨٦ . إلا أنه فى عام ١٨٨٩ ثبت بطريقة مثيرة عدم صحة هذه التهمة عندما عجز المزور بيجوت عن هجاء كلمة « التردد » . ولقد كانت جدتى وعمتى ترفضان بشدة الرأى القائل بأن أتباع بارنيل متحالفون مع الإرهابيين . وكان بارنيل ، الذى صافحته مرة ، موضع إعجابهما . ولكن عندما تورط بارنيل فى الفضيحة سايرتا جلادستون فى التنكر له .

وزرت إيرلاندا مع عمتى أجاثا مرتين . واعتدت فيهما أن أخرج للنزهة إما بمفردى أو مع الوطنى الإيرلاندى ميشيل دافيت . ولقد كان لجمال المناظر الطبيعية أثر عميق على نفسى . وأتذكر على وجه الخصوص بحيرة صغيرة فى مقاطعة ويكلو تسمى لوجالا ، وترتبط فى ذهنى منذ ذلك الحين ، لا لسبب قوى ، بهذه الأبيات :

كما تسير الأمواج نحو الشاطئ المفروش بالحصى
كذا تهرع دقائق حياتنا نحو نهايتها .

وبعد ذلك بخمسين عاماً عندما قمت بزيارة صديقى كرومبتون ديفز فى دبلن ، ألححت عليه فى أن يأخذنى لزيارة لوجالا . ولكنه أخذنى إلى غابة عالية

تطل على البحيرة ، وقفلت راجعاً وأنا مؤمن بأنه يجب على الإنسان ألا يحاول إحياء الذكريات القديمة .

وفى عام ١٨٨٣ اشترى عمى روللو منزلاً على منحدرات هايندهد ظللنا لوقت طويل نتردد عليه ثلاثة أشهر كل عام . ولم تكن توجد فى ذلك الوقت منازل فى هايندهد ، إلا حانتان مهجورتان ، حانة الأكواخ الملكية وحانة الأشواك السبعة (إنهما الآن ليستا مهجورتين) . وكان البناء يسير قدماً فى بيت تندال الذى كان قدوة لغيره فى بناء منازل هناك . وكثيراً ما ذهبت لرؤية تندال الذى أعطانى أحد كتبه يسمى « أشكال الماء » . ولقد أعجبت به . كعالم من العلماء البا زين . وكنت أتمنى بشدة أن أترك انطباعاً طيباً فى نفسه . ولقد نجحت فى ذلك مرتين . كانت الأولى عندما كنت أتحدث مع عمى رولاو وأنا أضع على أصبعى فى شكل متوازن عصوين بمقبضيهما . ولقد سألنى تندال عما أفعل فذكرت له أننى أفكر فى طريقة عملية لتحديد مركز الجاذبية . والمرة الثانية كانت بعد الأولى بسبع سنين عندما أخبرته أننى تسلقت جبل بيز بالو . وكان هو من رواد التسلق على جبال الألب . وكذلك كنت أجد سروراً أعجز عن وصفه فى التجول وسط نباتات الخليج مبتدئاً من أعلى نقطة فى بلاكدون ، نازلاً إلى بنشبول حتى أصل إلى « الديفلز جمبس » عند تشيرت . وأتذكر على وجه الخصوص تجولى فى طريق صغير يدعى « حارة الأم بنش » (وهو الآن طريق مزدحم بالمنازل ، عليه لافتة مكتوب عليها « حارة بنش ») . وظل هذا الطريق ينكمش حتى أصبح مجرد ممر يفضى إلى تل هيرت . وعلى حين غرة ، ودون انتظار سابق ، رأيت منظراً عظيما يضم نصف مقاطعة سكس وكل مقاطعة سرى . مثل هذه اللحظات كان لها أثر فى حياتى ، إذ أننى تبينت أن الأشياء التى حدثت لى خارج المنزل ، قد أحدثت انطباعاً أعمق من تلك التى وقعت داخله .

ملحق : « تمرينات يونانية » :

٣ مارس ١٨٨٨ — سأكتب الآن عن موضوعات شغلتني . لقد دفعتني ظروف شتى لأن أمعن النظر فى أسس الدين الذى نشأت عليه . فى بعض الأمور أكدت النتائج التى توصلت إليها عقيدتى السالفة ، وفى أمور أخرى توصلت إلى آراء لا تفزع الناس فحسب ، بل سببت لى كثيراً من الألم . لقد وصل إيمانى إلى حد التأكد من أشياء قليلة ، ولكن آرائى ، وإن لم تبلغ حد المعتقدات ، كانت فى بعض الأمور أقرب إلى اليقين . ولم تكن لدىّ الشجاعة بأن أكاشف أهلى . فإن اعتقادى بالخلود لم يكن جازماً . ولقد تعودت أن أتحدث فى حرية عن مثل هذه الأمور لمستر إيوين . ولكنى الآن لا أستطيع الإفضاء بأفكارى لأحد ، وهذه هى الطريقة الوحيدة التى أنفس بها عن نفسى . أعنى التحدث عن مشاكلى فى هذا المجال .

١٩ مارس — إننى أنوى اليوم شرح أسس إيمانى بالله . ويمكننى القول بادئ الأمر إننى أومن بالله إيماناً أكيداً ، وإنه يجب أن أسمى نفسى ربوبيًّا ، إذا كان علىّ أن أطلق اسماً على عقيدتى . وفى البحث عن دواعى إيمانى بالله سأقتصر على الحجج العلمية . إن هذا عهد قطعته على نفسى ، وكلفنى التمسك به أو عدم الانسياق لأى عاطفة ، الكثير من العناء والجهد . وعند البحث عن دواعٍ علمية للإيمان بالله يجب أن نعود إلى بدء الخليقة . نحن نعلم أن قوانين الطبيعة الحالية كانت ثابتة على الدوام . وأن نفس كمية المادة والطاقة الموجودة الآن فى الكون كانت موجودة حتما منذ الأزل ، ولكن نظرية السدم تشير إلى تاريخ غير سحيق كان الكون فيه ممتلئاً بخليط لا يمكن تمييزه من المادة السديمية . ولذا فن الممكن جداً أن المادة والطاقة الموجودة الآن قد خلقت ، وهذا يعنى بوضوح أن قوة إلهية قد خلقتها . وإذا فرضنا أنها كانت موجودة منذ الأزل ، فن أين أتت هذه القوانين التى تنظم تفاعل الطاقة بالمادة ؟ أعتقد أنه لا يمكن أن تعزى إلا لقوة إلهية مسيطرة ، وهى التى أسميها الله .

٢٢ مارس — والآن دعنا نبحث عما إذا كانت هذه الحجج يقبلها العقل

أم لا . فلنفرض أن الكون الذى نراه الآن ، نشأ بمحض المصادفة ، كما يدعى البعض ، فهل نتوقع إذن أن كل ذرة تتفاعل فى ظروف معينة تفاعلاً مماثلاً تماماً لتفاعل ذرة أخرى ؟ أعتقد أنه إذا كانت الذرات خالية من الحياة فليس هناك ما يدعو لأن ننتظر منها أى تفاعل دون قوة مسيطرة . ومن الناحية الأخرى إذا فرض أنها زودت بإرادة حرة فإن هذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن كل ذرات الكون قد تجمعت فى رابطة مشتركة والتزمت بقوانين لا يحيد عنها أى منها . من الجلى أن هذا فرض سخيف ، وهذا يدفعنا إلى الإيمان بالله . ولكن إثبات وجود الله بهذه الطريقة فيه إنكار لوجود المعجزات ومظاهر أخرى للقوة الإلهية ، وإن كان على أية حال لا ينكر احتمال حدوثها ، لأنه فى إمكان مشرع القوانين أن يلغيها ، بالطبع . ويمكن أن ننكر وجود المعجزات بطريقة أخرى ، إذ أنه إذا كان الله مشرع القوانين ، فإن المعجزات تعنى بالتأكيد عيباً فى القانون ذاته . إذ لابد من تغييره بين الحين والحين ، ومثل هذا العيب لا يمكن أن نرده إلى قوة إلهية . ومن أمثلة هذا ما ورد فى الكتاب المقدس من أن الله ندم على فعله .

٢ أبريل — والآن أتناول موضوعاً يهمنا نحن أبناء الفناء المساكين أكثر من أى موضوع آخر ، أعنى به الخلود . لقد سبب لى هذا خيبة أمل ، وعذاباً أكثر من أى موضوع آخر . هناك طريقان لمعالجة هذا الموضوع ، أولهما عن طريق التطور ومقارنة الإنسان بالحيوان ، وثانيهما عن طريق مقارنة الإنسان بالله . إن الطريقة الأولى علمية أكثر لأننا نعلم كل شىء عن الحيوان لا عن الإله . وإذا بدأنا بحرية الإرادة ، وفرضنا أنه لا يوجد حد فاصل بين الإنسان والحيوانات البروزيوية ، وجب علينا إذن أن نمنح حرية الإرادة لكل منها ، وهذا أمر من العسير القيام به . لهذا ، فإنه ما لم نكن راغبين فى منح حرية الإرادة للحيوانات البروزيوية ، فإنه لا يتسنى لنا منحها للإنسان . هذا أمر ممكن وإن كان من الصعب تصوره ، فإذا ما تجمعت البر وتوبلزمات ، وهذا يبدو محتملاً على ما أرى ، بطريقة طبيعية دون تدبير إلهى خاص ، فإن هذا يعنى أننا وكل الكائنات الحية لا تسيرنا إلا قوى كيمائية ، وأننا لا نفوق الشجرة التى لا يدعى

أحد أن لها حرية إرادة ، وحتى إذا كان لدينا معرفة كافية بالقوى التى تؤثر على أى إنسان فى وقت ما ، والدوافع المسيرة والرادعة ، وتركيب مخه فى أى وقت ، حينئذ يمكننا الجزم بما سيقوم به من أفعال . ومن الناحية الدينية نجد أن ادعاءنا حرية الإرادة أمر يتسم بالتبجح ، إذ أن هذا بالطبع تدخل فى قوانين ثابتة سنها الله ، تسير أعمالنا . أعتقد أنه يجب أن نترك لله سن القوانين التى لا تخرق أبداً والتى تحدد أفعالنا . وبما أننا لا نملك حرية الإرادة فلا يمكن أن ننعم بالخلود .

الاثنين ٦ أبريل — أتمنى أن أومن بالحياة الأبدية إذ أنه لمما يشقينى كثيراً أن أفكر فى الإنسان على أنه مجرد آلة منحت ، لتعاستها ، الوعى . على أنه ليست هناك نظرية أخرى تتمشى مع القدرة الشاملة لله التى يقدم العلم شواهد كافية عنها . وهكذا فليس هناك من سبيل إلا أن أكون ملحداً ! أو غير مؤمن بالخلود. وعندما وجدت الأمر الأول مستحيلاً ، آثرت الاختيار الثانى ، دون أن أخبر أحداً . وعلى الرغم من أن هذه الفكرة عن الإنسان مخيبة للآمال إلا أننى أعتقد أنها تعطينا فكرة مدهشة عن عظمة الله إذا فكرنا أن الله فى البداية استطاع أن يسن قوانين أنتجت بتفاعلها مع مجرد كتلة سديمية من المادة — ربما كانت مجرد أثير منتشر فى هذا الجانب من الكون — أنتجت مخلوقات مثلنا لا تشعر بوجودها فحسب بل تستطيع أن تتعمق إلى حد ما فى تفهم الأسرار الإلهية وكل هذا دون تدخل من جانبه . والآن دعنا نرى إذا كان مبدأ عدم وجود الإرادة الحرة أمراً يثير السخف أم لا . إذا تحدثنا عنه لأى إنسان فإنه يتغامز ولا يكترث . قد يكون هذا خارجاً عن إرادته لأنه يتصدى لأمر يستلزم تقديم براهين منا ، لا قبل له بها . وهكذا نرى أنه فى كل عمل نقوم به لا بد من دوافع وراءه . وكذلك ليس هناك حد فاصل بين شكسبير أو هربرت سبنسر وأحد سكان بابوا . ولكن بينهما وبين أحد سكان بابوا اختلافاً كبيراً كاختلاف أحد سكان بابوا عن القرد .

١٤ أبريل — إلا أن هناك صعوبات تقف فى سبيل المبدأ القائل إن الإنسان

لا يملك الخلود أو حرية الإرادة أو الروح ، وإنه باختصار نوع راق من أنواع الآلة قد زود بالوعى . إذ أن الوعى فى حد ذاته صفة تميزه عن المادة الصماء . وإذا كان للإنسان صفة تميزه عن المادة الصماء فلماذا لا تكون له صفة أخرى ، ولتكن حرية الإرادة ؟ وأعنى بحرية الإرادة أنه على سبيل المثال لا يخضع للقانون الأول للحركة ، أو أن اتجاه الطاقة التى يستغلها على الأقل لا يعتمد كلية على ظروف خارجية . وفوق ذلك ، يبدو أنه من المستحيل أن نتصور أن الإنسان بما له من عقل ، ومعرفة بالكون ، وآراء عن الصواب والخطأ ، وعواطف كالحب والكره ، وبما له من دين ، لا يعدو كونه مجرد مركب كيمائى زائل تعتمد شخصيته والأثر الذى يتركه ، سواء أكان خيراً أم شريراً ، اعتماداً تامّاً على الحركة المعينة لجزئيات المخ ، وأن كل عظماء الرجال تكمن عظمتهم فى تفاعل جزيئة من المخ مع أخرى بسرعة أكثر مما نجد عند غيرهم من الناس . ألا يبدو هذا أمراً غير معقول تماماً ؟ أليس من يؤمن بهذا السخف مجنوناً ؟ ولكن ما هو البديل؟ إذا سلمنا بنظرية التطور التى تثبت صحتها عمليّاً والتى تقول إن ذكاء القردة ازداد تدريجيّاً ، وإن الله فجأة وبمعجزة أضفى على أحدها العقل العجيب الذى لا ندرك سر امتلاكنا له . إذن ، هل يمكن أن نسمى الإنسان بحق أعظم خلق الله ؟ هل يقدر على الإنسان أن يهلك تماماً بعد أن تطور خلال عصور شتى ؟ إننا لا ندرى ، ولكنى أوثر تلك الفكرة على القول بأن الله سعى إلى معجزة لخلق الإنسان ثم تركه حرّاً يفعل ما يشاء .

١٨ أبريل — وإذا سلمنا بالنظرية القائلة بأن الإنسان فان لا يملك حرية الإرادة ، وهذه مجرد نظرية على الدوام لأن مثل هذه الأمور لا تعدو كونها تخمينات ، فما فكرتنا إذن عن الخطأ والصواب ؟ يتساءل كثير من الناس إذا ما ذكرت مبدأ القدرية السخيف ، الذى يعنى أنه لا إرادة لنا ، على غير مايعتقد رجال الدين ، يتساءلون عن الضمير الذى يعتقدون أن الله غرسه فى الإنسان . إننى أعتقد أن الضمير يرجع أولاً إلى التطور الذى يكون بالطبع غرائز حب البقاء . ولنأخذ على سبيل المثال الوصايا العشر كتوضيح للأخلاق البدائية . كثير منها

يؤدى إلى حياة هادئة للمجتمع ، وهى أفضل للمحافظة على النوع الإنسانى . وهكذا فإن أسوأ جريمة يمكن حدوثها ، والتى يعقبها أكبر ندم يشعر به إنسان هى جريمة القتل لأنها إفناء مباشر للنوع . ونعلم أيضاً أن العبرانيين كانوا يعتقدون أن من نعم الله أن يرزقهم أطفالاً كثيرين ، ومن نقمته أن يحرمهم من الولد . كذلك نرى أن الرومان كانوا يمقتون الأرامل وكانوا يحرمون عليهن البقاء بدون زواج أكثر من عام . ما الداعى لهذه الآراء الغريبة ؟ أليس لأنها لا تأتى ببشر جدد ؟ لهذا ندرك تماماً سبب انتشار هذه الآراء عندما يتحكم العقل فى البشر ، إذ أنه لو انتشرت الجريمة والانتحار بين قبيلة ما ، فإن هذه القبيلة ستنقرض ومن ثم امتازت القبيلة التى تمقت مثل هذه الأفعال عن نظيراتها . بالطبع ، لقد طرأ تعديل على هذه الآراء فى المجتمعات المتعلمة . أما عن رأيى فإننى سأعرضه فى المرة القادمة .

٢٠ أبريل — إنى أعتقد أن الأخلاق الفطرية تنبع دائماً من فكرة بقاء النوع . ولكنى لا أعتقد أنه ينبغى للمجتمعات المتحضرة أن تسير وفق هذه القاعدة . أما قاعدتى فى الحياة ، التى تهدينى فى سلوكى والتى أعتبر أى انحراف عنها خطيئة ، فهى أن أسلك بطريقة قد تجلب أكبر سعادة ممكنة ، سواء فى الكم أو الكيف . لقد اعتبرت جدتى هذه القاعدة غير عملية إذ أنه لا يمكن أبداً معرفة الشىء الذى يأتى بأكبر سعادة ، لهذا من الأفضل أن يسير الإنسان وفق ضميره . والضمير ، على أية حال ، يعتمد غالباً على التعليم ، فالإيرلندى العادى مثلاً لا يعتبر الكذب ذنباً ، وهذه حقيقة تكفى لإنكار قدسية الضمير . وبما أن الضمير ، على ما أعتقد ، ما هو إلا نتاج مشترك للتطور والتعليم ، فمن السخف إذن أن نتبعه ، بدلاً من اتباع العقل . إن عقلى يهدينى ويجعلنى أوثر القيام بأعمال تجلب أكبر سعادة . وعبثاً حاولت أن أقتفى طريقاً غير هذا ، ولم أكن أقصد سعادتى الذاتية بصفة خاصة ، بل سعادة الجميع دون تمييز بين نفسى ، وأقربائى ، وأصدقائى ، أو حتى الغرباء عنى تماماً . لا أكترث كثيراً بمشاركة الناس لى فى الرأى ، لكن من الجلى أنه إذا

تسئ للناس اكتشاف آرائى . فمن الأفضل أن أفعل ما يعتقدونه صواباً . وأعلل هذا الرأى بما يلى :

أولاً لا سبيل لى غير ذلك بعد أن اضطررت ، كما يفعل كل إنسان يفكر تفكيراً جدياً فى التطور ، أن أتخلى عن الفكرة القديمة بأن ألجأ إلى ضميرى ، ثم إنه يبدو لى أن السعادة شىء عظيم نسعى إليه . وكتطبيق عملى لهذه النظرية يمكننى القول إننى إذا كنت فى موقف لا يمس إلا شخصى . هذا إذا فرض وجود مثل هذا الموقف ، فإننى أسلك سلوكاً يرضى نفسى تماماً . ولنفرض أننى وجهت بالمصادفة بموقف أستطيع أن أنقذ فيه رجلاً موته أفضل من حياته . من الجلى أننى إذا سرت وراء سعادتى الذاتية فإننى ألقى بنفسى لإنقاذه ، لأنه إذا فقدت حياتى فإن هذه طريقة جميلة لإنهائها ، وإذا ما أنقذته ، فسأشعر بسعادة للثناء الكبير الذى سألقاه من الناس . ولكن إذا ما تركته يغرق فإننى سأضيع فرصة طيبة للموت وأشقى من اللوم الذى سيصب علىّ ، هذا وإن كان موته أفضل لعالمنا ، ولحياتى بدلاً من تعرضها لمجازفة ما .

٢٩ أبريل — لقد قطعت على نفسى عهداً أن ألتمس فى كل شىء هدى العقل لا الغرائز التى ورثت جانباً منها من أجدادى الذين حصلوا عليها تدريجيًّا طبقاً لعملية الاختيار الطبيعى ، وجانباً آخر من تعليمى . إنه من السخف أن نسير وفق الغرائز فى الحكم على الخطأ والصواب . إذ أن الجانب الموروث ، كما لاحظت سلفاً ، لا يعدو كونه مبادئ تؤدى إلى حفظ النوع الذى أنتمى إليه ، لأن الجانب الذى نتج عن التعليم قد يكون خيراً أو شرًّا تبعاً لتعليم الفرد . إلا أن هذا الصوت الداخلى ، هذا الضمير الذى دفع الملكة مارى سفاكة الدماء لأن تحرق البروتستانت ، هو ما يجب علينا نحن العقلاء أن نسير بهديه . إننى أعتقد أن الاهتداء بالغريزة أمر بعيد عن الصواب ولذا سأحاول قدر استطاعتى أن أسترشد بعقلى . وإذا كان مثلى الأعلى هو أن أقوم بأعمال تؤدى فى النهاية لأكبر سعادة لأكبر عدد من الناس ، فإنه يجب أن أحكم العقل فى تبين الطريق الذى يحقق هذا الهدف . وفى أحوالى الخاصة ، على أى حال ، أسير أيضاً وفق ضميرى نظراً لما حصلت عليه من تعليم ممتاز . إلا أنه من الغريب

أن نرى الناس يكرهون التخلى من غرائزهم البهيمية والاسترشاد بالعقل . أذكر أن أوين[١] المسكين تورط فى جدل طوال وقت العشاء لأنه هاجم الدوافع الغريزية. واليوم أثناء شاى بعد الظهر تناقشت والآنسة بوهلر طويلاً لأننى قلت إننى أتبع العقل لا الضمير فى المسائل التى تتعلق بالخطأ والصواب . إننى أمقت جداً اعتناق آراء غريبة لأننى إما أن أحتفظ بها فى طيات نفسى ، وإما أفزعت الناس بتشككى ، وهو أمر لا يقل سوءاً عن الانطواء على نفسى . إننى سأشعر بالأسف عندما ترحل الآنسة بوهلر لأننى كنت أفتح قلبى لها أكثر من أهلى ، مع ما فى هذا من غرابة .

٣ مايو — رحلت الآنسة بوهلر وتركتنى لوحدتى وانطوائى . من حسن الحظ ، على كل حال ، أن كل شىء كان معداً لسفرى إلى ساوثجيت فى مدى أسبوع تقريباً . وهذا ، على ما أعتقد ، سينقذنى من التفكير الممل أثناء الأسبوع ، لانشغالى بالعمل ، وبجدة المكان . ولن أتوقع أن أقضى وقتاً ممتعاً إلا بعد مضى فترة من الزمن ، كما أنى واثق بأن سفرى سيكون مفيداً لعملى ، ولرياضتى ، ولسلوكى ولسعادتى المستقبلة .

٨ مايو — ما أسعد حياتى ، لولا أفكارى التعسة حول اللاهوت . غداً سأرحل ، وهذا المساء قامت جدتى بصلاة جميلة من أجل حياتى الجديدة ، ومن بين ما ذكرت فيها دعوتها بأن يهدينى الله لمعرفة مدى حبه الكبير لى . إن هذا الدعاء لا يمكن أن أردده من كل قلبى ، وإن كنت فى مسيس الحاجة إليه . إذ أنه طبقاً لأفكارى عن الله ليس هناك سبب يدعو للافتراض بأنه يولينا حبه . إذ أنه اكتفى بإدارة الآلة فى بادئ الأمر ، وتركها تستخلص النتائج الضرورية لها . والآن يمكنك الادعاء بأن قوانينه وضعت بشكل يهيئ أكبر سعادة ممكنة لنا ، نحن البشر الفانين ، لكن هذا القول يفتقر إلى الدليل . إذن ، لا أرى ما يبرر الاعتقاد بأن الله عطوف علىّ ، على الرغم من تأثرى من دعاء جدتى الجميل ونيتها الخالصة . إنه لأمر يجلب السعادة حقاً أن يكون

(١) صديق للمؤلف .

حولك مثل هؤلاء الناس ، وماذا كان يحل بى يا ترى لو أننى نشأت فى وسط أسوأ من هذا .

دعنا ننتقل الآن إلى موضوع أكثر بهجة . لقد قضيت أنا ومارشال[١] يوماً ممتعاً . إذ ذهبنا إلى شاطئ النهر ، وسرنا إلى بروم هول حيث كان يعيش أخى ، وركبنا زورقاً يملكه فرانك وجدناه هناك ، ثم جدفنا أبعد من كوبرى كنجستون دون أن يشاهدنا أحد فى بروم هول سوى رجل عجوز أعرج لا أدرى من يكون . وكان مارشال تواقاً لشرب بعض الشاى ولهذا ذهبنا إلى نزل وضيع . وكان كل منا يبدو كالأبله وهو يسير دون سترة بدلته إذ تركناها عند مرسى القوارب فى تدنجتون ، ولهذا اعتقدت الخادمة التى كانت صفيقة لدرجة لم أعهدها من قبل ، أننا نجاران أتيا لإصلاح البيت . ثم جدفنا عائدين بأسرع ما يمكن وكان العرق يتصبب منا بغزارة . ولقد وصلنا إلى البيت متأخرين عشر دقائق ، بعد هذه الفترة القصيرة من التجديف .

٢٠ مايو — هأنذا فى بيتى بعد عودتى من ساوثجيت مباشرة . إنه مكان لطيف ، على ما يبدو ، وإن كان من المؤسف حقاً أن أرى مثل هؤلاء الصبية الذين لا إدراك لهم ، ولا تفكير مستقل ، ولا ولع بالكتب المفيدة ، ولا بالقيم الأخلاقية السامية . إنه من المؤسف حقاً أن نرى أولاد علية القوم فى مجتمع متحضر وفى بلد من المفروض أنه متمسك بالأخلاق فى مثل هذه الحالة المزرية . ولقد شعرت بالسعادة لأننى لم أرحل بعيداً عن منزلى قبل ذلك ، وإلا كنت مجرد واحد منهم (بهذه المناسبة ، إننى أزداد تظاهراً بالتدين بشكل مريع) إننى أعتقد أن الستة الأشهر التى مضت منذ رحيل بيلى ، قد أحدثت تغيراً فى نفسى . لقد أصبحت أكثر هدوءاً ، وتفكيراً وشاعرية عن ذى قبل . وأستشهد على ذلك بشىء بسيط . لم أكن أفكر فى مناظر الربيع ولكن هذا العام استولى علىّ جمالها لدرجة أننى سألت جدتى عما إذا كانت تبدو أكثر جمالاً من المعتاد . فأجابت بالنفى ، إننى أهوى الشعر أكثر من قبل . ولقد تمتعت بقراءة

(١) هو أحد الذين تولوا تعليمى سابقاً .

كل مسرحيات شكسبير التاريخية ، وأود أن أقرأ قصيدة « الذكرى » للشاعر تينيسون .

٢٧ مايو — كما ذكرت فى المرة الماضية ، إننى أحاول أن أسير وفق مبادئ دون انتظار أدنى جزاء ، وحتى دون الاسترشاد بالضمير على أنه ضوء لا يُضِلّ السبيل وواضح أن من العسير على أى إنسان أن يسير على الطريق السوىّ دون عون من الدين ، ومكتفياً بما يمليه عليه ضميره فحسب . لقد حاولت ذلك دون جدوى . لكن من المؤسف أنه لا ملجأ لى سوى الضمير ، فليس لدىّ دين يعيننى . ومبادئى ، بحالتها الراهنة ، لا تعيننى فى حياتى اليومية أكثر من معادلة جبرية . ولكن أكثر حافز إلى حياة صالحة بالنسبة لى ، هو حب جدتى لى والألم البالغ الذى أسببه لها إذا ما أخطأت . لكنها ستموت يوماً ما ، فلمن ألجأ يا ترى ؟ إن معظم ما أخشاه هو أن حياتى بعدها ستتحطم دون سند من الدين . وأكبر ما أتمناه هو ألا ينتشر دينى لأنه ينبغى علىّ ، دون كل الناس ، ونظراً لتربيتى وشـــدة العناية بالجانب الأخلاقى فيها ، أن أكون أكثر الناس تمسكاً بالأخلاق . وكان ذلك ممكناً لولا أفكارى التعسة ، إذ أنه من اليسير على الإنسان الذى يتعرض لإغراء شديد أن يقنع نفسه بأن السعادة لا تأتى إلا بالرضوخ لهذا الإغراء ، عندما يرى على ما أعتقد ، أن السبيل الذى نشأ على مقته قد أصبح فاضلاً . وإذا ما تحطمت آمالى فإننى سأقدم هذا الكتاب لتعليل ذلك . إننا فى حاجة إلى لوثر جديد يجدد الإيمان ويبعث الحياة فى المسيحية ويفعل مثل ما يفعله أنصار مذهب التوحيد لو أن لهم زعيما عظيما كلوثر يتولى أمر مبادئهم . لأن الديانات ، كالأشجار ، تطعن فى السن ، ما لم تتناولها يد الإصلاح من وقت لآخر . لقد كانت للمسيحية مبادئها الحالية أيام مجدها . إننا نريد شكلاً جديداً يتمشى مع العلم ويرشدنا فى الوقت نفسه لحياة طيبة .

٣ يونيو — من الغريب جداً أنه لم يتيسر لى الإيمان إلا بعدد قليل من المبادئ أو العقائد ، إذ أننى تبينت أن العقائد التى كنت أومن بها بدأت تنزلق واحدة بعد الأخرى إلى مناطق الشك . لم أشك لحظة ، على سبيل المثال فى أن الحقيقة

شيء طيب ينبغي للإنسان أن يتمسك به . لكني الآن يستبد بي عظيم الشك والارتياب لأن السعي وراء الحقيقة قد أدى بي إلى هذه النتائج التي دونتها في هذا الكتاب ، في حين لو كنت رضيت بتعاليمي التي تلقيتها في شبابي لأرحت نفسي من عناء هذا الشك . إنه السعي وراء الحقيقة الذي حطم معظم معتقداتي السابقة ودفعني إلى ارتكاب خطايا ما كان أغناني عنها ، ولا أعتقد أن هذا قد جعلني أكثر سعادة . إنه بالطبع قد زاد شخصيتي عمقاً وجعلني أزدري التفاهات ولا أكترث بالسخرية ، لكنه حرمني من الانشراح وزاد من صعوبة تكوين صداقات حميمة ، وأدهى من ذلك وأمر أنه حال بيني وبين الدخول في علاقات غير متكلفة مع الناس وهذا جعلهم لا يألفون بعض أفكاري العميقة التي إذا صادف أن أفصحت عنها لهم أصبحت على التو موضع سخرية كانت مريرة على نفسي إلى درجة لا توصف ، وإن كانوا لا يقصدون إيذائي إلى هذا الحد . وهكذا في حالتي الخاصة أعتقد أن تأثير السعي وراء الحقيقة كان شره أكثر من خيره . إلا أن الحقيقة التي أقبلها يمكن القول إنها ليست حقيقة ما ، وقد يقال إنني أنال سعادة كبيرة لو توصلت إلى الحقيقة الأصلية ، وإن كان هذا فرضاً مشكوكاً فيه للغاية . ولهذا فإنني أشك كثيراً في أن الحقيقة لا تنطوي إلا على الخير . إن الحقائق البيولوجية بالتأكيد قد حطت من نظرتنا إلى الإنسان ، وهذا أمر مؤلم . وعلاوة على ذلك ، فإن الحقيقة قد نفرت الأصدقاء القدامى مني ووقفت حائلاً دون تكوين أصدقاء جدد ، بكل أسف . على أي حال ، ينبغي أن ينظر الإنسان إلى هذه الأمور على أنها نوع من التضحية بالذات ، لأن الحقيقة التي يتوصل إليها إنسان ما غالباً ما تزيد من سعادة كثيرين غيره ، وإن كان لا أثر لها على سعادته هو . على العموم ، إنني أميل إلى مواصلة السعي وراء الحقيقة ، من هذا النوع الذي ذكرته في هذا الكتاب ، وإذا كانت هذه حقيقة بالفعل فإنني لا أنوي نشرها بل العكس هو الصحيح .

١٥ يوليو — لقد بدأت إجازتي منذ أسبوع تقريباً ، وبدأت أعتاد حياة المنزل ، وأنظر إلى ساوثجيت على أنها حلم من أحلام الماضي . فعلى الرغم

من أنى أذكر للناس أننى مولع بهذا البلد ، إلا أن الحياة هناك فى الحقيقة تزخر بالمتاعب والمواقف المحرجة ، وإن كانت أفضل مما كنت أتوقع . لا أظن مثلا أن إنساناً يمقت الإزعاج ولا يحتمل السخرية مثلى ، وإن كنت أتظاهر بضبط النفس . إننى أشعر باشمئزاز أكثر من غيرى بكثير إذا ما أجبرت على الغناء أو الوقوف على الكراسى أو الاستيقاظ فى منتصف الليل للسكر والعربدة . إننى دائماً أفكر بطريقة منطقية فيما يجب علىّ قوله أوعمله إذ لدى من ضبط النفس ما يمكننى من تقديم أفضل ما عندى ، ولذا فإن الانفعال الذى يبدو بسيطاً للآخرين ، يرهقنى ويهز أعصابى . وعلى كل فهو أمر جميل إذ أنه يزيد من مقدرتى على التمتع ويدعم أخلاقى إلى حد كبير . ولن أنسى وسط هذه العجالة دهشتهم لأننى لا أستخدم كلمة « ملعون » ، الأمر الذى يجعلنى فى نظرهم مجرماً . إن هذا ، على أية حال ، أمر سيئ بالنسبة لهم ، على الرغم من أن هناك جرائم كثيرة ترتكب بالفعل . . . وأشعر بالسعادة إذ إننى لم أذهب إلى المدرسة من قبل ، وإلا افتقرت إلى الشجاعة والمقدرة على التفكير المبدع المستقل ، الأمر الذى إن كان يسبب لى شقاء وألماً ، فإنه أكبر ملاذ لى وقت الشدة . وكثيراً ما يشد من أزرى ما أشعر به من احتقار وازدراء ، حتى وإن كان فى غير موضعه ، نحو كل من يعاملنى بحقد أو اضطهاد . وأعتقد أن شعور الاحتقار له ما يبرره إذا سمعت إنساناً اعتاد ترديد عبارات سقيمة ممجوجة . ربما لو أننى لم أتلق تعليما ممتازاً لأصبحت واحداً مثلهم . على كل ، إننى أشعر بأنه يجب أن أمتع نفسى بحياة المنزل أكثر من ذى قبل ، وأن أتخيل نفسى بطلاً مقداماً حتى يتسنى لى تقبل ما حدث فى ساوثجيت من متاعب وشقاء .

٢٠ يوليو — يمكن أن ننظر إلى مسألة حرية الإرادة من ثلاث زوايا مختلفة ومتشابكة فى نفس الوقت ، أولاها تتعلق بقدرة الله المطلقة ، وثانيتها من وجهة نظر حكم القانون ، وثالثتها تتعلق بالحقيقة التى تقول بأن كل أعمالنا ، إذا ما أمعنا النظر فيها ، تبدو وكأنها ناتجة عن دوافع معينة . نحن نرى فى الحال أن هذه الزوايا الثلاثة واحدة ، فقدرة الله المطلقة تعنى نفس الشىء كحكم

القانون ، وتحديد الأعمال بدوافع هو المظهر الخاص الذى يراه حكم القانون عندما يحكم على إنسان . دعنا نمعن النظر فى كل من هذه الوجوه الثلاثة . ماذا نعنى أولاً بحرية الإرادة إذا نظرنا للأمر من وجهة نظر القدرة المطلقة لله ؟ إن هذا يعنى أنه إذا كان أمامنا مجالات عديدة للعمل أمكننا أن نختار أحدها . ولكن طبقاً لهذا التعريف ، إن الله لا يتحكم فيها ، وإننا دون الخلق أجمعين ، لا نعتمد عليه . إن هذا يبدو أمراً غير محتمل ، وإن لم يكن مستحيلاً . إذ أن قدرة الله المطلقة ما هى إلا استنتاج . ولننتقل إلى الزاوية الثانية التى تتعلق بحكم القانون . من الواضح أن القانون يسيطر سيطرة كاملة على كل شىء نعرفه ، إلا الحيوانات الراقية . ويتبين وقوع الإنسان تحت سيطرة القانون من إمكان وجود قانون مثل قانون « جريم » ومن إمكان التنبؤ أحياناً بأفعال الإنسان . إذا كان الإنسان خاضعاً للقانون ، ألا يعنى هذا أن أعماله محددة سلفاً كتحديد النبات ونموه ؟ حقًّا إن دوق « أرجايل » يتحدث عن الحرية داخل نطاق القانون ، لكن هذه العبارة لا معنى لها ، فى نظرى ، لأن الخضوع للقانون لابد أن يعنى نتيجة ما تتبع دائماً ظروفاً معينة . حقًّا إن اختلاف الناس يجعلهم يسلكون سلوكاً متبايناً لو ووجهوا بنفس الظروف والمواقف ، لكن هذا راجع لاختلاف شخصياتهم ، مثلهم مثل مذنبين يتجهان من نفس المكان اتجاهاً متبايناً ، وذلك لاختلاف الصفات الخاصة بكل منهما . أما الزاوية الثالثة ، وهى التى تتعلق بالنظر للدوافع ، فهى أقوى الزوايا الثلاثة . فإذا ما تأملنا أى عمل مهما كان أمره ، وجدنا وراءه دائماً دوافع ، لا سيطرة لنا عليها أكثر من سيطرة المادة على القوى التى تتفاعل معها ، والتى تسبب أعمالنا . إن دوق « أرجايل » يقول إنه فى إمكاننا تقديم دوافع لأنفسنا ، لكن ألا يسمى هذا عملاً تحدده شخصيتنا وأشياء أخرى لا حيلة لنا فيها ؟ إن الدفاع عن حرية الإرادة على أنها شىء نشعر به لا يستحق منا عناء الإجابة ، لأننا لا نشعر بالدوافع التى توجد بالفعل ، ولا نشعر بتبعية العقل للمخ ، وغيرها من الأمور . على أى حال إننى لست على استعداد لإنكار حرية الإرادة إنكاراً باتًّا ، إذ

أننى كثيراً ما تبينت أن الحجج السليمة التى تثبت قضية ما من القضايا لا تتضح إلا إذا ذكرها شخص ما . إننى أميل بطبعى لإنكار حرية الإرادة ، ولكن قد تكون هناك حجج ممتازة تؤيد حرية الإرادة ، حجج لم تخطر ببالى ولم أشعر بها شعوراً قوياً . . . ليس من السهل أن أقدم على الانتحار دون مبالاة ، الأمر الذى أعتقد أنه يجب على القيام به ، لولا تفكيرى فى أهلى وعشيرتى .

الفصل الثالث

كامبردج

كان أبى قد نال تعليمه فى كامبردج ، لكن أخى تعلم فى أكسفورد . والتحقت أنا بكامبردج لاهتمامى بالرياضيات . وكانت بداية تجربتى بكامبردج فى ديسمبر ١٨٨٩ عندما دخلت امتحان القبول للمنح العلمية . أقمت فى جناح فى الفناء الجديد ، وكنت أخجل من أن أستفسر عن الطريق إلى دورة المياه ، فكنت أسير كل صباح إلى المحطة قبل أن يبدأ الامتحان . كنت أرى خلفيات المبانى من خلال بوابة الفناء الجديد ، لكننى لم أجرؤ على ارتيادها لشعورى أنها ربما كانت أماكن خاصة . وحدث أن دعيت للعشاء مع العميد ، الذى كان من قبل ناظر مدرسة هارو[1] أيام والدى . وهناك كان أول لقاء بينى و بين تشارلز وبوب[2] تريفليان . وكان بوب جريئاً على عادته قد استعار حلة من أحسن حلل تشارلز ، وأغمى عليه أثناء العشاء لأن أحد الحاضرين تكلم عن إحدى العمليات الجراحية . كنت منزعجاً من مثل هذه المناسبة الاجتماعية المهولة ، لكننى كنت أقل انزعاجاً مما كنت عليه منذ بضعة أشهر مضت عندما تركت فى خلوة مع جلادستون[3] حين قدم علينا ليقيم فى بمبروك لودج ، ولم يدع أحد ليكون فى استقباله . ولما كنت الرجل الوحيد فى العائلة ، فقد تركنا أنا وهو وحدنا على مائدة العشاء بعد أن انسحبت السيدات . وقد أبدى ملحوظة واحدة قائلاً : « إنه صنف جيد جداً من النبيذ هذا الذى قدموه لى ، ولكن لماذا

---

(١) مدرسة ثانوية خاصة فى إنجلترا .

(٢) روبرت هو الاسم الكامل .

(٣) رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت .

قدموه فى كأس مخصصة بشراب الكلاريت[1] ؟ » . ولم أكن أعرف الإجابة ، فوددت لو ابتلعتنى الأرض . ومنذ ذلك الحين لم أجرب مرة ثانية العذاب الرهيب الذى ينتج عن الرعب .

كنت أتوق إلى النجاح فى امتحان المنحة العلمية ، وأثرت عصبيتى فى إجاباتى . ولكننى مع ذلك حصلت على منحة صغيرة سعدت بها سعادة بالغة . فقد كانت تلك هى المرة الأولى التى أمكننى فيها أن أقارن نفسى بأبناء جيلى من الطلبة النجباء .

ومنذ لحظة وصولى إلى كامبردج فى بداية أكتوبر ١٨٩٠ سار كل شىء على ما يرام . فقد وفد لزيارتنا خلال الأسبوع الأول من الفصل الدراسى كل الطلبة المقيمين فى الكلية حينئذ ، والذين أصبحوا فيما بعد من أخلص أصدقائى . ولم أكن أعرف فى أول الأمر سبب مجيئهم ، لكننى اكتشفت فيما بعد أن هوايتهيد ، الذى تولى امتحانات المنح ، قد طلب من كل الناس أن يبحثوا عن سانجر وعنى . كان سانجر قادماً جديداً مثلى ، وكان يدرس الرياضيات كذلك ، وكان أيضاً ممن حصلوا على منحة صغيرة . وكان كلانا يقيم فى جناح فى فناء هويويل . وكانت طريقة ويب ، معلمنا ، أن يوزع المخطوطات على طلبة فصوله ، وكان من نصيبى أن أسلم سانجر مخطوطاً بعد أن انتهيت منه . ولم أكن قد رأيته من قبل ، لكننى ذهلت للكتب التى كانت على الرفوف . قلت « إن لديك كتاب دريبر عن تطور أوربا الفكرى ، وهو فى اعتقادى كتاب قيم جداً » . قال : « أنت أول شخص لقيته قد سمع به » . ومن هذه النقطة انطلق بنا الحديث ، وفى نهاية نصف ساعة كنا صديقى العمر . قارنا مذكراتنا ومقدار ما قطعناه فى الرياضيات . والتقت وجهات نظرنا فى اللاهوت والميتافيزيقا . واختلفنا فى السياسة فقد كان يومئذ محافظاً ، ولكنه انتمى فى آخر حياته لحزب العمال . وتكلم عن برنارد شو الذى لم أكن قد سمعت باسمه حتى ذلك الوقت . وتعودنا أن نستذكر الرياضيات معاً . كان سريع الفهم بدرجة

(١) نوع من النبيذ معروف ببرودته .

لا يمكن تصديقها ، فكان عادة يقترب من حل المسألة قبل أن أكون أنا قد فهمت السؤال . وقد كرسنا السنة الرابعـــة من دراستنا الجامعية لدراسة علم الأخلاق ، لكنه درس الاقتصاد ، واتهجت أنا لدراسة الفلسفة . وحصلنا على درجة الزمالة فى وقت واحد . وقد كان سانجر من أطيب الناس قلباً ، وفى أخريات حياته أحبه أطفالى مثلما أحببته . ولم أعرف أى إنسان آخر جمع بين نفاذ البصيرة ودفء العاطفة إلى هذا الحد الكامل . وقد أصبح محامياً أمام المحاكم العليا ، واشتهر فى الأوساط القانونية بأن أعد للنشر كتاب جارمان عن الوصايا ، ذلك الإعداد الذى بلغ حدًّا عالياً من سعة العلم . وكان كثيراً ما يأسف لأن أقرباء جارمان منعوه من أن يذكر فى المقدمة أن جارمان مات بلا وصية . كما كان أيضاً اقتصاديًّا ممتازاً . وكان يستطيع أن يقرأ فى عدد يكاد لا يحصى من اللغات ، بما فى ذلك اللغات غير المألوفة مثل المجيارية والفنلندية . وكنت أرافقه فى جولاته بإيطاليا ، وكان يجعلنى أقوم دائماً بكل المحادثات مع أصحاب الفنادق ، ولكننى تبينت عندما كنت أقرأ الإيطالية أن معرفته بهذه اللغة كانت تفوق بمراحل معرفتى بها . وقد حزنت لموته عام ١٩٣٠ حزناً عظيماً .

أما الأصدقاء الآخرون الذين عرفتهم خلال الفصل الدراسى الأول فكنت مديناً بمعرفتهم لتزكية هوايتهيد . وقد علمت فيما بعد أن طالباً آخر كان قد حصل فى امتحان المنحة على درجات أكثر منى ، ولكن هوايتهيد رأى أننى أكفأ الاثنين ولذلك أحرق كشوف الدرجات قبل اجتماع الممتحنين وأوصى بى وفضلنى على الطالب الآخر . وكان كرومبتون وثيودور لويلين ديفيز من أقرب أصدقائى . كان أبوهما قسًّا فى أبرشية كيركبى لونزديل ، وقـــد قام بترجمة جمهورية أفلاطون فى طبعة تسمى « الذخيرة الذهبية » . وكان باحثاً ممتازاً يميل إلى اللامذهبية فى الدين ، ويستمد آراءه فى هذا الشأن من ف . د . موريس . وكان ربًّا لأسرة مكونة من ستة أبناء وبنت واحدة . وكان يقال ، وأعتقد أن هذا صحيح ، أن الأبناء الستة ، الذين كان كرومبتون وثيودور أصغرهم ، تمكنوا من أن يتموا تعليمهم خلال مراحل الدراسة فى المدارس

والجامعة عن طريق المنح ، دون أن يكبدوا أباهم أية تكاليف . وكان معظمهم أيضاً وسيماً بشكل ملحوظ ، بما فى ذلك كرومبتون الذى كانت عيناه الزرقاوان الرقيقتان تشعان بالمرح أحياناً ، وتتسمان بمسحة من الجد العميق أحياناً أخرى. وكان أصغرهم ثيودور ، الذى كان كرومبتون يقاسمه مسكنه عندما بدأت معرفتى بهما ، أكثرهم كفاءة وأقربهم إلى قلوب أفراد العائلة . وقد حصلا على درجة الزمالة بالطريقة المعتادة، ولكن لم يسمح لهما بالإقامة فى المدينة الجامعية . وأقام الاثنان معاً فى بيت صغير قريب من أسقفية وستمنستر، ويقع فى شارع هادئ غير مطروق . وكان كلاهما نابهاً متوقد الذهن ، مشبوب العاطفة ، وكانا يلتقيان بوجه عام على نفس الآراء والمثل العليا . وكان ثيودور ذا نزعة عملية فى الحياة أكثر من كرومبتون . وقدأصبح سكرتيراً خاصًّا لمجموعة متتالية من وزراء الخزانة المحافظين، هداهم واحداً وراء الآخر إلى سياسة حرية التجارة فى وقت كان باقى أعضاء الحكومة يأملون منهم أن يفكروا تفكيراً مغايراً . وكان يعمل بجدية منقطعة النظير ومع ذلك كان يجد الوقت لتقديم هدايا إلى كل أبناء أصدقائه ، وكانت الهدايا دائماً مناسبة تماماً . وكان يحرك فى كل من يعرفه تقريباً شعوراً عميقاً بالمودة . ولم أعرف مطلقاً إلا امرأة واحدة لا تتمنى الزواج منه . وكانت هى ، طبعاً ، المرأة الوحيدة التى كان يتمنى الزواج منها . وفى ربيع عام ١٩٠٥ ، عندما كان فى الرابعة والثلاثين من عمره ، عثر على جثته فى بحيرة صغيرة بالقرب من كيركبى لونزديل، يبدو أنه كان قد نزل للاستحمام فيها وهو فى طريقه إلى الحطة . ولابد أن رأسه ارتطم بصخرة أثناء غوصه فى الماء . وقد عانى كرومبتون ، الذى كان يحب أخاه حبًّا جمًّا ، معاناة تفوق طاقة الاحتمال . وقضيت أنا معه الأسابيع التالية لموت ثيودور ، وكان من الصعب علىّ أن أجد ما أقوله له[1] . كان منظر تعاسته يشقينى . ومنذ ذلك الوقت ورنين أجراس وستمنستر يعيد إلى ذهنى ذكرى الليالى التى قضيتها ساهراً فى ذلك الحين . وفى يوم الأحد الذى تلا الحادث ، كنت فى الكنيسة عندما تولى والده ، بجلد وعزم ، إقامة الصلاة كالعادة ، ونجح بصعوبة فى منع نفسه من الانهيار . وقد استعاد كرومبتون

(١) انظر خطابى إلى لوسى دارلى، بالملحق ص٢٨٤، وأيضاً خطاب كرومبتون ديفيز ص ٣١٥

بالتدريج تمالكه لنفسه ، ولكنه لم يشف تماماً من أثر الصدمة إلا بعد زواجه . وبعد ذلك ، ودون سبب مفهوم ، لم أره لسنوات عديدة حتى سمعت ذات مساء ، عندما كنت أسكن فى تشلسى ، رنين جرس الباب الخارجى . ووجدت كرومبتون على عتبته . وكان سلوكه كما لو كنا قد التقينا فى اليوم السابق ، وكان ساحراً كالعادة ، وأصر على رؤية أطفالى وهم نيام . وأظن أنى ارتبطت فى ذهنه لحد كبير بما قاساه بعد موت ثيودور حتى أصبح لقائى محركاً لشجونه لفترة طويلة .

ومن ذكرياتى الأولى عن كرومبتون لقائى معه فى أظلم جزء من درج الكلية الحلزونى ، وكان أول ما سمعته منه ترديده لأبيات الشاعر بليك الشهيرة « أيها النمر . أيها النمر . يا من تلتهب متوهجاً ، فى أجمة الليل » . ولم أكن حتى تلك اللحظة قد سمعت بالشاعر بليك . وقد هزتنى القصيدة حتى لقد أصابنى دوار جعلنى أستند إلى الحائط . ولم يكن يمضى يوم دون أن أتذكر حادثاً ما مرتبطاً بكرومبتون ديفيز — أحياناً نكتة ، وأحياناً تقطيبة تعبر عن اشمئزازه من تصرف حقير أو حديث نفاق ، وفى أغلب الأحيان أتذكر مودته الفياضة الدافئة . ولو نازعتنى النفس ذات مرة إلى أن أخون ثقته ، لكان مجرد تفكيرى فيما يستتبع ذلك من استنكاره باعثاً لى على الإحجام السريع . وكان يجمع بين حضور البديهة ، والعاطفة المتقدة ، والحكمة ، والتعالى عن الصغائر ، والرقة ، والنزاهة لدرجة لا يمكن أن يرقى إليها أحد قط . وفضلاً عن كل هذه الصفات ، كانت مودته التى لا يمكن أن تتغير تتيح لى وللآخرين فى السنين المتأخرة ، مرسى للاستقرار فى عالم متفكك .

كانت الأشياء التى يتعلق بها مقصورة عليه وحده . فقد كان عاجزاً عن أن يتبع أى جماعة سواء فى الخير أو الشر . وكان يجاهر باحتقاره لكل القضايا التى كان أصدقاؤه يتحمسون لها ، ويسخر من هذه القضايا وهو يضحك فى ازدراء من « جمعية كذا وكذا » أو « العصبة العالمية للدفاع عن كذا وكذا » فى حين كان طول الوقت يتحمس بينه وبين نفسه لإيرلندا ضد إنجلترا ، ولصغار

التجار ضد كبار التجار ، وللمعدمين ضد الملاك ، وللمنافسة ضد الاحتكار . ولكن حماسه الأساسى كان ينصب على موضوع فرض الضرائب على قيمة الأرض .

ويعتبر هنرى جورج الآن أشبه بنبى منسى . ولكن فى عام ١٨٩٠ ، عام لقائى بكرومبتون ديفيز ، كانت نظريته القائلة بأن كل الإيجار يجب أن يدفع إلى الدولة لا إلى ملاك الأراضى ما زالت النظرية المنافسة للاشتراكية منافسة فعالة عند كل الساخطين على الظروف الاقتصادية السائدة يومئذ . وكان كرومبتون ديفيز فى ذلك الوقت من أنصار هنرى جورج المتعصبين فعلاً . وكان يضمر للاشتراكية كراهية شديدة ، وهو أمر متوقع ، كما كان يضمر إخلاصاً عميقاً لمبدأ حرية التجارة وللفلسفة الليبرالية . لم يكن يمقت الرأسمالى الذى يثرى من الصناعة ، ولكنه كان يعد ملاك الأراضى الذين يرفضون الضرائب على صناعات الآخرين كابوساً اجتماعياً لأنهم يملكون الأرض التى يحتاج إليها الغير . ولا أظن أنه سأل نفسه كيف يمكن أن تعجز الدولة عن بلوغ القوة العظمى لو تمتعت بكل الدخل الذى تجنيه من ملكية الأرض . وكان الإصلاح فى رأيه ، كما كان فى رأى هنرى جورج ، يتمثل فى استكمال الليبرالية الفردية ، وتحرير الطاقات التى تخنقها اليوم قوة الاحتكار . وفى ١٩٠٩ كان كرومبتون ديفيز يعتقد أن مبادئ هنرى جورج هى المبادئ التى كان يطبقها لويد جورج ، الذى أسهم ديفيز فى الوصول بميزانيته إلى حد الكمال .

وفى بداية حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ كان كرومبتون ديفيز مستشاراً قانونياً لمصلحة البريد ، ولكن تأييده المتحمس لآراء زوجته ، التى كانت من أنصار القومية الإيرلندية والتى سجنت بسبب عضويتها فى الحزب الإيرلندى المنادى باستقلال إيرلندا ، جعل موقفه شائكاً ، فطرد على الفور . وبرغم التعصب الذى كان شائعاً وقتئذ فقد قبل فوراً شريكاً فى شركة كوارد وتشانس وشركائهما ، وهى إحدى المؤسسات الرئيسية التى تضم المستشارين القانونيين فى المدينة . وفى عام ١٩٢١ كان هو الذى وضع مشروع معاهدة السلم التى أرست قواعد الحكم الذاتى الإيرلندى ، برغم أن هذا لم يعلن مطلقاً . وقد كان إنكاره لذاته سبباً فى الحيلولة بينه وبين أى نجاح مادى هام ، إذ أنه لم يكن يعترض سبيل الآخرين

الذين كانوا يجنون ثمار ما يقوم هو به من أعمال ، ولم يكن يبالى بالاعتراف بفضله وتقديره على المستوى العام . وبرغم أنه كان ذا كفاءة فائقة ، إلا أن هذا لم يكن السبب الذى جعله إنساناً لا يمكن نسيانه .

ولم تكن كفاءة كرومبتون ديفيز هى ما جعله فى نفس الوقت مثيراً للإعجاب لطيفاً ، وإنما إفراطه فى الحب والكره ، ودعابته التى تفوق الخيال ، وأمانته الوطيدة . كان من أسرع من عرفت حضور بديهة ، وكان يجمع إلى حبه العظيم للبشر كراهية يشوبها الازدراء لمعظم الأفراد . ولم تكن أساليبه بحال من الأحوال أساليب قديس . حدث مرة ، ونحن فى صدر شبابنا ، أن كنت أتنزه معه فى الريف ، وأوغلنا فى أرض أحد المزارعين وأقبل المزارع يجرى خلفنا ، وهو يصيح وقد احمر وجهه غضباً . ورفع كرومبتون يده إلى أذنه ، وقال بمنتهى الوداعة : « هل تسمح برفع صوتك قليلاً ؟ إن سمعى ثقيل جداً » . واختنق صوت المزارع وهو يحاول أن يثير ضجة أكبر من الضجة التى كان يثيرها فعلاً . وقد سمعته قبل موته بوقت قصير يحكى هذه القصة بإسهاب ومبالغة ، وهو يعزو دوره فيها إلىّ ، وأنا أقاطعه قائلاً : « لا تصدقوا كلمة واحدة من هذه الحكاية . فلم أكن أنا الذى فعلت كل هذا ، وإنما فعله كرومبتون » ، حتى أنهى حكايته وسط ضحكاته التى كانت تنبعث من قلبه . !

وكانت ثيابه عادة بالغة الرثاثة ، حتى إن بعض أصدقائه اعترضوا على هذا . وقد أدى ذلك الاعتراض إلى نتيجة غير متوقعة . فعندما حاولت أستراليا الغربية أن تنفصل عن الكومنولث الأسترالى عن طريق التقاضى ، لجأت إلى المؤسسة القانونية التى كان يعمل بها ، وتقرر أن تنظر القضية فى حجرة ارتداء الأرواب الرسمية . وقد سمع كرومبتون وهو يطلب ياور الملك تليفونياً ويقول له : « لقد وجه بعضهم نظرى أخيراً إلى حالة سراويلى التى لا تسر . وقد فهمت أن القضية ستنظر فى حجرة الملك لارتداء الأرواب الرسمية . ويحتمل أن يكون الملك قد ترك هناك سروالاً قديماً يصلح لى » .

وكان يعبر دائماً عن امتعاضاته العديدة الشديدة بطريقة تدعو للضحك .

وذات مرة عندما كنا نقيم هو وأنا مع أبيه ، كان هناك أيضاً أسقف قد نزل ضيفاً — وكان نموذجاً لرجل الدين الوديع المسالم ، من ذلك النوع الذى يمكن أن يقال عنه إنه لا يؤذى ذبابة . وكانت آراؤه السياسية لسوء الحظ رجعية لحد ما . وعندما خلونا أخيراً إلى أنفسنا ، اتخذ كرومبتون سمة أسير على سفينة قرصان ودمدم قائلاً : « يبدو أنه شخص قانط » .

وعندما تولى حزب الأحرار الحكم فى نهاية عام ١٩٠٥ ، وعين لورد هولدين البدين ، المترف ، اللطيف ، فى وزارة الحربية ، قال كرومبتون بمنتهى الجدية : إنه اختير لكى يحول دون إصابة الجنرالات بالسكتة القلبية عندما تعرض المقترحات الخاصة بالإصلاحات اللازمة فى الجيش .

وكان يضايقه أن أصحاب السيارات لا يحفلون بالمارة . فكان يعبر شوارع لندن دون أن يلقى بالاً إليها ، وعندما كان السائقون يستعملون آلة التنبيه وقد استشاطوا غضباً ، كان يدير رأسه متبرماً مشاكساً وهو يقول : « لا تحدثوا هذه الضجة » . وبرغم أنه كان يتجول وقد بدا عليه التشتيت الفكرى الحالم ، وهو يرتدى قبعته على مؤخر رأسه ، كان سائقو العربات يعتقدون أنه شخص بالغ الأهمية ، وينتظرون فى صبر بينما يواصل هو طريقه .

وكان ديفيز يحب لندن شأن « لام » ودكتور « جونسون [١] » . وذات مرة ، عندما كان يندد بالشاعر ورد زويرث [٢] لكتابته عن الأماكن الأقل شأناً ، قلت له هل تستثير إعجابك قصيدته عن « جسر وستمنستر » ؟ فأجاب « آه ، طبعاً ، لو أنه فقط كتب عنه بنفس المستوى » . وفى أخريات حياته كنا نمشى معاً فى لندن بعد العشاء ، هو وزوجتى وأنا . وكان كرومبتون يأخذ بذراعينا ، كأنه لم يكن يمسك بهما فعلاً ، أثناء مرورنا

---

(١) تشارلز لام : أشهر كتاب المقالات فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر . وصامويل جونسون أكبر شخصية أدبية فى القرن الثامن عشر .

(٢) زعيم شعراء الرومانسية فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر . ومن أشهر قصائده قصيدته عن كوبرى وستمنستر الوارد ذكرها هنا .

أمام كنيسة القديس كليمنت دينز التى بناها رن[١]، ليذكرنا أن ننظر إلى أحد المناظر المحببة إلى نفسه ، وهى المنارة التى ترتفع قائمة أمام لون السماء الأزرق المتوهج وقت المساء . وكان أحياناً يدخل أثناء هذه النزهات فى حديث مع الناس الذين كنا نلتقى بهم . وأذكر أنه دخل فى نقاش مع أحد حراس الحدائق ، وربما فى موضوع قيمة الأرض . وكان الحارس فى أول الأمر مصرًّا على أن يتذكر كل منا طبقته ويلزمها ومكانته الرسمية ويحافظ عليها . وكان يعامل كرومبتون فى استنكار مشوب بالاحترام . فقد كان الحارس يرى أن الأغراب لا ينبغى أن يحادثوا الأغراب ، وأن السادة لا ينبغى لهم أن يتبسطوا مع العمال . كما كان يرى أنه لا ينبغى مخاطبة أى موظف رسمى أثناء تأديته عمله . ولكن سرعان ما ذاب جمود الحارس، فقد كان كرومبتون ديموقراطيًّا أصيلاً ، وكان يخاطب موظفى مكتبه وخدمه بنفس اللهجة التى كان يخاطب بها ذوى المكانة كالمهراجات الهنود الذين كان يدير لهم أعمالهم . وكان سلوكه فى أى كوخ إيرلندى من غرفتين لا يختلف بتاتاً عن سلوكه فى أى حفل يضم المشاهير . وما زلت أذكر دماثته الفائقة حين وقف ينحنى ويصافح خادمة الصالون ، عندما علم أنها كانت من نفس الناحية التى جاءت منها أسرته .

وكان يميل إلى الفوضوية بطبعه ، ويكره النظام والتنظيم وتطابق الأشياء . وقد حدث ذات مرة ، عندما كنت أعبر معه جسر وستمنستر ، أن أشار مبتهجاً إلى عربة صغيرة يجرها حمار وسط زحمة المرور، قائلاً : « هذا هو ما أحبه ، الحرية لكل الأنواع » . ومرة أخرى ، عندما كنت أسير معه فى إيرلندا ، ذهبنا إلى محطة أتوبيس ، وهناك اتجهت أنا دون تفكير صوب أكثر السيارات فخامة وراحة . فجذبنى هو من ذراعى ، وقد اكتسى وجهه بتعبير مأخوذ ، وأسرع بى إلى سيارة صغيرة رثة عتيقة ، وهو يشرح لى فى جدية أنه كان يتحدى بكل ما أوتى من شجاعة الشركات الاحتكارية .

وكان يشتط فى آرائه أحياناً ، ولم يكن لديه مانع من أن يطلق العنان

---

(١) مهندس معمارى شهير فى إنجلترا .

للآراء التى يتعصب لها . وكان يحب المتمردين ربما أكثر مما يتمشى مع المنطق . وكان يفزع من أى رأى يشتم منه أنه يحسب الأشياء حساباً دقيقاً . وقد صدم صدمة عنيفة عندما قلت له مرة إن أى حرب لا يمكن تبريرها ما لم يكن احتمال النصر قائماً . فقد كان يرى روعة فى أى تحد بطولى يائس . وكانت معظم نواحى تعصبه متفقة مع مشاعرى ، لدرجة أن قلبى لم يطاوعنى على مناقشتها — فقد كان هذا أمراً ميئوساً منه على أية حال .

وبهذه الطباع وهذه الآراء ، كان من الطبيعى أن يكره كرومبتون ديفيز سيدنى ويب وبياتريس ويب[1] . وعندما تبنى سيدنى ويب وزوجته قانون إصلاح أحوال الفقراء ، كان كرومبتون يقول إنه لما رفض كل الناس محاولاتهما لسن هذا القانون . اضطرا أخيراً إلى جمع الفقراء العزل وتنظيمهم سياسياً . وكان ينسب إليهما أنهما استخدما واحداً من الفقراء ذا ساق صناعية من الخشب لكى يحفر بها فى الأرض حفراً لزراعة البطاطس ، ويضرب هذا مثلاً على انتصاراتهما فى التنظيم .

وقد كان محامياً لى مدة سنوات طويلة ؛ وهو عمل تكفل به بدافع الصداقة . فقد كان أكثر مزاولته للمهنة يتركز فى القضايا الكبرى التى تتعلق بالأمراء الهنود وحكومات الدومينيون والبنوك الرئيسية . وقد كشف ، فى المسائل القانونية ، عن استقامته التى لا تنحرف ، وعن مهارته وصبره ، ذلك الصبر الذى كان يثير الدهشة حقاً ، لأنه كان بطبعه أقل الناس صبراً . وبهذه الأساليب التى كانت توحى بالثقة حتى بين خصومه ، تمكن من تحقيق نتائج لم يكن من السهل تحقيقها عن طريق الخداع البارع . وما زلت أذكر التعبير الجامد الذى بدا على وجهه عندما اقترح أحدهم عليه أثناء إحدى الاستشارات القانونية سبيلاً ملتوياً .

ولكنه برغم جديته الراسخة فى نفسه ، كان دائم المرح . فقد كان يصل إلى

(١) كانا من دعائم الجمعية الفابية التى كانت تنادى بالاشتراكية الديمقراطية فى إنجلترا إذ ذاك وكان مشهوراً عنهما الدقة فى جمع البيانات والولع بالإحصائيات .

أى حفل عشاء ، بعد يوم طويل من العمل المضنى ، وهو يفيض مرحاً كأنه قد استمتع لتوه بجرعة طيبة من الشمبانيا ، وينشر الضحك بين الجميع . وقد مات فجأة وسط حفل عشاء بالسكتة القلبية ، وربما كان يعلم احتمال حدوث هذا ، لكنه احتفظ بهذا العلم لنفسه . وتذكر أصدقاؤه فيما بعد أنه كان يلمح تلميحات طفيفة إلى أنه لم يكن يتوقع أن يعيش طويلاً ، ولكنها لم تكن كافية لأن تثير مخاوف أولئك الذين كانوا يعرفون قدره .

وفى أخريات حياته كان يقضى الجزء الأكبر من وقت فراغه يؤلف كتاباً فى الفلسفة ، وكان يشير إليه باستخفاف على أنه « طبق الفطير » الخاص به . وهذه إشارة وردت فى إحدى مسرحيات ابسن إلى رجل عجوز يملك موهبة وحيدة ، هى صناعة أطباق الفطائر ، وله مطمح وحيد وهو أن يصنع طبق فطير جيد فعلاً قبل أن يموت . وكانت الفلسفة هى شغله الفكرى الشاغل فى صدر شبابه ، وكانت تلى اهتمامه بالشعر اليونانى ، وفى بداية تعارفنا كنا نقضى وقتاً طويلاً نتناقش فى علمى الأخلاق والميتافيزيقا . ثم شغلته حياته المهنية الحافلة ، فى منتصف عمره ، بالأمور العملية . ولكنه تمكن أخيراً من أن يوفر بعض الوقت للتفكير النظرى الذى عاد إلى ممارسته بابتهاج صادق . وعندما أوشك على الانتهاء من الكتاب فقد منه فى قطار ، مثلما يفقد الناس أحياناً أعز ما لديهم . ولم يستعده أبداً . ولابد أن أحداً قد أخذه على أمل أن يحصل منه على قيمة مالية . وقد ذكر لى هذه الخسارة فى حزن وإيجاز قائلاً : إنه لم يكن أمامه إلا أن يبدأ من جديد فى كتابته من المذكرات القليلة التى كانت عنده ، ثم تكلم فى موضوع آخر . وخلال الأشهر القليلة التى سبقت وفاته قلت رؤيتنا له ، برغم أنه فى المرات التى رأيناه فيها كان مرحاً بشوشاً كعادته . كان يصرف معظم طاقاته الزائدة عن حاجته فى محاولة إتمام الكتاب الذى فقد منه ، ولكن طبق الفطائر لم يكتمل أبداً .

وكان الفيلسوف ماكتاجارت ، الذى كان أكثر منى خجلاً ، صديقاً آخر من أيام كامبردج . فذات يوم سمعت طرقاً على بابى ، طرقاً رقيقاً جداً ، فقلت :

« ادخل » ولكن لم يحدث شىء . فقلت بصوت أعلى : « ادخل » . وفتح الباب ، ورأيت ماكتاجارت واقفاً أمام عتبة الباب . كان رئيس اتحاد الطلبة فى ذلك الوقت ، وعلى وشك أن يحصل على درجة الزمالة ، وكان يوحى إلىّ بالرهبة بسبب شهرته فى الميتافيزيقا . لكن خجله منعه من الدخول ، ومنعنى خجلى من دعوته إلى الدخول . ولا أستطيع أن أذكركم دقيقة مرت وأنا فى هذا الموقف . ولا أدرى كيف دخل حجرتى فى النهاية وبعد ذلك اعتدت أن أتردد على مائدته للإفطار معه . وقد اشتهرت مائدة إفطاره بضآلة ما عليها من الطعام ، والواقع أن كل من ذهب إليها مرة كان يحضر معه بيضة فى كل مناسبة تالية . وكان ماكتاجارت من أتباع الفيلسوف هيجل ، وكان فى ذلك الوقت شابّاً متحمساً . وكان له نفوذ فكرى عظيم على أبناء جيلى ، برغم أننى لا أظن كلما استعدت الذكر أنه كان تأثيراً طيباً . وظللت مدة سنتين أو ثلاث واقعاً تحت تأثيره ، ومن المتحمسين مثله لهيجل . وما زلت أذكر اللحظة التى أصبحت فيها من أتباع هيجل أثناء السنة الرابعة . كنت قد ذهبت لأشترى علبة تبغ ، وبدأت أعود أدراجى فى شارع ترينيتى ، عندما قذفت بها فى الهواء إلى أعلى وأنا أصيح : « يا ربنا العظيم . إن البرهان على وجود الله صحيح » . وبرغم أننى لم أعد أتقبل فلسفة ماكتاجارت بعد عام ١٨٩٨ ، إلا أننى ظللت متعلقاً به إلى أن كف عن دعوتى لزيارته خلال الحرب العالمية الأولى لأنه كان يضيق بآرائى . وتبعاً لذلك لعب دوراً رئيسيّاً فى طردى من التدريس بالجامعة .

وكان لويس ديكنسون وروجر فراى[١] صديقين آخرين التقيت بهما فى السنوات الأولى من حياتى فى كامبردج واحتفظت بصداقتهما منذ ذلك الحين . وكان ديكنسون يملأ الناس حبّاً له لفرط مودته ورقته . وعندما كان زميلاً بالجامعة

---

(١) عاش روجر فراى بين ١٨٦٦ و ١٩٣٤ ، وتعلم فى كامبردج ، فكان من أبرز الفنانين المصورين الإنجليز ومن أبرز نقاد الفن فى زمنه وقد اشتهر باهتمامه بالقالب والتصميم والتكنيك . وقد ترك جملة مؤلفات فى النقد الفنى تعد من أهم الآثار فى نقد الفن وأهمها (سيزان) فى ١٩٢٧ و (الرؤيا والتصميم) ١٩٢٠ وقد عين أستاذاً للفنون الجميلة فى كامبردج عام ١٩٣٢ .

وكنت لا أزال طالباً ، أدركت أن من الممكن أن أجرح شعوره بأقوالى الفظة عن الحقائق التى كنت أراها كريهة . وكانت أحوال العالم التى تجعلنى لاذعاً تجعله حزيناً ، وحتى آخر أيامه كنت أخشى عندما ألتقى به أن أضاعف من تعاسته بالواقعية المجردة . ولكن ربما لم تكن كلمة واقعية هى الكلمة الصحيحة . فإنما أقصد فى الواقع وصف الحقائق غير المحتملة بصراحة منفرة تستفز غضب الآخرين علىّ . وقد قال لى ذات مرة إننى أشبه كورديليا ، ولكننى لا أستطيع أن أقول إنه كان يشبه الملك لير .

ومنذ لحظتى الأولى فى كامبردج ، كنت ، رغماً عن خجلى ، اجتماعياً للغاية . ولم أجد أى عائق مطلقاً بسبب تعليمى الذى تلقيته فى البيت لا فى المدرسة. وتحت تأثير الصحبة اللطيفة أصبحت بالتدريج أقل تزمتاً . وكان مما يبعث على النشوة اكتشافى أننى أستطيع أن أقول الأشياء التى كنت أفكر فيها ، وأن أتلقى ردوداً على أسئلتى دون فزع أو استنكار كما لو كنت قد قلت شيئاً معقولاً . ولفترة طويلة كنت أظن أنه فى مكان ما بالجامعة كان هناك طلبة أذكياء لم ألتق بهم بعد ، وأننى يجب أن أبادر إلى التعرف إليهم باعتبارهم يفوقوننى فكرياً . لكننى اكتشفت خلال السنة الثانية أننى كنت قد تعرفت فعلاً على أذكى الناس فى الجامعة . وقد خيب هذا ظنونى ، لكنه منحنى ثقة متزايدة فى نفسى . وفى السنة الثالثة تعرفت على ج .ا. مور ، وكان طالباً حديث الالتحاق بالجامعة عندئذ ، ووجدت لبضع سنوات أنه يحقق مثلى الأعلى فى العبقرية . وكان وقتئذ وسيما رشيق القوام ، ذا نظرة ملهمة ، وبصيرة حادة عميقة مثل بصيرة سبينوزا [1]. وكان على درجة عالية من الصفاء . ولم أنجح قط فى حمله على الكذب إلا مرة واحدة . قلت له يوماً « أجبنى يا مور ، هل تقول الحق دائماً ؟ » وأجابنى « لا » وأعتقد أن هذه كانت الكذبة الوحيدة التى قالها فى حياته . كان أهله يعيشون فى دليتش ، حيث ذهبت لزيارتهم ذات يوم . كان أبوه طبيباً متقاعداً ، وكانت

---

(١) سبينوزا ١٦٣٢ – ١٦٧٧ فيلسوف هولندى .

أمه تلبس « بروشاً » ماسياً يحمل صورة للكوليزيوم[١]. وكان له عدد كبير من الإخوة والأخوات ، أكثرهم إثارة للاهتمام الشاعر ستيرج مور . كان مغامراً مقداماً فى عالم الفكر ، ولكنه كان طفلاً فى عالم الحياة اليومية . وقد قضيت معه أياماً طويلة نتجول معاً على ساحل نورفوك خلال السنة الرابعة . وتصادف أن التقينا بشخص أجش الصوت راح يتكلم عن بترونيوس[٢] مستملحاً للغاية قلة احتشامه . وكنت أميل إلى تشجيع الرجل ، الذى وجدته نموذجاً مسلياً . وظل مور صامتاً تماماً حتى مضى الرجل ، فاستدار إلىّ قائلاً : « كان ذلك الرجل فظيعاً » . ولا أظن أنه كان يجد أقل متعة فى القصص والأحاديث غير المهذبة طوال حياته . وكان مور مثلى متأثراً بما كتاجارت. وكان من أتباع هيجل لفترة قصيرة ، ولكنه تخلص من تأثيره بأسرع مما تخلصت . وكانت مناقشاتى معه هى التى دفعتنى إلى الإعراض عن كانط وهيجل معاً . و برغم أنه كان يصغرنى بعامين إلا أنه أثر فى نظرتى الفلسفية تأثيراً عظيما . وكان من التسليات المفضلة عند كل أصدقاء مور هى ملاحظتهم إياه وهو يحاول أن يشعل غليونه . كان يشعل عود الثقاب ، ثم يشرع فى الجدل ، ويستمر حتى يحرق العود أصابعه . ثم يشعل عود ثقاب آخر ، وهكذا ، حتى يأتى على العلبة كلها . ولا شك أنه انتفع من هذا صحياً لأنه أعفاه من التدخين المتواصل .

ثم كان هناك الإخوة الثلاثة تريفيليان . وكنا جميعاً نعتبر أكبرهم ، تشارلز ، أقل الثلاثة كفاءة ، ويليه بوب صديقى الخاص وقد أصبح شاعراً واسع العلم إن لم يكن شاعراً ملهماً ، ولكنه فى صغره كان ذا مزاج غريب الأطوار . وذات مرة عندما خرجنا فى رحلة للقراءة فى منطقة البحيرات ، نزل إيدى مارش ، بعد أن استغرق فى النوم ، مرتدياً قميص النوم ليرى إن كان طعام الإفطار معداً ، وهو يبدو مقروراً بائساً . وأسماه بوب (الشكل الأبيض البارد) وظلت هذه التسمية ملتصقة به لفترة طويلة . وكان جورج تريفيليان[٣] أصغر بكثير

---

(١) كوليزيوم مسرح روما الشهير فى الهواء الطلق سنة ٨٠ م استخدم ساحة للعب .

(٢) بترونيوس شاعر رومانى عاش فى القرن الأول الميلادى أيام الإمبراطور نيرون .

(٣) ولد المؤرخ الإنجليزى الكبير جورج تريفيليان فى ١٨٧٦ وتعلم فى كامبردج ، وفى سنوات الحرب العالمية الأولى عين قومنداناً لفرقة الإسعاف الأولى البريطانية فى إيطاليا . وفى ١٩٢٧ عين=

من بوب ، ولكن معرفتي به توثقت فيما بعد . وكان هو وتشارلز يحبان المشى حبًّا جمًّا . وذات مرة عندما خرجت فى رحلة على الأقدام مع جورج فى ديفونشاو ، استخلصت منه وعداً بأن يقنع بمسافة خمسة وعشرين ميلاً فى اليوم . وحافظ على وعده حتى آخر يوم فى الرحلة ، ثم تركنى قائلاً إنه ينبغى عليه أن يقوم بعد هذا بجولة صغيرة على الأقدام . وفى مناسبة أخرى ، عندما كنت أسير وحدى ، وصلت ذات مساء إلى فندق (السحلية) ، وسألتهم إن كان يمكنهم أن يجدوا لى سريراً . وأجابونى « هل اسمك مستر تريفيليان ؟ » قلت « لا . هل تتوقعون وصوله ؟ » قالوا « نعم وزوجته هنا فعلاً » . وأدهشنى هذا ، إذ كنت أعلم أن ذلك اليوم كان يوم زفافه . ووجدتها وقد أضنتها الوحدة ، فقد تركها فى ترورو قائلاً إنه ليس فى استطاعته أن يواجه اليوم كله دون جولة صغيرة على الأقدام . ووصل حوالى الساعة العاشرة مساء ، وفى حالة إعياء تام ، وقد قطع أربعين ميلاً فى وقت قياسى ، ولكننى رأيت هذه بداية غريبة لشهر العسل . وفى يوم ٤ من أغسطس ١٩١٤ سرنا سويًّا فى شارع ستراند بلندن ونحن نتشاجر . ومنذ ذلك الوقت لم أره إلا مرة واحدة ، عندما عدت إلى كلية ترينيتى عام ١٩٤٤ ، أى بعد أن أصبح عميداً للكلية . وعندما كان طالباً أوضح لى مرة أن آل تريفيليان لا يرتكبون أخطاء فى الزواج . قال إن الواحد منهم ينتظر حتى يصبح فى الثلاثين ، ثم يتزوج من فتاة تجمع بين العقل والمال . وبرغم الأوقات العصيبة التى كانت تحل بى من آن لآخر ، إلا أننى ما تمنيت يوماً أن أتبع هذه المشورة .

وكان بوب تريفيليان ، فيما أظن ، أكثر من عرفت إقبالاً على القراءة . كان يرى ما تحويه الكتب مثيراً بينما يرى واقع الحياة شيئاً يمكن إغفاله . وشأن

= أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كامبردج . وأهم مؤلفاته فى عهد أسرة ستيوارت فى ١٩٠٧ وجاريبالدى وبناء إيطاليا فى ١٩١١ ، وسيرة جون بريت (الزعيم الراديكالى المعروف فى القرن التاسع عشر) فى ١٩١٣ ، وتاريخ اللورد جراى وقانون الإصلاح الأكبر فى ١٩٢٠ ، وتاريخ بريطانيا فى القرن التاسع عشر فى ١٩٢٢ ، وتاريخ إنجلترا فى ١٩٢٦ ، وإنجلترا فى عهد الملكة آن فى إلخ ١٩٣٠ .

كل أفراد العائلة ، كان على علم دقيق بالاستراتيجيات والتكتيكات التى اتبعت فى كل معارك العالم الكبرى ، كما وردت فى كتب التاريخ المشهورة . وأثناء أزمة معركة المارن [١] كنت أقيم معه ، ولما كنا فى يوم الأحد ، لم يكن من الممكن أن نحصل على صحيفة إلا إذا سرنا ميلين . ولكنه كان يرى أن المعركة ليست مثيرة لدرجة أنها تستحق الاهتمام ، لأن وصف المعارك فى الصحيفة يبدو مبتذلا . وقد ابتكرت ذات مرة سؤال اختبار كنت أوجهه إلى الكثيرين لأكتشف ما إذا كانوا متشائمين أم لا . كان السؤال هو « لو كان بمقدورك أن تدمر العالم ، فهل تفعل ذلك ؟ » وقد وجهت إليه هذا السؤال على مشهد من زوجته وطفله ، فأجاب : « ماذا ؟ أدمر مكتبتى ؟ — أبداً » . وكان دأبه أن يكتشف شعراء جدداً ويقرأ شعرهم بصوت عال ، ولكنه كان دائماً يبدأ قراءتها مستنكراً فيقول : « ليست هذه القصيدة أحسن قصائده » وذات مرة عندما ذكر اسم شاعر جديد أمامى وقال إنه يود أن يقرأ لى بعض قصائده قلت : « لا بأس ، على ألا تقرأ لى قصيدة إلا إذا كانت من أحسن قصائده » . وأفحمه هذا تماماً ، فنحى الكتاب جانباً .

ولم يسهم أعضاء هيئة التدريس إلا قليلاً فى متعتى بكامبردج . فقد كان العميد أشبه بشخصية خرجت لتوها من كتاب المتعجرفين لثاكرى . وكان عادة يبدأ ملاحظاته بقوله « منذ ثلاثين سنة تماماً » أو بقوله « هل تذكرون بالصدفة ما كان السيد بت يفعله من مائة سنة تماماً ؟ » ثم يمضى فى سرد حكاية تاريخية تبعث على الضجر ليدلل على طيبة وعظمة رجال الدولة الذين ورد ذكرهم فى التاريخ . ومن نماذج أسلوبه فى الرسائل رسالته التى كتبها إلىّ بعد الامتحان الشفوى فى الرياضة الذى اعتبرت فيه « المجادل السابع » [٢] .

---

(١) المعركة الشهيرة التى دارت فيها الدائرة على الألمان فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ .

(٢) تقييم لمستوى الطلبة فى الامتحانات تتبعه جامعة كامبردج .

ترينتى لودج
كامبردج
١٣ من يونية ١٨٩٣
عزيزى برتراند رسل

لا أستطيع أن أعبر عن مدى سعادتنا بهذا النصر العظيم . فلقد مضى ٣٣ عاماً تماماً منذ أن سلمت والدك العزيز فى مدرسة هارو جائزة المستوى الخامس فى النثر اللاتينى . وهذا يشفع لى الآن فى أن أهنىء ابنه وأمه نفسها على نجاحك الفائق فى الرياضة الذى سيكون موضع تقدير الكلية .

وقد كنا نعرف كفاء تك فى الرياضيات . لكننا كنا نعرف أيضاً أنك لم تكرس كل تفكيرك لها وأنك وجهت جزءاً كبيراً منه إلى موضوعات أخرى ، ولو أن هذا كان قد أضعف قدرتك فى الرياضيات ، لأسفت لهذا بالطبع ، ولكننى كنت سأدرك أن هناك ما يعوض هذا .

وليس أمامى الآن إلا أن أهنئك . وليس أمامك الآن إلا أن تترقب فى هدوء الامتحان الشفوى فى علم الأخلاق وأن تتطلع إلى الحصول على درجة الزمالة دون أن يساورك شك فى أنك قد خلفت وراءك فراغاً فى الرياضيات .

ويسعدنى أن أكتب بعض السطور إلى ليدى رسل وليدى ستانلى . سيكون هذا يوماً يحمل إليهما السعادة .

المخلص

ﻫ . مونتاجيو بتلر
(عميد كلية ترينتى)

وأذكر أننى دعيت يوماً إلى الإفطار فى ترينتى لودج ، ووافق هذا يوم عيد ميلاد شقيقة زوجته ، وبعد أن تمنى لها أن يعيد الله عليها هذا اليوم بالسعادة ، واصل كلامه قائلاً : لقد عشت حتى الآن ، يا عزيزتى ، مدة تماثل مدة حرب البيلوبونيزة تماماً . ولم تكن تدرى كم لبثت هذه الحرب ، لكنها كانت تخشى

أن تكون قد لبثت مدة أطول مما ترجو . وقد شغفت زوجته بنظرية علاج المرض بالإيمان ، وهى النظرية التى أدت إلى إطالة عمره مدة عشرين عاماً أكثر مما توقع الجميع . وقد حدث هذا بسبب عدم تعاطفها مع علله . فعندما كان يمرض ، كانت تكتب إلى مجلس الكلية قائلة إن العميد ملازم الفراش ويرفض مغادرته . ولكن ينبغى علىّ أن أقرر أن وكيل الكلية ، أولدس رايت ، وجوى بريور ، أقدم زميل بها ، عاشا نفس المدة تقريباً دون حاجة إلى نظرية العلاج بالإيمان . وما زلت أتذكر وأنا ما زلت بعد طالباً أنى كنت أراقب الثلاثة وهم يقفون عند البوابة الكبرى حاسرى الرؤوس فى استقبال الإمبراطورة فردريكا . كانوا يومئذ طاعنين فى السن ، وإن لم يظهر عليهم بعد مضى خمسة عشر عاماً أن السن قد تقدمت بهم . وكان أولدس رايت شخصية مهيبة ، يقف دائماً منتصب القامة كالسفود الذى تنظف به البندقية . ولم يكن يظهر خارج منزله دون قبعة عالية ، بل إنه ذات مرة عندما أوقظ من نومه فى الثالثة صباحاً بسبب حريق شب فى الكلية ، كانت القبعة العالية فى مكانها على رأسه كما ينبغى لها أن تكون . وكان يتمسك بنطق اللاتينية بالطريقة الإنجليزية بينما كان العميد يتبع نطق القارة الأوربية . وكان تأثير هذا غريباً عندما كانا يتبادلان قراءة آيات الإنجيل فى صلاة الشكر ، خصوصاً وأن الوكيل كان ينق مثل الضفادع فى قراءته ، بينما كان العميد يتلو الآيات بطريقة تهز المشاعر . وخلال فترة دراستى ، كنت أنظر إلى كل هؤلاء الرجال على أنهم مجرد شخصيات مضحكة ، ولكننى بدأت أرى فيهم قوى شريرة خطيرة ، عندما أصبحت زميلاً أحضر اجتماعات مجلس الكلية . وعندما اضطرت الكلية إلى فصل عميد حديث العهد ، وهو قس اغتصب ابنته الصغيرة وأصيب بالشلل نتيجة لإصابته بالزهرى ، خرج العميد أثناء اجتماع الكلية عن موضوع حديثه لكى يقرر أن من لم يكن منا مواظباً على الحضور إلى الكنيسة الصغيرة كان يجهل روعة مواعظ هذا الرجل الجليل . وكان رئيس الفراشين أهم شخصية فى الكلية بعد هؤلاء الثلاثة ، وكان ذا قوام مهيب حتى إن الطلبة كانوا يحسبون أنه الابن الطبيعى لإدوارد السابع المقبل . وبعد أن

أصبحت زميلاً ، اكتشفت أن المجلس اجتمع فى إحدى المناسبات مدة خمسة أيام متوالية فى سرية قصوى . وبصعوبة بالغة اكتشفت طبيعة المسألة . كانوا مشغولين بإثبات حقيقة مؤلمة وهى أن رئيس الفراشين كانت له علاقات مشينة بخمس نساء من العاملات فى عنابر النوم ، برغم أنهن جميعاً بحكم القانون لم يكن قاصرات أو عذارى .

ولقد اقتنعت وأنا بعد طالب بعدم جدوى بقاء أعضاء هيئة التدريس فى الحياة الجامعية . فلم أكن أجنى أية فائدة من المحاضرات ، حتى إننى أقسمت ألا أحسب حساباً لفائدة المحاضرات عندما أصبح محاضراً فى الوقت الملائم . ولقد حافظت على هذا القسم .

كنت مهتماً بالفلسفة فعلاً قبل أن ألتحق بكامبردج ، ولكننى لم أكن قد قرأت فيها كثيراً باستثناء أعمال جون ستيوارت مل . وكنت شديد الرغبة فى إثبات افتراضى صحة الرياضيات . وكانت الحجج التى ساقها ستيوارت مل فى كتابه المنطق عن هذا الموضوع تبدو لى غير كافية بتاتاً . وقد قرأت هذه الحجج وأنا فى الثامنة عشرة . ولم يكن المدرسون الخاصون الذين علمونى الرياضة قد أوضحوا لى على الإطلاق أى دليل يجعلنى أفترض أن التفاضل والتكامل فى الرياضة ليس إلا نسيجاً من الأباطيل . ولذلك كان هناك سؤالان يقضان مضجعى ، أحدهما فلسفى ، والآخر رياضى . أما السؤال الرياضى فكان قد وجد له حلاً فى القارة الأوربية فعلاً برغم أن إنجلترا كانت على معرفة ضئيلة بأبحاث القارة الأوربية . ولم أكتشف إلا بعد أن تركت كامبردج وبدأت أعيش فى الخارج ما كان يجب على أن أتعلمه خلال السنوات الثلاث التى قضيتها طالباً فى الجامعة . أما الفلسفة فكان لها شأن آخر . وقد تعرفت فى الريف على هارولد يواقيم ، الذى كان يقوم بتدريس الفلسفة فى كلية ميرتون بجامعة أكسفورد . وكان صديق الفيلسوف ف . ه . برادلى[١] . وكانت شقيقة يواقيم قد تزوجت من

---

(١) عاش الفيلسوف الإنجليزى فرانسيس هربرت برادلى بين ١٨٤٥ و ١٩٢٤ ، وتعلم فى أكسفورد ودرس بها . بدأ متأثراً بمثالية هيجل ثم ثار عليه وكان من أكبر خصوم بنثام وستيوارت مل=

عمى رولاو ، فكنت ألقاه من آن لآخر فى مباريات التنس وأمثال هذه المناسبات . وتمكنت من أن أحصل منه على قائمة طويلة بالكتب الفلسفية التى ينبغى علىّ أن أقرأها . وقد شرعت فى قراءتها أثناء دراستى للرياضيات . وما إن وجدت الوقت الكافى حتى كرست نفسى لدراسة الفلسفة بحماسة شديدة . وخلال السنة الرابعة فى الجامعة قرأت معظم الفلاسفة العظماء كما قرأت عدداً هائلاً من الكتب فى فلسفة الرياضيات . وكان جيمس وورد يعطينى كتباً جديدة فى هذا الموضوع ، وكنت أعيدها إليه قائلاً فى كل مرة إنها كتب رديئة . وما زلت أذكر خيبة أمله ، ومحاولاته المضنية لكى يجد كتاباً يرضينى . ولكننى فى النهاية ، بعد أن تخرجت وعينت زميلاً ، حصلت على كتيبين ، لم يكن قد قرأ أيهما أو لعله كان يظن أنهما بلا أية قيمة . وكان هذان الكتابان كتاب جورج كانتور[١] «معرفة التعددية» وكتاب فريج «تحديد المعنى» . وقد زودنى هذان الكتابان أخيراً بخلاصة ما كنت أريده ، ولكننى احتفظت بكتاب فريج عدة سنوات قبل أن أتمكن من فهم معناه . والواقع أننى لم أفهمه إلا بعد أن اكتشفت بنفسى معظم ما جاء به.

وفى هذا الوقت كنت قد تخلصت من صلفى وخجلى اللذين أتيت بهما إلى كامبردج أول الأمر . وأذكر أننى ذهبت لمقابلة رائدى بشأن السكن قبل أن أذهب للإقامة بالجامعة ببضعة أشهر ، وبينما كنت فى غرفة الانتظار

=والمذهب النفعى والمذاهب المادية بوجه عام ، وفى كتابه دراسات الأخلاق فى ١٨٧٦ هاجم النفعية ودعا إلى أن تحقيق الخير العام هو غاية الأخلاق مفترضاً وجود ذات كلية ترتفع على الذات الأنانية بين البشر . وفى أهم كتبه وهو الظاهر والحقيقة فى ١٨٩٣ قال إن التجربة أو الاختيار معناه وحدة الإنسان التامة مع ما يدركه من أشياء فى الكون . ولكن بما أن الحقيقة الشاملة أكبر من أن يدركها العقل المحدود فأحكامنا لا يمكن أن تخلو من الخطأ . وحل هذه الإشكال هو افتراض ناقص عن المطلق أى الحقيقة فى ذاتها وهى الحقيقة التى لا تقوم على علاقة بين الإنسان والكون أى قائمة سواء وجد الإنسان أو لم يوجد . وهو يسمى هذه الحقيقة الروح المطلق ، ونظريته فيها رجعة إلى المثالية الألمانية وقد وصف برادلى بأنه أعظم الفلاسفة منذ كانط .

(١) عاش جورج كانتور بين ١٨٤٥ و ١٩١٨ . وكان من أبرز علماء الرياضيات الألمان ومن أهم نظرياته فى الرياضة نظريته فى الأعداد اللاعقلية ونظريته فى حساب اللامتناهى أو اللامحدود . وقد تأثرت به الرياضيات والمنطق الرياضى فى القرن العشرين .

رحت أتصفح "جرانتا (وهى الصحيفة التى كان يصدرها الطلبة) . كان ذلك أثناء أسبوع أعياد مايو ، وقد صدمت عندما قرأت فى الصحيفة أن أفكار الناس تنصرف عن العمل فى هذا الأسبوع . ولكننى أصبحت فى السنة الرابعة مرحاً أميل إلى العبث . ولما كنت أقرأ عن وحدة الوجود ، فقد أعلنت لأصدقائى أننى إله ، فقاموا بوضع شموع عن يمينى وشمالى وراحوا يقيمون طقوس عبادة صورية . كانت الفلسفة بوجه عام تبدو لى متعة رائعة ، وكنت أستمتع بالتصورات الغريبة للعالم التى يقوم عظماء الفلاسفة بتزويد الخيال بها .

كانت أسعد أيامى بكامبردج مرتبطة بجماعة كان أعضاؤها يعرفونها باسم (الجمعية) ، ولكن الخارجين عنها كانوا يطلقون عليها ، حين يعلمون بأمرها ، اسم (الحواريين) . كانت جمعية للمناقشات ، وكانت تضم إليها كل سنة عضواً أو عضوين فى المتوسط ، وكانت تجتمع مساء كل سبت . وقد ظلت قائمة منذ عام ١٨٢٠ وضمت معظم الجامعيين النابهين فكرياً فى جامعة كامبردج منذ ذلك التاريخ . وكان اختيار الأعضاء يتم فى سرية ، حتى لا يعرف المرشحون للاختيار شيئاً . وسرعان ما تعرفت بفضل وجود هذه الجمعية على من يستحقون التعرف إليهم . وكان الفيلسوف هوايتهيد عضواً فى هذه الجمعية ، فطلب إلى الأعضاء الأصغر منه سناً أن يبحثوا أمر سانجر وأمرى نظراً لامتياز إجاباتنا فى امتحانات المنحة العلمية . ومع بعض الاستثناءات النادرة ، كان جميع الأعضاء أصدقاء شخصيين حميمين لى . وكان أحد أسس المناقشة ألا تكون هناك محرمات فى التعبير ، أو قيود فى التفكير ، وألا يعد أى شىء نابياً ، أو أن تقام حواجز تحول دون حرية التأمل المطلقة . وكنا نناقش كل الموضوعات ، فى شىء من عدم النضوج دون شك ، ولكن بتجرد واهتمام يصعب توفرهما فيما بعد . وكانت الاجتماعات تنتهى حوالى الواحدة صباحاً ، وكنت أذرع بعدها أروقة نيفيل كورت جيئة وذهاباً لساعات عديدة مع واحد أو اثنين من الأعضاء . وكنا نأخذ أنفسنا بجدية ، لأننا نعد أنفسنا أمناء على فضيلة النزاهة الفكرية . ولا شك أننا حققنا بهذا الكثير ، أكثر مما يتحقق فى العالم الخارجى . وأنا أميل

إلى الاعتقاد بأن أفضل ما فى كامبردج كان يتمثل فى هذه التقاليد الفذة . وقد انتخبت عضواً فى الجمعية فى منتصف العام الثانى من دراستى بالجامعة . ولم أكن أعلم فعلاً بوجود هذه الجمعية ، برغم أننى كنت أعرف كل أعضائها معرفة وثيقة .

انتخبت عضواً بالجمعية فى أوائل عام ١٨٩٢ . وخطابات التهنئة التى أوردها فيما يلى تتطلب تفسيراً لبعض العبارات التى كانت الجمعية تتخذها أسلوباً تتهكم به على الميتافيزيقا الألمانية . كان من المفروض أن الجمعية تمثل عالم الحقيقة ، وما عدا ذلك فهو مظهر خادع . وكان غير الأعضاء فى الجمعية يسمون (بالظواهر) ولما كان الميتافيزيقيون ينادون بأن المكان والزمان مجرد وهم ، فقد كان من المفروض أن أعضاء الجمعية متحررون من عبودية المكان والزمان .

طرف / صاحب السعادة سير تشارلز إليوت

نائب محافظة البنغال ، الهند .

الأربعاء ٩ من مارس ١٨٩٢

عزيزى رسل

لقد علمت لتوى من بريد الصباح أنك قد انضممت إلينا — فأهلاً بك . إن هذا نبأ طيب حقًّا . ولا ينبغى لى أن أدع البريد يرسل عصر اليوم دون أن أكتب إليك بضع كلمات معبراً عن مدى سعادتى ، وأسفى لعدم وجودى فى كامبردج الآن لكى أصافحك مصافحة الأخ . وستكون لك بالطبع انطباعاتك الخاصة عن الجمعية ، ولكن من المؤكد أنها كانت تعنى بالنسبة لى حياة جديدة حقًّا ، واكتشافاً لحقيقة كامبردج الفعلية .

لقد حان الوقت لذهاب البريد ، وأخشى أننى لن أستطيع أن أكتب إليك الآن عن كل تجاربى ولسوف ينبئك ثيودور بأحوالى . أسفت جدًّا عندما علمت أنك كنت متوعكاً . أرجو لك شفاء عاجلاً . لا تدع ويب (مدرس الرياضيات) يرهقك بالعمل .

أرجو قبول عذرى فى كتابة هذه السطور السريعة . اللعنة على هذين المحتالين السخيفين المكان والزمان ، اللذين بلغت بهما القحة أن يدعيا أنهما يفرقان بيننا الآن . بينما نعلم نحن أن لا علاقة لهما بذلك الوجود الحقيقى الذى كنت ، وما زلت ، وسأظل للأبد ، أرسف فى أغلاله .

أخوك المخلص المحب

كرومبتون (دكتوراه فى القانون)

ليس لدىّ وقت لكى أكتب إلى سانجر خطاباً بالمعنى الصحيح ، فهل تسمح بتوصيل الرسالة المقتضبة المرفقة طيه إليه ؟

أرجو أن تكتب إلىّ إذا وجدت الوقت اللازم لذلك .

شارع ديفون ، نيوبليموث

تاراناكى ، نيوزيلاندا

١٧ من مايو ١٩٠٢

عزيزى رسل

تهانئى للأنباء الممتعة التى نمت إلى علمى فى فبراير الماضى ، والتى وصلتنى الآن تواً عن طريق الهند — وأنا أرسف فى أغلال الزمان والمكان التى لا يمكن بحال أن تجد لها تفسيراً فى عرف الحواريين .

إن سعادتى بالغة . أرجو أن تكون قد أنبئت بنفاذ بصيرة الأخ هوايتهيد ، الذى اكتشف طبيعتك الحوارية وطبيعة سانجر من خلال المقالات التى تقدمتما بها فى امتحان المنح العلمية ، وطلب منا أن نبحث عنكما .

كم أود لو كنت أستطيع أن أعود لقضاء ليلة الأحد أو ما شابه ذلك فى مناقشة مع ثيودور حول المسيحية كدين يدعو للحب — وهو ما لا أجده فيها . فأنا لا أستطيع أن أرى كيف يمكن أن تتعايش فكرة إله شخصى وفكرة الحب الحقيقى تعايشاً حيوياً .

كيف حال الأجنة[١] ؟ بلغني أن تريفيليان الصغير (بوب) يبشر بخير ، وكذلك جرين الذى ينتمى إلى كلية كينج .

إن لدىّ أعداداً لا تحصى من الخطابات لكى أرسلها بالبريد . أرجو أن أراك فى منتصف يناير القادم .

أخوك المخلص

(إمضاء) إليس ماكتاجارت

وقد تغيرت بعض الأمور فى الجمعية إلى حد بعيد بعد تخرجى بوقت قصير .

فقد حدد ليتون ستراتشى وكنز [٢] اتجاه الجيل الجديد الذى تلا جيلى بعشر سنوات تقريباً . ومن الأمور المثيرة للدهشة ذلك التغيير الهائل فى المناخ الفكرى الذى أحدثته تلك السنوات العشر . كنا لانزال فيكتوريين ، وكان هؤلاء إدواردين . كنا نؤمن بالتقدم المنظم عن طريق السياسة وحرية المناقشة . ومن المحتمل أن أكثرنا ثقة بالنفس كانوا يأملون أن يصبحوا قادة للجماهير ، ولكن لم يكن بيننا واحد يتمنى أن ينفصل عن الجماهير . أما

---

(١) الاسم الذى كنا نطلقه على الطلبة الذين ننوى انتخابهم .

(٢) عاش الاقتصادى الكبير اللورد مينارد كينز بين ١٨٨٣ و ١٩٤٦ ، وقد ولد فى كامبردج وكان تخصصه الأول فى الدراسات اليونانية واللاتينية ولكنه دخل خدمة الحكومة ودرس مشاكل الهند المالية ثم عين فى وزارة الخزانة البريطانية فى ١٩١٥ . وقد كان مندوب وزارة الخزانة فى مفاوضات الصلح التى انتهت بمعاهدة فرساى ، ولكنه استقال ليهاجم معاهدة فرساى بكتابه نتائج الصلح الاقتصادية فى ١٩١٩ الذى أوضح فيه عجز ألمانيا عن دفع التعويضات المفروضة عليها وتنبأ بالعواقب الوخيمة التى ستترتب على الاقتصاد العالمى من شروط فرساى . ويعتبر كينز أكبر ناقد للاقتصاد الإنجليزى الكلاسى بفضل كتاباته . ومن مؤلفاته الهامة النظرية العامة فى العمالة والفائدة والنقود فى ١٩٣٦ . وفى هذا الكتاب أوضح أن العمالة الكاملة فى بريطانيا لا تترتب بالضرورة على التصنيع ولكن تتحقق بتنشيط السلع الإنتاجية وبتشجيع الاستهلاك بتقليل الادخار وعلى وفرة السيولة النقدية فى أيدى الأفراد بزيادة الأجور إلخ . وقد سلطت عليه الأضواء من جديد أثناء الحرب العالمية الثانية فعين محافظاً لبنك إنجلترا ومستشاراً حالياً للحكومة البريطانية . وقد أوصى لمعالجة التضخم بالادخار الإجبارى وإنشاء بنك دولى وعملة دولية لتحرير التجارة الدولية والاستثمار الدولى .

جيل كينز وليتون ستراتشى فلم يكن يسعى إلى الإبقاء على أى صلة بأصحاب الفلسفة المادية . بل كانوا يهدفون إلى حياة انعزالية بين الظلال الناعمة والمشاعر الجميلة وكانوا يتصورون أن الخير يكمن فى الإعجاب العاطفى المتبادل بين أفراد مجموعة من الصفوة المختارة . ولقد نسبوا هذه النظرية دون ما وجه حق - إلى ج . ا . مور، الذى كانوا يعترفون بأنهم من أتباعه . ولقد أشار كينز فى سيرته الذاتية (المعتقدات الأولى) إلى إعجابهم بنظرية مور . وكان مور يعطى وزناً للأخلاقيات ويتجنب فى نظريته فى الوحدات العضوية الرأى القائل بأن الخير يتمثل فى مجموعة متتالية من اللحظات العاطفية المتفرقة . ولكن أولئك الذين اعتبروا أنفسهم تلاميذه أغفلوا هذا الوجه من تعليمه وهبطوا بدعوته إلى مستوى المناداة بالعاطفية الرخيصة الخانقة التى تليق بفتيات المدارس .

وقد هرب كينز من هذا الجو الخانق إلى العالم الكبير . أما ستراتشى فلم يهرب منه قط . ومهما يكن من شىء فإن هرب كينز لم يكن تامًّا . فقد راح يجوب العالم حاملا معه أينما ذهب شعور الأسقف فى عزلته . وكان الخلاص الحقيقى فى مكان آخر ، بين المؤمنين فى كامبردج . فعندما كان يوجه اهتمامه إلى السياسة والاقتصاد كان ينفصل عن عواطفه . وهذا هو السبب فى الخاصية الإنسانية ، المتألقة ، الصلبة فى معظم كتاباته . وكان هناك استثناء واحد عظيم هو « النتائج الاقتصادية للسلام » الذى سأتكلم عنه بإفاضة بعد قليل ؟

وقد عرفت كينز أول الأمر عن طريق والده ، وليتون ستراتشى عن طريق أمه . فعندما كنت شابًّا ، كان والد كينز يقوم بتدريس المنطق الصورى ، منطق أرسطو العتيق فى كامبردج . ولا أعلم مدى تأثير التطورات الحديثة فى هذا الموضوع فى طريقة تعليمه للمنطق . وكان منشقًّا على الكنيسة الإنجليزية ، غيوراً ، يضع الأخلاقيات (لا اللاهوت) فى المقام الأول ويلى الأخلاق فى الترتيب علم المنطق . ولقد استمرت روح الانشقاق هذه فى ابنه . ولكن خففـ منها إدراكه أن الحقائق والبراهين قد تؤدى إلى نتائج تصدم الكثيرين بعض الشىء

وكان فى شخصيته شىء من الغطرسة الفكرية جعله لايجد غضاضة فى تجنب البورجوازيين . ولكن هذا الشىء من الغطرسة لا أثر له فى كتاب كينز « النتائج الاقتصادية للسلام » . وقد أيقظ إيمانه العميق بأن معاهدة فرساى كانت تعنى دمار العالم شخصية الإنسان الخلق الجاد الكامن فى نفسه حتى نسى بسبب هذا ما عهد فيه من حصافة .

ولم يكن لى به اتصال فى عمله السياسى والاقتصادى ، ولكننى كنت مهتماً بكتابه « بحث فى الاحتمال » ، وقد ناقشت معه بالتفصيل أجزاء عديدة من هذا الكتاب . وقد فرغ من هذا الكتاب فى ١٩١٤ على وجه التقريب ، ولكنه اضطر إلى تنحيته لفترة من الوقت .

وكان دائماً يميل إلى إرهاق نفسه بالعمل ، والواقع أن الارهاق هو الذى تسبب فى موته ، وقد كتب لى مرة فى عام ١٩٠٤ ، عندما كنت أعيش فى كوخ منعزل فى أرض بور شاسعة لم تشق بها طرقات ، يسألنى إن كنت أستطيع أن أكفل له عطلة نهاية أسبوع هادئة . وأجبته بالإيجاب ، وكلى ثقة ، وحضر . وبعد خمس دقائق من وصوله وصل وكيل الجامعة ليعرض عليه كثيراً من المسائل الجامعية . وحضر آخرون ، لم أكن أتوقعهم ، إلى كل وجبة طعام ، بما فى ذلك ستة أشخاص لتناول الإفطار معنا يوم الأحد . وأخشى أن كينز رحل أكثر إجهاداً مما جاء . وفى يوم ٢ من أغسطس عام ١٩١٤ التقيت به وهو يسرع الخطى عبر الفناء الكبير فى كلية ترينتى . وسألته عن السبب فى إسراعه فقال إنه كان يريد أن يستعير دراجة أخيه البخارية ليذهب بها إلى لندن . قلت له : «لماذا لاتذهب بالقطار ؟ » فأجابنى : « لأننى فى عجلة من أمرى » . لم أكن أعلم ماهية عمله فى لندن ، ولكن خلال بضعة أيام خفضت نسبة أرباح البنوك ، التى كان مشيعو الذعر قد رفعوها إلى عشرة فى المائة ، إلى خمسة فى المائة . وكان هذا من فعله .

وأنا لا أعرف من الاقتصاد ما يكفى لأن أكوّن رأياً متخصصاً فى نظريات كينز ، ولكن يبدو لى فى حدود قدرتى على الحكم أنه بفضله لم تعان بريطانيا

فى السنوات الأخيرة من البطالة على نطاق واسع . بل أستطيع أن أقول أكثر من هذا إن نظرياته لو وجدت من السلطات المالية فى العالم كله من يتبناها لما حدثت الأزمة الاقتصادية [1] ؛ فما زال هناك الكثيرون فى أمريكا ممن ينظرون إلى الكساد الاقتصادى على أنه من قضاء الله . وأظن أن كينز قد أثبت أن مسئولية هذه الأحداث لا تقع على عاتق العناية الإلهية .

ولقد رأيته لآخر مرة فى مجلس اللوردات عندما عاد من مفاوضاته بأمريكا بشأن عقد قرض لبريطانيا وألقى خطاباً يدافع فيه عن هذا القرض أمام السادة اللوردات . وكان الكثيرون منهم متشككين من قبل فى سلامة هذا القرض . ولكن عندما انتهى من خطابه لم يبق منهم متشكك واحد فيما عدا اللورد بيفربروك واثنين من أبناء عمومتى كانا يحبان دائماً أن يكونا ضمن الأقلية . ولما كان قد وصل لتوه من رحلته عبر الأطلنطى ، فلا بد أن المجهود الذى بذله كان مهولا . وقد ثبت أنه يفوق طاقة احتماله .

وكان كينز من أشد من عرفت ذكاء ، وصفاء فى الذهن . وكلما جادلته كنت أشعر أننى أحمل حياتى على كفى ، ونادراً ما كنت أخرج من المناقشة دون أن أشعر بأننى أشبه الأبله . وكنت أميل أحياناً إلى الشعور بأن مثل هذا الذكاء الفائق يتعارض مع العمق ، ولكننى لا أعتقد أن هذا الشعور كان له ما يبرره .

ولقد تعرفت على ليتون ستراتشى [2] لأول مرة ، كما ذكرت قبلا ، عن طريق أمه . كنا هى وأنا ، عضوين فى لجنة تهدف إلى إعطاء النساء حق التصويت . ودعتنى بعد بضعة أشهر إلى العشاء . وكان زوجها ، السير ريتشارد

---

(١) الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العالم فى الثلاثينيات .

(٢) عاش ليتون ستراتشى بين ١٨٨٠ و ١٩٣٢ وتعلم فى كامبردج وأصاب شهرة واسعة ككاتب للسير وتراجم العظماء ومن أهم مؤلفاته معالم الأدب الفرنسى فى ١٩١٢ وأعلام العصر الفيكتورى فى ١٩١٨ والملكة فيكتوريا فى ١٩٢١ وكتب وشخصيات فى ١٩٢٢ واليزابيث واسيكس فى ١٩٢٨ . وهو صاحب أسلوب شاعرى رشيق وقدرة فائقة على رسم الشخصيات على المستوى الفردى ولكنه متهم بالتحيز والنقص فى القدرة على التحليل وفهم أثر العوامل الاجتماعية فى تكوين سلوك العظماء وأفكارهم .

ستراتشى ، موظفاً متقاعداً من موظفى حكومة الهند ، وكان الراجا البريطانى أمراً مألوفاً يومئذ .وكان عشائى الأول مع العائلة تجربة أثارت قلقى بعض الشىء ، فقد كان عدد الأولاد والبنات فى الأسرة لا يحصى ، وبدا كل الأطفال لعينى الناقصتى الخبرة متشابهين إلا فى النقطة السطحية وهى أن بعضهم كانوا ذكوراً والآخر كان إناثاً . ولم يكن كل أفراد العائلة قد اكتمل عقدهم عندما وصلت ، ولكنهم تواردوا الواحد بعد الآخر على فترات تقرب من عشرين دقيقة . (وكان أحدهم ليتون كما اكتشفت فيما بعد) وكان على أن أدير عينى فى الغرفة بحذر لأتأكد إن كان القادم شخصاً جديداً أم مجرد واحد من السابقين قد غير مكانه. وقرب نهاية الأمسية بدأت أشك فى قواى العقلية ، ولكن الأصدقاء الطبيبين أكدوا لى فيما بعد أن الأمور كانت فى الواقع كما بدت لى تماماً .

وكانت الليدى ستراتشى امرأة ذات حيوية دافقة ، تدفعها رغبة قوية فى أن يتمكن بعض أولادها على الأقل من الارتفاع بمنزلتهم ، كان تذوقها للنثر مثيراً للإعجاب وكانت تقرأ مواعظ ساوث لأطفالها بصوت عال ، لا من أجل المضمون (فقد كانت امرأة متحررة فى تفكيرها) ، ولكن لكى تنقل إليهم الإحساس بالإيقاع فى كتابة اللغة الإنجليزية . وكانت أم ليتون تتوسم فيه ذكاء مفرطاً مع أن حساسيته الشعرية كانت تحول بينه وبين الذهاب إلى مدرسة تقليدية . وقد نشأ فى جو من الانقطاع لمهنة الكتابة . وكانت كتاباته تبدو لى فى تلك الأيام مسلية جذلة . وقد سمعته يقرأ كتاب مشاهير عصر فيكتوريا قبل أن ينشر وقرأته مرة ثانية لنفسى فى السجن . وقد أثار ضحكى بصوت عال حتى إن الضابط جاء إلى زنزانتى قائلا إننى يجب أن أتذكر أن السجن مكان للعقاب .

وكان ليتون ستراتشى شاذ الأطوار منذ حداثته ، وكانت غرابة أطواره تزداد تدريجياً مع الأيام . وعندما أراد أن يطلق لحيته أشاع أنه أصيب بالحصبة لكى لايراه أصدقاؤه حتى تبلغ لحيته طولا محترماً . وكان شاذاً فى ملبسه .

كنت أعرف زوجة مزارع تقوم بتأجير بعض المساكن ، وقد أخبرتنى أن ليتون كان قد جاءها يسألها إن كان من الممكن أن ينزل عندها . قالت لى « وفى أول الأمر ، ياسيدى ، كنت أظن أنه صعلوك ، ثم عاودت النظر إليه وعرفت أنه سيد مهذب ، وإن كان غريب الأطوار » . وكان يتكلم بصوت صائى مثل صوت فرخ الحمام ، يتعارض أحياناً مع الموضوع الذى يتكلم فيه بشكل يدعو إلى الضحك . وذات مرة كنت أتكلم معه فاعترض أولا على شىء ثم اعترض على شىء آخر قائلا : إنهما لايمثلان ما ينبغى أن يهدف إليه الأدب . وأخيراً قلت : « فليكن ياليتون ، ولكن ما الذى ينبغى أن يهدف إليه الأدب ؟ » فأجاب « العاطفة الملتهبة » . ومع ذلك ، فقد كان يحب أن يبدو متعاظماً إزاء الأمور الإنسانية . وقد سمعت شخصاً يدلل على أن الشبان قادرون على التفكير فى الحياة . فاعترضه ليتون قائلا « لا أستطيع أن أصدق أن الناس يفكرون فى الحياة . فليس بها ما يستحق التفكير » . ولعل هذا الموقف من الحياة هو الذى حال بينه وبين أن يكون رجلا عظيماً .

وأسلوب ليتون ستراتشى مسرف فى البلاغة ، وكنت أراه فى لحظات تخابث من جانبى ، لا يختلف فى شىء عن أسلوب ماكولى . فهو لا يهتم بالحقيقة التاريخية بل يضيف من الرتوش فى الصورة دائماً ما يجعل الأضواء والظلال أكثر وضوحاً ويجعل حماقات مشاهير الرجال والناس وأسرارهم أشد جلاء . وهذه اتهامات خطيرة أوجهها له ككاتب للسير ، ولكننى أوجهها بمنتهى الجدية .

وقد أدركت امتياز مور لأول مرة فى (الجمعية) . وإنى لأذكر قراءته لبحث استهله بقوله : « فى البدء كانت المادة ، وولدت المادة الشيطان ، وولد الشيطان الله » ، وانتهى البحث بموت الله أولا ثم بموت الشيطان ، تاركاً المادة وحدها كما كانت منذ البداية . وفى الوقت الذى قرأ فيه بحثه ، كان لايزال طالباً حديث الالتحاق بالجامعة ، وتلميذاً متحمساً للشاعر الفيلسوف لوكريس .

وكانت عادتنا فى يوم الأحد أن نتناول طعام الإفطار فى ساعة متأخرة ،

ثم نقضى اليوم كله حتى وقت العشاء فى جولة على الأقدام . وعرفت بهذه الطريقة كل شارع وكل رصيف على مدى عشرة أميال من كامبردج ، وأماكن كثيرة تقع على مسافات أبعد بكثير . وعموماً فقد كنت أشعر بالسعادة والهدوء النسبى أثناء وجودى بكامبردج ، وإن كنت فى الليالى المقمرة أروح أقطع البلاد عدواً فى حالة من الجنون المؤقت. وكان السبب فى هذا ، طبعاً ، الرغبة الجنسية ، بالرغم من أننى لم أكن أعرف هذا وقتئذ .

وبعد أيامى فى الكلية تغيرت (الجمعية) من وجه واحد . فقد نشبت معركة طويلة بين جورج تريفيليان وليتون ستراتشى ، وفى عهده الأخير بالكلية ، شاع الشذوذ الجنسى بين الأعضاء ، أما فى أيامى فلم يكن هذا أمراً معروفاً.

كانت كامبردج هامة فى حياتى ، لأنى أدين لها بما كونت من صداقات ، وما اكتسبت من خبرة بالمناقشة الفكرية ، ولكنها لم تكن هامة من ناحية التعليم الأكاديمى الفعلى . ولقد تكلمت فيما سبق عن تعليم الرياضيات وفساده ، كما أن كل ما تعلمته من فلسفة يبدو لى الآن خطأ . ولقد قضيت سنوات طويلة بعد تخرجى أحاول أن أتخلص بالتدريج من عادات التفكير التى اكتسبتها هناك ، وكانت العادة الوحيدة فى التفكير التى اكتسبتها والتى كانت لها قيمة حقيقية هى الأمانة الفكرية . كانت هذه دون شك شائعة ، لا بين أصدقائى وحدهم ، وإنما بين أساتذتى أيضاً . فلست أذكر مثلا واحداً لمدرس استاء عندما أوضح له تلميذ من تلاميذه أنه كان على خطأ ، على الرغم من كثرة ما أذكر من مناسبات تمكن الطلبة فيها من تصحيح أساتذتهم . فقد حدث ذات مرة أثناء محاضرة عن توازن السوائل أن قاطع أحد الطلبة المدرس قائلا : « ألم تنس أن تذكر دور القوى المركزية الطاردة الواقعة على الغطاء ؟ » . وشهق المدرس ثم قال : « لقد ظللت أشرح هذا المثال بهذه الطريقة عشرين سنة ، ولكنك على حق » . ولقد كانت صدمة لى أثناء الحرب أن أجد أنه ، حتى فى كامبردج ، كانت للأمانة الفكرية حدود . وحتى ذلك الوقت كنت أشعر أينما أقمت أن كامبردج هى المكان الوحيد على سطح الأرض الذى أستطيع أن أعتبره بيتى .

الفصل الرابع

الخطوبة

فى يوم أحد من صيف عام ١٨٨٩ ، وكنت حينذاك أسكن مع عمى رولو فى منزله الواقع على منحدرات هايندهيد ، اصطحبنى إلى نزهة طويلة على الأقدام ، وبينما كنا نسير على جانب من تل فرايداى ، قريباً من فرنهرست ، قال : « قدم بعض السكان الجدد ليقيموا فى هذا البيت ، وأرى أن نزورهم » . وكنت من الخجل بحيث لم أتحمس للفكرة بل توسلت إليه مهما حدث ألا نبقى لتناول العشاء . فوعدنى بذلك ولكنه بقى . وقد سرنى ذلك . وجدنا أن الأسرة هى أسرة بيرسال سميث الأمريكية ، تتكون من أب وأم متقدمين فى السن وابنتهما ومعها زوجها ويدعى كوستللو ، وابنة أصغر تطلب العلم فى كلية برين مور للبنات فى أمريكا ، ولكنها كانت فى هذه المناسبة تقضى عطلتها مع عائلتها . وكان هناك أيضاً ابنهما وهو طالب فى كلية باليول بجامعة أكسفورد . وكان الأب والأم فى وقت ما واعظين مشهورين ينتميان للطائفة الإنجيلية ، ولكن الأب فقد إيمانه نتيجة لفضيحة ، فقد رآه أحدهم وهو يقبل امرأة . أما الأم فقد تقدم بها العمر فلم تعد تحتمل مشقة حياة الوعاظ . وكان كوستللو ، زوج الابنة ، شخصاً ذكياً ينتمى إلى الحزب الراديكالى ، كما كان عضواً فى مجلس مقاطعة لندن . كنا نتناول العشاء عندما دخل قادماً من لندن ، وجاء بآخر الأنباء عن إضراب خطير لعمال أحواض السفن كان حينئذ فى أوجه ، وكان هذا الإضراب ذا أهمية كبيرة لأنه أوضح تغلغل نقابات العمال إلى مدى أعمق من أى موقف سابق . وأنصت فاغر الفم إلى حديثه وهو يقص ما فعله العمال . وأحسست أنى هنا فى عالم الواقع . أما الابن الذى يتلقى العلم فى باليول ، فكان

يتحدث حديثاً منمقاً ، يصطنع فيه الحكمة . وبدا كمن يعرف كل شيء في يسر يوحي بالازدراء . غير أن الابنة التي قدمت من كلية برين مور هي التي أثارت اهتمامي بصفة خاصة . وكانت جميلــة جداً . كما يتضح من الفقرة الواردة في « المجلة » الصادرة في جلاسجو ١٠ من مايو ١٩٢١ :

« أذكر أني قابلت مسز برتراند رسل في حفل لغرض ديني أو ما أشبه (ترى هل كان حفلا لمندوبي جماعة الامتناع عن تناول الخمر؟) في إدنبرة ، منذ حوالي عشرين عاماً . كانت حينذاك من أجمل النساء اللاتي يمكن أن يتصورهن المرء ، لها جلال الملكات ، بالرغم من أن عائلتها من الكويكرز . ولقد وصل إعجابنا بها نحن الحاضرين حداً جعلنا نتعمد جميعاً ، بأسلوب إدنبرة الرفيع ، أن نجعل منها بطلة المساء » .

كانت أكثر تحرراً من أية امرأة شابة عرفتها ، فقد سافرت من الجامعة وعبرت المحيط وحدها . وكانت ، كما اكتشفت ، صديقة حميمة للشاعر الأمريكي والت هويتمان . وقد سألتني ما إذا كنت قد قرأت مؤلفاً بالألمانية عنوانه (Ekkehard) وتشاء الصدفة أن أكون قد انتهيت من قراءته في ذلك الصباح . وشعرت بأن هذه ضربة حظ . وكان من شأن عطفها أن جعلتني أتغلب على خجلي . وقد أحببتها من أول نظرة . ولم أجتمع بأحد من أفراد العائلة مرة أخرى في ذلك الصيف ، ولكني درجت في الأعوام التالية ، وفي خلال الأشهر الثلاثة التي كنت أقضيها كل عام مع عمي روللو ، على أن أقطع المسافة إلى منزلهم كل أحد راجلا . وهي مسافة تبلغ أربعة أميال ، فأصل في وقت الغداء وأظل هناك حتى موعد تناول العشاء . وكان من عادة القوم بعد العشاء أن يقيموا حفل سمر حول النار في الغابة ، ويجلسوا في دائرة ينشدون ترنيمات يغنيها الزنوج ، لم تكن حتى ذلك الوقت معروفة في إنجلترا . وكانت أمريكا تبدو لي ، كما كان الحال مع الشاعر الألماني جوته ، بلداً رومانسياً يتمتع أهلوه بالحرية ، ولقد وجدت منهم بعداً عن كثير من مظاهر التزمت التي عانيت منها في بلدي . وأهم من كل هذا أني استمتعت بتحررهم من

« العرف الجارى » . وفى منزلهم قابلت العالم الاقتصادى والمفكر العمالى الكبير سدنى ويب . وكان حتى ذلك الوقت أعزب .

وقد عرفت سيدنى وزوجته بياتريس ويب عن كثب لعدة سنوات . بل شاركتهما الإقامة فى بعض الأوقات ، وأقرر أنهما أكمل زوجين رأيتهما . غير أنهما كانا ينفران تماماً من أى رأى رومانسى عن الحب أو الزواج . فالزواج فى رأيهما مجرد نظام اجتماعى قصد منه أن يضع الغريزة فى إطار مشروع . وفى خلال السنوات العشر الأولى من زواجهما ، كانت مسز ويب تقول بين حين وآخر : « الزواج ، كما يكرر سيدنى دائماً ، هو سلة الأوراق التى تلقى فيها الانفعالات » . وحدث فى حياتهما شيء من التغير فى السنوات التالية ، كانا فى العادة يدعوان زوجين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ؛ فيخرجون فى الآحاد وبعد الظهر فى نزهة سريعة ، يصطحب سيدنى السيدة بينما ترافق بياتريس الضيف . ويمر بعض الوقت ، ثم يعلق سيدنى قائلا : « أعرف على وجه التحديد ما تقوله بياتريس فى هذه اللحظة . إنها تقول : الزواج ، كما يكرر سيدنى دائماً ، هو سلة الأوراق التى تلقى فيها الانفعالات » . أما هل قال سيدنى هذا الكلام فعلاً فأمر لم يتحقق منه أحد .

عرفت سيدنى ويب قبل أن يتزوج . ولكنه كان أقل شأناً بكثير من نصف ما أصبح عليه هو وبياتريس معاً . كان اشتراكهما فى كل شيء يتم فى صفاء حتى إنى كنت أتصور ، ولو أن فى هذا تبسيطاً معيباً ، أنها كانت تقدم الأفكار بينما يقوم هو بالتنفيذ . ولعله كان أكثر من عرفت اجتهاداً . حدث عندما كانا يكتبان مؤلفاً عن الحكم المحلى أن أرسلا نشرات لجميع موظفى الحكم المحلى فى البلاد يسألان أسئلة ويوضحان أن من حق الموظف المرسل إليه أن يحصل على نسخة من الكتاب المزمع إصداره بسعر مخفض . وعندما أجرت لهما منزلى ، حار ساعى البريد ،وكان اشتراكيًّا متحمساً ، فيما إذا كان الشرف الذى يناله إذ يخدمهما أكبر من الضيق الذى كان يعانيه نتيجة لتوزيعه ألف إجابة يوميًّا لنشراتهما . وكان ويب يشغل منصباً غير مرموق ولكنه نجح فى

الوصول إلى منصب كبير نتيجة لجهده الخارق . كان أميل إلى الجد ، لايحب المزاح حول المقدسات بما فيها النظريات السياسية . قلت له يوماً : إن للديمقراطية ميزة واحدة على الأقل ، وهى أن عضو البرلمان لايمكن أن يكون أكثر حماقة من أعضاء دائرته ، لأنه كلما ازداد حماقة سجل ناخبوه على أنفسهم حماقة أكبر بانتخابهم إياه . وتألم ويب لهذا بصورة واضحة وقال مسفهاً رأيى : « هذا أسلوب من الحديث لا يروقنى » .

وكانت لمسز ويب اهتمامات أكثر من اهتمامات زوجها . فكانت تهتم بالأفراد ، وليس فقط حين يرجى منهم العون . وكانت متدينة إلى حد بعيد دون أن تنتمى إلى طائفة من الطوائف المعترف بها ، ولو أنها بوصفها اشتراكية كانت تفضل كنيسة إنجلترا لأنها كانت نظاماً تتبناه الدولة . كانت واحدة من تسع شقيقات ، بينما الأب عصامى يدعى بوتر ، جمع معظم ثروته من بناء أماكن لإقامة الجنود فى القرم . كان من مريدى هربرت سبنسر ، وكانت مسز ويب أبرز من أنجبته نظريات هذا الفيلسوف فى التربية . ويؤسفنى أن أقرر أن أمى ، وكانت تقطن المنزل المجاور لهما فى الريف ، وصفتها بأنها « من فراشات المجتمع » ، ومع هذا فمن المحتمل أنها كانت ستغير رأيها لو عرفت مسز ويب فى مرحلة متأخرة من الحياة . وعندما بدأت مسز ويب تهتم بالاشتراكية قررت أن تقيس على مبادئ الفابيين ، وبالأخص أبرز ثلاثة منهم : سيدنى ويب ، وبرنارد شو ، وجراهام والاس . وكان فى هذا شيء من «حكم باريس»[١] مع عكس الجنسين ، وكان سيدنى هو الذى برز باعتباره المقابل لأفروديت .

كان ويب يعتمد كلية على ما يتكسبه ، بينما لدى بياتريس إرث عن والدها . وكان لها ، على عكس زوجها ، عقلية الطبقة الحاكمة ، ونظراً لأنه

---

(١) « باريس » ابن الملك بريام ملك طروادة من هكيوبا وكانت تحلم بطفل ملتهب الحماس ولذا ألقت به على جبل إيدا حيث نشأ راعياً وذات يوم جاءته الإلهات الثلاث هيرا وأفروديت وأثينا يحتكمن إليه أيهن أجمل وقد حكم لأفروديت التى وعدته بالزواج من أجمل نساء العالم . وبمساعدتها اختطف هيلانة زوجة منالاس الإغريقى وتسبب عن هذا حروب طروادة .

توافر لهما ما يكفيهما أن يعيشا دون عمل فقد قررا أن يكرسا حياتهما للبحث والدراسات الأرقى فى ميدان الدعاية ، وقد نجحا هنا نجاحاً باهراً ولعل مؤلفاتهما تتحدث بطلاقة عن جدهما واجتهادهما . أما كلية الاقتصاد التى أنشأها سيدنى فهى دليل على رجاحة فكره . وفى اعتقادى أنه ما كان يمكن لقدرات سيدنى أن تثمر إلى هذا الحد لو لم يعززها عامل الثقة بالذات لدى زوجته بياتريس . سألتها يوماً إن كانت قد أحست مرة بالخجل وهى صبية . فأجابت : « لا ، ولو حدث أن خالجنى مرة هذا الشعور وأنا أدخل غرفة تموج بالناس فإنى أقول لنفسى : أنت أفضل عضو فى أفضل عائلة فى أفضل طبقة فى أفضل شعب فى العالم ، ففيم الخوف ؟ » .

ولقد أحببت مسز ويب وأعجبت بها ، ولو أنى كنت أختلف وإياها حول أمور كثيرة هامة . أعجبت أولا وقبل كل شىء بقدرتها البالغة على التصرف وأعجبت ثانياً بنزاهتها . فقد عاشت حياتها فى خدمة القضايا العامة ولم يصرفها عن هذا السبيل أى مطمح شخصى ، ولو أنها لم تكن تخلو من الطموح . وسرنى منها أنها كانت صديقة رقيقة الحاشية تشيع الدفء بين من شعرت نحوهم بعاطفة شخصية . غير أنى اختلفت معها حول موضوع الدين ، والاستعمار ، وعبادة الدولة . وكان الموضوع الأخير هو جوهر الاشتراكية الفابية ، ولقد أدى بالزوجين سيدنى وبياتريس ويب ، كما أدى ببرنارد شو ، إلى ما اعتبرته تسامحاً أكثر مما ينبغى مع موسولينى وهتلر ، كما أنه أدى بهما فى النهاية إلى تمجيد سخيف للحكومة السوفيتية فى كتابهما « الشيوعية السوفيتية حضارة جديدة » . ولكن ليس هناك من يخلو من التناقض ، حتى ولا سيدنى ويب وزوجته . قلت يوماً لشو: إن ويب يفتقر إلى المشاعر الإنسانية الطيبة ، فأجاب : « لا ، إنك جد مخطئ . فقد كنت وويب يوماً نستقل الترام فى هولندا ، وجلسنا نأكل قطعاً من البسكويت . وإذا بمجرم مغلول اليدين يأتى به رجل الشرطة إلى عربة الترام . وتدافع جميع الراكبين الآخرين بعيداً عنه فى هلع ، أما ويب فتقدم من السجين وقدم له البسكويت » . وإنى لأذكر هذه القصة كلما

وجدتنى أميل إلى أن أتحامل فى نقد ويب أوشو .

وكان الزوجان يكرهان بعض الناس ، ومن هؤلاء الكاتب الاشتراكى ه . ج . ولز ، أولا : لأنه أساء إلى الدستور الخلقى الفكتورى الصارم ، وثانياً : لأنه حاول أن يزيح سيدنى ويب من منصبه القيادى فى جماعة الفابيين ، كما كانا يكرهان رامزى مكدونالد رئيس حزب العمال البريطانى منذ عهد بعيد . ولعل أقل الملاحظات عداء من جانب أى من الزوجين كانت تلك التى قالتها مسز ويب عند تكوين حكومة العمال الأولى ، من أنه يصلح بديلا ممتازاً لقائد الجماعة .

كان تاريخهما السياسى غريباً . تعاونا أولا مع المحافظين لأن مسز ويب كانت ترتاح لآرثر بالفور لاستعداده أن يقدم أموالا من مصادر عامة للمدارس التى تشرف عليها الكنيسة . وعندما سقطت حكومة المحافظين فى عام ١٩٠٦ قام الزوجان بمحاولات ضئيلة وغير مجدية للاشتراك مع الليبراليين . ثم خطر لهما أخيراً أنهما كاشتراكيين قد يشعران براحة أكثر لو انضما لحزب العمال ، وبالفعل أخلصا لهذا الحزب فى السنوات التالية .

وقد ظلت مسز ويب سنوات عدة تتمسك بالصيام ، لدوافع عدة بعضها صحى والآخر دينى . لم تكن تتناول الإفطار ، كما كان عشاؤها بسيطاً ، أما الوجبة الأساسية فكانت الغداء . ولم تكن هذه الأخيرة تخلو إلا لماماً من المدعوين المرموقين ، بيد أنها كانت تصل من الجوع حداً يجعلها ما إن تسمع الدعوة إلى تناول الطعام حتى تسبق جميع ضيوفها إلى حجرة المائدة . على أنها كانت تؤمن أن المسغبة تقربها من الروحانيات ، بل ذكرت لى يوماً أنها هيأت لها رؤى رائعة . وكان تعليقى على هذا « نعم ، إذا أكلت قليلا صفا ذهنك وإذا شربت كثيراً اختلطت عليك الأمور » . وأخشى أن تكون قد اعتبرت هذه الملاحظة نوعاً من المجون لا يغتفر . أما سيدنى فلم يكن يشاركها هذا الجانب المتدين من حياتها ، ولو أنه لم يكن معادياً له ، وكل ما هناك أنه لم يرتح له . أقمنا مرة فى نزل فى نورماندى ، فكان من عادتها أن تقضى الصباح فى الطابق

العلوى حيث إنها لم تكن تحتمل أن ترى النزلاء يتناولون الإفطار . ولكن سيدنى كان ينزل بين حين وآخر ليطلب الخبز والقهوة . فى المرة الأولى أرسلت مسز ويب الخادم تحمل الرسالة الآتية : « إننا لا نأكل الزبد فى وجبة إفطار سيدنى » وكان استعمالها للفظ « إننا » مما يتندر به أصدقاؤهما .

ثم إن الزوجين لم يكونا يؤمنان أساساً بالديمقراطية ، بل كانا يعتبرانها خدعة من جانب الساسة للتغرير بالجماهير وإشاعة الرعب بينهم . ولقد تبينت مفاهيم مسز ويب عن الحكم عندما ذكرت لى وصف والدها ، وهو رجل أعمال ، لاجتماعات حملة الأسهم . فقد كان من رأيه أن الدور الحقيقى للمديرين هو إيقاف أصحاب الأسهم عند حدودهم . وقياساً على هذه العلاقة كان رأيها فى علاقة الحكومة بالناخبين .

كان لما قصه عليها والدها عن مهنته أثره فى تخليها عن شىء من الاحترام للعظماء . إذ بعد أن انتهى من بناء أماكن لإقامة الجنود الفرنسيين فى القرم فى فصل الشتاء ، وسافر إلى باريس ليتقاضى أجره ، كان قد أنفق كل رأس ماله تقريباً فى تشييد هذه المبانى ، وأصبحت المكافأة المالية له أمراً حيوياً . ولكن على الرغم من أن كل امرئ فى فرنسا اعترف بالدين ، فإن الإذن المصرفى لم يصله . وأخيراً قابل اللورد براسى وكان قد قدم بدوره فى مهمة مشابهة . وشرح مستر بوتر متاعبه فسخر منه اللورد وقال : « يا عزيزى ، إنك لا تعرف كيف تحرك الخيوط . عليك أن تدفع خمسين جنيهاً للوزير وخمسة لكل من مرؤوسيه » . وفعل مستر بوتر هذا وتسلم الصك فى اليوم التالى .

لم يكن سيدنى يتردد فى استخدام حيل ربما اعتبرها البعض تصرفات غير قويمة . ذكر لى على سبيل المثال أنه إذا رغب فى الحصول على موافقة إحدى اللجان بينما الأغلبية تمانع ، فإنه يصوغ القرار بحيث تذكر النقطة مثار الخلاف مرتين . وهو يبدأ جدلاً طويلا حول النقطة المذكورة فى أول ظهورها ، وينتهى بأن يسلم لخصومه برقة ودماثة . وهو يخلص من هذا إلى

أنه فى تسع حالات من عشر لا يلحظ أحد أن النقطة ذاتها قد أشير إليها مرة ثانية فى نفس القرار .

وقد قام الزوجان بدورهام فى إرساء الاشتراكية البريطانية على دعائم فكرية ولعله نفس الدور الذى قام به أتباع الفيلسوف بنثام ، فى حقبة سابقة ، بالنسبة للراديكاليين . ولقد كان مثل أتباع بنثام على شئ من الجفاف والجمود ، والإيمان بأن سلة المهملات هى المكان الطبيعى للعواطف . وبالرغم من هذا فقد كان مريدو آل ويب والبنثاميين ممن تستبد بهم العاطفة لدرجة الحماس . ولقد استطاع بنثام وروبرت أوين [1] أن ينتجا حصيلة فكرية متزنة ، تماماً كما فعل سيدنى وزوجته فى علاقتهما بكير هاردى . إن من الإجحاف أن نتطلب من كل امرئ كافة المقومات التى تضيف إلى قيمته الإنسانية ، بل يكفى أن تتوافر بعض هذه المقومات ، وهو أمر يتوافر لسيدنى وزوجته . وما من شك فى أنه لو غاب الزوجان عن حزب العمال البريطانى لكان هذا الحزب أكثر اندفاعاً ولكانت مبادئه أكثر غموضاً وإبهاماً . وقد قام بأداء الرسالة من بعدهما ابن أخيهما سير ستافورد كربس ، وإنى لأشك فى أن الديمقراطية البريطانية كانت تستطيع أن تحتمل بنفس الطاقة ، المرحلة الشاقة التى تمر فيها الآن لو لم يقيض لها هذان الزوجان .

وعندما ذكرت بين عائلتى أنى قابلت سيدنى ويب قالت جدتى إنها سمعته يحاضر يوماً فى رتشموند ، وإنه « لم يكن . . . » وتساءلت فى إصرار « لم يكن ماذا ؟ » وأخيراً قالت : « لم يكن مهذباً فى تفكيره ولا رقيقاً فى سلوكه » .

أما بين أفراد عائلة بيرسل سميث ، فلم ألق مثل هذا الاتجاه فى التفكير . كنت بينهم سعيداً ، متبسطاً فى الكلام متحرراً من الخجل . كان لهم أسلوبهم فى جعلى أتغلب على الانطواء وأشعر أنى جد ذكى . وقد قابلت عديداً من الشخصيات فى منزلهم ، أذكر منهم على سبيل المثال وليام جيمس . وتفقهت

---

(١) أبو الفلسفة التعاونية .

على يدى لوجان بيرسل سميث فى ثقافة القرن التاسع عشر ، فلوبير ، وولتر باتر ، وغيرهم . وفضلا عن هذا فقد لقننى قواعد الكتابة السليمة ، مثل « ضع فصلة بعد كل أربع كلمات » ، « لاتكتب وفى بداية جملة » . وتعلمت أيضاً أن أصوغ جملة مليئة بالعبارات الاعتراضية تمشياً مع أسلوب وولتر باتر. كما تعلمت أن أصدر الأحكام الصحيحة عن مانيه ومونيه، وديجا ، وكان لهم فى ذلك الوقت نفس شهرة ما تيس وبيكاسو فيما بعد .

كان لوجان بيرسل سميث يكبرنى بتسعة أعوام ، وقد ألقى على الكثير من النصائح الخلقية . كان فى مرحلة انتقال بين النظرة الأخلاقية لجماعة الكويكرز كما نشأت فى فيلاديفيا ، والنظرة البوهيمية التى تجد جذورها فى الحى اللاتينى . أما عن آرائه السياسية فقد كان اشتراكياً وكان السبب فى تحوله إلى هذا الرأى جراهام والاس ، أحد مؤسسى الجمعية الفابية (ولو أنه تحول فى مرحلة تالية إلى الليبرالية) . ولقد حاول لوجان أن يطوع حب الكويكرز للإنسانية لأسس العقيدة الاشتراكية . أما عن أخلاقياته الجنسية فكان حتى ذلك الوقت زاهداً متقشفاً ، بل يمكن أن يوصف بأنه كان مانوياً [1] ، ولو أنه من حيث الدين كان من اللا أدريين . كان يسعى إلى إقناع الشباب المتحرر فكرياً أن يتمسك بمستوى رفيع من الصرامة الشخصية وإنكار الذات . ولهذا الغرض أنشأ ما أسماه مازحاً « طبقة المتزمتين» ، وقد انضممت إليها وأطعت نظمها بضع سنوات [2] .

ازددت مع مرور الأعوام حباً لأليس ، الابنة غير المتزوجة . كانت أكثر اتزاناً من شقيقها لوجان ، وأكثر شعوراً بالمسئولية من شقيقتها مسز

---

(١) Manichaean المانوية فرقة دينية نشأت أولا فى إيران ثم انتشرت فى الإمبراطورية الرومانية فى نهاية القرن الثالث وكانت تقول بوجود إله للخير وإله للشر كما كانت تجمع بين الديانة الإيرانية والديانة المسيحية فى القرن الثالث الميلادى .

(٢) أشرت إلى هذه النظم فى ملحق هذا المؤلف ، وأتبعتها بنشرات من الخطابات التى تلقيتها من ل . ب . س . أثناء وجودى فى كامبردج .

كوستللو. وبدا لى أن عندها كل الحنان الذى كنت أفتقده فى بمبروك لودج ، وفى نفس الوقت تحررت من الصلف والتحيز . وتساءلت ما إذا كانت ستظل دون زواج حتى أكبر ، فقد كانت تكبرنى بخمسة أعوام . وبدا لى هذا الخاطر بعيد الاحتمال ، ولكنى ازددت تصميماً على أنه ، لو تحقق هذا الاحتمال ، لطلبت أن أتزوجها . وأذكر يوماً أنى صحبتها وشقيقها إلى ليفهيل لزيارة القاضى فون ليامز ، وكانت زوجته ترتدى قباء من عصر الملكة اليزابث وكان كل ما فيها يدعو للعجب. وفى الطريق استدرجانى إلى القول إنى أؤمن بالحب من النظرة الأولى ، وسخرا منى لآرائى المغرقة فى العاطفية . وبرح بى الألم ، فلم يكن الوقت قد حان لأقول لماذا آمنت بهذا الرأى . أدركت أنها ليست من الطراز الذى تسميه جدتى « السيدة المهذبة الأصيلة » ، ولكنى قدرت أنها تشبه شخصية اليزابث بينت فى كتابات جين أوستن . وأظننى شعرت أيضاً أن فى اتجاهها نحو الحياة سعة فى الأفق محببة إلى النفس .

وفى عام ١٨٩٣ بلغت سن الرشد ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت علاقتى بأليس بيرسل سميث تصبح أكثر من إعجاب عن بعد . وفى الشهر التالى أصبحت واحداً من السبعة الأوائل فى الرياضيات ، كما أصبحت مستقلاً من الناحية القانونية والمالية . وجاءت أليس إلى كامبردج مع إحدى بنات عمها ، وتهيأت لى أكثر من أى وقت مضى فرص أكثر للتحدث إليها . ثم قدمت مرة أخرى فى عطلة الصيف مع نفس الفتاة ، ولكنى أقنعتها بالبقاء بعض الوقت بعد رحيل هذه الأخيرة ، وانطلقنا عبر النهر ، وتحدثنا فى الطلاق وكانت هى أقرب إلى تقبله منى . كانت من الناحية النظرية تؤيد الحب غير الملتزم ، واعتبرت هذا من ناحيتها أمراً يدعو للإعجاب ، بالرغم من أن آرائى كانت فى هذه الناحية أكثر صرامة . ومع ذلك فقد كان مما سبب لى شيئاً من الحيرة أن أكتشف أنها كانت فى غاية الخجل لأن شقيقتها هجرت زوجها من أجل بيرينسون ، الناقد الفنى . بل إنها لم توافق على أن تتعرف ببيرينسون إلا بعد زواجنا . ولقد اهتممت كثيراً ابزيارتها الثانية لكامبردج وبدأت أراسلها بانتظام .ولم أعد

أقضى عطلات الصيف فى هازلمير لأن جدتى وعمتى أجاثا لم تكونا على وفاق مع زوجة عمى رولاو الثانية . بيد أنى توجهت لزيارة فرايدايزهل لمدة يومين فى الثالث عشر من سبتمبر . كان الطقس دافئاً والشمس تصبغ الكون بلون الذهب . : سكن الهواء ، وفى الصباح الباكر كان الضباب يتسلل إلى الوديان . وأذكر أن لوجان سخر من شيللى لأنه كتب عن « الضباب الذهبى » . وسخرت بدورى من لوجان فقد كان الضباب ذهبياً فعلا فى ذلك الصباح ، ولكن قبل أن يستيقظ هو . أما أنا فقد استيقظت مبكراً ، إذ كنت قد اتفقت وأليس على أن نخرج فى نزهة قبل الإفطار . جلسنا على تل وسط أشجار الزان ، وهو مكان غاية فى الجمال ، يبدو كما لو كان كاتدرائية قديمة على الطراز القوطى ، ومنه تتبين العين مناظر بعيدة من خلال الأشجار المنتشرة فى جميع النواحى . كان الصباح طلقاً ونديًّا ، ودار بخلدى أنه ربما تهيأت السعادة فى حياة الإنسان . بيد أن الخجل منعنى من تجاوز مرحلة تحسس طريقى ونحن جالسان فى الغابة . بل ولم أصل إلى قرار محدد بطلب يدها ، وهو الإجراء العادى فى تلك الأيام ، إلا بعد أن انتهى الإفطار ، وحتى وأنا أفعل ذلك كنت فى غاية التردد والذعر . ولم يكن هناك من ناحيتها قبول أو رفض . ولم يدر بخاطرى أن أقبلها ، أو حتى أمسك بيدها . ولكننا اتفقنا على أن نستمر فى التلاقى والمراسلة ، وأن ندع للزمن أن يقرر هذا الجانب أو ذاك . حدث كل هذا ونحن فى الخارج ، ولكن عند تناول الغداء وجدت خطاباً من الليدى هنرى سمرست ، تدعوها فيه إلى معرض شيكاغو العالمى لتعظ ضد تناول المشروبات الكحولية ، وهى فضيلة كان المفروض أن أمريكا فى تلك الأيام تفتقدها . كانت أليس قد ورثت عن والدتها إيماناً عميقاً بالامتناع تماماً عن الخمر ، وأسعدها كثيراً أن تأتيها هذه الدعوة . قرأتها بصوت عال وبرنة النصر ، وقبلتها بحماس ، مما جعلنى أشعر بالضآلة ، إذ أن معنى هذا أن نفترق عدة أشهر ، وربما كان معناه أيضاً بدء حياة مشوقة بالنسبة لها .

وعندما عدت إلى المنزل وقصصت على أسرتى ما حدث ، كانت استجاباتهم

تقليدية ومن زاوية محددة . قالوا إنها ليست سيدة بمعنى الكلمة ، وإن صناعتها خطف الأطفال ، لأنها واعظة ، وإنها مغامرة تنتمى إلى الطبقة الفقيرة ، ثم هى امرأة تنتهز افتقادى للخبرة والنضج لتوقعنى فى حبائلها ، وهى بعد هذا خالية من كافة المشاعر الرفيعة ، وإن فظاظتها ستكون مبعث خجل لى على الدوام . ولكنى كنت قد ورثت ٢٠,٠٠٠ جنيه عن والدى ، ولم ألق بالاً لما قالته أسرتى . وتوترت العلاقات بصورة واضحة ، وظلت على توترها حتى بعد زواجى .

كنت حينذاك أكتب مذكراتى وأحتفظ بها فى مكان أمين ، بعيد عن متناول أى إنسان . وسجلت فى هذه المذكرات أحاديثى مع جدتى عن أليس ومشاعرى من ناحية هذه المناقشات ، ولم يمر على هذا وقت طويل حتى عثرت على مذكرات كتبها أبى ، بعضها بالاختزال (واضح أن الغرض هو الاحتفاظ بسريتها) . وقد عرفت أنه تقدم لخطوبة أمى فى نفس السن التى تقدمت فيها لأليس ، وأن جدتى قالت له نفس العبارات التى قالتها لى ، وأنه سجل نفس الانطباعات فى مذكراته التى سجلتها فى مذكراتى . وقد خامرنى شعور مبهم وغريب بأنى لا أعيش حياتى بل حياة أبى مرة أخرى ، وبدأت أميل إلى الظن بأن هناك جانباً مرتبطاً بالخوارق يتدخل فى الوراثة (١) .

وبالرغم من أنى كنت غارقاً فى الحب ، فلم أحس بأية رغبة فى إيجاد علاقات ترتبط بالجسد . بل لقد أحسست أن حبى قد تلوث عندما حلمت ذات ليلة حلماً اتخذ فيه الحب صورة أقل شفافية . ولكن الطبيعة أخذت مجراها تدريجياً .

وجاءت المناسبة التالية فى الأهمية فى الرابع من يناير ١٨٩٤ ، عندما

---

(١) كتبت خطاباً لأليس فى الثانى من سبتمبر ١٨٩٤ أقول فيه : « بالأمس كانت عمتى جورجى (الليدى جورجيانا بيل ابنة أخى جدتى) غاية فى الرقة ، ولو أنها كانت كثيرة التساؤل والاستطلاع (مثلها فى ذلك مثل معظم النساء) ، وقالت إنه حتى فى الماضى كانت جدتى تنتابها الظنون والهواجس لدى أى إشارة للزواج ، فتبدو كالمحمومة .

توجهت من رتشموند لأقضى يوماً مع أليس فى منزل والديها فى ٤٤ شارع جروفنر . وهبت فى ذلك اليوم عاصفة ثلجية وغطى الثلج لندن كلها إلى ارتفاع ست بوصات ، واضطررت أن أخوض فى الثلج ابتداء من فوكسهول . وقد خلق الثلج شعوراً غريباً بالعزلة ، بحيث جعل لندن تبدو فى سكونها كقمة تل لايسكنه أحد . وكانت هذه هى المناسبة الأولى التى قبلت فيها أليس . أما خبرتى الأولى فى هذا السبيل فكانت مع الخادمة التى أشرت إليها فى فصل سابق ، ولم أكن أتصور حينذاك مدى النشوة التى يمكن أن أستشعرها إذ قبلت المرأة التى أحبها . وبالرغم من أنها استمرت تقول إنها لم تقرر ما إذا كانت توافق على الزواج منى أم لا فقد قضينا اليوم كله فى التقبيل باستثناء وجبات الطعام ، ولم نتبادل كلمة واحدة تقريباً من الصباح إلى المساء ، فيما عدا فترة قرأت فيها بصوت مرتفع قصيدة « إبسيكديون »[1] . ووصلت إلى منزلى فى ساعة متأخرة بعد أن سرت ميلا ونصف الميل من المحطة خلال عاصفة ثلجية . وصلت منهكاً ولكن منتشياً .

وتذبذبت مشاعرها خلال الفصل التالى لى فى كامبردج . بدت فى بعض الأحيان جد مشوقة إلى الزواج منى بينما تشبثت فى أحيان أخرى بحريتها الشخصية ، وكان على أن أبذل فى عملى جهداً كبيراً فى هذه الفترة فقد كنت أتقدم إلى الامتحان النهائى فى العلوم الأخلاقية فى عام واحد ، بيد أنى وجدت أن الحب ، سواء أكان موفقاً أم غير موفق ، لا يؤثر بأى حال فى تركيزى الفكرى . وحلت عطلة عيد القيامة ، وذهبت أولا مع خالتى مود إلى روما حيث أقمت مع خالى المونسنيور . ومن هناك رحلت إلى باريس حيث أضافنى لوجان ، بينما كانت أمه وأليس تسكنان على مقربة منا . كان هذا هو أول عهدى بحياة طلبة الفن الأمريكيين فى باريس ، وبدت لى هذه الحياة غاية فى الحرية والإمتاع . وأذكر حفلا راقصاً ظهرت فيه أليس بثوب من تصميم روجر فراى ، كما أذكر بضع محاولات غير ناجحة لتهيئتى لتقبل الثقافة عن

---

(١) Epipsychidion إبسيكديون قصيدة للشاعر الرومانسى شيللى يمجد فيها سطوة الحب .

طريق اصطحابى لرؤية اللوحات التأثيرية فى لوكسمبرج. وأذكر بالإضافة إلى هذا نزهة ليلية فوق نهر السين بالقرب من فونتنبلو ، وكانت أليس تجلس إلى جانبي ، بينما ملأ لوجان الليل بذكائه الذى لا ينضب . وعندما عدت إلى كامبردج أنبنى جيمس وارد على إضاعتى للعطلة الأخيرة فى القارة بينما كان ينبغى أن أقضيها فى التحصيل . بيد أنى لم أهتم ، وحصلت على المركز الأول بتقدير ممتياز .

وافقت أليس على خطبتنا بصورة قاطعة ، وكان هذا حوالى المرحلة التى انتهيت فيها من دراستى للرياضيات . وهنا أحس أفراد أسرتى ، وكانوا دائماً يعترضون ، أنه لا بد من عمل شيء حاسم . لم تكن لديهم سلطة التحكم فى تصرفاتى ، كما أن تجريحهم لشخصيتها لم يكن له بطبيعة الحال أى أثر . ومع هذا فقد عثروا على سلاح كاد يأتيهم بالنصر . أخذ طبيب العائلة العجوز وهو اسكتلندى جاد ذو سالفين كأنهما من صوف الأغنام ، يذكرلى كل ما كان يراودنى من أفكار بصورة غامضة عن تاريخ عائلتى وما كنت أشفق من حدوثه . ذكر لى كيف كان عمى وليم مخبولا ، وكيف اضطرت العائلة لفسخ خطوبة عمتى أجاثا نظراً لا عتلال ذهنها ، وكيف كان أبى يعانى من الصرع . (وأنا الآن أشك فى صحة هذه التشخيصات بعد كل ما سمعته من أساطين الطب بعدئذ) . فكل من ظن نفسه عالماً كان يميل إلى تجسيم دور الوراثة بشكل خرافى ولم يكن بالطبع معروفاً وقتئذ كم من الاضطرابات العقلية تنتج عن البيئة الفاسدة والتعاليم الأخلاقية الخاطئة . وبدأت أشعر أنه قد قضى على أن أواجه مصيراً قاتماً . قرأت مسرحية « الأشباح » لإ بسن ، « وإرث عائلة كورت » لبيورنسون ، وكلاهما يدور حول توارث الجنون والأمراض . وكان لأليس بالإضافة إلى هذا عم غريب الأطوار إلى حد ما . وقد أقنعتنى أسرتى بأن أحتكم إلى رأى أفضل الأطباء فى مدى احتمال إصابة أطفالنا بالجنون .

وكان الرأى الطبي الأمثل هو الذى أوعز به طبيب العائلة ، بناء على إيعاز

من العائلة نفسها ، أنه تبعاً لقوانين الوراثة ينبغى ألا ننجب أطفالا . وبعد أن تلقينا هذا الحكم أخذنا نقطع أنا وأليس رتشموند جرين جيئة وذهاباً ونحن نتدارسه . وكان من رأيى فسخ الخطوبة فقد صدقت ما قاله الأطباء وكنت مشوقاً للأطفال . أما أليس فقالت إنها لاترغب كثيراً فى الأطفال ، وإنها تفضل أن نتزوج بشرط أن نتجنب تكوين أسرة . ووافقتها على رأيها بعد نقاش دام نصف ساعة ، وأعلنا عزمنا على الزواج على ألا ننجب أطفالا . كان تحديد النسل فى تلك الأيام يثير نفس الرعب الذى يشعر به الكاثوليك فى الوقت الحالى . واشتد بأسرتى وطبيبها الغيظ ، وأكد لى هذا الطبيب بكل جدية أنه يعلم ، على ضوء خبرته الطبية ، أن استعمال المستحضرات المانعة للحمل من شأنها أن تصيب المرء بأضرار صحية بالغة . وفهمت من إيماءات أفراد أسرتى أن استعمال هذه المستحضرات هو الذى أدى بوالدى إلى الإصابة بالصرع . ونشأ عن كل هذا جو ثقيل من التنهدات والدموع والأنين والرعب الخانق الذى كاد يستحيل معه التنفس . وكانت نتيجة اكتشافى أن أبى كان مريضاً بالصرع ، وأن عمتى كانت تصاب بنوبات هستيرية ، وأن عمى كان مخبولا ، أن أصبت بالذعر ، فقد كان كل امرئ فى ذلك الوقت يؤمن إيماناً خرافياً بتوارث الاضطرابات العقلية . وخامرنى إحساس مماثل ، وإن كنت لم أفهمه على وجه التحديد . وفى الواحد والعشرين من يوليو ١٨٩٣ (عرفت بعد هذا أنه يوم مولد أليس) حلمت أنى اكتشفت أن أمى لم تمت ، وفى ضوء هذا الاكتشاف شعرت أن من واجبى ألا أتزوج . وبعد أن أحطت بجميع الحقائق وجدت من الصعب جداً أن أتخلص من الخوف ، كما يبدو من التأملات الآتية التى لم أطلع عليها أحداً ، ولا حتى أليس ، حتى مر وقت طويل :

٢٠–٢١من يوليو (١٨٩٤) . منتصف الليل . مر عام على الليلة التى حلمت فيها بأليس ، وهى أيضاً نفس الليلة التى تقابل مولدها . مصادفة غريبة ، لو ربطناها بالحقيقة التالية وهى أن معظم ما جاء فى الحلم قد تحقق ، لتركت

انطباعاً عميقاً فى خيالى . كنت دائماً أومن بالخرافات ، وزادت السعادة من إيمانى بها . إنه مما يدعو للخوف أن تكون كل عواطف الإنسان مركزة فى شخص واحد . لم أعد أرى أية أهمية لشىء إلا بمدى ارتباطه بها ، حتى مستقبلى وجهودى من أجل التمسك بالفضيلة ، وعقليتى (بالمستوى الذى هى عليه) ، وكل ما أملك أو أتمنى ، لم أعد أعتبره إلا هدايا أقولها لها ، ووسيلة لإقناعها بمدى حبى لها . إنى سعيد ، بل هى السعادة العلوية . وأهم من هذا أنى ما زلت أستطيع أن أقرر ولله الحمد أنه لا مجال للشهوة فى عاطفتى . بيد أنه فى اللحظة التى أصل فيها إلى قمة السعادة ، عندما تبلغ البهجة أقصاها ، يبدو أنها تتجاوز أبعادها وتتحلل فجأة إلى أطياف ومخاوف خشية أن أفقد كل شىء . من الغريب أن أجسم ما يقوم على أساس ضئيل ومتهاوى إلى هذا الحد — حلمى ليلة عيد مولدها ، واكتشافى بعد ذلك أن عائلتى قد خدعتنى فعلا كما حدث فى ذلك الحلم ، تحذيراتهم الصارمة والمتكررة ، واكتشاف الفواجع الحالكة الظلام ، العديمة الأمل ، واحدة بعد الأخرى ، التى منها تكون نسيج حياة معظم أفراد عائلتى ، وأهم من كل هذا ، الحزن المستمر الذى يجثم ويحوم كالقدر فوق ب ل [١] ، والذى ينفذ إلى أعمق أعماقى ، مهما حاولت إبعاده كلما توجهت إلى هناك ، مما يقضى على كل بهجة ، حتى فى حب أليس لى . ومن شأن كل هذه العوامل ، بالإضافة ، إلى الخوف من عامل الوراثة ، أن ترهق عقلى وتجعلنى أحس كما لو أن اللعنة تسيطر على الأسرة وأنى أحارب ضدها دون جدوى لعلى أهرب إلى الحرية التى تبدو حقًّا طبيعيًّا للآخرين . وأسوأ من كل هذا أن ذلك الخوف يجرف فى طريقه أليس بصورة حتمية . أشعر أن الظلام قد أصبح جزءاً من طبيعتى ، وأن قدراً قاسياً اضطرنى بدلا من أن أصل بنفسى إلى الضوء ، أن أجرها معى إلى الهوة التى خرجت منها جزئيًّا . ولست أدرى ما إذا كان القدر سيتخذ صورة ضربة مفاجئة أو عذاباً مقيما ، فيمتص طاقاتنا ويحطم حبنا ، ولكن يطغى على خوف من شبح

---

(١) بمبروك لودج .

العائلة ، فأتصوره يمسك بى بيدين كالكلابتين ولكنهما غير منظورتين ، بغية الانتقام من محاولتى الهروب من تقاليد مليئة بالحزن . إن كل هذه المشاعر بالطبع حماقة ، مبعثها التخمة ، والسهر ، ومع هذا فهى حقيقة . ثم هى تهاجمنى بقوة جبارة لدى أقل تراجع من ناحيتى . وأرانى مضطراً أن أتجنب لفترة ما رؤية أفراد أسرتى أو زيارة بمبروك لودج ، مهما سبب لهم هذا من ألم ، وإلا فإن هناك خوفاً فعلياً على سلامة عقلى . إن بمبروك لودج يبدو لى كقبو تطوف به الأشباح لأناس التاثت عقولهم . أما هنا فكل شىء مشرق وطبيعى ، وبالأخص أليس ، وطالما استطعت أن أنسى بمبروك لودج ، والإرث البغيض الذى نالنى منه ، أجدنى متحرراً من الهواجس ، ولا أشعر إلا بالمتعة الكاملة التى يخلقها الحب المتبادل ، وهى متعة تصل فى رحابتها وقدسيتها حداً يجعلنى أعجب كيف يمكن أن يوجد مثل هذا الشعور فى عالم يسىء إليه الناس . كم أود أن أطمئن إلى أن هذا الحب سوف يجلب لها السعادة فى النهاية ، وأنه لن يضيف إلى حصيلتها ، وهو ما سبق أن تعلمته للأسف ، مما يمكن أن تكون عليه الحياة من بشاعة ، وما يمكن أن تحتويه من تعاسة .

لم تتوقف المخاوف التى تولدت فى نفسى فى ذلك الوقت عن إيلامى بطريقة لا شعورية . وقد أصبحت منذ ذلك الحين ، وليس قبل ذلك ، معرضاً لأحلام مزعجة أرانى فيها قتيلا ، كما أجد قاتلى فى العادة شخصاً مخبولا ، وهنا أصرخ بصوت حاد . وذات مرة ، قبل أن أستيقظ ، كدت أخنق زوجتى ، ظاناً أنى أدافع عن نفسى ضد هجوم قاتلى .

ولقد دفعتنى هذه المخاوف ، لمدة سنوات ، إلى أن أتجنب الانفعالات العنيفة ، وأن أعيش بقدر إمكانى حياة يسودها الفكر ولا تؤخذ مأخذ الجد وقد هيأ لى الزواج السعيد الاستقرار العقلى تدريجياً ، وعندما مرت بى فى مناسبات تالية أعاصير عاطفية ، وجدت أن فى استطاعتى أن أظل سليم الفكر . وكان من شأن هذا أن يبعد الخوف الشعورى من الخبل وإن كان الخوف اللاشعورى لم يزل قائماً .

وانتهى كل تردد أحسست به بشأن ما ينبغى أن نفعل عندما استشرنا ، أليس وأنا ، طبيباً آخر أكد لنا فى وضوح قاطع أنه استعمل بنفسه المستحضرات الواقية من الحمل سنوات ، وأنه ليس هناك أدنى خوف من حدوث آثار ضارة فمن الحماقة ألا نتزوج . وهكذا حزمنا أمرنا ، بالرغم من الصدمة التى هزت مشاعر الأسرة . والواقع أنه بعد مرور عامين من زواجنا أدركنا أن الكلام الذى كانت تقوله لنا الهيئات الطبية كان هراء فى هراء ، وقررنا على ضوء هذا أن ننجب أطفالا إذا أمكن . ولكن ظهر بعد هذا أن أليس عاقر ، وهكذا ثبت أن كل ما أثير من ضجيج لم يكن له أى داع .

وذهبت بعد هذه الأزمة لأقيم مع عائلة أليس فى فرايدايز هل ، وهناك بدأت أستقر وأكتب رسالة لأتقدم بها إلى درجة زميل فى الجامعة ، وكان موضوعى : « الهندسة غير الإقليدية » . وتلقيت رسالات من أسرتى كل يوم تقريباً وكلها تتقصى « الحياة التى نعيشها » ، بيد أنه وضح لى أنهم سوف يقودوننى إلى الجنون لو استجبت لهم ، وأننى فى نفس الوقت أستمد دفعة عقلية من وجودى إلى جانب أليس . وهكذا ازداد تقاربنا .

ولم يكن هذا هو نهاية ما فعلته أسرتى . ففى شهر أغسطس أقنعوا اللورد دافرين ، سفيرنا فى باريس فى ذلك الوقت ، بأن يعرض على منصب ملحق فخرى . ولم تكن لدى رغبة فى شغل هذا المنصب ، ولكن جدتى قالت إنها لن تعيش طويلا وإنى مدين لها بأن أتبين ما إذا كان الافتراق عن أليس سيقلل من حبى لها . وددت أن أجنب نفسى الشعور بالندم عندما تحين وفاتها ، ولذا وافقت على الرحيل إلى باريس وقضاء مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر ، على أساس أنه إذا لم تتأثر بهذا مشاعرى كان على أسرتى أن تتوقف بصفة إيجابية عن معارضة زواجى . بيد أن عملى فى الميدان الدبلوماسى كان قصير الأمد ، ليس فيه ما يدعو للفخر . كرهت العمل ، والناس ، وجو الاستخفاف ، والافتراق عن أليس . وجاء أخى ليزورنى ، وبالرغم من أنى لم أكن أعرف هذا عندئذ ، فقد كان مجيئه بدعوة من أسرتى لكى يكون رأياً عن الموقف ،

ولقد انحاز إلىّ بكل جوارحه . وعندما انتهت الأشهر الثلاثة ، وكان ذلك فى السابع عشر من شهر نوفمبر ، نفضت عنى غبار باريس وعدت إلى أليس . بيد أنه كان على أولا أن أطلب صفحها . فقد دبت فى نفسها الغيرة من شقيقتها وكنت أراها كثيراً فى الجزء الأخير من إقامتى فى باريس . ولا بد أن أقول إن استرضاء أليس لم يستغرق سوى عشر دقائق .

ولعل الشيء القيم الوحيد الذى كسبته من وجودى فى باريس كان هو صداقة جوناثان سترجز ، وقد شعرت إزاءه بعاطفة قوية . وبعد مرور سنوات عديدة من وفاته ذهبت لزيارة هنرى جيمس [١] فى منزله فى راى ، وكان يستخدم حينذاك متحفاً . وهناك طالعتنى فجأة لوحة لسترجز معلقة على الحائط ، أخذت بها لدرجة أنى لا أذكر شيئاً آخر فى ذلك المكان . كان سترجز كسيحاً ، مرهف الحس ، ذا قدرة أدبية عظيمة ، كما كان ينتمى إلى ما يستحق أن يسمى الأرستقراطية الأمريكية (كان ابن أخ ج. س . مورجان) . كان لماحاً سريع البديهة ، صحبته يوماً إلى الحديقة المخصصة لمن يحملون درجة زميل فى كلية ترينتى ، وكان تعليقه : « أوه ، نعم ، هنا قالت جورج اليوت [٢] لـ ف . و . ه ما يرز إنه ليس هناك إله ، ومع هذا يجب أن نتبع طريق الخير . وأصر ما يرز على أن هناك إلهاً ، ومع هذا فلا حاجة بنا إلى اتباع طريق الخير » . ولقد تعددت مقابلاتى له أثناء وجودى فى باريس وتوثقت بيننا أواصر صداقة لم تنته إلا بوفاته .

---

(١) هنرى جيمس ١٨٤٣ – ١٩١٦ قصاص أمريكى مشهور كان يحب إنجلترا وأقام فيها وأصبح مواطناً بها .

(٢) الروائية الإنجليزية مارى إيفانز وقد كانت تسمى نفسها جورج أليوت .

خطابات

١٥ شارع دى سومرار

باريس

٢٥ من أكتوبر (١٨٩١)

عزيزى برتى

انتويت أن أكتب إليك من قبل ، لأعبر لك عن مدى سرورى لزيارة كامبردج ، ولكنى قضيت فترة آثمة حاولت فيها أن أستقر فى هذا المكان . ويرجع كل هذا إلى الأوامر الجديدة المتبعة ، إذ أن من العسير جداً أن أحصل على مسكن بالأجر الذى حددته لنفسى . وإنى على درجة من الكبرياء تأبى لى أن أعترف بهذه السرعة بأن الإيجار يثقل كاهلى . ومن ثم فقد وجدت مستقراً أخيراً فى الحى اللاتينى ، وفى الطابق السابع . وقد وجدت أن الكبرياء المعنوية التى تملأ صدرى تتجاوز كل تعويض عن التعب الذى لقيته . إن من دواعى السرور هنا أن يشعر المرء أنه أفضل من جيرانه . قابلت صديقة لى بالأمس ، وهى تقيم فى رفاهية على الجانب المقابل من النهر . وقد أسبغ على هذا شعوراً بالرفعة . أخشى لو كتبت إلى أستاذى المشرف أن يرسل إلى فى الحال قميصاً من الشَّعر . هل حاولت أن تتمسك بالنظم؟ إننى فى حديثى لا أنال أحداً بسوء فليس هناك من أوجه إليه مثل هذا الحديث ، ولو أنى لا أحسن الظن بصاحبة البيت الذى استأجرته . ولقد أحسست منذ أيام بضآلة شأنى لقدومى إلى هذا المكان ، لدرجة أنى لم أستطع أن آكل إلا فطيرة صغيرة وأقرأ مجلة هزلية اسمها تيت بيتس .

بدأت فى كتابة رواية ، ولك أن تتأكد أنها ليست ذات صبغة دينية ، ولن يقدر لها أن ترفض من جانب الناشرين إلا بعد مرور عام أو عامين .

كانت رحلتى إلى هنا بعد أن تركتك غاية فى الإمتاع .جلسنا فى الباخرة

صفوفاً يحملق كل منا فى الآخرين ، على الطريقة الإنجليزية اللطيفة . كان هناك زوجان فى مقتبل العمر يتميزان عن الآخرين ، ويشكلان تحذيراً ودرساً للشباب ، كان هو شاباً زائغ النظرات ، حليقاً، وكانت هى ضئيلة الجسم كما كان معهما وليدهما الصغير . « حط » الزوج زوجته فى مقعد ذى ذراعين وأخذ يسير بالصغير جيئة وذهاباً . وأمضى وقتاً طويلا ينظر إلى الأفق الممتد على صفحة الماء كأنما ليتقصى الإجابة على سؤال طرحه عليه . ولكن السقم المقبض الذى كانت عليه الزوجة والطفل سرعان ما أنهيا تأملاته . أى تحذير هذا للشباب ؟ كان يمكن أن أكون فى مكانه . . .

آمل أن تكون قد اشتركت فى المناظرة لتثبت أن الطبقات الرفيعة غير متعلمة — إن هذه التعميمات الواسعة فى غاية الإثارة — ما أكثر ما يمكن أن يقوله المرء فى هذا الصدد .

آمل أن تنضم إلى طائفتنا ، فإذا فعلت اتخذنى بمثابة المرشد لك . سوف أعد لك عقوبات محببة ، وبهذه الطريقة سأكون على ثقة من أنك ستكتب إلى إذ لابد أن هناك قواعد سوف تخالفها أو صدعاً فى كيانك الخلقى .

سلامى إلى سلدون عاموس إذا قابلته .

المخلص

لوجان بيرسل سميث

١٥ شارع دى سومرار

باريس

نوفمبر ١٨٩١

عزيزى برتى

أرفق بكتابى هذا أحكام الطائفة — أعنى الخطوط العريضة — على أنه ينبغى أن نعقد اجتماعاً للطائفة قريباً لنتفق على هذه القواعد بصفة نهائية. أما عن القاعدة الأولى فيحسن أن تحدد مبلغاً من المال تتصرف فى حدوده . يبدو من القائمة التى أرسلتها إلى أنك تعيش على البيض وأصناف البقالة أنصحك أن تتناول عشاءك بين حين وآخر . كما ينبغى أن يكون هناك مكان للتسلية فى حياة الإنسان فى الجامعة ، على ألا يحتسب هذا ضمن نفقات الطعام والإقامة . أما عن القاعدة الرابعة فرأيى أن من الأنسب أن يقتصد المرء فى الجامعة فى الجهد المنصرف فى الأعمال ذات الصبغة الاجتماعية .

إن ما ذكرته عن تحول الإنسان عن مبدأ إنكار الذات مفهوم ، وهو فى نفس الوقت مؤلم إلى حد كبير — لقد هز مشاعرى كثيراً — إذ قد ينتهى الحال بالمرء أن تتكون لديه عادة التخلى عن المبدأ ، وهنا يفقد الأمر أهميته . وسوف أكتب لرئيس الجماعة عن هذا الموضوع .

لك أن تعتبر نفسك بطبيعة الحال عضواً ، وعليك أن تتقدم باعترافك إلىّ ، وسأكتب لك عدداً من النصائح الغريبة . كما يتحتم أيضاً أن تضم أعضاء آخرين . ولنا أن نتوقع أن ننجح فى ضم نصف طلبة ترينتى .

إنى أعيش فى سكون كحيوان القوقع ، ويسعدنى أن أتحرر زمناً ما من جميع الالتزامات الاجتماعية ، وأتكشف المنطقة المحيطة . وما أكثر الأشياء التى تستحق أن يراها المرء هنا .

المخلص

لوجان بيرسل سميث

وفيما يلي قواعد جماعة المتزمتين كما صاغها لوجان بيرسل سميث :

(ا) حِكَم :

١ ـــ لا تدع أحداً يعرف أنك متزمت .

٢ ـــ انكر ذاتك بطرق غير ظاهرة ولا تتحدث عن أمورك الاقتصادية .

٣ ـــ تجنب توجيه كل أنواع النقد غير المجدى والملاحظات المؤلمة للآخرين [١]

٤ ـــ حافظ دائماً على العادات التى تحترمها الجماعة التى تعيش بينها ـــ احتفظ بنظافة سترتك واحرص أن تكون أربطة حذائك معقودة .

٥ ـــ تجنب صحبة الأغنياء وموائد المرفهين ـــ اقصد كل من لا يعتبر ما يمتلكه وديعة ائتمن عليها .

٦ ـــ لا تكن مادياً ، لا تدع فرصة سماع الموسيقى الرفيعة ، أو مشاهدة اللوحات أو التمثيليات الجيدة تفوتك .

٧ ـــ دع الآخرين يستفيدون دائماً وبقدر الاستطاعة من مهارتك فى مثل هذه الأمور .

٨ ـــ ابذل كل جهدك لنشر قواعد الجماعة .

(ب) أحكام خاصة :

١ ـــ لاتسمح لنفقات طعامك وإقامتك بأن تتجاوز جنيهين فى الأسبوع .

٢ ـــ احتفظ بكشف دقيق للمبالغ التى تنفقها على الملابس وأسباب المتعة .

٣ ـــ إذا كان دخلك يتجاوز ماتنفقه على متطلبات الحياة الضرورية ، فتبرع بعشره على الأقل للجمعيات الخيرية .

٤ ـــ خصص أمسية واحدة كل أسبوع ، أو ما يعادل هذا الوقت ، فى الخدمة الاجتماعية للطبقة العاملة ، أو فى زيارة المرضى .

---

(١) كان لوجان أسوأ من عرفت من الناس وأكثرهم حباً لإثارة الفضائح .

٥ — خصص زمنا معيناً كل يوم لمواجهة ضميرك .

٦ — امتنع تماماً عن جميع المشروبات المسكرة فيما عدا تلك التى تستخدم كدواء .

٧ — مارس شيئاً من إنكار الذات كل يوم ، وأسوق من هذا على سبيل المثال . الوقوف عند نداء الاسم ، عدم تناول الكعك مع الشاى أو الزبد فى الإفطار ، أو القهوة بعد العشاء .

٨ — تمسك بحزم بالقوانين الصحية التى تحكم اختيار ألوان الطعام ، والرياضة ، التى يحددها الطبيب ، أو التى يرى المنطق السليم أن من الأنسب اتباعها .

٩ — اقرأ بعض القصائد المعروفة أو فى كتاب فى الروحيات كل يوم ، مدة نصف ساعة على الأقل .

١٠ — كرس نصف ساعة مرة كل يومين أو ساعة ونصف الساعة أسبوعياً ، لاستعادة المعارف التى سبق تحصيلها — وبالأخص المؤلفات العلمية أو الكتابات الكلاسية المأثورة .

١١ — حافظ على مواعيدك بدقة ومواظبة ، ولا ترتبط أو تعد بشىء ليس هناك احتمال أن تنفذه .

إن من حق رئيس المتزمتين[١] أو مساعد الرئيس أن يعفى العضو إعفاء مؤقتاً أو دائماً من هذه القواعد ، إذا رأى هذا ضرورياً وتحال كل المخالفات للقواعد والأحكام إلى رئيس الجماعة ، أو مساعده ، الذى يتكفل بتوقيع عقوبة ما إذا رأى أن فى هذا ما يفيد .

---

(١) لا أعرف من هو رئيس المتزمتين ، ولا حتى ما إذا كان له وجود خارج مخيلة لوجان .

العقوبات المقترحة :

القيام بزيارة يؤدى فيها المرء واجباً معيناً .

كتابة خطاب كجزء من واجب يؤديه المرء .

حفظ بعض القصائد أو القطع النثرية .

ترجمة مادة باللغة الإنجليزية إلى أية لغة أخرى .

تنسيق المرء لحجرته .

توسيع رقعة الحفاوة بحيث تتناول الثقلاء .

(يمكن أن يحصل الأعضاء على قمصان من الشّعر عند طلبها من رئيس الجماعة) .

١٥ شارع دى سومرار

باريس

٣ من ديسمبر ١٨٩١

عزيزى برتى

أعتقد أنك تصلح لأن تكون متزمتاً بارزاً ، كما أن لديك من الأخطاء ما يجعلك لطيفاً . بيد أنى ذهلت إذ علمت أنك دفعت اثنى عشر شلناً وستة بنسات لتشترى عصاً . إنى أشتم من هذا رائحة الخطيئة ، وأعتقد أن شلنين وستة بنسات هى الحد الأقصى . وإذا كانت أخلاقيات كامبردج لا ترقى كثيراً عن تلك التى تدين بها أكسفورد ، فإنى أعتقد أن العصا التى دفعت ثمناً لها اثنى عشر شلناً وستة بنسات لن تبقى فى حوزتك طويلا .

لاأعرف شيئاً عن التبغ وقصبات التدخين . ومن ثم فإنى لا أستطيع أن أتتبع خطاك فى تلك الميادين التى يتطلب الأمر فيها رفاهية . ولا بد أن أسأل شخصاً ممن يدخنون الغليون عن هذه المسألة . وأرى أن من الأنسب أن توقع على نفسك أقصى العقوبات المذكورة فى القائمة ، فإذا لم تقلع عن الخطيئة أخذتك بعقوبة أقصى .

لقد وجدت التزمت ، مثله فى ذلك مثل كافة أنواع الامتياز ، أصعب بكثير مما تصورت . وبهذه المناسبة دعنى أقول لك إنه إذا ظن امرؤ أنه قرأ الفترة المحددة وهى نصف ساعة فى اليوم فالاحتمال الأكبر هو أنه لم يقرأ سوى ربع ساعة . إن طبيعة الإنسان ، أو على الأخص طبيعتى ، تميل دائماً إلى التفاؤل فى الإشارة إلى ماتقوم به .

لا ، إن القاعدة الخاصة بالساعة ونصف الساعة فى الأسبوع لا داعى لأن تنطبق عليك — بيد أنه ينبغى أن تستمع إلى الحفلات الموسيقية ، إلا إذا ضاق وقتك عن ذلك. أما عن الجمعيات الخيرية فهناك عدد منها يفوق الحصر يؤدى عمله بطريقة سليمة ، ولكن لم لا توفر ما لديك من مال لأغراض صندوق الجماعة ؟ وبذا يمكن أن نقرر أوجه التصرف فى هذا المال فى اجتماعنا التالى . إن اجتماعنا كلنا سيكون مصدر إثارة ، وفيه سنقارن خدماتنا . بيد أنى أخشى أن يؤدى هذا الاجتماع إلى تأملات ذات طابع تشاؤمى .

لقد خيب رئيس الجماعة آمالى ، ولو لم يكن ديدنى أن أتجنب الحديث بالسوء عن الآخرين لقلت : إنى أخشى أن يكون هو نفسه قد نقض القواعد، وهو أمر يعتبر جد مخيف . إنى أعيش هنا وحدى ، وأستشعر كل اكتفاء ورضا . إن القادم إلى هذا المكان يرث ثروة ضخمة من التقاليد والحضارة — إنجازات ثلاثة أو أربعة قرون من أعمال الذكاء وممارسة التذوق — هذا هو ماتحب فى باريس . استبدت بى الحيرة فى أول الأمر ، وسرت فى جسدى رجفة كمن يقف على شفا هاوية ، وشعرت بالحنين إلى إنجلترا ، بيد أنى أصبحت الآن أحب باريس حبًّا كاملا .

اكتب إلىّ ثانية عندما يزداد رصيدك من الخطايا ، وحدثنى عما إذا كان الخوف من العقاب يؤثر عليك ويدفعك إلى أن تنحاز إلى جانب الفضيلة . إن هذا هو ما يحدث فى حالة الجبناء أمثالى .

المخلص

لوجان بيرسل سميث

١٥ شارع دى سومرار
باريس
١١من يناير ١٨٩٢

عزيزى برتى

انتهيت الآن فقط من قراءة خطابك مرة ثانية لأرى ما إذا كانت هناك وسيلة أتذرع بها لتوقيع عقوبة عليك ، فقد التزت قدمى اليوم ، وأجدنى سريع الغضب . ولكنى لست واحداً ممن يتسقطون الخطيئة عند الأثرياء — مادام اللباس الموشى ينسدل على أجسادهم فيناسبها . ولكن مهلا — أأنت واثق من أنك ذكرت لى ما قرأته حتى يتسنى لك ، كما تقول ، أن تبعد عنى الريبة — ألم تكن لديك الرغبة فى الخروج قليلا على . الحكمة رقم « ١ ؟ » فإذا وصلت بعد امتحان عسير لذاتك إلى أن الرغبة كانت موجودة كان من الأنسب أن تنتهى من دراسة « أنشودة للريح الغربية » وهى القصيدة التى درست جانباً منها فى الصيف الماضى .

إلى هنا أكتب إليك بصفتى الرسمية كمرشد . أما كصديق فقد أذهلنى وأقلقنى أنك تقرر بهدوء أنك تنغمس فى « جميع الرذائل التى لا تحرمها القواعد » وغنى عن البيان أن هذه الرذائل عديدة ، تبدأ بلعب البكاراه وتنتهى عند قضم الأظافر ، وأجدنى أتردد فى أن أصدق أنك سقطت ضحية لها جميعاً . وأعتقد أن ما عنيته هو أنك تقرأ الكثير من كتابات براوننج [1] .

أعيش هنا فى هدوء ورضا عميقين . وأخصص جزءاً من اليوم لإثراء اللغة الإنجليزية بالقواعد والأخلاقيات ، والجزء الباقى للتأمل فى عقل الإنسان كما يجد تعبيراً فى الفن والأدب . إنى أتحرق شوقاً بطبيعة الحال إلى اللحظة — ولا أشك أنها قادمة — التى أسمع فيها اسمى تردده ألسنة الشهرة وأبواقها ، وأراه مكتوباً فى جميع الصحف كتابة خاطئة . ولكنى أكتفى فى الوقت الحاضر بأن أمثل

---

(١) الشاعر الإنجليزى الشهير روبرت براوننج الذى عاش فى عصر الملكة فكتوريا .

دور الشاعر فى بيوت السيدات الأمريكيات الساذجات .

أما كروائى أو قصاص حسب ما تقوله صحيفة «ستار» فإنى أستهدف استظهار ذاتى فى قصصى ، وهنا تمتزج الحقيقة فنياً بالأخلاقيات . كما أود أن أوضح بعض أحداث الحرب الدائمة بين الجنسين . ترى ماذا تقول « القبور المبيضة » فى أمريكا ؟

حسناً ، إن من الأمور المحببة أن أطنب هكذا فى شخصيتى الرفيعة . أغلب الظن أنك « تقف على العتبة » ، كما يقول المرء ، حينما يريد أن يكتب بأسلوب رفيع ، عتبة فصل دراسى جديد ، ومن هنا فإنى أستعيد شخصيتى كمرشد أخلاقى وأضيف نكهة لهذا الخطاب باستخدام عبارة أخاذة ولكنها عميقة الدلالة . كم أود لو عثرت بعجلة بهذا الوصف ، تجمع بين الصدق والجدة ، ولكن ذهنى لا يسعفنى ، فالحقيقة دائماً شائعة ، ولعل هذا هو السبب الذى من أجله نستملح النقائص أكثر من الحقائق .

المخلص

لوجان بيرسل سميث

١٤ شارع دى لاجراند شوميير

باريس

١٩ من مارس ١٨٩٢

عزيزى برتى

أرى أنه ينبغى أن يسمح بعضوية الطائفة لمن يشرب باعتدال إذا كان سلوكه مرضياً فى غير هذا الميدان . إن الخيرين فى هذا العالم قلة. ولكن لنؤجل المناقشة فى هذه النقاط حتى نتقابل . إننا ننوى قضاء جزء من أسبوع عيد القيامة فى هاسلمير كما أعتقد وآمل أن تتحرر من مشاغلك بضعة أيام لتزورنا فى هذه الآونة . ولكننى سأكتب إليك ثانية عندما أصل إلى إنجلترا . سوف تتبين من عنوان الخطاب أنى غيرت سكنى مرة أخرى ، ولقد انتهى بى المطاف أخيراً إلى مسكن

صغير أثثته بنفسى . إنى الآن فى بوهيميا ، وهى بلد جذاب إلى أقصى حد ، يسكنه الحراس الفرنسيون ، وطلبة الآداب من الأمريكيين والإنجليز ، وشباب من الجنسين يعيشون فى رشاقة وبساطة ، ويتجنبون التأنق فى الملبس . إن الجنيهين اللذين أنفقهما فى الأسبوع يعتبران قمة التبذير ، وأنت هنا فى مأمن من أن تتأذى عيناك بمرأى القمصان النظيفة والحلل الجديدة . من العسير أن تتصور مدى سحر هذا المكان ، إن كل فرد هنا فى مقتبل العمر ، رقيق الحال ذكى لماح ، جاد فى عمله .

عندما قدمت إلى هنا أولا ، عرفت بعض « البارزين » فى هذا المجتمع وهم يسكنون فى الجانب الآخر من النهر ، ودرجت على أن أزورهم وأتناول معهم الشاى ، ونتحدث فى أمور عادية ، بيد أن حياتهم الآن أصبحت تبدو خاوية ، وعقولهم مجدبة عاطلة عن الإدراك ، لدرجة أنى لا أستطيع أن أقترب منهم دون أن ينتابنى الصداع الناشىء من الملل . كم يصبح المرء ثقيلا وعاطلا عن الذكاء لو استكان لهذه الصفات .

المخلص

ل . ب . سميث

فرايدايز هل

هاسلمير

٢٤ من نوفمبر ١٨٩٢

ترى هل تسير الأمور كما تروم فى كامبردج يا برتى ؟ وددت لو استطعت أن أزورك ، لولا أنك ستدهش لمظهرى ، فقد حلقت شعر رأسى حتى غدت صلعاء كالبيضة ، وارتديت من الملابس خرقاً بالية ، واعتكفت فى عزلة فرنهرست ، حيث أعيش الآن ، فى كوستللو كوتدج [١]. تلقيت رسالة من

(١) كان هذا بيتاً ريفياً صغيراً ، على مقربة من فرايدايز هل ، سكنته عائلة مسز كوستللو وهى شقيقة لوجان (أصبح اسمها مسز بيرنسون) .

ستيفنس يطلب منى أن أرسل مقالا « لكامبردج أوبزرفر »[١] ، وأظننى وقعت تحت إغراء الشيطان فقد وعدته أن أفعل . ولذا فقد سارعت بكتابة مقال عن هنرى جيمس ، وبعد أن بعثت به فى الليلة الماضية راودنى الشعور فجأة بمدى حماقة ورداءة ما كتبت . حسناً ، آمل ألا يوافق الرجل الطيب على طبعه .

هناك مادة دسمة فى جريدة الأوبزرفر التى تلقيتها ، بل لقد أدهشنى هذا إلى حد كبير ، ومن المؤكد أنه يجب تشجيعها . غير أنى لا أتفق مع حماستها لما يتنافى مع الفضيلة — واستخفافها بما يسميه ملتون « الاعتقاد الرشيد الجاد فى العذرية » . إن من الخطورة بالنسبة للإنجليز أن يحاولوا التشبه بالفرنسيين ، إذ لن يتأتى لهم أن يلتقطوا السمة المميزة . إذا زل الفرنسى كان هذا « فى لحظة سهو » ، كما يقولون — نتيجة لشرود الذهن ، إذا صح القول — بينما الإنجليزى أكثر جدية وإدراكاً لما يفعل . كلا ، من الواجب أن تنمو الحضارة وتتطور أساساً بنفس الأنماط وقوالب الشعور التى هيأها أولئك الذين أسسوها وغذوها . لقد تأثرت بكل هذا عندما زرت « نادى الفن الإنجليزى الحديث » . إن هناك قطعاً بعضها جميل ، ولكنها فى مجموعها كانت تحمل نفس العلاقة بالفن الحقيقى — الفن الفرنسى — التى نتصور وجودها بين المؤتمر الكنسى والحركات الاجتماعية الفعلية

ونفس هذا يمكن أن يقال عن المادة التى يكتبها سيكرت وزملاؤه إذ تبين أن إنجيل الرذيلة ، لو بشر به بنفس الحماس الذى نراه فى قاعة كاتدرائية اكستر ، لأدى هذا إلى ضبابية الصورة .

سوف أظل فى إنجلترا مدة أطول . متى تبدأ عطلتك ، وأين تنوى أن تقضيها .

المخلص

لوجان ب. سميث

(١) كانت هذه مجلة للخاصة من المثقفين ، يقوم بتحريرها الطلبة ، يشرف عليها أساساً أوزوالد سيكرت (شقيق الرسام) وكان صديقاً حميماً لى .

١٤ شارع دى لا جراند شوميير

باريس

١٤من فبراير ١٨٩٣

عزيزى برتى

يؤسفنى أن شيئاً عاقنى ومسجريف عن القدوم إلى رتشموند ، ولكنى لم أقض فى لندن سوى فترة قصيرة . وآمل أن أكون هناك فى عيد القيامة ، إذا عدت إلى الوطن . رحبت بى باريس كما لوكنت أنتمى إليها تماماً ، وها أنا أعيش فى سحر هذا المكان الممتع ، المخيف . ذلك لأنه فعلا مخيف من نواحٍ عدة ، على الأقل ذلك الجانب من باريس الذى أعيش فيه . أو لعل باريس كلها مدينة شريرة ، أو أن سكان هذا الحى يعيشون هنا دون التقيد بالتقاليد والعادات ، أو لعلهم لا يلجأون إلى إخفاء الحقيقة وراء أقنعة ، أو ربما كان السبب أيضاً — وهو ما أميل إلى تصديقه — هو أن فى حياة الفنانين دائماً عناصر المأساة ، أو على الأقل لا تنقصها هذه العناصر . كل هذا يؤصل لدىّ الإحساس بتعاسة الحياة هنا وبرقتها أيضاً . تصور أنى اكتشفت فى نفس هذا الصباح أن صبية أعرفها هنا قد جنّت . جاءت لترانى وطلبت منى ألا أساعدها فى كتابة رسالة تهاجم فيها الإباحية الفرنسية ، وها أنا فى انتظار الطبيب الذى استدعيته لنرى ما إذا كان من الضرورى أن تنقل إلى مكان مخصص لأمثالها .

أما عن « التمسك بالأخلاقيات » فهناك عديد من الأمثلة عن مظاهر السلوك العكسى ، تتمثل فى النساء والرجال . قابلت مرة واحداً ممن يطلقون عليهم لفظ « جماعة ديفيز الصغار » فى مرسم « ستد » ، وشعرت بأسى عميق إذ رأيت هناك أيضاً شاباً إنجليزياً رقيقاً قدم ليعيش فى باريس ، ومع ذلك ففى تصورى أنه يستطيع أن يتكفل بأمر نفسه .

بيد أنه لا يخلق بى أن أسىء إلى باريس كثيراً ، فبعد كل ما ذكرت ،

وربما لكل ما ذكرت ، أعتقد أن باريس ممتعة بدرجة لاتضارع . هناك دائماً احتمالات مثيرة للكسب أو الخسارة ، وكل امرئ يجازف علـّه يكسب .

المخلص

ل . بيرسل سميث

٤٤ جروفنر رود

وستمنستر

٢٩ من أكتوبر ١٨٩٣

عزيزى برتى

أظنك ترقب العام فى كامبردج وهو يصطبغ باللون الأصفر ، ولعلك أيضاً تستمتع بالعواطف المناسبة لهذا الفصل من العام . ما زلت فى لندن على غير هواى ، ولست أتبين احتمالا للرحيل فى الوقت الحالى . حاولت أن أحب لندن ، حيث إن مظاهر سحرها الرخيص لم يتضح للعيان بعد . وما من شك أن لندن تملك هذا السحر ، ولكنى قررت أنه إذا تهيأ لى أن أجول فى لندن فسيكون الدافع لى الكراهية وليس الحب ، والكراهية بالنسبة للأغراض الأدبية دافع عظيم . إن كل الواقعية الفرنسية تجد جذورها فى كراهية الحياة كما هى ، هذا التشاؤم كما يبدو من عبارة هارولد يواقيم الوقحة ،وفى نفس الوقت الصحيحة ، يجب أن يبنى على شىء من التفاؤل . إن عبارة « لاظل بدون ضوء » ، إلى جانب الحلم المشرق عما يمكن أن تكون عليه لندن ، وما عليه باريس فعلا إلى حد ما : كل هذا يجعل لندن الحالية تبدو وضيعة ومظلمة .

وبعد فإنى أجول قليلا وسط مجتمع الأدباء ، ولست أعنى بهذا ألمع أفراد هذا المجتمع ، وإنما ما يقابل مجتمع بوهيمياً فى لندن ، من القصاصين والشعراء والصحفيين الذين يحتلون المرتبة الثانية ، وهو مجتمع لا يثير حماس المرء . كلا ، إن مجتمع بوهيميا اللندنى ، والذى يضم الروائيين والشعراء والصحفيين ، تنقصه نفس تلك السمة التى كان يمكن أن تصلح من شأن

بوهيميا الفعلية ، وهى التغلب على الدوافع الشخصية . إن بوهيميا مكان مقبض يسعى لتكديس المال ، وهو يدرك أيضاً عاداته ، ويصمم ألا يرى فى الحياة شيئاً سوى عادات الناس . إن هؤلاء الشبان الضئال القامة الشاحبى الوجه يجلسون فى المطاعم ويحاولون أن يبينوا أن العالم كله يضارعهم خسة وقتامة ، والحق أنهم ينجحون فعلا ولو مؤقتاً فى جعل العالم يبدو حقيراً .

هل تجتذبك دراستك للفلسفة ؟ لا تتجه بكل مشاعرك إلى هيجل فتفقد نفسك فى أحلام عاطرة . إن العالم لن يسير قدماً إلا إذا تحددت بصيرة البعض على الأقل ضمن نطاق الإيمان بما أثبت وجوده فحسب ، ووضح الفارق بين ما نعرفه وما لا نعرفه .

المخلص

لوجان بيرسل سميث

كوينز هوتل

بارنزلى

١٦ من نوفمبر ١٨٩٣

عزيزى برتى

أجزل الشكر لك للمبلغ الذى أرسلته والذى يدل على الكرم [1]. إن الحاجة للمال هنا ماسة جداً ، ولكن بفضل التبرعات قد توافر ما يكفى لأن يقيم أود القوم هنا بصورة من الصور. إنهم قوم مدهشون حقاً ، ومن الصعب أن يتصور المرء أنهم عرضة للاستسلام مهما حدث . ويبدو لى أن من المؤكد أن الرؤساء هم الذين أوعزوا بهذا الإضراب بغية تحطيم الاتحاد . وما من شك فى أن للاتحاد فى معظم الأحيان مساوئ ، وأتصور أيضاً أن لأصحاب العمل شكاواهم المعقولة ، ولكن أرباحهم طائلة ، وليس هناك من يظن أنهم عاجزون عن دفع أجور العمال التى تقيم الأود . وقد استثمرت مبالغ كبيرة من المال

(١) لمساعدة عمال المناجم المضربين .

فى السنة الماضية فى مناجم الفحم هنا ، وبدأ العمل فى عدد من المناجم الجديدة مما يوحى بأن العمل مربح . وبعد فإن مما يرفع روح المرء المعنوية أن يرى هؤلاء الناس ، وكيف يأتلفون ويتماسكون ، رجالا ونساء ، بالرغم من ظروف الحرمان الشديد التى يمرون بها .

المخلص

لوجان بيرسل سميث

٤٤ جروفنر رود

جسر وستنمستر

ج . غ . لندن

نوفمبر ١٨٩٣

عزيزى برتى

لقد نسيت أن تظهر هذا الإذن المصرفى ـــ اكتب اسمك على ظهر السند وأرسله إلى ج . ت . دريك ٤١ شفيلد رود . لابد أن تمر أسابيع قبل أن يحصل الكثير من أهل بارنزلى على عمل ، وسيؤدى هذا المبلغ لهم خدمة جليلة . إن عشرة شلنات توفر غذاء لمائتين وأربعين طفلا . إنى جد سعيد إذ زرت بارنزلى ، ولو أنها زيارة مليئة بالأنين والزفرات ، ولكن مما يعين المرء أن يرى مثل هذه الروح الديمقراطية الحقة . وددت لو تهيأ لك أن ترى ما رأيت فى اجتماع للفحامين جاء واحد من أعضاء البرلمان بشىء من الشجاعة ، وهو شاب من المحافظين مهندم أنيق الملبس ، وحاول بمنطقه الركيك أن يثبت للفحامين أنهم على خطأ . ولقد عاملوه باحتقار لاينطوى على شر ، وعندما قال لهم : إن أجورهم كافية جداً كان جوابهم : يابنى جرب أن تعيش بها بنفسك ، لن تكفى « لتنشية » ملابسك ، إن معدتك ممتلئة يافتى ، إلى غير ذلك من التعليقات الساخرة . وصرخت امرأة قائلة « لاتخفيض » ، وهلل الجميع . ثم تحدث أحد العمال بكثير من الرجاحة والاستخفاف ، ووجد عضو البرلمان الشاب نفسه فى موقف

غاية فى الحرج ، بجسده المكتنز ، ولباسه الأنيق ، ووجنتيه الورديتين . كان الصراع بينه وبين الرجال الذين يعظهم بالقناعة مثيراً ، بيد أنه اضطر أن يبتسم ويتظرف ، وهو أمر لايتهيأ إلا للمحافظين ، ويتظاهر بأن الأمر ممتع لأقصى حد .

المخلص

ل. بيرسل سميث

٤٤ جروفنر رود
جسر وستمنستر
ج . غ . لندن
٢ من ديسمبر ١٨٩٣

عزيزى برتى

إنى أقدر الموقف على حقيقته بالطبع ، ونظراً لحب شقيقتى لاأعتقد أن مشاعرك كما تحسها مظهر من مظاهر الحمق . وإذا ظللت على هذا النسق من التفكير بضع سنوات ،فإنى لاأعرف شخصاً أفضله عنك زوجاً لأليس ، كما إنى لا أعتقد أن هناك من يسعد أختى أكثر منك . بيد أنى أعتقد مخلصاً أن من الخطأ أن تعقد الخطوبة بهذه السرعة ، ولو أنى فى نفس الوقت أثق أن هذا ليس مقصدك . إن المرء لا يعرف كيف تتطور الأمور ، وعلى أى حال فإن الأعوام القليلة التى تعقب بلوغ الإنسان الواحدة والعشرين من العمر يجب أن تخصص للتعلم ، والبحث عن عمل . أما الزواج ، أوحتى الخطوبة الرسمية ، فتتدخل فى كل هذا بصورة معطلة . أجل ، إنى أثق فيك يابرتى كل الثقة ، ولو أن ملكة الثقة لا تجد لدى تربة مهيأة ، وإنما سأومن بقرارك إيماناً أعمق عندما أرى أنك مازلت ، بعد سنوات من العمل الجاد والخبرة بالحياة ، نفس الشخص الذى كنته . كن جديراً بكسب أوسمتك ياعزيزى ، دعنا نرى أنك إنسان خير ومفكر ، وهو ما نؤمن به فعلا . إن كل أصدقائك

يتحدثون بمنتهى الثقة عن قدراتك واحتمالات المستقبل بالنسبة إليك ، وكل ما فى الأمر هو أن تظل حرًّا وأن تكون تواقاً لعملك . إن الحب ينبغى أن يكون الخادم ، وليس المسيطر ، على الحياة .

صديقك المخلص

ل. ب. س.

كتبت هذه الخطابات لأليس خلال افتراقنا مدة ثلاثة أشهر .

بمبروك لودج

ريتشموند سرى

٣١ من يوليو ١٨٩٤

حبيبتى أليس

ليس هناك ، كما هو متوقع ، شيء معين أقوله ، إذ لم يحدث شيء حتى الآن . لا يمكن أن أصف الحياة بأنها بغيضة . عندما وصلت وجدت جدتى تجلس فى مكانها فى حجرة الاستقبال ، وكانت شاحبة الوجه حزينة ، ومع ذلك فقد طمأننى أن وجدتها معافاة . كان لقاؤنا غاية فى الدفء والتعاطف ، ولو أنه كان صامتاً . لم نتحدث إلا فى موضوعات عادية ، وواضح أنها تدرك أن الحديث فى أى موضوع مثير يضر بصحتها . إن الطبيب لا يسمح لها بأن تتلقى من المراسلات إلا ما ترى عمتى أنه يرضيها (ولو أنها هى لا تعرف هذا) ومع ذلك فقد قرأت خطابى هذا الصباح ويبدو أنها سرت له . لقد كان لك وللجو الذى يسود فرايدايز هل أثر غالب فى تهدئة خاطرى بحيث أجد الحياة هنا أكثر احتمالا مما كانت عليه فى المرة السابقة ، بالرغم من مرض جدتى ، بل وربما كان هذا الأخير عاملا مساعداً أيضاً بصورة من الصور ، حيث إنه يضفى على كل شيء شعوراً بالعطف ويقربه من الحياة الطبيعية .

مازالت عمتى تستجوبنى عن كل الخطط التى أعدها ، بيد أن تعليقاتها وإن كانت بالغة التأثير إلا أنها كانت تتسم بالهدوء . حدثتها عن أمريكا ، وبدا

أنها تعجب إذ كيف نذهب ونحن لم نتزوج بعد . وقلت : « حسناً ، لقد رأينا أن هذا أنسب من أن نتزوج قبل السفر » . وهنا أيضاً لم تعلق على حديثي ، وكل ما قالته هو : « لن أقول شيئاً لجدتنا عن هذا فى الوقت الحاضر » . وأظنها ستضطر للسفر للاستشفاء فى سبتمبر ، ومن ثم فهى تجتذبنى لأتقدم بعرض فكرة البقاء هنا مع جدتى ، ولكنى قلت : إنه يجدر بى أن أكون فى فرايدايز هل وقلت أيضاً : إن من المحتمل فى الشهور القادمة أن آتى إلى هنا بين حين وآخر ، ولو أن إقامتى الأساسية ستكون فى فرايدايز هل. واربدّ وجهها ولكنها لاذت بالصمت . ولعلها أدركت عدم جدوى النصح أو النقد . وتحدثت عن رغبة جدتى فى أن تراك ، ولكنى قلت إن من الأفضل أن يتم هذا فى وجودى .

جدتى تشعر بوعكة فى هذا المساء لسوء الحظ ، وعليها أن تتناول عقاقير منومة وأخرى للهضم ، ويخشى من اعتمادها عليها كلية ومن منعها عنها أيضاً . إنها تثير الشفقة وهى مريضة ، ولكن ما دمت قد عودت نفسى على هذا الوضع القاسى لم يعد الأمر يهمنى كثيراً . كانت تشغل نفسها بنظم الشعر عن الملك آرثر علها تبعد ذهنها عن التفكير فى هذا الموضوع المحورى ، كما كانت تقرأ كثيراً ، وبنفس الأمل ، ولكن يبدو أنها لم تنجح فى ذلك نجاحاً ملحوظاً .

ولكن الحقيقة هى أن الحياة هنا ليست سيئة بالصورة التى كان يمكن أن تكون عليها ، ولذا لا حاجة بك للقلق علىّ أو لتصور أنى سأعود لنفس الحالة المزاجية التى كنت فيها منذ أسبوعين . على أنى لا أود ، بقدر استطاعتى ، أن أحدد متى أعود . ليلة سعيدة، يا أعز الناس إلىّ . كان يمكن أن أكون سعيداً حقاً لولا أنى أحس بالملل إلى حد أعجز عن التعبير عنه بالكلمات .

المخلص إلى الأبد

برتى

رامز بری مانر

ولتشير

٣٠ من أغسطس ١٨٩٤

حبيبتى

تستبد بى الحيرة إزاء هذا العرض الذى تلقيته للعمل فى باريس . لو كان هناك مجال للثقة فى أنه لن يتجاوز عيد الميلاد ، وأنه لن يربطنى بنفس العمل فى المستقبل ، لشعرت بميل لقبوله . إن من شأنه أن يساعد على انقضاء فترة فراقنا بصورة ممتعة جداً (من المؤكد أن من الممتع جداً أن أكون فى سفارتنا فى باريس) ، فضلا عن أنه سيهيئ لى من ضروب المعرفة أقصى ما يمكن أن أصل إليه فى هذه الفترة ، بالإضافة إلى أنه سيعيننى على فهم أبعاد أعمق فى الميدان الدبلوماسى . وما من شك أنه سيشكل خبرة قيمة لو أمكن إبقاؤه فى حالة عزلة عن تيار حياتى . ولست أدرى ما إذا كان من شأنه بالضرورة أن يؤجل تلاقينا وزواجنا . هذا ما أخشاه ، وما يجعلنى أتردد فى قبول الوظيفة . يضاف إلى هذا أنى أخشى العالم وإغراءه ، وهما أمران سيئان بالنسبة لى ، لا سيما عند ما أستمتع بهما ، ولشد ما أخشى بمجرد أن أضطلع بهذا العمل أن أجد من العسير أن أتركه . وبجانب ذلك فقد يعنى عدداً من الارتباطات الأرستقراطية ، مما قد يعرقل نشاطنا المقبل . لا أعتقد أن من شأن أى ارتباط بالوطن أن يقنعنى بالعدول عن الخطة التى ننتويها وهى السفر للخارج مدة عام ، فإنى على ثقة من أنه لن يكون فقط أمتع وسيلة لقضاء العام الأول من زواجنا ، ولكن سيكون له أيضاً قيمة تعليمية كبرى . وددت لو أعطتنى جدتى تفصيلات أكثر . إن كل ما يتضح من خطابها هو أنه مما يسبب لها راحة كبرى أن أقبل هذا المنصب . أظننى سأسبب للورد دافرين حرجاً لو رفضته ، ولو أن هذا الموقف يمكن تلافيه . كم أود أن نتقابل لنناقش هذا الموضوع ، كما يسرنى أن أستشير لوجان .

الساعة الثانية مساء :

كلما تعمقت فى التفكير فى هذا العرض بدا لى أنه الخطوة الأولى فى حياة عملية أود أن أتجنبها ، ولكنى لن أطمئن إلى هذا التفكير حتى أسمع تفصيلات أكثر . وإذا رفضت كان من الطبيعى أن تنتهى كل صلة لى نهائيًّا بأعمال الخارجية وغيرها . لن يعرض أحد على عملاً بعد ذلك لما بدا من تعنتى وتقلبى فى هذه السن الباكرة . وقد تكون هذه ميزة أو العكس، حسبما ترين . إن ذهنى يدور فى دوامة ، والجو حار لدرجة تجعل التفكير مستحيلا .

بمبروك لودج

رتشموند ، سرى

أول سبتمبر ، التاسعة مساء ، ١٨٩٤

حبيبتى أليس

الآن وقد عدت إلى الوطن فإن فى الوقت متسعاً لكتابة رسالة طويلة ، وأشعر فى هذه اللحظة كما لوكان فى استطاعتى أن أكتب وأكتب إلى الأبد . لقد غدوت بحكم جو هذا المكان زاخراً بالعواطف مليئاً بالأفكار . كما أنه يذكرنى بوضوح بأحداث سبتمبر الماضى لدرجة أنه يبدو أنى لم أزاول بعد كل هذا العمل الذى قمت به فى باريس . غادرت المنزل نهاراً وجلست إلى جانب النافورة وفكرت فى الأيام الطويلة التى اعتدت أن أقضيها هناك وحيداً أتأمل .. تحدونى الرغبة ، ولا أجرؤ على التمنى ، وأحاول أن أستشف أدق الإشارات فى خطاباتك القصيرة الجافة التى اعتدت أن تكتبيها لى . كما جعلت أفكر فى الأيام العديدة التى كانت تمر قبل أن تردى على خطاب لى . كم استبد بى الشقاء ، وأضر بى التلهف ، ومع هذا فقد كنت أزخر بحياة جديدة وقوة لم أعرفها من قبل، بحيث كانت تستبد بى الدهشة إذ أجدنى لا أرغب فى الموت ، كما كان الحال طوال السنوات الخمسة التى مضت ، وكما تخيلت أن يستمر إلى النهاية . كم عـدَّدْت الساعات حتى مجىء دنروزل لزيارتنا ، فأتحرر من البقاء

مع جدتى . إنى إذ أعود إلى هنا وحيداً مرة أخرى أحس كما لو أن السنة الوسيطة كانت حلماً ، وكما لو أنك ما زلت بعيدة كالسماء ، لاتكترثين ، كإحساس السماء أيضاً بالنسبة لساكنى الأرض الضائعين فى الصراع . ولكن هناك تعباً غريباً يستولى على ، كذلك الذى يصاحب الحلم المخيف ، يشكل تياراً يسرى فى ثنايا أفكارى ويجعل المشاعر الحالمة تختلف فى وقعها عن تلك التى خالجتنى فى سبتمبر الماضى ، وهو تعب ينسحب على كل عناصر الصراع والقلق والألم التى جاشت بها السنة الفائتة ، وكل الضغوط والمنافسات المضنية والمشاجرات التى كانت ثمناً لكسبى إياك . بيد أنى لست شقياً ، حاشا ، وإنما يبدو لى فى هذه اللحظة أنى عشت حياتى ، وأنها كانت حياة حافلة . لقد وصلت إلى الذروة ، إلى القمة ، والآن يبدو أنه لا حاجة بالمرء أن يهتم بها . لا يمكن أن يكون هناك شىء أفضل يخبئه القدر ، ومن ثم لن يصحب الموت أى مرارة .

أغلب الظن أنك ستعتبرين هذه المشاعر دليلا على مرض نفسى ، ولكنى لا أراها بهذه الصورة . راودتنى نفس الحالة المزاجية الحالمة نتيجة لقراءة ولتر باتر [١] . كان أثره عميقاً ، بل بدا لى أنه لا يقل جمالا عن أى مادة قرأتها من قبل (فيما عدا القليل هنا وهناك ، حيث كان لافتقاره لعنصر الدعابة أثره فى استخدام إيقاعات متنافرة ، كتلك الأصوات التى تصدر عن قط عليل) . ولقد تأثرت على الأخص بوصفه لأشجار الحور ، وبقصيدة أخرى لا أستطيع أن أجدها ثانية . إن شعره لم يستثر عندى أية ذكريات محددة فى الطفولة ، نظراً لأنى منذ سن الذكريات المحددة لم أعش فى عالم من الانطباعات الحسية ، كذلك الذى يرسمه فلوريان [٢] ، وإنما استعيد بصورة مبهمة على طريقة أنشودة ورد زويرث [٣] ، إحساسى بتلك الفترة الزمنية المبكرة جداً قبل أن يميت

---

(١) قصصى وناقد إنجليزى عاش فى القرن التاسع عشر كان يؤمن بالجماليات والفن لوجه الفن .

(٢) فلوريان كاتب فرنسى عاش من ١٧٥٥ إلى ١٧٩٤ واشتهر بقصصه الخرافية .

(٣) إشارة إلى قصيدة وردزويرث التى يبين فيها كيف أن أحاسيس الطفولة الفنية تتلاشى بالنمو العقلى للإنسان .

الفكر الحس . فى بصيرتى صورة غامضة غائمة عن المنبسطات الدافئة من الأرض الحمراء حيث أرسلت الشمس الغاربة أشعتها قبل أن تغيب ، وعن حفيف أشجار الحور النامية فى مواجهة البيت وأنا آوى إلى فراشى على ضوء النهار فى أيام الصيف ، بينما ظل البيت يزحف رويداً فوقها ، كما يراودنى إحساس غامض بطقس دافئ مشمس على الدوام ، حيث كان من عادة القوم أن يصحبونى لنزهة فى عربة ، فألحظ الظلال المخططة تتدافع على جانبها ، قبل أن يخطر لى أن سببها أوراق الأشجار المتشابكة من فوقنا . (وبمجرد أن اكتشفت ذلك ، قتل التشوق العلمى الانطباع ، وبدأت أتأمل فى السبب الذى من أجله بدت بقع الضوء دائماً دائرية الشكل ، وهكذا) . ولكننى منذ وقت مبكر فعلا فقدت القدرة على الاهتمام بالانطباعات فى ذاتها ، بل جعلت دائماً أستنبط الجانب المجرد منها ، وأسعى للوصول إلى الجوانب العلمية والفكرية التى تكمن خلفها ، بحيث ما كان يمكن أن يخطر لى ، كما خطر لفلوريان ، أن ألجأ إلى فلسفة تحتضنها . لقد وجدت هذه التأملات بكاملها طريقها إلى سلة المهملات الموجودة فى العقل . (وهذا هو السبب الذى من أجله وضعنى الكتاب فى حالة حلم ، إذ نقلنى إلى طفولتى المبكرة ، حيث لم يكن هناك شىء حقيقى) . ولم أبدأ فى الإحساس بحاجتى إلى مثل هذه الفلسفة حتى وصلت إلى سن البلوغ . وهنا عادت الانطباعات الحسية والانفعالية إلى تأكيد وجودها بصورة أقوى من قبل ، بل لم تصل إلى هذا الوضوح منذ هذه المرحلة حتى الآن ، بحيث شعرتُ عندئذ أننى أعود مرة أخرى إلى أيام كنت فيها حدثاً ، وعندئذ بدأت أتعبد فى الجمال ، كما كان يمكن أن يفعل فلوريان ، واستبدت بى رغبة فى أن أجد صلة بين الحق والجمال ، رغبة قوية لدرجة أن الجمال سبب لى ألماً مبرحاً (ولو أنه كان مصحوباً بنشوة حسية راجفة ذات قوة جارفة) كان مبعثها الإحساس المستمر بتلك الحاجة غير المشبعة للانسجام بينه وبين الحقيقة . قرأت « ألا ستور »[١] بعد أن عشت جزءاً من الوقت فى هذه الحالة ، وهنا وجدت

---

(١) (قصيدة لشيللى) الشاعر الرومانسى الإنجليزى المشهور .

نفس الحالة المزاجية التى مررت بها ، موصوفة بغاية الوضوح. ولم تنته المعاناة من هذا الصراع إلا تدريجيًّا ، كلما قل اهتمامى بالجمال شيئاً فشيئاً ، وكلما خرجت من مرحلة التفكير المرضى (ففى حالتى كان لا بد أن يتخذ مثل هذا الانفعال العنيف بالجمال طابعاً غير عادى) ، وكلما أصبحت أكثر تجريداً واهتماماً بالحياة الفكرية مرة أخرى. ومن الطبيعى أن اهتمامى بالحياة الواقعية فى الفترة التى وقعت فيها تحت تأثير فيتز جرالد[1] جعلتنى أتحرر من هذه العاطفية المغرقة ، ومنذ ذلك الحين لم أعان من هذه الخواطر إلا لماما ، ولعلنى لو آمنت ببرادلى ، كما أفعل فى معظم الأوقات ، لانتفت هذه المعاناة تماماً.

٢ من سبتمبر صباح الأحد

أبرقت إليك من ريدنج فى صباح الأمس الباكر لأقول : « لن أحضر نظراً لأن ١٧ من نوفمبر لم يتغير » . ولكننى أعتقد أنك كنت قد رحلت فعلا من تشتنشستر قبل أن تصلك البرقية . تقولين إنك ستحضرين إلى باريس إذا لم أتمكن من السفر لإنجلترا ، ولكنى فهمت من جدتى أن فى استطاعتى أن أرفض الاستمرار فى هذا العمل إذا أردت . هلا أرسلت قبعتى فى صندوق ، حيث إنى فى حاجة إليها ؟ وأرجوك أن تكتبى فى أول فرصة باكر صباحاً وإلا فربما أكون قد رحلت قبل هذا . وربما أرحل بعد استلام خطاب من اللورد كمبرلى غير أنه لن يكون بوسعى أن أذهب لرؤية اديث وبريزون ، حيث إنهما لابد أن يكونا فى بريتانى حتى نوفمبر . هل أرسل كتاب بيتر إلى ما ريشن أو ترى أرسله مباشرة إلى كارى توماس ؟ إن كل هذه التفاصيل متعبة . ويؤسفنى أننى لم أتذكر كل الأشياء التى أريدها كى ترسل كلها فى رسالة واحدة ، غير أن ذاكرتى تعمل بهذه الطريقة التى لا يمكن تجنبها .

أحب ربة الشعر التى تلهم المأساة . ياله من شىء طريف . ثم إنه إلى

---

(١) فتز جرالد ١٨٠٩ — ١٨٨٣ شاعر إنجليزى ترجم رباعيات الخيام إلى الإنجليزية .

جانب ذلك يناسب تماماً حالتى الراهنة . بالأمس كانت عمتى جورجى عطوفة جداً ، وإن أغرقت فى حب الاستطلاع (شأن كل النساء) وقالت إنه فى الماضى كان ينتاب جدتى ، عند أبسط فكرة عن الزواج ، نوع من الحمى ، وتصبح شديدة القلق لذلك .

إنى لجد سعيد بمشروع باريس ، ولسوف أبذل قصارى جهدى حتى لا أكره زملائى كثيراً . وعلى كل حال ينبغى على أن أكتب خطابات مسلية من هناك . اعطنى [نقداً أدبياً] لأوصافى ، حتى أجعلها واضحة بقدر الإمكان . من المحزن أن تكونى قد أصبحت تضيقين بحديث صديقك ، ولكنه من الصعب على الإنسان أن يلقى بنفسه فى شئون الآخرين التافهة بينما تكون شئونه هو من الأهمية بحيث تشغل كل تفكيره . وأنا لست آسفاً على أنك قد فهمت لماذا اعترضت على رحيلك المزمع إلى أمريكا أكثر من اعتراضى على انفصالنا ونحن فى لندن . ولقد حسبت حينئذ أن ذلك من الغباء بمكان ، وإنه لكذلك . ولكنه أمر طبيعى .

آمل أن يكون هذا الخطاب من الطول بحيث يرضيك . ولقد كانت متعة كبيرة لى أن أكتبه ، وسوف أتوقع خطاباً طويلا جداً مقابل هذا . وإذا تلقيت خطاباً من اديث توماس ، أرجو أن ترسليه إلى . وسأبرق لك حالما أعرف موعد ذهابى إلى باريس .

وداعاً ياحبيبتى . لقد كان من الأفضل ألا نلتقى ثانية فنتألم للفراق الحقيقى .

المخلص لك

برتى

تمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

٣ من سبتمبر ١٨٩٤ . العاشرة صباحاً

عزيزتى أليس

وصلتنى رسائلك الثلاثة فى التوزيع الأول هذا الصباح ، وأحد هذه الخطابات محول من رامزبرى . وهو رائع بصفة خاصة . وإنى أعيد الوثائق التى احتواها ، والتى بعثت كثيراً من السرور إلى نفسى .

لقد قر قرارى على أن أقبل عرض باريس (نتيجة لحثك لى على أن أفعل ذلك) . وأتخيل أن تأكيد اللورد كمبرلى له إن هو إلا من قبيل الرسميات . وأنا فقط أنتظر هنا خطاباً آخر من لورد دافرين ، وبعد ذلك سوف أرحل فى الحال . ولكنى أشعر ببعض الأسى لأنك تستهينين بأخطاء الأرستقراطية وبعيوبها . وأخشى أنك لن تفهمى لماذا أخافها ، وأن هذه المخاوف ليست مجرد أوهام . وقد تختلطين أنت ولوجان بالأرستقراطيين إلى حد (قبل خطبتك على أى حال) دون أن يتهيأ لكما أن تتبينا العوائق التى يضعونها فى طريق شخص من طبقتهم يرغب فى « الهروب » . والمجتمع يحب الأمريكيين لأنهم فى غالب الأمر ، أجناس غريبة ، وهم لا يفعلون ما يفعله الآخرون ، ولا يقلعون عما يقلع عنه الآخرون ، ويتوقع الناس مشاهد مسلية منهم ، ولذلك يقبلون منهم أى شىء . بالرغم من أن أقلية ضئيلة جداً تجد تعويضاً لذلك فى اغتيابهم . ولهذا لا تشهدين الأرستقراطيين على حقيقتهم إلا إذا كانوا مع من هم على شاكلتهم جامدين ، تقليديين ، يفزعهم أقل خروج على التقاليد العائلية التى تجمع بينهم . ثم إن غالبيتهم ، إلى جانب ذلك ، أقاربى وأصدقاء جدتى . وسوف يتبع هذا العرض عروض أخرى فى إنجلترا ، مالم أتصرف كالأحمق فى باريس. ولسوف يؤلم أى رفض جدتى (التى لا يمكن التعويل على وفاتها) إيلاما شديداً ، كما يؤلم الآخرين ويضايقهم . ولكنهم أيضاً أقاربى ، فهم

يشعرون جميعهم أن لهم الحق فى إسداء النصح لى . وحينما أحاول أن أعمل فى هدوء ودون إزعاج ، وبشكل يبدو أميناً لى ، وإن كان من شأنه ألا يجلب لى أقل شهرة أو نجاح حتى أبلغ الخمسين من عمرى على الأقل ، فسوف يزعجوننى طالبين منى أن أبحث عن النجاح السريع . ولربما كان ذلك فى متناول يدئ ، بسبب صداقاتى الكثيرة ، وبسبب الإخلاص الذى ، للأسف ، يكنونه لى ، ولسوف يحيلون حياتى جحيماً بإصرارهم . وبالرغم من أنه خاطر مرعب (ولا بد لى أن أعترف بذلك) فأنا لا أثق كل الثقة فى أنك سوف تكونين لى سنداً . أحب أن أجرب الأشياء بنفسى ، غير أنه إذا كان فى استطاعتى أن أفيد من مواهبى ، فلا بد لى من أن أعرض عن الكثير من التجارب الممكنة ، وأقفل باب مكتبى على ، وأعيش حياة هادئة حيث أرى فقط هؤلاء الذين يوافقون على مثل هذه الحياة (ما أمكن) وإنى لأعرف نفسى جيداً لدرجة أنى أثق (برغم أن هذا اعتراف بالضعف) أنه إذا كنت تصرين على أن أكون ذا تجارب كثيرة ، وأن أرى مجتمعاً مختلف المشارب ، وأن أعرف العالم وأن تكون لى على الأرجح ، خبرات عن عالم مختلف دنيوى ، فلن تحتمل أعصابى المجهود وسوف يكون على إما أن أترك العمل الذى يرضى ضميرى أو أكون قد أنهكت وهدت قواى ، وأنا مازلت فى الثلاثين من عمرى . وأنا ، بالاختصار ، أعرف حاجاتى أكثر مما تعرفين . ومن المهم جداً بالنسبة لى أن تساعدينى على التمسك بها . ثم إن التجربة التى تأتى عرضاً هى تجربة ذات نفع قليل بالنسبة للتخصص ، وهو ما أتمنى أن مارسه ، والأخلاق الحميدة عديمة الجدوى تماماً . عندك نوع من الشفقة غير المنطقية (ولا أسميها ضعفاً) تمنعك من فهم ضرورة تطبيق قانون عام على حالة خاصة ، إذا كان لأى شخص أن يستمد بعض اللذة من كسر هذا القانون . ولذلك فبينما تريدين لى أن أحيا حياة الطالب الهادئة ، فإنك لقادرة على دفعى لأن أقبل العروض التى تقدم لى ، وأن أشترك فى الشئون العملية التى هى فى حقيقة الأمر عوائق فى طريقى . ثم إن كلينا معرض لخطر الانتشاء بالنجاح الرخيص ، الذى هو أكبر لعنة

على الأرض ، أما إذا ضيعت هذه السنين التى يجب أن تنفق كلية تقريباً فى العمل النظرى وفى طلب المعرفة عن طريق التفكير (بما أن هذا غير ممكن إلا إذا كان الإنسان صغيراً فى السن) فإن ضميرى سيظل يؤنبنى طوال حياتى . ودعينى أقل للمرة الأخيرة : إن الله جل شأنه قد خلقنى إنساناً نظرياً وليس عملياً . ولذلك فإن معرفة العالم قليلة النفع لى . وربما كانت ساعة واحدة أقضيها فى قراءة إحصائيات فاجنر أكثر فائدة من ثلاثة أشهر أقضيها فى اتصال عرضى بالمجتمع . كونى ثابتة وحازمة أرجوك فى قبول وجهة نظرى هذه عن نفسى . وإلا (فإذا كان على أن أحاربك وأحارب أقاربى ، والعالم) فلن يكون بوسعى أن أحقق ما آمل أن يكون فى وسعى أن أفعله . لك أن تقرئى ما شئت من هذا الخطاب على لوجان ، وتبينى ما إذا كان يتفق معى أم لا . إن حاجات الإنسان النظرى تختلف كلية عن حاجاتك ، حتى إنه ليبدو من المستحيل بالنسبة لك أن تعرفى أن الأشياء التى هى على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لك قد تكون عديمة الأهمية تماماً بالنسبة لى . أما فى حالة بياتريس ويب ، فإن الأمر يختلف تماماً ، فلقد تزوجت رجلا كان كل أقاربها المرموقين يكرهونه . أما أنت فلا يسعك بطبيعتك الودودة إلا أن تنالى الحظوة عندهم جميعاً . ثم إنى أتخيلها كإنسانة لا يهمها بقدر ما يهمنى أنا أن تخرج على إرادة هؤلاء الذين يحبونها . وعلاوة على ذلك فقد أضاعت كل سنواتها المبكرة لدرجة أنها لا يمكنها أن تكون إنساناً [1] ممتازاً ، أو أكثر من ظل لزوجها — عذراً لأسلوب هذا الخطاب — والحقيقة أننى كنت لوقت طويل ، أخشى أن تحطمى مستقبلى برغبتك فى أن أكون عملياً أكثر مما ينبغى ، ولقد وصل خوفى الآن إلى قمته ...

---

(١) يا له من رأى خاطىء .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

٣ من سبتمبر ١٨٩٤

عزيزتى أليس

إن الرغبة فى المواءمة بين الحق والجمال لم تأتنى فى صباى المبكر بل حينما كنت فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة . ولقد كنت غريب الأطوار لأنى كنت دائماً وحيداً ، وحينما كنت أقضى وقتاً فى صحبة الأولاد الآخرين ، كنت سرعان ما أصبح مثلهم . وأعتقد أننى حينما كنت جد صغير كنت أكثر ميلا للتفكير مما أصبحت فيما بعد . وأذكر جيداً بقعة معينة فى الطريق المفروش بالحصى خارج حجرة الطعام هنا ، حيث أخبرنى أحد أعمامى ذات عصر جميل فى وقت تناول الشاى بأننى لن أتمتع بأوقات عصر جميلة كهذه فى المستقبل. ولعله لم يكن جاداً تماماً . مضى يشرح لى أن متعة الإنسان تقل عمقاً وصفاء كلما تقدم فى السن . ولقد كنت وقتها فى الخامسة من عمرى فقط ، ولكنى تأثرت جداً بقوله هذا لكونه معبراً عن نظرة متشائمة للحياة . وأذكر أننى جادلته فى ذلك لدرجة البكاء لأننى شعرت أنه ربما يعرف أكثر منى ولا بد أن يكون مصيباً . وعلى كل فأنا أعرف الآن أنه بكل تأكيد لم يكن على حق ، ولم يبعث عزاء فى النفس . وأقبلت على متعتى حينئذ ، كما أفعل الآن ، بنوع من الحب الخالص ، كأنما هى شيء له وجود ذاتى . ولم يعرف عمى الأثر الذى تركته كلماته العابرة فى نفسى . . .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

صباح الأحد ، التاسع من سبتمبر ١٨٩٤

عزيزتى أليس

. . . إنه لشىء غريب ، ولكنى حقاً أسعد حالا مما كنت أثناء الشهر الذى قضيته فى « فرايدايز هل » ، وأعتقد أنك وأنا معاً كنا نحاول أن نقضى على حبى لجدتى ، وأن هذه المحاولة باءت بالفشل . فلقد عذبنى ضميرى ، حتى إننى كنت أحلم بها كل ليلة .

وكنت دائماً ، وفى أسعد اللحظات ، أشعر بأن هناك شيئاً يثقل ضميرى من ناحيتها . أما الآن إذا حانت منيتها فسأكون مستريح البال ، وإلا فإننى كنت أقضى حياتى ، كلها على ما أعتقد ، أعانى حالات الندم ، الندم على القسوة تجاه شخص لا يستطيع الإنسان أن يستغفره عما بدر منه فى الماضى بعد أن أخذه الموت بعيداً . إن حبى لها حقيقى جداً للدرجة لا يمكن معها أن أتجاهله دون أن أنجو من قصاص .

* * *

فيكتوريا . التاسعة صباحاً

العاشر من سبتمبر

عزيزتى أليس

لقد استطعت أن أسافر اليوم ، برغم كل شىء . استلمت خطابيك ساعة الإفطار . ولسوف يكونان زادى أثناء الرحلة . وأشعر بعناء السفر لدرجة لا أستطيع معها أن أكون عاطفياً أو أقول شيئاً على الإطلاق . وأنا سعيد جداً لرحيلى بالطبع . غير أن عزيمتى هبطت بعض الشىء نتيجة لزيارتى لعائلة دى استورنل بالأمس . كان كل الموجودين من الفرنسيين باستثناء السفير الإسبانى ، والسفيرة الإيطالية ، ولم أقع تحت تأثير سحرهم أو أعجب بسلوكهم

ما عدا الإسبان ، فلقد كانوا مهذبين بشكل فظيع يوحى بقلق مما لا يحتمله الذوق الإنجليزى . فلم ترتفع الكلفة ويختف الشعور بالحرج اللذان هما عماد التربية الكريمة كما تراها العقلية الإنجليزية . ومن سوء حظى أنه علىّ أن أرى ثلاثة منهم مرة ثانية فى باريس فمن الصعب على المرء أن يحتمل مجاملاتهم التى لاتنتهى ، وأن يكون على استعداد دائماً لأن يرد بالمثل .

السفارة البريطانية

باريس

الجمعة ١٢ من أكتوبر ، ١٨٩٤

عزيزتى أليس

أمضيت أمسية رائعة مع الآنسة بيلوك [١] ليلة أمس — من السابعة حتى الثانية عشرة . وأعتقد أنها شعرت أيضاً بنفس المتعة ، لأنها بقيت حتى هذه الساعة المتأخرة . وأعتقد أنها كانت حقًّا لطيفة جدًّا ، غير أنها بالنسبة لى كانت محاطة بالهالة التى حول « فرايدايز هل » وكنت أجدها لطيفة جذابة وحتى لوكانت شيطاناً مجسدًا أوكان بها أى عيب من العيوب . وقد تقابلنا فى الساعة السابعة فى مكتبة نيل ، بشارع ريفولى — ثم تمشينا بعض الوقت فى حدائق التويلرى وغيرها من الأماكن ، ثم تناولنا العشاء فى مكان غريب هادئ فى الباليه رويال . ثم تجولنا وقتاً طويلا ، ودخن كل منا عدداً كبيراً من السجائر . وأخيراً تركتها عند منتصف الليل أمام باب فندقها ، آملا فى لقاء آخر اليوم أو غداً . ولقد تحدثنا عنك وعن العائلة كلها ، عن الفرنسيين والإنجليز ، عن جرانت آلن ، وعن ستيد ومسز عاموس ، عن السفارة وجوها المقبض ، عن مختلف الشعراء الفرنسيين الذين وقعوا فى غرامها والذين وقعت فى غرامهم ، عن أسلوبها فى حياتها مع أقاربها من الفرنسيين المحافظين ، وعن أخلاقياتهم) التى يتعذر على فهمها ولذلك تشوقنى) — وعن ليدى هنرى

(١) مسز لويندس بعد ذلك . كانت شقيقة هيلارى بيلوك .

وبولن (التى اتفقنا أعلى كراهيتها) وعن مس ويلارد — وعن الرذيلة بوجه عام، وعن الفارق بين الرذيلة الباريسية والرذيلة اللندنية على وجه الخصوص ، وعن تجاربها فى الأساليب التى يستخدمها الآخرون فى الحديث معها — وعن أشياء أخرى كثيرة . ولقد وجدت حديثها شيقاً جداً ، وأعتقد أنها تمتعت بصحبتى أيضاً — وإن كانت متعتى أكبر لأنها كانت أول شخص وديع قابلته منذ كنت فى ڤيشوى [1] ، وأول شخص أكلمه عنك . إن عواطفها الفرنسية لتبدو شاذة حقاً — ومن الصعب أن تتفق هذه العواطف مع حبها لستيد — لأن انتماءها لدولتين لم يهيئ لها التكامل الذى كان يجب أن يكون لديها . ولكنى ، بكل تأكيد تمتعت بأمسيتى — أكثر مما تمتعت بأي شيء آخر منذ تركت « فرايدايز هل » — واستطعت لأول مرة أن أعجب بنهر السين فى الليل (وهو رائع جداً) دون أن أذوب صبابة .

الاثنين ١٥ من أكتوبر ، ١٨٩٤
الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً .

حبيبتى .

لا تقولى إنك تفكرين فى ، من خطاباتى ، وكأنى « عقل مطلق » فهذا قول بارد جداً ، وجاف ، ولا حياة فيه. فالخطابات سيئة ، ولكن يجب أن تعبر كل التعبير عن الواقع . إن خمسة أسابيع تنتهى الليلة تبدو لى أنا أيضاً وقتاً طويلا — والسبب هو أن أخى معى . ولسوف يسعدنى أن يذهب . فأنا أكرهه ، وبى نوع من الخوف منه ، فهو يسيطر على حينما يكون معى لأنى أخشى تعليقاته إذا عرفنى على حقيقتى . إنك لم تجعلينى أقل ، بل أكثر ، حساسية . لأنى وجدت أنه لزاماً على أن أجسد من نفسى الحقيقية بحيث يراها العالم كله، مما

(١) لقد أمضيت عطلة نهاية الأسبوع مع شقيقات ثلاث يدعين كينسلا ، وكن صديقات أسرة بيرسل سميث . وهناك قابلت اكوندور الرسام . وكانت الملاحظة الوحيدة التى قالها هى « ألا يكون من الشاذ حقاً ، أن يصل الإنسان من الفقر حداً يضطر معه لأن يقدم لضيوفه صابون حلاقة بدلا من الكريمة مع الشاى ؟ وهناك أيضاً تعرفت بجونثان سترجس الذى كان مغرماً بإحدى الشقيقات .

يعطى، كل واحد الفرصة كى يهاجمنى . وإنى أخشى اللحظة التى يكشف فيها رجال السفارة ذلك . حتى الفرح الذى يأتى نتيجة لابتعادى عن كل الذين يضايقوننى يكفى فى حد ذاته لأن يكون نبعاً فياضاً من الفرح . . . .

* * *

السفارة البريطانية ، باريس
الأربعاء ١٧ من أكتوبر ١٨٩٤
الساعة العاشرة صباحاً .

عزيزتى أليس

إنى لا أريد أن أزعج أحداً — غير أن أخى ، أقر بالأمس، « تلقائيًّا » وبينما كنا نتناول العشاء فى مطعم «لابيروز» أنه يمكنه أن يتخيل أنه يخشانى ، بالرغم من أنه لا يخشى أى إنسان آخر ، لأنى لا أترك نفسى على سجيتها أبداً ، وأنه يجدنى، من الداخل ، بارداً . من المؤسف أن أكون هكذا مع شخص مثل مس بيلوك . وهو يعتبر نفسه متعاطفاً مع الشاعر هويتمان لدرجة ينتفى معها التعقل ، غير أن الذى يتعاطف مع كل إنسان كالذى لا يتعاطف مع أى إنسان بالمرة أو كمن لا يتعاطف مع من لا يتعاطف معهم أحد . إن أخى لن يرغب فى المجىء إلى ألمانيا — ولا أعتقد أنه يحبك — وهذه نعمة . ويظن أن لك قسوة الأمريكيين ، ويعنى بذلك أنك لاتخضعين كلية للزوج وأنك لست شهوانية . ويقول أيضاً إن الأمريكيات يحببن فقط ابتداء من الخصر فصاعداً . وأنا ، كما تتصورين ، لا أفتح قلبى له . ويبدو لى أنه من المؤلم لك أن أعطيك صهراً ثانياً لا تحبينه اسمه فرانك . . . .

السفارة البريطانية
٢٠ من أكتوبر ١٨٩٤
الساعة الثالثة بعد الظهر

عزيزتى أليس

أظن أن الفائدة الحقيقية لما بيننا من فراق هو أن أريح ضميرى أو أن أعجل بزواجنا . إنك لا تظنين أن راحة ضميرى سوف تستمر ، ولكنى أظن أنها سوف تستمر إذا لم أر جدتى كثيراً . وأنا لا أشعر الآن بأن علىّ التزامات يجب أن أؤديها ، وإنما أشعر ببعض الضيق حينما أفكر فيها وفى عمتى أجاثا . وإنه لمن الأنسب أن أستمر فى شعورى هذا . ولهذا فإن لفراقنا هذا فائدة مؤكدة . لأننا ما كنا لنشعر بسعادة معاً لولا معرفتنا بأننا قد فعلنا شيئاً هامًّا لجدتى . . . وأنا أرفق مع هذا خطابى سانجر . ولقد أرسلت له ردًّا أقول فيه إننى ربما أكتب بحثين والخطاب الثانى أكثر تشجيعاً من الخطاب الأول . كما قلت إننى أرى أن تكون الهندسة اختيارى الأول ، والاقتصاد هو اختيارى الثانى .

إنى أقضى معظم وقتى فى قراءة مل ، كما أننى بدأت فى كتابة مقال عن البديهيات من أجل نادى العلوم الأخلاقية فى كامبردج ، والذى يعمل تروتر ، الأسكتلندى النشيط الذى أحتقره ، سكرتيراً له . وسوف يسعدنى جدًّا أن أذهب إلى كامبردج وأقرأ بحثاً ، وأتمتع مرة ثانية بالمجتمع . فأنا أحب المجتمع حبًّا حقيقيًّا ، ولا يعلو على هذا الحب إلا حبى لك . فهو متعة لا تعدلها متعة . وسوف أقرأ عليهم بحثاً فى السيطرة على العواطف أقول فيه إنه لا يمكننا ذلك ، وكلما كانت العواطف قوية ، كان من الواجب أن نخفف من ضبطها ، حتى لو أمكننا أن نسيطر عليها بسهولة — قد يبدو هذا الكلام متناقضاً ولكنه ليس كذلك . إنى أجد ملاذاً لى فى النشاط الذهنى الذى كان دائماً كالهواء ، وكالأفيون ، بالنسبة لى .

وداعاً يا حبيبتى ، يا موضع فرحتى . سوف أكتب لك خطاباً آخر غداً .

قلبك وروحك
برتى

السفارة البريطانية

باريس

٢٢ من أكتوبر ١٨٩٤ ، التاسعة مساء

حبيبتي أليس

لا أظنك ترضين أن تعتمدى على فى كل شىء . لأنك سوف تجدين أننى سوف أضجر إذا وافقتنى دائماً ، ولسوف أحتاج من وقت إلى آخر لجدل ينعش عقلى . فإنى أشعر بلذة حقيقية ومؤكدة إذا ما أشار أى إنسان إلى مغالطة فى آرائى ، لأنه لاتهمنى آرائى ، بقدر ما يهمنى ألا تكون فيها مغالطة . ولكنك لابد وأن تفكرى لنفسك بدلا من مجرد أخذ شذرات من أشخاص مختلفين — وهذا ما يجعل أفكارك غير مترابطة ، لأنك تأخذين آراء مختلفة من أناس مختلفين ظناً منك أن الموضوعين مختلفان . ولكن ليس هناك فى الحقيقة موضوعان مستقلان . فالناس الذين يشايعون رواداً مختلفين لهم خليط غريب من الأفكار . ولوجان وأنت ومريكن تشتركون فى هذه الرذيلة . وإن كان لوجان أقلكم ومريكن أكثركم حظاً منها .

ولقد قال لى لوجان ذات مرة : إن لك ذوقاً أحسن من ذوق مريكن فى اللوحات . ومع ذلك فنادراً ما تتكلمين وإنما تتركين مجال الحديث عن هذه الموضوعات لها وحدها . وهذا مثل من الأمثلة التى تدل على أنك تبددين عقلك ليس بدافع التواضع ، ولكن نتيجة للكسل والكبرياء ، نفس الكبرياء التى جعلتك لا تعبرين طوال هذا الوقت عن آرائك الحقيقية . وما تقوله مريكن عن اشتقاق الأفكـــار من مكان ما ، ينطبق عليها ، ولكنـــه لا ينطبق على الجميع . فمثلا ، فى بحثى عن الفراغ ، الذى أقوم الآن بإعداده ، يوجد جزء بأكمله عن الاستدلال الدقيق ، لم أره فى أى كتاب ، وربما كان — بقدر ما أعرف — جديداً . وهذا يشبه آداب السلوك التى تقول بأنه على الإنسان ألا يتحدث إلا إذا بادره أحد بالحديث — فإذا سار كل إنسان على هذا المنوال ،

نضب العالم من الأفكار ؛ وإذن فلا بد للأفكار أن تصدر عن شخص ما ، بصورة مبتكرة . وحتى إذا ما أخذ المرء أفكاره عن الآخرين ، فإنها تتخذ طابعاً مختلفاً ، إذا ما عارضها وتصارع معها وكافح لكى يفهم العملية التى ترد بها ، عما تكون عليه إذا ما قبلها المرء لمجرد أن صاحبها إنسان لا بأس به . ولقد حاربت على الدوام المثالية فى الميتافيزيقا والأخلاقيات — وهذا هو السبب فى أننى أرغمت على أن أفهمها بدقة قبل الموافقة عليها ، وفى أننى حين كتبتها أعجب « وارد » إعجاباً شديداً بوضوحها . ولكن بما أننى بدأت فى الزهو القبيح بنفسى ، فإنى أرى أنه قد حان الوقت كى أنهى هذه الموعظة .

السفارة البريطانية ، باريس

الأربعاء ، ٣١ من أكتوبر عام ١٨٩٤

التاسعة والنصف مساء

حبيبتى أليس ،

لا مانع لدى فى ذكر التفاصيل غير الهامة لما أقوم به من أشياء — مثل المكان الذى أتناول فيه الطعام ، وماذا آكل . . إلخ — إذ أنه حين لا تكون لدى خبرة كبيرة فى المسائل العملية الهامة ، فإنى أدافع عن نفسى بقولى إننى لست بالشخص الكفء . وسوف أخضعك لإرادتى وبكل قوتى ، إذا ما حاولت أن تملى شيئاً علىّ . غير أن إيفلين نوردوف محقة إذ تقول : إنه ليس من طبيعتك الإملاء . وما دمت طالب علم ، أو صاحب نظريات من أى نوع ، فلن تكونى على واجبات إزاء العالم الخارجى . وأذكر أننى قلت لك عند شاطئ التيمس فى تشلسى فى نوفمبر الماضى ، ما يردده لوجان دائماً إن ذلك النوع من الأشخاص عليه أن يعيش حياة تتسم بالأنانية بالنسبة للأشياء الصغيرة لأن ذلك يزيد من كفاءة الإنسان . وأن العمل لأكثر أهمية من أى خير يؤديه المرء راغماً . وحاجاتى ، لحسن الحظ ، بسيطة فكل ما أطلبه هو — الشاى والهدوء . وقد تمتعت كثيراً بغدائى مع آل دافرين . ولقد كنت وحدى مع اللورد

والليدى دافرين ، ولقد كان لطيفاً وجذاباً للغاية ، برغم أنه بدا عليه أنه نسى كل شىء عن خطوبتى ، على الأقل لم يتحدث أحد عنها . وهو فى الحقيقة إنسان لطيف — دمث الأخلاق واسع المعرفة . ولقد كان كريماً للغاية ، وقال إنه سعيد جداً لأنه استطاع أن يرضى جدتى بتقديم ذلك المنصب لى . وسألنى إذا كان العمل شاقاً ، وأجبته بأنه لم يكن هكذا فى المدة الأخيرة ، فابتسم قائلا إن عمل السفير أقل دائماً من عمل الوزير . وأخبرتهما عن تحمس فيبس لمسرحية سارة الجديدة . فابتسما مرة ثانية وقالا إنهما لا يحسنان الظن كثيراً بذوق فيبس . ويبدو أنهما يشاركان فى الاحتقار العام للمسرحية . ولقد عاملنى بعطف كبير لدرجة أننى أحببته ، بالرغم من أن هذه المعاملة الحسنة كانت من أجل جدى وجدتى وليست من أجلى . ولم أكن خجولا بالمرة ، فكانت أفعالى وأقوالى لا ثقة تماماً . ولسوف يسعدك أن تعرفى أن الليدى دافرين كانت ترتدى فستاناً فى منتهى الأناقة من الحرير الرمادى . أما اللورد دافرين فقد كان قد أتى لتوه من نزهة على دراجته . وهو يركب حتى باب السفارة ، ثم يدخل الدراجة بنفسه . ولقد كان هذا يصدم الفرنسيين ، ولكنه أصبح الآن — بفضل لقب اللورد كما أعتقد — شائعاً بين المتأنقين فى فرنسا ، أكثر مما هو فى إنجلترا . وحينما كان فى بترسبرج سبب فضيحة ، لأنه ذات ليلة ، ومن باب التسلية ، مثل دور الخنزير فوثب ونخر واستنكر الجميع هذا السلوك من سفير . وهو يعامل زوجته بحب مؤدب رسمى غريب ، لا زيف فيه على ما أعتقد ، إلا أن عادة الأدب الرسمى قد أصبحت أسلوب سلوكه الوحيد . ومن الغريب على الأذن ، أن تسمع عبارة « ياحبيبتى » وغيرها تقال بنفس النغمة التى ينطق بها عبارات « جلالتك » ، و « سعادتك » . لقد كان يوماً رائعاً ، وقد قمت بجولة كبيرة فى الغابة مع رودس ، وهذه أيضاً كانت ممتعة جداً . كانت ألوان الخريف أجمل ما تكون ، ولا أتصور أن الطقس يمكن أن يكون أحسن مما كان . ولقد أعجب جداً ، فى طريق العودة ، بقوة أعصابى فى القيادة فى الطرق المزدحمة . وأعتقد أن ذلك نوع من الترضية ، ولكنى

أعرف أنني أسوق بمهارة كبيرة فى الطرقات المزدحمة . ولقد فزت باحترامه تماماً ، لأنه من ذلك النوع الذى يعجب بهدوء الأعصاب فى كل الظروف . كان هو يترنح خلفى . إنه شاب بسيط ، لطيف وبرىء ، ويعتقد أن الجميع أذكياء . وأنا وهارفورد نسخر منه أحياناً ، ولكننا نحبه ، وأعتقد أنه يحبنا .

لم يكن فى نيتى أن أبدأ صفحة ثانية ، ولكنى لا أريد أن أنام الآن ، بالرغم من أن الساعة ١٠,٣٠ ، ولا أستطيع أن أقوم بأى شىء سوى الكتابة لك — كم هو رائع أن أركب مع دودسن ، لأنه يحسدنى لدرجة الجنون حينما يرانى أسوق دون أن تمسك يداى بموجّه الدراجة[١] .

كامبردج [٢]

٣ من نوفمبر . الواحدة والنصف

حبيبتى أليس

لقد كنت سعيداً للغاية طوال فترة الصباح . فمنذ أن تركت « كنجزكروس » كنت أشعر كأننا قد افترقنا لتونا ، وكأننى فى طريق عودتى فى ذلك القطار ، كما اعتدت أن أفعل فى الشتاء الماضى . إنه مما يملأ النفس بهجة أن أرى أصدقائى مرة ثانية — لم أكن أعرف قبلا كم أنا مغرم بهم ، وكم هم أكثر لطفاً (وذكاء) من الشبان العاديين . ولقد عدت لتوى من زيارة لوارد ، وهو يقول إنه لا يوجد شىء فلسفى أقوم به فى الاقتصاد ، وإنه من الأفضل لى أن أقوم بعمل رياضى ذى صبغة رياضية بحتة ، وحينئذ فقط ينبغى على أن أبدأ التخصص فى الحال . ولقد نصحنى أن أدرس الزمن والحركة أيضاً فى بحثى الآخر ، وأن أناقش قوانين نيوتن الثلاثة ، وهو شىء مشوق . الجو الآن رائع ، وشجر الغاب الأصفر فى منتهى الجمال ، والناس كلهم خيرون ولطاف المعشر ، والمكان هنا كالجنة

---

(١) يخجلنى الادعاء والاغتباط بالنفس اللذان يتضحان فى هذا الخطاب ، وغيره من الخطابات التى كتبت فى نفس الوقت . ولا أدرى كيف احتملتها أليس .

(٢) ذهبت إلى كامبردج فى عطلة نهاية الأسبوع ، ولكنى لم أر أليس لأن الشهور الثلاثة لم تكن قد انقضت بعد .

تماماً بعد جحيم باريس . كان بيني وبين سانجر حديث طويل ، وضحكت كثيراً لتوقد ذهنه .

سوف أكتب مرة ثانية غداً من منزل ليول[1] خطاباً أطول من هذا أخبرك فيه بكل ما حدث . سوف أعرض على وارد بحثى عن الفضاء وأنا متشوق جداً لمعرفة رأيه . ولأنى أعيش بلا حب ، فإن مديحه هو أكثر ما يدخل البهجة على قلبى فى العالم . ولم أحصّل منه على أى مديح اليوم ، ولكنى تمتعت بمقابلته ، فهو إنسان لطيف جداً . والآن يجب أن أبحث عن أحد يتناول الغداء معى . والحمد لله إنه لم يتبق إلا أقل من أسبوعين ، إلى اللقاء يا حبيبتى .

حبيبك المخلص جداً

برتى

فى القطار . كامبردج

الأحد ، ٤ من نوفمبر ١٨٩٤

الخامسة والربع مساء .

عزيزتى أليس

من المؤسف جداً أن خطاباتى كلها قد وصلتك فى نفس الوقت ، وأننى أرسلتها بعنوان فرايديز هل . وآمل ألا يتكرر ذلك . يسرنى أنك سعيدة وأن وقتك مزدحم بالعمل — ولو تصورتك غير سعيدة ، لكان مما لا يمكن احتماله ألا أراك الليلة — وإنه لمن دواعى سرورى أن أشعر أنك بجوارى . عظيم أن يعود المرء إلى كامبردج . ولقد فرح مور وسانجر ومارش برؤيتى مرة ثانية . إنى أحبهم أكثر مما كنت أعتقد قبلا . وقد كان هناك اجتماع كبير ليلة أمس ، وقد حضر « ماك تى[2] » ، وديكنسون ومور ، مما جعلنى أشعر بأهميتى . ولسوف يسعدك أن تسمعى أن كثيرين منهم ظنوا أن بحثى يغلب عليه الطابع النظرى ،

---

(١) ليول فتزباتريك — مسز فيليمور بعد ذلك .

(٢) ماك تى اختصار لاسم ما كتاجارت .

بالرغم من أننى وماك تى أقنعناهم فيما بيننا ، وفى الوقت المناسب ، أنه ليس هناك شيء محدد يمكن أن يقال عن السلوك العملى . ولقد تركت لهم بحثى لأن مارش وسانجر يريدان أن يقرآه ثانية . ولقد تكلم ماك تى أولا ، وكان لطيفاً جداً كما تمنيت . ولقد قلت فى بحثى إننى ربما أقبل أى شيء يقوله ، وهكذا فعلت . لقد ترك جانباً مسألة الخلود من أجلى ، وهكذا حل مشكلتى ، فى نهاية الأمر ، دون الرجوع إلى هذه المسألة . ولا أستطيع أن أضمن ما قاله فى خطاب وإنما يمكننى القول بأننى سوف أذكره فى حديث لنا يوماً ما . ولقد تناولنا غداء شهياً عند مارش قبل الاجتماع . أسعدنى وجودى بينهم ثانية ، حتى إننى لم أتكلم كثيراً . وبالرغم من أن مور كان يميل إلى الصمت فقد كان كعهدى به دائماً رائعاً — إننى أكاد أعبده كما لو كان إلهاً . ولم يحدث أن شعرت بهذا الإعجاب الشديد بأى إنسان . وأنا أقول الحقيقة دائماً لمارش ، ولهذا فقد أخبرته بأننا مفترقان لمدة ثلاثة أشهر كى ترضى جدتى . ولم يسأل الآخرون أى أسئلة محرجة . ولقد سر معظمهم ببحثى ، وبأننى استعملت عبارتى « جيد » و « أقل جودة » بدلا من « صواب » و « خطأ » . ولقد سروا بالبداية أيضاً كثيراً . ولقد ظللت أتحدث مع مارش حتى الثانية ، ثم نمت حتى العاشرة والنصف ، وتناولت طعام الإفطار مع سانجر . والغداء مع مارش ، وتجاذبت مع عاموس أطراف الحديث ، وبعد ذلك ذهبت لرؤية سكنى الذى أثثته بطريقة جعلته يبدو أكثر إشراقاً ، بالرغم من أنه ليس كما أتمنى تماماً .

ويعتقد سانجر أن رأيى الجرىء ، فى بحثى عن الفضاء ، له وزنه وآمل أن يكون هذا هو رأى وارد أيضاً . ولقد أخبرنى عاموس أن وارد قال إننى مؤهل جداً للزمالة لدرجة أنه لايهم أى موضوع أكتب عنه — غير أنه ينبغى ألا يؤخذ هذا الكلام على علاته — لأنه ملون بالاحترام الذى يكنه عاموس لى ولقد حاولوا إقناعى بأن أفعل ما أحسن القيام به بدلا من الانطلاق إلى علم الاقتصاد ، هذا بالرغم من أنهم جميعاً يحترمون هذا العلم كثيراً ، ويسرهم أن أستقر فى نهاية الأمر على دراسته . وأنا أكن الكثير من الاحترام لأحكامهم

لأنهم أمناء ، ولأنهم يعرفوننى . وسوف أقوم بعمل بحثين فى العام القادم ، وبحث عن الفضاء فقط أو عن الفضاء والحركة ، كما يقترح وارد . ولكنى بطبيعة الحال ، سوف أبدأ فى علم الاقتصاد فوراً . ويقوم سانجر بدراسة فى الإحصاء . كما أنه شرح الصعاب الجسيمة فى النظرية ، وهى تهم الجانب العملى أيضاً ، لأن موضوع تحقيق القيمة كله ، وغيره من موضوعات ، ترتبط وهذه الصعاب . أى لم أكن أعلم ، من قبل ، بوجودها . ولقد أعطتنى فكرة التغلب على الصعاب بهجة ذهنية كبيرة . إن مسراتى الذهنية فى نمو سريع جداً خلال هذه السنوات الأخيرة . وإنى مقتنع ، منذ أن قرأت برادلى ، أن كل المعرفة مفيدة ، ولذلك فلا داعى هناك للقلق بخصوص الفائدة العملية السريعة — بالرغم من أن القلق سوف يوجد ، بطبيعة الحال ، متى بدأت فى دراسة الاقتصاد . وإنى لسعيد إذ أعرف أن العاطفة تنمو ، لأنه بدونها لا يستطيع أحد أن يقوم بتفكير صائب فى الموضوعات المجردة — إذ لا يستطيع الإنسان أن يفكر جيداً — بدافع من مجرد الشعور بالواجب . غير أنى أحتاج فقط إلى بعض النجاح من وقت إلى آخر كمصدر للطاقة . ولقد أدت زيارتى لكامبردج إلى أن أكون كثير الرضى عن نفسى ، وإنى لأشعر بسعادة كبيرة حين أذكر أنه لم يبق على لقائنا إلا أسبوعان ، وإن مركين سوف تجعلهما يمضيان بسرعة . لقد ضحكت أكثر مما ضحكت فى حياتى منذ أن تركت فرايدايز هل ، وتكلمت كلاماً حسناً وجعلت الآخرين يضحكون كثيراً أيضاً . . . .

كلية ترينتى كامبردج

٩ من ديسمبر ١٨٩٤ ، الثانية صباحاً

عزيزتى أليس

سوف أكتب خطاباً موجزاً الليلة ، برغم أن الوقت متأخر ، قابلنى سانجر فى المحطة وأخذنى لتناول الشاى مع مارش ، حيث قابلت كرومبتون الذى كان

لطيفاً كعادته ، وفى حالة معنوية عالية ، لم أره فيها من قبل، فهو مسرور بدراسة القانون ، وسعيد باستقراره فى الحياة . ولقد قام مور بقراءة عن الشهوة وذكر مثلك الأعلى السابق الذى كنت قد أخبرته عنه . ولم يقدم فى بحثه حججاً وجيهة ، وإن كانت بعض أجزائه ممتازة مما جعلنى مغرماً به . وكان من الممكن أن أوافق على كل كلمة فيه . منذ عام — أما الآن ، فقد تكلمت بصراحة تامة وقلت إنه ليس من الضرورى أن تكون هناك شهوة فى الجماع مادام الحب الروحى هو المسيطر ، غير أنه من الممكن أن يكون الجماع تعبيراً عن اتحاد اثنين ، وهو ذروة الحب الروحى. واتفق الجميع معى ، ماعدا ماك تى ، الذى حضر بعد أن انتهت المناقشة . ولقد كان كرومبتون رائعاً ، كما فاز على مور فوزاً ساحقاً ، برغم أن مور لم يعترف بذلك . غداً سوف أقابل كل أساتذة الجامعة . ولقد كنت أناقش عاموس ، الذى استشاط غضباً لدفاعى عن ما وراء الفضاء . وهو لن يحضر حفل الزفاف (وليس ذلك نتيجة لاختلافنا) .

حبيبك المخلص

برتى

لقد كنت فى ذلك الوقت على علاقة وثيقة بإدى مارش (الذى أصبح السير إدوارد مارش) ، ولذلك أخبرته عن أليس وجعلته يذهب ليراها . ولقد وجدها مشتركة فى حرب صليبية لتحث الفتيات على الثورة ضد آبائهن . وهناك إشارة لذلك فى خطاب مارش التالى :

كولد آش ، نيو برى

٢٥ من مارس ، عام ١٨٩٤

عزيزى رسل

أريد أن أشكرك على مناسبتين سعيدتين جداً فى الأسبوع الماضى . ذهبت يوم الأحد ووجدت فى الغرفة فتاتين أمريكيتين ، ذهبت إحداهما لتكتب

خطاباً لأسرتها ، وقدمت الثانية لتدرس الاقتصاد السياسي . ثم تحدثنا حديثاً ممتعاً ، لمدة ساعة أو ساعتين، وكان الحديث عنك وعن أشياء أخرى ، وأعتقد أننا سوف نصبح صديقين حميمين. وأنا سعيد جداً من أجلك أكثر من قبل .

ولقد أرادت إحداهما أن تثير شقيقتي ضد والديها ، وكذلك طلبت مني أن أدعوها للغناء يوم الأربعاء الماضي ، وهو شيء جميل منها ، ويبدو أنها وشقيقتي قد أصبحتا صديقتين حميمتين . وكانت شقيقتي في غاية الحماس بعد أن انتهت المقابلة ، ولا أعرف إذا كانت ستثور أم لا . والمستر شميث شخص عزيز حقاً ، وأظن أنه بدا لي متهكماً جداً ، ولو أنني لست متأكداً من ذلك . ومما قاله إنني أتكلم تماماً مثل جويت ، وهو شيء لا أصدقه . وما أغرب اللغة التي يتحدثون بها وما أكثر أخطائها النحوية . لا داعي لأن أخبرك بما تعرفه فعلا. ولست أقصد الإشارة إلى استعمالهم النحوي، ولذا فربما كان من الواجب أن أتوقف هنا . غير أن الخطاب سوف يكون مقتضباً ، ولذلك فسوف أتحدث عن شئوني الخاصة . وأهم شيء هو أنني أقابل روبرت بريدجز كثيراً هذه الأيام ، وهو شخص ساحر ، ذو شعر أسود غزير وفي حديثه غمغمة جذابة . ولقد ذكرني بفيرول ، بصورة عجيبة ، بالرغم من أنه أضخم حجماً ، وبوجهه ورم مضحك ، مثل فيرنس . ولقد ذهبت معه في جولة يوم الجمعة ، وكان حديثه شيقاً ، بالرغم من أنه ليس كحديث كولريدج وهازلت . وقد أصيب بعد الغداء بصداع ، أو بشيء من هذا القبيل وبدا أكبر سناً (في التاسعة والأربعين من عمره) وتحدث كثيراً عن مسرحياته وهذا من حقه تماماً ، خاصة وأن الحديث كان شيقاً بالنسبة لي ، ولكن الغريب هو أنه كان يمتدح مسرحياته هذه بصراحة . وقد قال : «أعتقد أنني أعطيت الشعر المرسل المرونة الممكنة في « نزوات البلاط » — ألا تعتقد ذلك ؟ — و « مأدبة باخوس » مسلية من أولها إلى آخرها . ولا بد أن تعرض على المسرح ، وإذا ما عرضت فإنها سوف تبقى هناك مدة طويلة » .

ليس هذا غروراً ، فهو منزه عن الغرور .

ولقد سمعت أنه قام بتدريب الجوقة بنجاح عظيم . أعتقد أنك تمضى وقتاً سعيداً فى روما . ولن تبالى بالرد إلا بعد عودتك . وقد ظننت أنك تريد أن تعرف ما أزمع القيام به يوم الأحد .

ما زلت أريد الكتابة ، لولا أننى غير متأكد من أن وزن الخطاب لن يتطلب أكثر من طابع بريد فئة بنسين ونصف . أرجو تبليغ تحياتى إلى مس ستانلى .

صديقك المخلص
إدوارد مارش

هيدلبرج
نوتيهايمر لاندزتراس ٥٢٠
١٥ من سبتمبر .

عزيزى رسل

كنت على وشك أن أنام وأنا أقرأ قواعد النحو ، حينما تساءلت ، لسوء الحظ ، إذا كان عكس كلمة الدلدول الجليدى غراء السمك أو الترسب الجليدى . ولقد أيقظتنى تماماً صدمة تذكرى بأننى كنت أفكر فى الاستلاكتيت والاستلاجميت (المترسبات الثلجية) . ولكنى لن أقوم بقراءة فى النحو بعد ذلك . ولذلك ، فإليك الرد على خطابك الغريب الذى صدمنى تماماً .

كنت أعتقد أن باريس هى البديل الجيد لدرسدن : حيث إن الفراق كان من الممكن أن يحدث فى أى المكانين — أليس كذلك ؟ ويؤسفنى جداً أننى لن أستطيع رؤيتك ، برغم أن ذلك ، من بعض النواحى ، شىء لا بأس به ، وذلك لأننى لست وقوراً أو لائقاً بالمرة . ويكفى أن يكون سانجر قد رآك . ولن أسرد أخبار « شقاوتى » ، حيث إنى مللت ذلك ، بل قررت أن أكتب لكل أصدقائى وأن أرى من منهم سيصدم أولا مبتدئاً بباران ، وج تريفى ، وكونيبير . ولدهشتى الشديدة أرضى كل منهم نفسه واحداً بعد الآخر ،

بنصحى بأن أحذر البدانة . وكان مور هو أول من بهت لهذا .

أسير قدماً فى دراسة اللغة الألمانية ، برغم أننى لم أصل بعد إلى المرحلة التى أجدها وسيلة معقولة للتعبير عن أفكارى . وأعتقد أن أول اثنين تكلما هذه اللغة لابد وأن يكونا قد ماتا بعد برج بابل، تاركين خلفهما طفلا متحذلقاً، كان قد تعلم كل الكلمات التى تتكون من مقطع واحد ، وكان عليه أن يكون الكلمات الطويلة من هذه المقاطع — وإلا فكيف تفسر كلمات مثل — Ab — Sicht Handschuh — Augen ؟ إنى لم أقابل فى حياتى لغة كهذه — قارن جفاف عبارة sich kleiden بعذوبة التعبير الفرنسى se mettre . إن اللغة الإنجليزية خصبة لأنها تحتوى على الكثير من الكلمات اللاتينية — التى أخفيت حرفيتها — فمثلا كلمة independence تشبه تماما كلمة Unabhängigkeit ومع ذلك فإن الأخيرة تبدو فظة للغاية . ويمكننى الآن أن أقرأ بسهولة ، وأن أجد طريقة ما للتعبير عما أعنيه ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم الناس حينما يتكلمون بالسرعة العادية . ولسوء الحظ كانت المسرحيات التى عرضت فى مانهايم سيئة بشكل لا يشجع على رؤيتها . ولكنى رأيت من الأوبرات منذ مجيئى إلى هنا أكثر مما رأيت فى حياتى كلها ، بالرغم من أن هذا لا يعنى الكثير . وما رأيت هنا من عروض ليس مرضياً تماماً ، حيث إن منظر الممثلين قبيح . وقد رأيت « فيديليو» بالأمس . قامت بدور البطلة سيدة حسبتها فى أول الأمر كورنى جرين — وتعرف طبعاً أنها متنكرة فى زى خادم . إن النساء البدينات لفى هم مقيم، فإما أن يرتدين صدراتهن كلها من نفس القماش ، وفى هذه الحالة يظهرن كأنهن على وشك الانفجار، وإما أن يرتدين فاصلا من قماش آخر، وفى هذه الحالة يظهرن كأنهن قد انفجرن فعلا . وفيديليو مثلا ترتدى صديرياً بنى اللون ، مفتوحاً من الأمام ويظهر من تحته شىء أبيض، وحلية بيضاء فى الأكمام ، تعطى نفس الأثر. لقد رأيت الكثير من المناظر منذ جئت إلى هنا (وأى شىء فى ألمانيا يمكن أن يلفت النظر) . لقد سببت فضيحة منذ أيام ، وذلك حينما استغرقت فى النوم أثناء جولة فى عربة تجرها الجياد ببطء حول فرانكفورت ولا أظن أن

الفرنسيين أنفسهم يجدون المنظر مضحكاً كما أجده أنا . غير أن معظمهم صغار السن . (كان يجب أن أخبرك أنى أعيش فى «بنسيون» كبير ملىء بالفرنسيين الذين يتكلمون الألمانية ، وبالألمان الذين يعلمونهم ، وأنا الإنجليزى الوحيد) . كما أن معظمهم لطاف جداً . ولقد قامت صداقة وثيقة بينى وبين ألمانى جذاب جداً ولكنه ليس رسولياً ، وبينى وبين فرنسى رسولى جداً . ولا أعتقد أننى قابلت فرنسياً بدون جاذبية خاصة به ، بصرف النظر عن قدراته .

والآن جاء دور الغداء Mittagessen ، وبعد ذلك يمكننى القول بأنى أجد نفسى غير قادر على أن أستمر فى هذه العملية المرهقة (بهذه المناسبة ؛ السيدة المدرسة تقول إننى أفوق الإنجليز فى هذا المجال — وهى بمعنى آخر تشير إلى عادتى فى أكل كل ما يوضع أمامى « حسب القاعدة » المتبعة مع الأطفال) . وبعد ، لقد قرأت كل ماكتبته . وأخشى أنه يبدو « نزقاً » leichtsinnig . ولكن لا تنس أن اليوم يوم رائع ، وأننى قد قضيت الجانب الأكبر من الصباح فى الحديقة أقول لنفسى : « انظر ما أروع وأبهج أن يجلس أشخاص من جنسيات مختلفة معاً » — وذلك فى فترة راحة خلال الدرس الألمانى ، الذى كان كالعادة مضحكاً ، فالمدرس الذى يتكلم الإنجليزية بطريقة سيئة جداً ، يضرب أمثالا خاطئة ، وكان على أن أترجم جملا مضحكة مثل :

Rid Jourself of your whimps — Do you remember my ?— He posted off all his wretches i.e. He boasted of all his riches.

أرسل لى بطاقة بريدية من وقت إلى آخر ، حينما لا تكون مشغولا بأعمال أخرى . لسوف أمكث هنا حتى نهاية الشهر . أتمنى أن أعود بطريق باريس ، غير أن هناك عقبات فى سبيل ذلك : أولا : (لن يكون معى نقود) وثانياً : ليس عندى أية ملابس يمكننى أن أظهر بها على مدى ميل من السفارة — أو أسير بها مع إنسان أعرفه — وختاماً أتمنى أن تسير كل أمورك على مايرام .

المخلص

ا. هـ. م.

هيد لبرج
(١٨٩٤)

عزيزى رسل ،

لدى نصف ساعة فقط قبل موعد العشاء Abendessen وفى مخيلتى الآن سبعة أشخاص غيرك ، لابد أن أكتب لهم — ومع ذلك فيبدو أنك « تشعر بتقصير » أكثر منهم ، كما تقول مسز جميدج . يؤسفنى أنك لا تتمتع بوقتك فى باريس . وكنت أحسب أن مجرد وجودك هناك يكفى — غير أن ماتقوله عن خطابات أسرتك محزن جداً — وكذا فكرة أن يسرى المرء عن نفسه بترنيمة غير جيدة فى الوقت الذى يمكن أن يسرى عنها بقراءة مؤلفات والرس وكاربنتر . وعلى كل فليس العاشر من ديسمبر بعيداً جداً .

لا أستطيع أن أفهم ضيقك بالفرنسيين — أهو مجرد كونهم غير طاهرين ؟ هذا شيء يدعو إلى الاشمئزاز — إن كل الذين يعيشون منهم هنا ، مثلا ، يمارسون الجنس بانتظام من سن السادسة عشرة ، ويتحدثون عنه بأسلوب قد يثير فى إنجلترا اشمئزازى ، غير أن هذا يرجع إلى نظرة كل من الشعبين للتربية الجنسية . يمكن للمرء أن يعترض على الأفراد لمجرد أنهم يسلكون تبعاً للأسلوب الذى نشأوا عليه .

المخلص
ادوارد مارش

هيدلبرج
أكتوبر (١٨٩٤)

عزيزى رسل

أرسل لى باران الخطاب المرفق لك اليوم ، وأنا أرفقه بأثمن المعلومات التى وجدتها فى « زايون هيرالد » — وحينما يتتبع المرء التشابه فى كل تفاصيله ، فإنه يشعر بالمتعة وبالأخص إزاء اللباقة التى خفف بها الله من وقع وجوده فى مركز سام لايضارع . « كما هو الحال مع العشاق » ، قول مؤثر — مثال ذلك أيضاً الأسلوب المحتشم الذى يصور الإنسان وهو « يتعجب لما يمكن للإله أن يراه فينا » إن الأمر كله إن هو إلا مقال إنشائى .

كل الفرنسيين الذين قابلتهم هنا تقريباً أصغر سناً من أن تكون لهم تلك البهيمية المقيتة ، ولا شك أن بعضهم سوف يصل إلى هذه البهيمية فى حين يتنزه الآخرون عنها . لقد ذهب صديقى ، الفرنسى المفضل ، مثلا ، إلى ماخور لمجرد تفقد المكان ، ولقد اشمأز لدرجة أنه لم يشأ أن يضاجع ، كما يقولون ...

سوف أكتب لك خطاباً حاداً جداً ، فى يوم ما ، وذلك صوناً لسمعتى ، ولكنى سوف أستمر فى مجونى إن أردت ، حتى يحين وقت كتابة هذه الرسالة .

أما مغامرتى العظيمة الأخيرة ، فهى مقابلة أوسكار براوننج عرضاً فى المحطة — وكان فى طريقه إلى « الفيبيل » كى يشترى شمبانيا ألمانية . كان قد أتى إلى هنا ليبتاع السيجار الألمانى . ولقد أتيت به كى يقضى ليلة فى « البنسيون » ولقد أعجب به الجميع ، وكان رائعاً . وكان أول شىء ، تقريباً ، قاله لى هو أن « دوقى » يورك ، وتياك تى سوف تزورانه فى كامبردج ، فى الفصل الدراسى القادم — مما سوف يكون موضوعاً لأحاديث الناس . ولم تكن هذه غلطته لأنهما فى حقيقة الأمر قدمتا من تلقاء نفسيهما .

ما هى أخبار أخيك ؟

المخلص
إدوارد مارش

٤٠ شارع دوفر
١١ من مايو ١٨٩٤

عزيزى برتراند

عدت منذ ثلاثة أسابيع ، غير أنى كنت منهمكاً فى إنجاز بعض الأعمال المتخلفة ، وأكتب لك الآن لأنى سمعت شائعة تقول إنك سوف تطلب يد الآنسة بيرسل سميث . وأرجو ألا يكون هذا صحيحاً ، لأنك إذا كنت تعتقد أنك أصغر سناً من أن تدخل البرلمان قبل أن تبلغ التاسعة والعشرين فإنى أرى أنه من المؤسف جداً أن ترتبط ، وتقدم على هذه الخطوة الهامة وأنت فى سن ٢١ أو ٢٢ ، لا أذكر أيهما — إن هذا سوف يعوقك عن أن تنجز أشياء كثيرة ، كما أنك لم تعرف بعد شيئاً عن عالم « النساء الصغيرات » كما تقول الليدى رسل . ولذا سوف أشعر بأسى كبير إذا كنت ارتبطت وأنت ماتزال فى هذه السن المبكرة ، غير أن هذا كله قد يكون مجرد شائعات لانصيب لها من الصحة . وتأكد أننى لن أعمل على نشرها . ولكنى لم أستطع أن أمنع نفسى من الكتابة إليك كى أخبرك أنه من المؤسف أن تخطب ، وأنت مازلت بعد صغيراً ، فتاة أكبر منك سناً . لاترد على خطابى إلا إذا كنت تريد ذلك غير أنى آمل أن يكون هذا الذى سمعته مجرد شائعات ربما كان سببها اصطحابك للفتاة إلى « البطة البرية »[١] .

المخلص
نود ستانلى

---

(١) مسرحية إبسن الشهيرة .

كلاند يبوى

مقاطعة داون

٥ من سبتمبر ، ١٨٩٤

عزيزى برتى

لا بد أن تكون الليدى رسل قد أخبرتك أن كل الأمور قد رتبت لذهابك إلى باريس ، وأنا واثق أنك سوف تحبها ، فالجو رائع فى هذا الوقت من العام . وبالرغم من أنك سوف تقوم هناك ببعض الأعمال ، فإنى آمل ألا تمنعك كثرتها من انتهاز فرصة وجودك هناك كى ترى كل ما يجب رؤيته فى باريس ، لأن الخريف أنسب وقت لذلك .

وأعتقد ، إذا كان فى الإمكان ترتيب ذلك ، أننا نريدك ، من وجهة النظر الرسمية ، أن تمكث ثلاثة أشهر على الأقل ، بالرغم من أننى آمل أن نستطيع أن نغريك بالإقامة فترة أطول ، كى تحتك بالمجتمع الباريسى الذى سوف يسرك كثيراً .

ولقد كتبت لكل المسئولين فى باريس كى أخبرهم بموعد وصولك ، وأطلب منهم أن يبذلوا كل ما فى وسعهم كى يجعلوك تشعر بالراحة .

المخلص جداً

دافرين وآفا

فندق برانس دى جال

باريس

١١ من سبتمبر ، ١٨٩٤

عزيزى اللورد دافرين

لقد انتظرت حتى أستقر ، قبل أن أجزل لك الشكر ، على خطابيك الكريمين لى ، وإنى لسعيد جداً باهتمامك بأمرى . ولقد استقبلنى الجميع

بحفاوة بالغة حين وصلت باريس مساء أمس ، وقضيت صباح اليوم فى السفارة وأنا واثق من أننى سوف أحب العمل . وأن الحياة سوف تكون ، بوجه عام ، سارة جداً .

وإنى ،بكل تأكيد ، سوف أبقى الأشهر الثلاثة التى تحدثتم عنها كشىء مرغوب فيه من الناحية الرسمية . وفى الظروف العادية كان يسعدنى جداً أن أبقى أطول وقت ممكن ، غيرأنى سوف أتزوج ، وكنت آمل أن يتم الزواج فى ديسمبر . ولذلك فإنى عظيم الثقة فى أنك سوف تقدر أننى لا بد وأن أكون غير ملتزم بعمل رسمى فى ذلك الوقت — إذا لم يسبب لكم هذا إزعاجاً. وآمل ألا تظن أن رغبتى هذه تدل على أننى غير شاكر لمعروفكم — وما كان ليثنينى شىء عن قضاء أطول فترة ممكنة ، إلا أمر فى مثل هذه الأهمية . وأنا شاكر جداً لكم إعطائى هذه الوظيفة — ولكنى لما كنت لا أنوى أن أعمل بالسلك الدبلوماسى فلا داعى هناك لتأجيل زواجى ، الذى أنتظره بفارغ صبر .

المخلص والمعترف بالجميل
برتراند رسل

وللخطابات التالية علاقة بمشروع ، شغل تفكيرى لفترة قصيرة،وهو أن أترك الفلسفة الرياضية جانباً ، وأتجه إلى الاقتصاد . ولهذه الخطابات أيضاً علاقة بشئون « الجمعية » . فلقد كانت عادة العضو ، أن يقرأ ، بطريقة دورية ، بحثاً قصيراً ، يختاره الآخرون فى يوم السبت السابق ، من بين الموضوعات المقترحة . وكانت القاعدة ، أن يقول كل عضو شيئاً فى المناقشة التى تتلو قراءة البحث .

كلية ترينى
كامبردج
١٨ من أكتوبر ، ١٨٩٤

عزيزى رسل

ظننت ، حينما قرأت خطابك للمرة الأولى ، أنك جننت . وأخذت الخطاب إلى مارش ، ولكنه لم ينظر إلى الموضوع نظرتى الجادة إليه . ولسوف آخذ رأى وارد مباشرة ، بطبيعة الحال ، وأنا لا أعرف إلى أى حد يمكنك أن تبرز فى هذا المجال . ولكنى متأكد أن كتب الاقتصاد التى لا بد لك أن تقرأها لن تكون صعبة بالنسبة لك . بيد أنى أتوقع أنك لابد أن تدرس أيضاً علم النفس وعلم الأخلاق ، إلى جانب السياسة والقانون . وأشك فى أنك سوف تجد تشويقاً فى محاولتك معرفة إذا كانت لكلمة « النفعية » أى معنى وماذا تعنى عبارة « احتياج الإنسان للطباق » . وأمامك بكل تأكيد ، فرصة ممتازة لإسداء خدمة للعالم بكتابتك عن « الفضاء » ، ولكنى أشك فى إمكانك زيادة سعادة الإنسان زيادة سريعة ، بانشغالك بأسس الاقتصاد . فهو ، من ناحية ، لا يجد ثقة أو احتراماً من الناس ، وذلك نتيجة لانتشار الديمقراطية ؛ ومن ناحية أخرى فإن الأقلية التى ترى مثلى أنه علم ، أو ينبغى أن يكون علماً ، لايهمها فى كثير أو قليل إذا كان يعنى أى شىء ، أو لايعنى شيئاً بالمرة . وأتوقع أن يصاب ماكتاجارت بنوبة إذا أخبرته بما تقول . تروتر يسعده أن تحضر بحثاً كى تقرأه (إذا كان ذلك ممكناً) فى نادى العلوم الأخلاقية . وقد اخترنا موضوعاتنا يوم السبت الماضى ، ولسوف يقرأ مارش يوم السبت القادم بحثاً أظن أنه عن «لماذا نحب الطبيعة » وأرجوك أن تخبر أحدنا وبسرعة ، عن يوم حضورك . لسوف يسعدنا مجيئك . ونحن نفكر فى أمر جورج ترينى[1] ، ولكننا لم نقرر بعد . سمعت أن إدوارد كاربنتر قد نشر بحثاً آخر عن « الزواج »

---

(١) جورج ترينى اختصار لاسم جورج تريفيليان .

ولسوف أرسل لك نسخة بمجرد حصولى على واحدة .

ألديك نسخة من كتاب أردمان عن « بديهيات الهندسة » ؟ أو هل تعرف أحداً هنا لديه هذا الكتاب؟ أريد أن أقرأه ، ولا أجده فى مكتبة الجامعة . هل تقرأ الصحف الإنجليزية ؟ لقد أثارت بعض السيدات الدنيا بخصوص العاهرات اللاتى يتسكعن فى « الامباير» وربما يغلق . وكنت أود أن يكون احتجاجهن بخصوص اللاتى يتسكعن فى الطرقات .

لا أجد ما أقول عن « الاقتصاد » ، كما أننى أجد « القانون » مملاً ، ولذلك فلولا أننى سوف أذهب بعد غد لأستمع إلى السمفونية التاسعة ، لكنت الآن مكتئب النفس .

المخلص

تشارلز برسى سانجر



كلية ترينتى

كامبردج

١٩ من أكتوبر ، ١٨٩٤

عزيزى رسل

ذهبت لمقابلة وارد وسألته عنك . فقال لى على الفور إنه من الأفضل لك أن تختار الاقتصاد ، إذا كنت تظن أنك تفضله . وأن المهم هو أن تعمل فى مجال يروق لك ، وأنه بالرغم من أنك لا بد وأن تنتهى من بحثك فى أغسطس القادم ، إلا أنك تعمل بسرعة فائقة ، ولذلك سوف يكون لديك فسحة من الوقت . كما قال أيضاً إنه لن يكون هناك أدنى اعتراض على تقديمك البحثين أو أكثر ، أو أنه إذا كتبت مقالا عن الفضاء فى مجلة « العقل » أو فى غيرها فإنه يمكنك أن تضمن ذلك فى بحثك عن الاقتصاد . غير أن بحثين متوسطى القيمة ، لا يرتقيان إلى مستوى بحث واحد ممتاز ، كما هو متوقع . كما قال إنه لن ينصحك بخصوص الاقتصاد ، وأقترح أن تقوم بالكتابة لمارشال . هل

قرأت كتاب كينس[١] عن مجال علم الاقتصاد ومنهجه ؟ أظن أنه يهمك .
ولقد قال لى فرانك إن ماكتاجارت يتملكه الفزع .

صديقك

تشارلز برسى سانجر

كلية ترينتى ، كامبردج

٢٣ من أكتوبر ، ١٨٩٤

عزيزى رسل

يسعدنى أنك فى طريقك إلينا . ومن الهراء أن تقول إنك لا تريد أن تكتب بحثاً .

لقد كان خطابك الأول إلى سانجر خطاباً هداماً . وكان له علينا (مع تواضعه) نفس الأثر الذى كان لاجتماع مجلس الوزراء فى الشهر الماضى على أوربا فلقد أسرع سانجر إلى هنا ليقول إنك جننت . ولما وجد أنى لم أكون رأيى بعد ، عرض رأيه هو. ولما لم يجد موقفى مرضياً له تماماً ، أفسد على ماكتاجارت شهيته ، بأن سرد عليه هذه الأخبار المخيفة ، فى حين أنه كان فى طريقه إلى مائدة الطعام . وهو منذ ذلك الوقت هادئ النفس إلى حد ما ، بفضل وارد . وأنا لا أدرى شيئاً عن الصواب والخطأ فى المسألة ، غير أنه لا يسعنى إلا أن ألجأ إلى الجانب الحسن من طبيعتك راجياً أن تقدر الساعة التى أنت فيها ، وأن تقدر الوقت الطويل الذى مازال أمامك حتى شهر يوليو ، وأن تقدر كل شيء قبل أن تقوم بأى عمل طائش .

ولقد سعدت كثيراً بتسلم خطابك (فى اليوم السابق لرحيلى من هيدلبرج) وبمعرفتى أنك أسعد حالا فى باريس . ولا أدرى بالضبط عدد المرات التى شرعت فيها بالرد منذ أن تسلمت هذا الخطاب . ويبدو أننى أعمل بجد هذا الفصل الدراسى ، حيث إننى لا أقوم بأى شيء آخر أثناء النهار سوى لعب

(١) كينس المشار إليه هو أبو اللورد كينس ، الاقتصادى المعروف .

الورق مرة واحدة ، وقراءة ثلاثين صفحة من زولا ، وبالطبع تناول الوجبات وإن كانت هذه الأخيرة معتدلة ، ومختلفة كل الاختلاف عن وجبات هيدلبرج .

وليس فى الحياة هنا الكثير مما يغرى الإنسان . ولا أعرف إلا عدداً قليلا من الناس . ثم إن الرغبة فى زيارة الجدد رغبة يسهل مقاومتها . وفى الحقيقة ، لقد تقدمت بى السن ، وثقلت حركتى ، حتى الروماتزم تمكن منى ، وأصبحت محترماً . إن بعض أجزاء هذا الخطاب مكتوبة بأسلوب مارى بنت ، الذى أصبح أسلوبى الجديد . إن الفكرة التى تقول إن الحياة ليس بها الكثير مما يسرى عن الإنسان ، برغم أنها فكرة ليست جديدة تماماً ، إلا أنها ، كما يبدو لى ، تعبير جميل .

رأيت مس بيرسل سميث يوم السبت الماضى فى حفلة ريختر الموسيقية . وتناقشنا فى المتعة النسبية لدراسة علوم الفضاء والاقتصاد . وكانت فى صحة جيدة ، ترتدى معطفاً جميلا أخضر اللون محلى بالفراء . ولقد قال سانجر إنه سوف يخبرك بما كان يحدث فى الجمعية . ولقد كان السبت الماضى يوماً فاشلا تقريباً ، حيث إننى اكتشفت يوم الجمعية أن البحث الذى كنت قد أعددته هراء ، هذا إلى جانب أن الحفلة الموسيقية كانت قد نالت منا ، أنا وسانجر ، بحيث لم تبق فى عقولنا فكرة واحدة . وفى كل مرة كان يوجه لى فيها سؤال ، كنت لا أجد جواباً . ونحن نفكر فى تريفى[1] الصغير ، غير أن مور الذى يعرفه أحسن مما يعرفه أى إنسان ، تخامره الشكوك . وإن الأمل يحدونى فى أن تنجب كلية كنجز من هو على شاكلته — فهو بلا جدال أذكى أفراد أسرته وأكثرهم سحراً .

لقد قمت اليوم بعمل كثير . ولذلك فمن الأفضل لى أن أتوقف ، خاصة وأننى سوف أراك فى القريب العاجل ، والحديث أحسن من الكتابة (وخاصة كتابتى التى تبدو مضحكة على هذه الصفحة) .

أخوك

ا.م

ادوارد مارش

---

(١) جورج تريفيليان ، عميد كلية ترينتى ، صاحب وسام الاستحقاق ، إلخ .

كلية ترينتى
٢٢ من أكتوبر ، ١٨٩٤

عزيزى رسل

يسعدنى أنه سوف يمكنك المجىء . سأقوم بإعداد سكنى . وإنه ليسعدنا كثيراً أن تقرأ علينا بحثاً حيث إننا قد أصبحنا الآن أربعة فقط .

يخيل لى أن « ماجى تليفر أو كليوباترا » موضوع شيق ، ولذلك يحسن بك أن تعده ؛ ولا داعى لأن ترسل موضوعات نختار واحداً من بينها . فى الأسبوع الماضى قرأ مارش علينا بحثا ممتازاً عن « هل نحب الطبيعة ؟ » غير أن المناقشة لم تكن ، لحسن الحظ ، كما ينبغى . إذ أننى ومارش كنا فى منتهى الغباء (حيث إننا كنا قد استمعنا بعد الظهر إلى سيمفونية كورالية) ولم يكن معنا إلا مور وديكنسون . ومناقشة ديكنسون كانت متوسطة ، وكذا مناقشة مور غير أننى لم أفهم ما قال . لا أعرف إذا كنت قد أكدت بشكل كاف ، فى الخطاب الذى أخبرتك فيه بما قاله وارد ، إن أهم نقطة قالها هو أنه يجب عليك أن تختار العمل الذى تحبه (وليس ما تعتقد أنه من الواجب عليك أن تقوم به) وكان من رأيه الذى أصر عليه أنه إذا ضايقك علم ما بعد الهندسة أى الـ Metageometry فمن الأحسن أن تقوم بشىء آخر . إننا منقسمون فى الرأى بخصوص جورج تريفى — وهذا معناه أن مارش ودجوود فى صفه . وأنا على العموم محايد ، ويعتقد مور أن معظم نقاشنا لا يهمه . الجمعية الروحية (النفسية) استطاعت أن تحضر وسيطاً وهو يقوم بأشياء لا يستطيعون تفسيرها . ومايرز بطبيعة الحال ، يشعر بالنصر ، أما سدجويك فهو يضطر للاعتراف بأنه كان مقتنعاً لوقت قصير ، ولكنه الآن غير مقتنع .

أخوك

تشالز برسى سانجر

كلية ترينتى ، كامبردج
الأربعاء (١٨٩٤)

عزيزى رسل

سوف أرسل البحث غداً . إن الجزء الأخير يبدو محيراً للشخص غير المثقف ، ولكنى سعيد بأننى قرأته مرة ثانية .

لقد عدت لتوى من حفل موسيقى وكنت أجلس بجانب سيدة عجوز تشبه تماماً فخذ الخروف فى قصة « أليس فى بلاد العجائب » إذ كانت ملامحها هى نفس الملامح ، وكانت تضع على رأسها شريطاً من الورق الوردى ، اتضح بعد تفحصه أنه ريشة ملونة . ولا أظن أنها قد رأت الصورة الواردة فى تلك القصة .

كان البحث الذى قرأه ماك تى يوم الأحد شيقاً . ولقد لاحظ ماكنزى بعد ذلك أن نظرية هيجل عن العقاب شىء مختلف ، واستمر ماك تى بكل بساطة فى ابتسامه ولا أعرف من منهما كان مصيباً ، ولكنى لم أر ماك تى صامتاً مثلما رأيته هذه المرة . وكان من المضحك جداً أن ترى تروتر يتبعه إلى الغرفة ، يقلده فى تواضع . وكان يبدو عليه أنه « مطبق الجفون فى قطن أبيض » (هل تذكر شخصية الصديقة فى « الناقد » ؟)[١] .

حدثت لى نادرة مضحكة مع الخادم فى الليلة التى رحلت فيها . كنت فى حجرة نومى ، فسمعت صوتاً خافتاً ينادينى فقلت : « ماذا ؟ » فقالت : فى صوتها الباكى : « أليس هذا محزناً ياسيدى » . فقلت : « ماذا ؟ » (وقد ظننت أن مسزايلتون رزقت بتوأمين أخيراً) — « بخصوص منضدتك ياسيدى » . — « ماذا حدث ؟ » « ألم يدهشك أن تجد جناح المنضدة مازال مطوياً يا سيدى » ؟ « طبعاً ! ولماذا هو هكذا؟ » — « ألم يخبرك السيد ياسيدى ؟ » « أى سيد ؟ ماذا حدث ؟ » .

---

(١) شخصية فى مسرحية شريدان المسماة « الناقد » .

والحكاية أنها كانت قد كسرت جزءاً من الخشب ، فى اللحظة التى أحضر فيها تومى بوث غليوناً لى . أليس من الغريب أنها لم تستطع أن تخبرنى مباشرة . إنى آمل حينما تموت زوجتى ، أو يحدث أى شىء من هذا القبيل ، أن يكون هناك من يمكن أن يجعل آلامى مضحكة بمثل ذلك الحزن المبالغ فيه. فأنا لا أهتم أبداً بما يحدث فى غرفتى . ولا يمكننى مقاومة عطف مسز روبر.

لقد ظهر كتاب أوزوالد سيكرت أخيراً ، وأرسل لى نسخة هذا الصباح . والكتاب مهدى لى ، مما يجعلنى فخوراً جداً – وقراءته أسهل من قراءة المخطوط. وأعتقد أنه رائع .

سوف نعقد اجتماعاً كبيراً آخر يوم السبت القادم . وسوف يأتى مايور ، وتريفى وثيو لسماع محاضرة مور. وأستطيع أن أقول إننى سوف أكتب لك عنها . أظن أن هذا هو كل ما عندى من أخبار فى الوقت الحاضر ، كما أن الساعة قاربت الثانية عشرة .

نعمت مساء

ا.هـ. (مارش)

كلية ترينتى ، كامبردج

٢١ من نوفمبر ١٨٩٤

عزيزى رسل

لقد عدت لتوى من حفل موسيقى غريب – ليس لأن له وصفاً خاصاً ، ولكن لأن العازفة الأولى – وهى من ذلك الصنف النحيل من النساء الذى نراه بين العازفات ، والذى يشبه أصحاب الحرف (ولك أن تقول إنها تشبه القرود فهى قردة حقاً) – صدتنى عن تتبع الموسيقى إذ حاولت أن تعزف كما يعزف البشر ، وإن لم تنجح تماماً . وبالرغم من أن عزفها كان جيداً مما يتفق ونتيجة تطور قريب إلا أن ذلك منعنى من أن أستمتع بالموسيقى. وكانت الشخصية التالية هى شخصية المغنية – وهى فى منتصف

العمر ، ويبدو أنها كاريكاتير لما كانت عليه سابقاً . ولقد اعترفت بأمر من الأمور التي لا تسمع إلا في صالة عزف ، بشأن سلوكها حينما كانت في حالة سكر ذات يوم ، فقد أخذت أحد الرجال بين ذراعيها — أتذكر ليلة أن ثملنا وتعانقت أذرعنا ؟ وقد قالت كونيير إنها إذا كانت ثملة فهي الآن في ملابس السهرة — وكانت انحناءتها الكبيرة في النهاية تستحق التطلع .

متى كتبت لك آخر مرة ؟ أسمعت عن بحث مور عن الصداقة ؟ ليس هناك ما يستحق الذكر بالنسبة لهذا البحث حيث إنه عبارة عن ذكر لكل مواصفات مثله الأعلى لا أكثر ولا أقل ، دون أي تطبيق عملي . وبالطبع سخر الحاضرون كالعادة بموضوع الجماع ، حينما جاء ذكره . ويخيل للإنسان من الطريقة التي يتحدث بها الناس عن الجماع أنه شيء أشبه بقانون الحكم الذاتي ، الذي يجد اهتماماً ، وفي نفس الوقت يظنه الجميع شيئاً يبعث على الملل. ولقد كانت المناقشة ممتعة . حضر تريفي ، ومايور وثيو . ولقد أعطى مايور ثيو الفرصة لأن يقول إنه لم يتوقع له أن يصل إلى قمة الشهرة وهو بعد في منتصف العمر . وقد « افترق » مايور عن الجماعة . وكان مود من بين الحاضرين وقد تكلم هو وثيو كلاماً حسناً[1] .

ولقد قرأ ماك تي بحثاً قديماً يوم السبت الماضي بعنوان « لماذا تذوي أوراق الورد » يبحث عن أصول الشر . ولم يكن البحث مرضياً تماماً ، فمن ناحية ، غيّر ماك تي موقفه منذ أن كتبه . ومن ناحية أخرى كان مما يبعث على الضيق أنه لم يكن هناك أحد سواه على دراية بالجدل — وكان شعوري هو شعور إنسان في محاضرة من محاضرات الخدمة العامة . وسوف يقرأ سانجر بحثاً عن ماهية التعليم يوم السبت القادم . وسوف يكون كرومبتون حاضراً .

---

(١) ملحوظة : كان مايور وثيودور دافيز معاصرين لبعضهما . ولقد كان مايور أحسن باحث في الدراسات الكلاسيكية هذا العام ، وتلاه ثيودور . و « افترق » معناها التخلف عن حضور اجتماعات الجمعية ، وهو شيء يحدث عادة في العام الخامس أو السادس للعضو . ولقد أصبحت مس شتاول دارسة ممتازة للأدب الكلاسيكي .

اليوم جاءت الليدى تريفى لزيارتنا . وإنى أحبها كثيراً لمرحها وحيويتها . قابلت شخصية جذابة يوم الأحد ، الآنسة شتاول ، وقد تفضل ديكنسون بدعوتى لمقابلتها . وأعتقد أنها تمتاز بالسمو حقًّا — ولها شعور مرهف بالنسبة للجمال فى الفن . وآمل أن أراها ثانية . وكانت أخت مايور من بين المدعوين أيضاً وكانت عادية نسبيًّا ومستهترة . ومن الطريف أننى أرى فيرول كثيراً هذه الأيام (وأنا أذهب إليه لنكتب سويًّا) وقد سألته منذ أيام عن شىء فى شيللى كان علينا أن نترجمه — فقال : « أنا واثق أننى لا أستطيع أن أخبرك ياعزيزى الصغير ، فأنت تدفع ، وتأخذ ما يحاولك » . ومثل هذا الشىء يسرنى .

إن اليوم يقترب بسرعة الآن ، أليس كذلك ؟ يالها من فكرة رائعة . لا تنس أن تخبرنى عن جدتك[1] حينما تكتب لى .

المخلص

ادوارد م (مارش)

أشكرك على الصورة . إنها جيدة على العموم برغم أنك تبدو متعجرفاً .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

١٦ من سبتمبر ١٨٩٤

عزيزى برتى

لا أستطيع أن أقول إن خطابك الثانى قد أصابنى بخيبة أمل كبيرة ؛ لأن قولك ، فى خطابك الأول : إنك « تنوى » أن تقوم بكذا وكذا قضى على الأمل فى أن تبحث عن حل آخر . وأنا بطبيعة الحال أشعر بأسى كبير كما ستشعر أنت وعمتك ؛ وخطاب عمتك يدل على أنها لا تظن أبداً أنك تزمع أن ترحل عن الوطن هذا الشتاء ، غير أن هذا لا يهم[2] . ولا بد أن تفعل ما تراه الأفضل ، ويجب على أن أتذكر قول الشاعر :

---

(١) كان موتها متوقعاً فى ذلك الشتاء .

(٢) إشارة إلى أنه من المحتمل أن تموت خلال فصل الشتاء .

وإذا ما أدبرت أحلامك واحداً بعد الآخر
فلا تكن إلا رابط الجأش

حقاً إن أحلامى فى الآونة الأخيرة كانت تمضى عنى فى تتابع سريع — ولكنى حين أذكر سعادة « دنروزيل » ، والكمال الإنسانى الذى لأجاثا ، وحين أفكر فى طيبة قلب أولادى وأولادهم ، وفى أصدقائى المخلصين ، أشعر أن الحياة مازالت جميلة ، وهو شىء لا يسعنى إلا أن أشكر إلهى عليه ، فى آخر أيامى . وبالنسبة لك ياصغيرى العزيز ، فليس لى إلا أن أتشبث بالأمل ، برغم أن العثور على الطريق المؤدى إلى الأمل ليس بالشىء الهين . هل قمت بزيارة الأشخاص الذين أخذت لهم خطابات توصية من البارونة ؟ لقد استفسرت عنك بالأمس . لقد رحل آل واربرتون وعادت لوتى ، عزيزتى الرائعة لوتى . وأنت تعرف ماذا يعنى وجودنا ، هى وأنا ، معاً . يسرنى أنك ترتاح لمستر دودسون وأعتقد أن مستر هاردنج شخصية محبوبة ، وإلا لما دعاه اللورد « دافرين » « صديقاً عزيزاً » لم أتخيل أن يكون اللورد ترنس لطيفاً للغاية — ويبدو لى أن أبناء اللورد دافرين مخيبون للآمال . ولا يمكن للمرء بطبيعة الحال أن يتوقع أن يكون لكل الناس الذين تجمعه بهم الظروف نفس اهتماماته ، غير أنه يجيد صنعاً لو شاركهم اهتماماتهم . وإنى لآمل أنه بمرور الوقت وبمعرفتك لعدد أكثر من الناس تصبح باريس أكثر إمتاعاً لك ، ففيها الكثير مما يدخل البهجة على النفس . وسوف يسرك أن تسمع الكثير عن عمتك . اليوم هو يوم الأحد — وهو مقيت لأنى لا أتسلم فيه خطابات . روللو يقترح أن يحضر هنا فى العشرين من هذا الشهر ، بعد أن ترحل لوتى[1] ولسوف يحضر معه آرثر وليزا — فيبقيان عشرة أيام — وهذا بالنسبة لى فرح أنتظره بصبر نافد .

وداعاً يا صغيرى العزيز ، وليباركك الله .

المحبة
جدتك

---

(١) شقيقتها ، الليدى تشارلوت بورتال .

خطاباتى هذه لك وحدك — وتذكر أننى أريد أن أكون واثقة تماماً من أنك سوف تستفيد من تجربتك الألمانية ، الخاصة بدراستك .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

٩ من أكتوبر ١٨٩٤

صغيرى العزيز برتى

يسعدنى أن العمل الذى تقوم به فى السفارة يتزايد . ولقد تنبأت بذلك ، نسبة للتوتر — وأظن أن هذه هى الكلمة الدبلوماسية — بين إنجلترا وفرنسا ، وأعتقد أنه عمل أكثر تشويقاً من غيره . إنى آمل وأرجو أن يتحسن سلوك الدولتين وفى هذه الحالة سوف يصبح من الممكن المحافظة على السلام والنية الحسنة . ويخيل لى أن حكومتى البلدين يهمهما ذلك وأنا سعيدة جدًّا لعودة مستر أوستن لى — وهو رجل يستحق أن يتعرف به الإنسان .

فى هذا الوقت — تبعاً لما يقوله آل دستودنل — يعود عدد كبير من أصدقائهم إلى باريس . وإنى فى شوق لأن أسمع عن علاقتك بأهل العلم ، والسياسة ، والموسيقى ، وغيرهم من الشخصيات الجذابة الذين حملت لهم خطابات توصية . .

يا طفلى العزيز ، لا يجب أن تتمنى للوقت أن يمر بسرعة أكثر من السرعة التى يمر بها . فلم يتبق لنا منه إلا القليل لكى نقوم بما يجب علينا أن نقوم به . وأنا أفهم بالطبع ، كما يفهم أى إنسان ، أنك تأسف حتى على هذا الفراق القصير — ولكنك قد لا تعلم أنك لوكنت قد بقيت فى إنجلترا تعيش نفس الحياة التى كنت تحياها ، لفقدت تقدير الكثيرين الذين يتمنون لك الخير بأسمى معانيه ، والذين يهتمون بنا ويعرفون أفكارنا ومشاعرنا — إنك فى الحقيقة قاسيت كثيراً ، وقد قاست هى أيضاً . ولقد شعرت أن قيامك بعمل فى الخارج هو الفرصة الوحيدة التى تمنع زيادة اللوم . إنك إذا تزوجتها قبل أن تكون قد تعلمت أن تعرف إنساناً آخر ، فأنا أتمنى من كل قلبى ألا

يكون لذلك أى تأثير سيئ . ولقد كتبت لى مرة ياطفلى العزيز ، أنك كنت تحلم بى باستمرار أثناء الليل وتفكر فى أثناء النهار ، وكنت تتساءل عن الوسيلة التى تجعلنى أكثر سعادة بك . ولقد فكرت فى بعض الأحيان أن أدون على الورق ما جعلنى أنا وعمك وعمتك غير سعداء – بالترتيب الزمنى للأحداث – لكى أساعدك ، حتى الآن ، على أن تزيد من سعادتنا . فهل أفعل ذلك ؟ ليس هناك شىء أتمناه من كل قلبى أكثر من أن تكون عندى الأسباب التى تجعلنى أحب الفتاة التى تتزوجها إذا امتد بى العمر ورأيتك متزوجاً . أنا فى صحة لا بأس بها – إذ لا يبدو تقدم هناك – ولهذا تجدنى ما أزال قادرة على أن أفعل الكثير كالمعتاد ، اللهم إلا التنفس فى الفراش – مما يسبب لى بعض الضيق ، ولكن ليس هناك ما يسمى ألماً .

إذا كتبت لعمتك فلا تقل عنى إلا أننى فى صحة جيدة .

المحبة

جدتك

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

٢٣ من أكتوبر ١٨٩٤

عزيزى برتى

أسعدنا خطابك الذى أرسلته إلى تات [(١)] وإن كنا قد شعرنا بالأسى لأن أحداً لم يهتم ببطاقاتك . لا بد وأن تكون النزهة فى غابات بولونيا على الدراجة ممتعة جداً . وأعتقد أنك تذهب بمصاحبة الآخرين . لم تخبرنا أن اللورد دافرين قد وصل . ولا بد أن يكون قد فعل كما تقوله الصحف . من المؤسف حقاً أنك لم تتمتع بزيارة فرانك ، وأظن أنه ذهب إليك بدافع من طبيعته الخيرة حينما قلت له إنك تشعر بالوحدة ، ولكننا نفهم قصدك تماماً . إنى أشعر الآن بتحسن

---

(١) العمة أجاثا .

وآمل أن يستمر التحسن — من أجل أجاثا على وجه الخصوص ، إذ أنها ليست على ما يرام ، وتضطر إلى البقاء فى فراشها حتى ساعة متأخرة . وقد تركتنا العزيزة إيزابل (مسز إربرتون) بالأمس ، وتركت زيارتها الممتعة فى نفوسنا أثراً كبيراً بالرغم من أننى كنت مريضة معظم الوقت . وهى عطوفة جداً . دارت بيننا محادثات كثيرة جادة ناقشنا فيها موضوعات ذات أهمية . إنك لم ترد مطلقاً على خطابى قبل الأخير . وكنت أعتقد أنه سوف يعجبك ، ولكنى لن أثير الموضوع الخاص بك وبالآنسة ب . س . — فالكتابة فيه غير سارة — إلا لأقول : إن رفضها مقابلتى يجعل كل شيء صعباً بالنسبة لى فهذه هى المرة الأولى ، خلال حياتى الطويلة ، التى يحدث لى فيها شيء من هذا القبيل . ولا أعتقد أن هذا فى مصلحتها ، بالرغم من أننى ، من أجل خاطرها ، آخذ الأمر بما فى استطاعتى من هدوء : لقد كانت فى منتهى الطيبة ، وشكرتنى عندما قلت لها عدة مرات ، بسبب اهتمامى بها ، عن الخطأ الذى أظنه بادر منها . كما كانت دائماً لطيفة فى زياراتها المختلفة لى بعد ذلك ، وكنت أشعر بسعادة متزايدة ، وآمل أن نجدها أهلا للحب الذى كنا على استعداد كبير لأن نهبه لها ؛ ثم حدث التغير المفاجئ الذى لم يكن فى الحسبان ، ولا يسعنى إلا أن أحزن حين أعرف أن الفتاة التى تحبها ترفض أن ترانى ، ولذلك لن يمكننى أن أزداد معرفة بها ، حتى لو عشت أكثر مما هو مقدر لى . ومع ذلك فلن يطول ألمى هنا على الأرض ، وأنا الآن أحاول ألا أفكر فى هذا كله ، وهو من الواجب على ، حيث إنه يبدو أن للمتاعب العقلية بالذات تأثيراً سيئاً على هذا النوع من المرض الذى ألم بى . باركك الله ياولدى وإنى أدعو لك من قلبى .

المحبة دائماً

جدتك

بمبروك لودج
ريتشموند ، سرى
٣٠ من أكتوبر ١٨٩٤

عزيزى برتى

حالة جدتك تزداد سوءاً مرة ثانية — ليالٍ سيئة ، وألم ، وضعف . وهى تلازم الفراش اليوم — كما كانت بالأمس . بطبيعة الحال لا يمكنها أن ترى خطاباتك ، وإن كنت قد أخبرتها بها . ولقد رأت من مدة طويلة خطاب أليس الذى أرسلته لها ، وأظنك تذكر أنها قالت فى خطابها لأليس إنها تمنت ذات مرة أن تعبر عن شعورها بالنسبة لما قررت أنت أن تفعله — ولكنها صرفت النظر عن ذلك . أعتقد أنك سوف تمر بنا فى طريقك إلى كامبردج ؟ أخبرنى بذلك فى الحال . وأنا متأكدة أن جدتك ممنوعة بأمر الطبيب من أن تتكلم فى موضوعات تثير ألمها ، ولن أتكلم أنا أيضاً ، بطبيعة الحال . ولقد قالت كل مالديها من مشاعر ، وما كان من واجبها أن تقوله لاهتمامها بك وبأليس . عزيزى برتى ، لا أستطيع أن أستمر فى الكتابة ، لأنى أشعر باكتئاب شديد وأنا أراها تقاسى . ومما يسبب لى ألما لا يطاق ، أنك تظن أننى كنت قاسية ، وأنه لا عطف عندى . فإذا حدث أن كان لكلماتى هذا الأثر فيجب أن تذكر ، كما سوف تعلم ذات يوم ، أنه لم يكن فى قلبى إلا الحب ، وأنه لم يمنعنى من الصمت المطلق إلا الحب ، لأن التكلم كان بالنسبة لى أكثر إيلاماً مما تفهم الآن .

المحبة
عمتك

بمبروك لودج
ريتشموند ، سرى
١٩ من نوفمبر ١٨٩٤
عزيزتى أليس

لقد ذكرنا رولاو أن الرابع عشر من ديسمبر كان يوم وفاة الأمير ألبرت ، والأميرة أليس ، وتبعاً لموقفنا من الملكة ، فإننا نشعر جميعاً بأننا لا نحب أن يكون الزفاف فى ذلك اليوم . وأنا واثقة من أن هذا التنويه لن يضايقك . ما رأيك فى الخامس عشر من ديسمبر ؟ إننا لم نفهم جيداً سبب الاعتراض على هذا اليوم . أرجو أن تكونى أنت و برتى قد تمتعتما بزيارتكما لشارع دوفر .

المخلصة

أجاثا رسل

بمبروك لودج
ريتشموند ، سرى
١٠ من ديسمبر ، ١٨٩٤
ولدى العزيز

حيث إن صوتى يخوننى كلما حاولت أن أتكلم عما سوف يحدث ، برغم أنه ، بالنسبة لك ، حدث ملىء بالسعادة ، فمن الطبيعى أن أكتب لك كلمات وداع قليلة . وعلى وجه الخصوص فى ذكرى يوم من أسعد وأحب أيام السنة[1] — وهو الآن يوم حزين بقدر ما هو مقدس بالنسبة لى . لأن الذكريات التى يأتينى بها عن العزيز ، الرقيق ، النبيل ، جونى المحب ، الذى لم تمتحنه الأيام ، تجعلنى بطبيعة الحال أتجه بأفكارى إليك أنت الذى كنا دائماً نشعر أنه مازال لدينا أثر منه فى شخصك — وذكرياتى عنه هى ذكريات من الفرح الذى لا يمكن التعبير عنه ، والمختلط بالأسى والعذاب الذى لا يمكن احتماله ، وحتى

(١) عيد ميلاد والد رسل .

الآن وبعد أن مضى إلى حيث لا يوجد أسى .

فحينما طلب منى هو ووالدتك ، وهما فى أوج الصبا والصحة ، أن أعنى بك كولدى ، إذا ما وافاهما الأجل ، لم يكن ليخطر ببالى أن الأيام سوف تلزمنى بالوفاء بالوعد الذى قطعته لهما . غير أن اليوم حان بعد قليل . وأصبح بيتك خاوياً. وجئت إلينا فى بيتنا المظلم عوضاً عنه وكنت بريئاً غير واع بشىء . ولقد كنت لنا نحن الثلاثة كفلذة كبدنا . وارتبطت حياتك بحياتنا . بل إن مصلحتك هى التى شكلت ونظمت حياتنا . وصرت ، وأنت تنمو قلباً وعقلا ، رفيقنا كما أنت ولدنا . وإنى لأذكر ، بامتنان عميق ، كيف أنك كنت طوال فترة طفولتك وصباك ، تضحى برغباتك ، عن طيب خاطر ، أمام رغبات الآخرين ، ولم تكن لتحاول أبداً أن تختلق الأعذار إذا أخطأت ، وكنت تتلقى اللوم أو التأنيب بنفس الامتنان الذى كنت تتلقى به الثناء .لقد وثقنا فيك، وكنت أهلا لهذه الثقة ، وعمت السعادة والحنان .

وجاءت الرجولة ، وجلبت معها من الأسباب الجديدة ما جعلنا نمتدح حياتك الجامعية النبيلة الكريمة . غير أن الرجولة تجلب أيضاً الفراق والتغيير . وأنت تتركنا الآن لحياة جديدة وبيت جديد ، ولروابط وعواطف جديدة . غير أن سعادتك وصالحك ما يزالان هما سعادتنا وصالحنا ، ولسوف يبقى إلهنا إلهك . وإنى لأدعو بأن تأخذ معك ما كان حسناً فقط ، وأن يغفر الله لك ما كان سيئاً ، فى ما ضيك الذى لن يعود . وأدعو أن يوحى لك سبحانه وتعالى بالأفكار المقدسة ، والمقاصد النبيلة . وأرجو أن تذكر أن القلوب الأثيرة عنده هى فقط القلوب المتواضعة التى يملأها الحب . وأرجو أن يكون هكذا قلبك دائماً ، وقلب تلك التى سوف ترافقك فى رحلة الحياة .

باركما الله ، ووهبكما النور ، حتى تجدا وتسلكا الطريق الذى يؤدى إلى دار النعيم .

ودمت ياولدى العزيز
المحبة جداً
جدتك

أما الخطاب التالى ، فقد كان آخر عهد لى بإدوارد فتز جيرالد . ولقد اشتهر كمتسلق جبال فى نيوزيلاند ، والأنديز ، بعد أن جعل ذلك مهربه من اليأس الذى لازمه إثر وفاة زوجته بعد شهور قليلة من الزواج . ولقد هرب بعد ذلك مع سيدة متزوجة ولم يبذل أى محاولة للاتصال بأصدقائه القدامى .

كولومبو ، سيلان

١٨ من نوفمبر ، ١٨٩٤

عزيزى رسل

أرسل لى كلمة من وقت إلى آخر ، كى تخبرنى عن أحوالك ، وعن موعد زواجك .

توقفت هنا ، لفترة قصيرة كى أرى المكان . ولقد زرت منذ أيام آنوراد هابورا وفوكارايا نكولام (لا تحاول أن تنطق بهذا الاسم ، إنى أجده أردأ من الثعابين) حيث تمتعت بصيد الحيوانات . ولقد كانت البلدة ، بالرغم من ذلك غارقة بالماء ، ومليئة بالحمى ، ولكنى لم أشعر بذلك بالرغم من أننى نمت فى العراء ليالى كثيرة ، وفى الضباب ، وابتلت ملابسى تماماً . وأنا هنا أنشد السرور ، ولن أعود إلى إنجلترا قبل ثلاث سنوات على الأقل . وفى نيتى أن أزور اليابان ، وأن أتسلق الجبال فى أمريكا الجنوبية قبل أن أعود .

أرسل لى كلمة حينما تجد فى نفسك الرغبة فى الكتابة ، حتى أكون على علم بتنقلاتك . ولسوف أكتب لك من حين إلى آخر ، حينما أشعر بالرغبة فى الكتابة ، وهو كما سوف تقول ، شيء نادر . أظنك رأيت سكن أوستن الجديد فى طريق هوتشا ؟

سوف أنهى الآن هذا الخطاب

المخلص دائماً

ادوارد ا. فيتزجرالد

الفصل الخامس

الزواج الأول

تزوجت من أليس فى ١٣ من ديسمبر ١٨٩٤ وكان أهلها من الكويكرز (مذهب المرتعشين وهو أحد المذاهب البروستانتية يلغى القساوسة تماماً ويجيز لأى رجل تحل عليه الروح أن يقوم بالوعظ. وهم يحرمون الحرب وأى نوع من أنواع العنف كما يحرمون الخمر والتدخين وكثيراً ما يبكون أثناء الصلاة) . وقد أقام أهلها أكثر من مائتى سنة فى فيلادلفيا . وكانت أليس يومئذ لا تزال عضواً عاملا فى «جماعة الكويكرز»[1] ولذا فقد تم زواجنا فى اجتماع للكويكرز فى سانت مارتنز لين بلندن . ويخيل إلى أنى أذكر أن واحداً من الكويكرز الحاضرين قد ألهمته الروح القدس أن يلقى موعظة عن معجزة قانا الجليل (وهى المعجزة التى حول فيها المسيح عليه السلام الماء إلى خمر) ، مما آذى أليس فى شعورها لأنها كانت من أنصار منع المسكرات. وفى أثناء خطوبتنا كنا نتجادل كثيراً حول المسيحية ولكنى لم أنجح فى تغيير معتقداتها إلا بعد شهور من زواجنا .

وكانت هناك موضوعات أخرى تغير رأيها فيها بعد الزواج . فقد نشأت ، شأن كل الأمريكيات فى ذلك الزمان ، على اعتبار الجنس مسألة بهيمية يجب أن تكرهها جميع النساء ، وأن شهوة الرجال هى العقبة الرئيسية فى سبيل السعادة الزوجية . ولذلك كانت ترى أن المعاشرة يجب ألا تتم إلا إذا كانت بقصد إنجاب الأطفال ، ولما كنا قد اتفقنا على ألا ننجب أطفالا فقد اضطرت لتغيير رأيها فى هذا الصدد ، ولكنها مع ذلك كانت ترى ألا نتعاشر إلا نادراً ولم أعارضها ، إذ لم أر حاجة لذلك .

(١) تسمى أيضاً (جمعية الأصدقاء) .

لا هى ولا أنا كانت له أية خبرة سابقة عن العلاقة الجنسية بين الزوجين . ووجدنا شأن أمثالنا فيما يبدو ، شيئاً من الصعوبة فى بداية الأمر . لقد سمعت الكثيرين يقولون إن هذه الصعوبة كانت سبباً فى تعكير صفوشهر العسل ، ولكن هذا لم يحدث فى حالتنا . بل بدت لنا المصاعب التى قابلناها فى هذا الصدد مثيرة للفكاهة وسرعان ما تغلبنا عليها . ولكنى أذكر ، مع ذلك ، يوماً بعد الأسابيع الثلاثة الأولى من زواجنا ، كنت فيه منهكاً بعد العملية الجنسية ، فجعلنى هذا أكره زوجتى وأتعجب لم رغبت فى الزواج منها . وهذه الحالة النفسية لم تدم إلا بمقدار المسافة ما بين أمستردام وبرلين . وعدت بعدها إلى حالتى الأولى فلم أتعرض لمثلها ولم تتكرر معى بعد ذلك .

كان قد استقر رأينا فى أثناء السنين الأولى من حياتنا الزوجية على أن نعمل على زيارة بلاد أجنبية عديدة ، ولذلك قضينا الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٨٩٥ فى برلين حيث ذهبت إلى الجامعة ودرست علم الاقتصاد أساساً وعكفت هناك على إتمام الرسالة العلمية التى تؤهلنى للحصول على زمالة بكلية ترينتى بجامعة كامبردج . وكنا نذهب لسماع الموسيقى ثلاث مرات فى الأسبوع وبدأنا نتعرف على الديمقراطيين الاشتراكيين فى ألمانيا الذين كانوا يعتبرون يومئذ من المنحلين أخلاقيًّا . وكانت الليدى أرمنترود ماليت زوجة السفير من أبناء عمومتى ولذا دعتنى أنا وزوجتى للعشاء فى السفارة ، وكان كل رجال السفارة يعاملوننا بأدب ومودة وبخاصة الملحقون الذين وعدوا جميعاً بزيارتنا ولكنهم لم يبروا بوعدهم . وظللنا لا نرتاب فى شىء لمدة طويلة ، ولكننا تنبهنا فى النهاية إلى أن السبب فى سلوكهم هذا هو أن أليس ذكرت للسفير أننا ذهبنا لأحد اجتماعات الاشتراكيين ، وكان تنبهنا بعد خطاب من الليدى ارمنترود لجدتى لأمى . وعلى الرغم من أن جدتى كانت متحيزة ضد أليس إلا أنها فى هذه المسألة أخذت جانبها تماماً إذ كانت القضية قضية عامة وفى جميع القضايا السياسية العامة كانت جدتى وعمتى أجاثا من أولئك الذين يعتمد عليهم فى الانتصار للجانب الليبرالى المتحرر .

بدأت تطلعاتى الفكرية تتضح فى ذهنى . فقد آليت على نفسى ألا ألتحق بمهنة معينة وأن أكرس نفسى للكتابة . أذكر أننى ذات يوم صحو بارد فى بواكير الربيع ، تمشيت وحدى فى التيرجارتن (حديقة الحيوان) وأخذت أضع مشروعات للمستقبل وقررت أن أكتب سلسلة من الكتب عن فلسفة العلوم ابتداء من الرياضة البحتة إلى الفسيولوجيا أو علم وظائف الأعضاء ، وسلسلة أخرى من الكتب عن القضايا الاجتماعية . وكنت آمل أن تلتقى السلسلتان معاً فى مركب جديد ، علمى وعملى فى نفس الوقت . وكانت أفكار هيجل هى التى أوحت إلى حد بعيد بهذا المشروع . وقد انقدت لها بالفعل إلى حد ما فى السنوات التالية . وهذا ما كان متوقعاً فإن تلك اللحظة كانت هى اللحظة الهامة التى شكلت تفكيرى فيما يتعلق بأهدافى فى الحياة .

وعندما حل الربيع ذهبنا إلى فييسولى حيث استضافتنا أخت أليس وكانت تسكن فى فيلا صغيرة بينما كان يسكن بيرنسون[1] فى فيلا صغيرة مجاورة ، ثم تركناها وتابعنا السفر على الساحل الأدرياتى مارين ببسارو وأربينو ورافينا وريمينى وأنكوانا وأماكن أخرى كثيرة . وتعتبر ذكرى تلك الأيام من أسعد ما مر بى فى حياتى . ويكفى أن تتمثل ذكرى إيطاليا والربيع والحب الأول فى ذهن أى إنسان مهما كانت همومه لكى يستشعر السعادة . وكان من عادتى أنا وأليس أن نستحم فى البحر عريانين ثم نستلقى على الرمال حتى تجف أجسامنا ولكن هذا النوع من الرياضة كان محفوفاً بالمخاطر ، فإن رجل الشرطة إن عاجلا أو آجلا لا بد أن يحضر ليتأكد من أنه ليس هناك من يستخرج الملح من البحر . فقد كان فى ذلك مخالفة لقانون ينص على ضرورة دفع ضريبة على الملح المستخرج . ولكن لحسن حظنا أفلتنا من قبضة الشرطة .

وفى ذلك الوقت كان يتعين علىّ أن أفكر تفكيراً جديّاً فى الرسالة الجامعية التى تؤهلنى للزمالة ، وكان يجب أن أنتهى منها فى أغسطس ، ولذلك أقمت أنا وزوجتى فى فرنهرست وعكفت عليها وكانت أول تجربة لى فى عمل جدى فيه ابتكار . وكانت أيامى إذ ذاك تتراوح بين اليأس أحياناً والأمل أحياناً أخرى

---

(١) بيرنسون ناقد فنى معاصر .

ولكن ما أن انتهت الرسالة حتى أصبحت أعتقد اعتقاداً جازماً أننى نجحت فى حل جميع القضايا الفلسفية المتعلقة بأصول علم الهندسة . ولم يكن يخطر لى ببال إذ ذاك أن فترات الأمل واليأس التى تصاحب العمل الابتكارى متساوية فى كونها تخدع الإنسان ، وأن ما يبدو من العمل سيئاً فى أيام اليأس ليس بهذا السوء ، ولا ما يبدو من العمل جيداً فى أيام الأمل بهذه الجودة . وقد قرأ رسالتى العلمية هوايتهد وجيمس وارد فقد كانت الرسالة لها صلة بالرياضة من ناحية وبالفلسفة من ناحية أخرى . وقبل أن تعلن النتيجة رسمياً أخذ هوايتهد ينتقدها بشدة ، وكان على حق . وانتهيت أنا إلى أن الرسالة لا قيمة لها وأنه لاداعى لانتظار إعلان النتيجة . ومع ذلك رأيت من واجبات اللياقة والأدب أن أذهب لزيارة جيمس وارد الذى قال لى عكس ما أرى تماماً وامتدح الرسالة ورفعها إلى عنان السماء . وفى اليوم التالى علمت أنهم انتخبونى زميلا فى الجامعة وأخبرنى هوايتهد بابتسامة منه أن هذه هى آخر مرة يجد فيها إنسان ما مثالب خطيرة فى عمل من أعمالى .

إن فترة زواجى الأول تمثل فترة من السعادة الغامرة والعمل المثمر فى حياتى . فبعد أن تخلصت من المشاكل العاطفية انصرفت جهودى كلها إلى العمل العقلى . وفى أثناء السنة الأولى من زواجى قرأت قراءة مستفيضة فى الرياضيات والفلسفة على السواء وحققت قدراً كبيراً من الأصالة والابتكار . ووضعت الأساس لعملى فى المستقبل . كما أنى شاهدت بلاداً أجنبية . وفى فراغى قرأت قراءات جدية وخاصة فى علم التاريخ . وقد اعتدنا أنا وزوجتى أن نتناوب القراءة . وبهذه الطريقة قطعنا شوطاً كبيراً فى قراءة كتب التاريخ المعتمدة التى كانت تشمل أسفاراً عديدة . وأظن أن آخر كتاب قرأناه على هذا النحو كان كتاب تاريخ مدينة روما لمؤلفه جريجورفيوس . لقد كانت تلك الفترة أخصب فترات حياتى والفضل فى ذلك يرجع إلى زوجتى الأولى التى أشعر نحوها بالامتنان . وكانت زوجتى فى بداية الأمر عازفة عن فكرة المعيشة فى هدوء فى الريف ولكننى كنت مصمماً على ذلك لصالح العمل الذى كنت أقوم به . وقد أمدتنى هى كما أمدنى العمل بقدر من السعادة لم أكن بعده فى حاجة إلى المزيد ،

على أن الذى حدث فى واقع الأمر أن إقامتنا الفعلية فى الريف لم تمتد إلا لنصف سنة فقط بصورة منتظمة . وحتى فى خلال تلك المدة كانت كثيراً ما تخرج لإلقاء الخطب دفاعاً عن قضية إعطاء المرأة حق التصويت أو لدعوة الناس للكف بتاتاً عن شرب المسكرات . وقد تخليت أنا عن شرب المسكرات لكى أرضيها ثم ثبت على ذلك بحكم العادة حتى بعد أن زال الدافع الأصلى الذى حركنى فى البداية لاتخاذ هذا الموقف ولم أعد للشراب إلا بعد أن امتنع الملك عن الشراب فى الحرب العالمية الأولى ، وكان غرضه تسهيل عملية قتل الألمان ، ومن ثم كان يبدو كما لو كانت هناك صلة بين الدعوة للسلام والمشروبات الروحية.

فى خريف عام ١٨٩٥ وبعد اختيارى زميلا فى الجامعة ذهبت أنا وزوجتى إلى برلين مرة أخرى لكى نقوم بدراسة الديمقراطية الاشتراكية الألمانية . وفى تلك الزيارة كانت كل اتصالاتنا تقريباً بالاشتراكيين فتعرفنا إلى بيبل و الأخ الأكبر لليبنخت الكبير . أما ليبنخت الصغير الذى قتل بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة فقد كان فى ذلك الوقت مجرد صبى . ولا بد أننا قابلناه عندما كنا نتعشى فى منزل والده ولو أنى لا أذكر عنه شيئاً محدداً . وقد كان الديمقراطيون الاشتراكيون فى تلك الأيام ثوريين من النوع الملتهب ، وكنت أصغر سناً من أن أفكر فى حالهم عندما تئول إليهم السلطة . على كل حال لقد ألقيت عليهم، فى بداية عام ١٨٩٦ ، سلسلة من المحاضرات فى كلية الاقتصاد بجامعة لندن ، وكانت فى ذلك الوقت فى شارع جون بادلفى . وكنت فيما أذكر أول محاضر يقابلونه. وهناك تعرفت على و. ا. س. هيونز الذى أثر فى تأثيراً بالغاً منذ ذلك الوقت حتى عام ١٩٠١. وكان ينتمى لعائلة كاثوليكية فأحل الإمبراطورية البريطانية محل الكنيسة فى التوقير والتبجيل .

وكنت فى تلك الأيام أيضاً أشد حساسية مما صرت إليه فيما بعد . وعندما كنت أحاضر فى كلية الاقتصاد ، كنت أسكن أنا وزوجتى فى شقة رقم ٩٠ بأشلى جاردنز ، ولكنى لم أكن أستطيع العمل فى الشقة لأن صوت المصعد الكهربائى كان يزعجنى ولذلك كنت أمشى كل يوم إلى منزل والديها فى جروفنر رود

حيث كنت أقضى الوقت فى قراءة جورج كانتور ونقل خلاصة كلامه فى كراسة . وكنت أعتقد فى ذلك الوقت ، ولست على صواب فى هذا ، أن حججه كلها واهية ، ولكنى مع ذلك أتيت عليها بكل تفاصيلها الدقيقة. ونفعنى هذا فيما بعد عندما اكتشفت أن حججى وليست حججه هى التى كانت واهية .

وعندما أقبل الربيع استأجرنا كوخاً صغيراً من أكواخ العمال فى فرنهرست اسمه « ذى ميلهانجر » أضفنا إليه نحن غرفة استقبال حجمها لا بأس به وغرفتى نوم. وفى ذلك الكوخ قضيت كثيراً من أسعد أوقات حياتى ووقفت على معارف كثيرة كانت تهمنى ، ونال عملى الابتكارى من ثناء الثقات المختصين أكثر مما كنت أتوقع . وعندما كنت أحضر لدرجتى العلمية الأولى فى الجامعة لم أكن أعتقد أن قدراتى من الكفاءة بالدرجة التى اتضحت بها فيما بعد . وأذكر أننى كنت أتساءل هل يقدر لعملى أن يصل فى الجودة إلى عمل ماكتاجارت ، فقد كان هذا يبدو لى مثلا أعلى لا يمكن الوصول إليه تقريباً . وفى أثناء السنين الأولى من زواجى الأول ، أصبح هوايتهد بالتدريج صديقاً لى بعد أن كان مدرساً لى. ففى عام ١٨٩٠ ، وأنا فى السنة الأولى بجامعة كامبردج حضرت محاضراته فى علم الإحصاء . وكان يطلب من تلاميذه أن يذاكروا القانون رقم ٣٥ فى الكتاب المقرر ثم استدار نحوى وقال : « لا حاجة بك إلى استذكاره لأنك تعرفه بالفعل » وكنت قد كتبت رقمه فى ورقة الإجابة فى امتحان مسابقة الدخول قبل ذلك بعشرة أشهر . واستحوذ على مودتى بتذكره لتلك الواقعة .

وكان هوايتهد لا ينظر إليه فى إنجلترا إلا على أنه عالم فى الرياضيات ولكن أمريكا هى التى اكتشفت فيه الجانب الفلسفى . وقد اختلفت معه فى الفلسفة حتى أصبح التعاون بيننا مستحيلا وبعد أن رحل إلى أمريكا لم أعد بالطبع أراه. وأخذنا نتباعد فى الرأى تباعداً كبيراً أثناء الحرب العالمية الأولى عندما أعلن عدم رضاه عن موقفى لتمسكى بدعوة السلام . وكان فى خلافه معى حول هذا الموضوع أكثر تسامحاً منى. وإن مسئوليتى لتتجاوز مسئوليته فى أن هذه الخلافات التى نشبت بيننا قد أدت إلى توهين عرى الصداقة التى توثقت بيننا وقتئذ.

وفى الشهور الأخيرة من الحرب قتل ابنه الأصغر ولم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة فكان ذلك مثاراً لحزنه الشديد بحيث لم يتمكن إلا بشق النفس وبعد كثير من الصبر والتحمل من استئناف عمله . وقد كان لحرقة الأسى الذى استشعره بسبب فقده لابنه أكبر الأثر فى اتجاهه إلى الفلسفة وبحثه الدائب عن مهرب من الاعتقاد بأن عالمنا ليس إلا عالماً ميكانيكيًّا صرفاً . وكانت فلسفته عسيرة على الفهم جدًّا كما كان فيها الكثير مما لم أتوصل إلى فهمه قط . وكان يميل دائماً إلى فلسفة كانط [١] ولم أكن أحسن الظن بكانط . وعندما بدأ فى تكوين فلسفته كان واقعاً تحت تأثير الفيلسوف الفرنسى برجسون [٢] إلى درجة كبيرة كما كان مأخوذاً بالوحدة التى تجمع كثيراً من الظواهر فى العالم والتى بسببها، وبسببها فقط ، يمكن أن يكون للاستقراء العلمى معنى . وكان مزاجى الخاص يشدنى فى اتجاه معارض لاتجاهه . وأخشى آن أقول إن العقل وحده لا يمكن أن يدلنا أينا أقرب إلى الصواب . فأولئك الذين يفضلون مذهبه يقولون إنه يجلب لعامة الناس راحة البال فى حين أنى أنغص على الفلاسفة حياتهم ، وقد يرد المتشيع لى بأن مذهب هوايتهد هو الذى يروق للفلاسفة فى حين أن مذهبى يروق لعامة الناس ، ومهما يكن من أمر ، فقد اتخذ هوايتهد سبيلا مغايراً لسبيلى وإن كان الود قد بقى متصلا بيننا إلى النهاية .

كان هوايتهد رجلا متشعب الاهتمامات بشكل غير عادى وكانت معرفته الوثيقة بالتاريخ تثير إعجابى ودهشتى . وقد اكتشفت ذات مرة بمحض الصدفة أنه كان يقرأ فى فراشه كتاب باولو سارتى « تاريخ مجمع ترنت » وهو كتاب جاد جدًّا ويجرى على غير المألوف . ومهما يكن الموضوع التاريخى الذى تثار حوله المناقشة فقد كان دائماً يدلى بحقيقة عنه تنير بعض جوانبه ، كالربط مثلا بين آراء بيرك السياسية ومصالحه فى مدينة لندن أو العلاقة بين

---

(١) الفيلسوف الألمانى الكبير الذى قال إن جوهر الأشياء لا يمكن للإنسان معرفته وإن الإنسان يعرف قوانين العلم بالعقل النظرى ويعرف الخير أو كل ما لا يخضع للإثبات بالعقل العملى .

(٢) الفيلسوف الفرنسى صاحب نظرية الدافع الحيوى فى الكون .

هرطقة مذهب هوس (القائمة على عبادة الشيطان فى العصور الوسطى) وبين مناجم الفضة فى بوهيميا. وكان على جانب كبير من الفكاهة الحلوة كما كان فى غاية الرقة واللطف. وعندما كنت معه طالباً فى الجامعة، كان يكنى بالملاك لطبيعة وضعه، وإن كان الذين عرفوه فيما بعد يرون فى هذا مجافاة لما يحق له من التبجيل والتوقير. ولكن هذه الكنية كانت تناسبه فى ذلك الوقت. وقد كان أهله من مقاطعة كنت ومن رجال الدين منذ نزول القديس أوغسطينوس بأرض انجلترا. وكان يحكى لى بشىء من التفكه كيف أن جدى لأبى قد ذعر لانتشار الديانة الكاثوليكية فى انجلترا فحث أخت هوايتهد على ألا تتخلى قط عن كنيسة انجلترا. والذى كان يدعوه للتفكه أن احتمال تحولها عن كنيسة إنجلترا كان فى نظره بعيداً جداً. إن آراء هوايتهد اللاهوتية لم تكن شديدة التزمت ولكن شيئاً من هيئة القس كان يظهر فى الطريقة التى يعبر بها عن مشاعره وفى كتاباته الفلسفية المتأخرة. كما كان رجلا شديد التواضع، وكان أعظم ما يفخر به أنه هو المسئول عن الصفات المعيبة فيه ولم يكن يضيره أن يسرد حكايات عن نفسه تسىء إليه. أذكر أنه كانت هناك سيدتان فى كامبردج تبين أنهما أختان، وكانت تصرفاتهما تدل على أنهما قادمتان من كراوفورد، كما كانت آراؤهما فى الحقيقة تقدمية بل كانت جريئة، ولذلك كانتا فى طليعة كل حركة ترمى للإصلاح. وقد درج هوايتهد على أن يقص على سامعيه فى شىء من الأسى كيف أنه حين رآهما للمرة الأولى خدع بمظهرهما الخارجى فشاقه أن يصدمهما قليلا. ولكنه عندما تقدم لهما برأى فيه شىء خفيف من الجرأة كان ردهما: «أوه يامستر هوايتهد كم سررنا أننا سمعنا منك أنت بالذات هذا الكلام» وكانا يقصدان أنهما كانا يعتبرانه من أساطين الرجعية.

كانت قدرة هوايتهد على التركيز فى العمل قدرة خارقة تماماً. ففى يوم من أيام الصيف الحارة، عندما كنت مقيماً معه فى قرية جراتشستر المجاورة لكامبردج، جاء صديقنا كرومبتون ديفز فاصطحبته ليسلم على مضيفه. وكان هوايتهد جالساً يكتب شيئاً فى الرياضيات ووقفت، أنا وديفز أمامه على

مسافة لا تزيد على ياردة وشاهدناه وهو يملأ الصفحات صفحة وراء صفحة بالرموز الرياضية . ولكنه لم يحس بوجودنا قط ، وبعد برهة انصرفنا وقد تولانا شعور بالرهبة البالغة .

وقد درج الذين يعرفون هوايتهد معرفة وثيقة على أن يلحظوا فيه أشياء لم تكن تبدو لمن كانت علاقاتهم به سطحية عارضة نسبياً ، على أنه لم يكن فى الحقيقة من النوع الذى لا يهتز ولا يتأثر ، ولم يكن على التحقيق ذلك الوحش الآدمى المجرد عن إنسانيته الذى يطلق عليه اسم « رجل الفكر الخالص » فقد كان تعلقه بزوجته وأولاده تعلقاً قوياً فيه حرارة . وكان دائماً على وعى عميق بأهمية الدين ، بل كان فى شبابه الباكر على وشك التحول إلى الديانة الكاثوليكية الرومانية تحت تأثير الكاردينال نيومان . وقد أعطته فلسفته الأخيرة شيئاً مما كان يريده من الدين ، وكان كغيره ممن يلتزمون بنظام صارم فى حياتهم معرضاً لنوبات من الحزن التى تؤرقه فى وحدته ، فكان إذا خلا إلى نفسه يهمس بعبارات مهينة إلى شخصه جزاء على نواحى القصور التى كان يستنكرها . وكانت السنين الأولى من زواجه تظللها سحابة من القلق لافتقاره إلى المال . وعلى الرغم من أنه كان يضيق بحاله إلا أن ذلك لم يشغله عن عمله الذى كان يراه هاماً وإن لم يجر عليه مغنما .

وكانت لديه قدرات عملية لم تجد مجالا للظهور فى الوقت الذى كانت علاقتنا على أحسن ما تكون كما كانت لديه قدرة على الإدراك السليم تدعو للعجب ؛ فقد مكنته من أن يشق طريقه بسهولة وهو فى اللجان إلى درجة أدهشت أولئك الذين كانوا يرونه رجلا يعيش فى المطلقات ولا علاقة له بهذه الدنيا . وكان فى وسعه أن يكون إدارياً قديراً لولا عيب واحد فيه هو عجزه التام عن كتابة ردود على الخطابات التى تصله ، كتبت إليه مرة أسأله عن مسألة فى الرياضيات كنت فى أشد الحاجة إلى حل لها فى مقالة أعارض بها الفيلسوف الرياضى الفرنسى بوانكاريه . ولم يرد فكتبت إليه مرة أخرى ولم يرد أيضاً ، فاضطررت لإرسال برقية فلما ظل على صمته أرسلت برقية

أخرى لكى يرسل برقية فيها الرد على نفقتى ، وفى النهاية اضطررت للسفر إلى برودستيرز لكى أحصل على ضالتى المنشودة . وسرعان ما عرف أصدقاؤه تلك الخاصية فيه ، وفى المناسبات النادرة التى كان أحدهم يتلقى فيها خطاباً منه كانوا يجتمعون عنده ليهنئوه . وكان هوايتهد يبرر تصرفه بأنه لو ردّ على كل الخطابات التى تصله فلن يجد وقتاً للعمل الأصيل وأعتقد أن هذا التبرير من جانبه واف .

وكان هوايتهد معلماً من طراز نادر . فكان يهتم اهتماماً شخصيًّا بمن يعلمهم ويعرف نقط القوة والضعف فيهم ويستخرج منهم خير ما عندهم فلم يكن أبداً يضغط عليهم أو يهزأ منهم أو يتعالى عليهم أو يرتكب أى نقيصة تحلو لغيره من المعلمين وأعتقد أنه كان يولد فى نفوس الشبان المتفوقين الذين كان يتصل بهم حبًّا حقيقيًّا باقى الأثر .

وكثيراً ما كان هوايتهد وزوجته يقيمان معنا فى الريف كما كنا نقيم معهما فى كامبردج . وفى مرة أقمنا مع العميد مونتاجيو بتلر ونمنا على فراش الملكة آن ، ولكن هذه التجربة لم تتكرر لحسن الحظ .

كانت محاضراتى عن الاشتراكية الألمانية قد نشرت فى عام ١٨٩٦ وكان أول كتاب لى ولكنى لم أهتم به كثيراً لأنى كنت قد صممت على أن أكرس نفسى للفلسفة الرياضية . وعاودت كتابة الرسالة التى تقدمت بها للجامعة ودفعت بها إلى مطبعة جامعة كامبردج فقبلتها للنشر ونشرتها بالفعل فى عام ١٨٩٧ تحت عنوان (مقالة فى أسس الهندسة) وأصبحت فيما بعد أرى تأثير كانط فى ذلك الكتاب فوق ما كان يجب أن يكون ، ولكن كان من حسن الحظ بالنسبة لسمعتى أن أول كتاب لى فى الفلسفة لم يؤلب علىّ الرأى العام فى ذلك الوقت . فقد جرت العادة فى الدوائر العلمية إذ ذاك على أن يصموا معارضى كانط جميعاً بأنهم لم يفهموه وكان من المزايا أن أوافقه ولو مرة واحدة لأتخلص من هذه الوصمة . ولقى كتابى ثناء عاطراً ، أكثر بكثير مما يستحقه . ومنذ ذلك الوقت درج الأكاديميون الذين استعرضوا كتبى على أن يقولوا إن كل كتاب صدر لى إنما يمثل هبوطاً عن سابقه .

وفى خريف عام ١٨٩٦ ذهبت أنا وأليس إلى أمريكا لقضاء ثلاثة أشهر وخاصة لأتعرف على أقاربها وكان أول ما فعلناه أن زرنا بيت الشاعر الكبير والت هويتمان[1] بولاية نيوجرسى . ومن هناك ذهبنا إلى مدينة صناعية صغيرة اسمها ملفيل حيث كان يقيم أحد أبناء عمومتها واسمه بوند توماس . وكان مديراً لأحد مصانع الزجاج التى تملكها العائلة . وزوجته وهى إيديث من أعز صديقات أليس . وتعداد السكان فى مدينة كامون ١٠٠٠٢ نسمة ولذلك شاع أن الاثنين الزائدين عن العشرة آلاف هما بوند وزوجته . وكان إنساناً بسيطاً أما زوجته فكانت لها أطماع أدبية وكانت تكتب مسرحيات رديئة على نمط الكاتب الفرنسى سكريب . وكانت تتصور أنها لو خرجت من ملفيل واتصلت بالشخصيات الأدبية الكبيرة فى أوربا فإنها ستصبح معروفة فى الوسط الأدبى ويعترف لها بالموهبة . وكان زوجها شديد التعلق بها ، ولكن كان يطيب لها أن تغازل من الرجال من تعتقد أنهم من طينة أحسن . وكانت المنطقة المحيطة بمنزلها فى تلك الأيام أرض غابات خالية من الزرع . فكانت تستقل معى عربة تجرها الخيول وتقطع بى مسافات طويلة على ممرات من الطين . كما كانت تحمل معها دائماً مسدساً وتقول : (من يدرى ؟ لعلى أحتاج إليه) . وقد دفعتنى الحوادث فيما بعد إلى الاعتقاد بأنها كانت تقرأ هيدا جابلر (مسرحية إبسن) . وبعد مرور سنتين جاءت إيديث وزوجها للإقامة معنا فى قصرنا بالبندقية . وقد قدمناها لعديد من الكتاب واتضح أن العمل الذى أنجزته فى خلال السنوات العشر التى قضتها فى عزلتها بملفيل لم يكن يساوى شيئاً . وعادت إلى أمريكا بعد أن فترت همتها وتقاعست تماماً وكان آخر ما سمعناه عنها أنها وضعت خطابات زوجها الغرامية على صدرها وأطلقت الرصاص فاخترق الخطابات إلى القلب . وقد تزوج بعدها بامرأة أخرى قيل إنها تشبهها تماماً .

---

(١) مؤسس مدرسة الشعر المنثور فى الأدب الإنجليزى وهى المدرسة التى تعرف بمدرسة الشعر الحر .

ذهبنا بعد ذلك إلى كلية برين مور للبنات لنقيم عند مديرة الجامعة وهى أخت بوند واسمها كارى . وكانت سيدة يعاملها جميع أفراد العائلة بما يشبه الرهبة ولها طاقة هائلة على العمل وإيمان بالثقافة كانت تطبقه بكفاءة رجال الأعمال كما كانت تكن لجنس الرجال احتقاراً عميقاً . وكان أول لقائى معها فى فرايداي هل . وكان لوجان قد قال لى قبل مجيئها : « استعد لاستقبال كارى » . وفى هذا تعبير كاف عن نوع معاملة العائلة لها . ومع ذلك فلم أستطع أبداً أن آخذها مأخذ الجد لأنها كانت سهلة الاستثارة وكان رأيها ، الذى يدعو إلى الإعجاب حقاً ، أن الشخص الذى يكتب فى موضوع أكاديمى يجب أن يفرغ أولا من قراءة المراجع المكتوبة عنه ، ولذلك توجهت إليها وأخبرتها بلهجة جادة تماماً أن كل التقدم الذى حدث فى علم الهندسة غير الإقليدية ، لم يكن بسبب الإحاطة بكل ما كتب قبل ذلك فى هذا العلم ، بل ربما كان سبب التقدم هو الجهل التام بما كتب . وقد دعاها ذلك أن تنظر إلى فيما بعد على أنى شخص يحب الهزل وليس له من هم إلا المعابثة . على أن عدة أحداث مختلفة جعلتنى أثبت رأيى فيها ، فعندما كانت معنا فى باريس مثلا أخذناها لزيارة الإيجلون . واكتشفت من ملاحظاتها أنها لم تكن تعرف أنه حدثت فى فرنسا ثورة عام ١٨٣٠ فأعطيتها إلمامة قصيرة عن تاريخ فرنسا وطلبت إلى أن أرشح لها الكتاب الذى أراه . ومع ذلك كله فقد كانت فى برين مور أشبه بالإله زيوس وكان الجميع يرتعدون فرقاً أمامها . وكانت تقيم مع صديقة لها هى مس جوين ؛ كانت على النقيض منها تماماً . إذ كانت هذه ضعيفة الإرادة رقيقة المعشر تميل إلى الكسل وكان لها ولع حقيقى بالأدب وإن كانت نظرتها إليه ضيقة . وكانت هى وكارى صديقتين منذ الشباب الباكر وذهبتا معاً إلى ألمانيا للحصول على الدكتوراه ولكن لم تحصل عليها إلا كارى . وقد أقمت أنا وزوجتى معهما فى ذلك الحين ولكن تخلخلت عرى الصداقة بيننا بعض الوقت . وكان من عادة مس جوين أن تذهب لأهلها ثلاثة أيام فى كل أسبوعين . وفى اللحظة التى ترحل فيها هذه المرة من كل أسبوعين كانت تحل محلها أخرى

اسمها مس جاريت ثم ترحل فى نفس اللحظة التى تصل فيها مس جوين . وفى تلك الأثناء وقعت مس جوين فى غرام شاب نابه جداً اسمه هودر ، كان يقوم بالتدريس بالكلية . وأثار هذا غضب كارى ، وكنا فى كل ليلة ونحن نتوجه للفراش نسمعها وهى تؤنب مس جرين لساعات طويلة فى الغرفة المجاورة . وكان هودر هذا متزوجاً وله طفل وكان يقال إن له علاقات غرامية مع بنات الجامعة . وعلى الرغم من كل هذه المعوقات فإن مس جوين استطاعت فى النهاية أن تتزوج من هودر وأصرت على أن يتولى عقد القران قس من كنيسة أقرب ما تكون للكاثوليكية حتى يعتبر زواج هودر السابق من زوجته القانونية لاغياً بحكم الدين . وكان هودر قد أشاع أنه طلق زوجته السابقة ، ولكن ما لجأت إليه مس جوين من إجراءات دينية أوحى بأنه لم يكن هناك طلاق ، لأن الزواج السابق غير معترف به . وقد مات هودر بعد الزواج مباشرة ، قضت عليه حياة العربدة التى كان يعيشها. وكان يتمتع بعقلية لامعة ، وإذا ما ابتعد عن النساء كان يمكنه أن يتحدث بشكل لذيذ مشوق جداً .

وعندما كنت فى برين مور ألقيت محاضرات عن الهندسة غير الإقليدية، وألقت أليس عدة خطب فى ضرورة رعاية الأمهات بينما كانت فى أحاديثها الخاصة للنساء تحبذ العلاقات الجنسية غير المقيدة بالزواج . وأثار هذا فضيحة وطردنا تقريباً من الجامعة ، فغادرناها إلى بالتيمور حيث ألقيت محاضرات فى نفس الموضوع فى جامعة جونز هويكنز . وقد أقمنا هناك عند عمها الدكتور توماس والد كارى . وعائلة توماس عائلة غريبة الشأن . كان هناك ابن فى جامعة جونزهو يكنز ممتاز فى جراحة المخ ، وكانت هناك بنت اسمها هلين فى برين مور مصابة لسوء الحظ بصمم ، وكانت لطيفة عطوفاً كما كان شعرها أحمر جميلا جداً . وقد كنت مغرماً بها لعدة سنوات انتهت فى ١٩٠٠ . وقد سألتها مرة أو مرتين أن تقبلنى ولكنها رفضت وفى النهاية تزوجت من سيمون فلسكنر مدير معهد روكفلر للطب الوقائى . وقد اتصل الود بينى وبينها إلا أنى لم أكن أقابلها إلا نادراً فى السنين الأخيرة من حياتها . وكانت لها أخت ظلت متمسكة

بمذهب الكويكرز إلى النهاية . وكانت تشير إلى من لا يدينون بدينها باعتبارهم « أهل الدنيا » . وكان الكويكرز يستخدمون فى لغتهم ضمير المخاطب للدلالة على المفرد فيقولون « أنت » ولا يقولون « أنتم » كما جرت العادة فى الإنجليزية ، وكذلك كنت أنا وأليس فى حديثنا . وبعض معتقدات الكويكرز كانت تبدو غريبة لأولئك الذين لم يعتادوها . أذكر أن أم زوجتى كانت توضح لى أنها نشأت على الاعتقاد بأن « الصلاة الربانية » كما يسميها المسيحيون (أبانا الذى فى السموات) شىء يدعو للعجب . وكانت هذه الملاحظة تثير ارتباكى وضيقى فى أول الأمر ، ولكنها أوضحت لى فيما بعد أن كل ما يفعله غير الكويكرز يدعو أيضاً للسخرية ، ومن ذلك استخدام الجمل الشائعة الاستعمال التى أصبحت بمثابة الكليشهات ، ففى نظرها يجب أن تكون الصلاة من وحى الروح القدس . وكذا ما دامت (الصلاة الربانية) قد أصبحت جامدة كالكليشيهات ، فهى إذن تدعو للسخرية . وفى مناسبة أخرى قالت للجالسين إلى مائدة العشاء معها إنها ربيت على ألا تحترم الوصايا العشر ، وإن هذه الوصايا تدعو للسخرية أيضاً . ولا أدرى إن كان هناك كويكرز باقون على قيد الحياة يؤمنون بضرورة استلهام الوحى من الروح القدس ، بحيث لا يكنون احترامهم للوصايا العشر . والمحقق أننى لم أقابل أحداً من هؤلاء فى السنوات الأخيرة . ويجب ألا يتبادر إلى الذهن ، طبعاً ، أن الناس الذين يتخذون هذا الموقف ويعتمدون على الروح القدس مباشرة فى صلاتهم وأفكارهم وسلوكهم ، يكسرون الوصايا العشر فى واقع حياتهم . وهناك معتقدات شبيهة بهذه عند غير الكويكرز ، أدت إلى نتائج تثير التساؤل أكثر مما حدث مع الكويكرز .

أذكر أن أم زوجتى كتبت فى فصل من مذكراتها عن أصحاب الأطوار الغريبة الذين عرفتهم فى حياتهم شيئاً تحت هذا العنوان (التوحيد الإلهى هذا ليس إلا تعبيراً آخر عن الجماع) .

كان الانطباع الذى تركه فى نفسى اتصالى بعائلات الكويكرز العريقة فى فيلادلفيا أنهم جماعة صغيرة من الأرستقراطيين العجزة . فكان الواحد منهم

لا يبلغ التسعين إلا وقد كوّن ثروة كبيرة يتفاخر بها ، دون أن ينفق شيئاً منها بسبب البخل ، بينما يجلس أبناؤهم وهم فى الستين أو السبعين من عمرهم ينتظرون موتهم بفروغ الصبر . وأولئك الذين يتحلون بالاتزان النسبى بينهم كانوا فى غاية الغباء . كانت لأليس فى فيلادلفيا عمة ثرية عانس جداً وغبية جداً فى وقت واحد . وكانت تميل إلىّ بالفعل ، ولكنها كانت ترتاب فى أننى لا أومن بأن دم المسيح — دمه بالمعنى الحرفى للكلمة — هو الذى جلب الخلاص . ولا أدرى من أين جاءت شكوكها عنى فإن حديثى معها لم يتسرب إليه شىء من هذا القبيل على الإطلاق . وقد تعشينا معها فى يوم الشكران . فكانت على أشد ما تكون العجائز من شراهة فى الأكل . وقدمت وليمة تحتاج لمعدة من حديد . وعندما أوشكنا أن نرفع إلى فمنا أول لقمة نظرت إلينا وقالت : « فلنتوقف برهة ولنفكر فى الفقراء » ولعلها فيما يبدو قد اتخذت من هذه الجملة فاتحاً للشهية . وكان لها ابنا أخت يسكنان إلى جوارها ويخفان لزيارتها كل مساء ، وكانا يعتقدان أن الاثنين الآخرين اللذين فى أوربا لا يجوز أن يحصلا على نفس نصيبهما فى الميراث عند وفاتها . ولكنها مع ذلك كانت تتفاخر بهذين الغائبين فى أوربا وأولتهما احتراماً أكثر من هذين الاثنين اللذين كانت تستذلهما متى شاءت . وهكذا لم يفقد الغائبان شيئاً بسبب غيابهما .

وكانت أمريكا فى تلك الأيام بلداً يتميز ببراءة غريبة . فقد كان هناك كثيرون يسألوننى أن أشرح لهم بالتفصيل حكاية أوسكار وايلد[1]. وقد نزلنا فى مدينة بوسطون فى بنسيون تملكه سيدتان عجوزان من الكويكرز فصرخت إحداهما فى وجهى مرة ونحن نتناول الطعام على المائدة « إن أوسكار وايلد تعرض فى الأيام الأخيرة لحملة أمام الرأى العام . فماذا فعل؟ » فأجبتها : « إنه فى السجن » ولحسن الحظ لم تسألنى مرة أخرى عما فعل . وكنت أنظر إلى أمريكا فى ذلك الوقت باستعلاء البريطانى القابع فى جزيرته وهو ناعم البال . ورغما عن هذا فإن

(١) أوسكار وايلد ١٨٥٤ — ١٩٠٠ كاتب مسرحى وأديب أيرلندى أثارت كتاباته ضجة فى الأوساط الاجتماعية .

اتصالى برجال العلم الأمريكيين فى الجامعات ، وخاصة علماء الرياضة ، جعلنى أقر بتفوق ألمانيا على إنجلترا فى كل المسائل الأكاديمية تقريباً . وهكذا وجدتنى رغماً عنى وبفضل أسفارى أتخلى تدريجيًّا عن الاعتقاد بأن كل ما يستحق المعرفة موجود فى كامبردج . ولقد أفادتنى أسفارى أيما إفادة فى هذا الصدد .

لا أذكر عن عام ١٨٩٧ إلا ماندر ، ومنه أننى نشرت فى تلك السنة كتابى « أسس الهندسة » وأذكر السرور البالغ الذى شعرت به عندما وصلنى خطاب من لويس كوتورات يثنى فيه على الكتاب. ولم أكن قد قابلته ، وإن كنت قد استعرضت كتابه « اللامتناهى فى الرياضيات » وكنت أتمنى أن أتلقى خطابات من غرباء يثنون فيها على كتابى ، ولكن كانت هذه هى المرة الأولى بالنسبة لى . ولقد ذكر لويس فى خطابه أنه تابع قراءته لكتابى وهو مسلح بقاموس، لأنه لا يعرف الإنجليزية. وبعد ذلك بقليل ذهبت إلى « كان » لزيارته إذ كان يعمل فى ذلك الوقت أستاذاً هناك . ولقد غمرته الدهشة إذ رآنى صغير السن ، ولكن الصداقة التى ربطت بيننا استمرت حتى قتل فى حادث عربة نقل أثناء التعبئة العامة للحرب العالمية الأولى ١٩١٤ . وفى آخر سنى حياته انقطعت الصلة بيننا لأنه كان منهمكاً فى التفكير فى مسألة إيجاد لغة عالمية كان ينادى بها تسمى « إيدو » وهى غير الاسبرانتو ، وذكر لى فى حديثه أنه لا يعرف فى تاريخ الجنس البشرى أكثر انحلالاً من أنصار الاسبرانتو. ولقد أسفَ لأن كلمة إيدو ليس لها ما لكلمة اسبرانتو من رنين وجرْس . وأذكر أنى اقترحت عليه كلمة « اديوت » أى مغفل ، ولكنه لم يستسغها تماماً . وأذكر كذلك أننى كنت أتغدّى معه فى باريس فى يوليو ١٩٠٠ وكان الجو حارًّا مقبضاً لدرجة أن السيدة هوايتهد التى كانت تعانى من ضعف القلب ، أغمى عليها . وبينما هو خارج من الغرفة إذ ذهب لإحضار نوشادر ، فتح أحد الحضور النافذة . وعند عودته أقفل النافذة بشدة وهو يقول « فلندخل الهواء ، ولكن لنمنع التيار » . وأذكر كذلك زيارته لى فى الفندق الذى كنت أقيم فيه بباريس عام ١٩٠٥ حيث استمع إلى حديثه

مستر ديفيز وابنته مارجريت (والد وأخت كرومبتون وثيودور) ولقد تحدث لويس لمدة نصف ساعة دون توقف ، ثم أبدى الملاحظة التالية « إن الحكماء هم الذين يمسكون ألسنتهم عن الكلام » . عندئذ اندفع المستر ديفز برغم أنه كان يبلغ الثمانين من عمره ، اندفع مهرولا خارج الغرفة ولم أسمع إلا صوت ضحكة وهو يختفى بعيداً عنا . ولقد ظل كوتورات لفترة ما من أشد المناصرين لآرائى فى المنطق الرياضى ، ولكنه لم يكن دائما حصيفاً فقد وجدت نفسى أثناء معركتى مع الفيلسوف الرياضى الفرنسى بوانكاريه ، أتحمل عبء الدفاع عنه وعن نفسى فى الوقت ذاته . وكان أعظم أعماله يتصل بما كتبه بشأن الفيلسوف الألمانى ليبنتز عن المنطق . وكان ليبنتز حريصاً على رأى الناس فيه ولذلك لم ينشر إلا مؤلفاته التى لم تبلغ درجة الامتياز . أما أفضل مؤلفاته فكان يحتفظ بمخطوطها . لذا اختار الناشرون ما اعتبروه فى نظرهم أفضل أعماله ، ولم يتنبهوا لهذا المخطوط الذى كان لكوتورات الفضل فى اكتشافه . ولقد سررت بالطبع لأنه أمدنى بوثائق ساعدتنى على تفسير آراء ليبنتز واستعنت بها فى كتابى عنه ، هذا الكتاب الذى ما كان ليصل إلى مستوى مرض لولا كتاب كوتورات . فى أول مرة قابلت فيها كوتورات ذكر لى أنه لا يمارس رياضة ما وبعد ذلك بقليل سألته إذا كان يركب الدراجات ، فرد قائلا : « كلا ، لأننى لست رياضيـًا » . ولقد تراسلت معه لسنين عدة ، وكتبت له أثناء حرب البوير خطابات تتسم بالروح الاستعمارية ، أشعر الآن بالندم الشديد على كتابتها .

وفى عام ١٨٩٨ بدأت أنا وأليس نعتاد على قضاء بعض الوقت من كل عام فى كامبردج . ولقد داومنا على هذا حتى عام ١٩٠٢ . وكنت فى ذلك الوقت أحاول التخلص من المثالية الألمانية التى انغمست فيها بتأثير ماك تاجرت وستاون فساعدنى مور الذى كنت أراه كثيراً فى ذلك الوقت على ما عقدت العزم عليه . وكان أمراً مثيراً للغاية ، بعد أن ظننت أن العالم الملموس عالم غير حقيقى أن أؤمن من جديد بأن هناك فى الواقع أشياء ملموسة حقيقية ، كالمناضد والكراسى .

(١) لايبنتز ١٦٤٦ – ١٧١٦ فيلسوف ورياضى ألمانى .

لكن الجانب المنطقى فى هذا الموضوع هو أهم شىء أثار اهتمامى . وسرنى التفكير فى أن العلاقات أمر حقيقى . وأوليت اهتمامى لاكتشاف الأثر الكبير الذى يحدثه فى علم الميتافيزيقا ذلك الاعتقاد بأن كل القضايا المنطقية من نوع المسند والمسند إليه . ودفعتنى الصدفة إلى قراءة مؤلفات ليبنتز لأنه كان على أن أحاضر عنه ، إذ أن مستر ماكتاجارت كان يريد السفر إلى نيوزيلندة . ولهذا طلبت الكلية منى أن أنوب عنه فى إعطاء سلسلة من المحاضرات عن ليبنتز . وفى دراستى وتناولى بالنقد لأعمال ليبنتز وجدت الفرصة لأشرح الآراء الحديثة فى علم المنطق التى أرشدنى إليها مور ، أكثر من غيره . لقد أمضينا الخريف لعامين متتاليين فى البندقية التى أكاد أعرف كل مكان فيها . ومنذ بداية زواجى الأول حتى نشوب الحرب العالمية الأولى لم يمض عام لم أذهب فيه إلى إيطاليا ، أحياناً سيراً على الأقدام ، أو راكباً دراجة ، أو على ظهر سفينة صغيرة تقف على كل ميناء فى المسافة بين البندقية وجنوة . وكنت أعشق المدن الصغيرة النائية ، ومناظر جبال الابنين . وبعد نشوب الحرب لم أذهب إلى إيطاليا حتى سنة ١٩٤٩ . ففى عام ١٩٢٢ عزمت على الذهاب لحضور مؤتمر ما ، لكن موسولينى الذى لم يكن قد استولى بعد على السلطة ، أبلغ منظمى المؤتمر بأنه يجب ألا يصيبنى أحد بأذى ، ولكن يجب اغتيال أى إيطالى يبادلنى الحديث . وبالطبع لم أشأ أن أترك ورائى دما مسفوكاً، لهذا آثرت الابتعاد عن البلد الذى أحببه والذى شوه موسولينى وجهه .

كان صيف ١٨٩٩ آخر عهدى بسالى فيرتشيلد حتى تقابلنا عصر يوم من أيام ١٩٤٠ بعد أن ولى الشباب . وأخذنا نتساءل عن الصفات التى كانت تجذب أحدنا نحو الآخر . وكانت سالى تنتمى إلى عائلة أرستقراطية من بوسطون أخنى عليها الدهر بعض الشىء . وتعرفت عليها أول مرة عام ١٨٩٦ عندما كنا نقيم فى بوسطون . وعلى الرغم من أن وجهها لم يكن جذاباً ، إلا أن حركاتها كانت رشيقة لدرجة لم أعهدها من قبل ، ولذا وقع فى غرامها الكثيرون . وكثيراً ما كانت تقول لى إنه من السهل على المرء أن يعرف متى يتقدم الرجل الإنجليزى

لخطبة فتاة ما، لأنه يبدأ بالقول: « إن صاحبك قليل الحيلة ، لكنك ستستريحين إليه». وتمت مقابلتنا التالية فى رشمور البيت الريفى لعمى الجنرال بت رفرز ،حيث كانت تقيم هى ووالدتها . وباستثناء الجنرال كان معظم أفراد العائلة بهم مس من الجنون . فمسز بت التى كانت تنتمى إلى عائلة ستانلى ، صارت بخيلة لدرجة أنه إذا ترك الضيوف بعض لحم الخنزير والبيض فإنها تعيده إلى الأطباق .

أما أكبر الأبناء فكان حارساً غاية فى الأناقة والاستقامة . كان هذا يحضر إلى مائدة الإفطار متأخراً ويدق الجرس فى طلب الطعام . عندئذ تصيح عمتى فى الخادم حتى لا يحضر طعاماً آخر لأن الطعام المتبقى فى أطباق الضيوف يكفى وزيادة. على أى حال ، ينتهى الأمر دائماً بأن يطيع الخادم أمر الحارس ولا يلقى بالا لعويلها . ثم هناك ابن آخر يعمل رساماً ، وهو مجنون سيئ الخلق ، وإن كان شخصاً يميل إلى المرح . أما الابن الثالث فهو شخص طيب ، برغم أنه قليل الحيلة . وكان من حسن حظه أن تزوج خياطة تدعى السبيت فيلبس ، أنقذته من الفاقة. أما جورج فأكثر أفراد العائلة طرافة. وبالرغم من أنه من أوائل مخترعى الضوء الكهربى إلا أنه ألقى بكل هذا عرض الحائط سعياً وراء غيبيات البوذية ، وتجول فى بلاد التبت لزيارة كبار البوذيين الذين يحملون لقب مهاتما وعند عودته وجد أن أديسون وسوان يصنعان مصابيح كهربية ، فاعتبر هذا اعتداء على براءة اختراعه ، ودخل معهما فى سلسلة من القضايا خسرها جميعاً وانتهت به إلى الإفلاس ، وإلى تدعيم إيمانه بالعقيدة البوذية التى تتطلب من الإنسان السيطرة على شهواته. وكثيراً ما كانت جدتى من أمى تلاعبه الورق وتقول له عندما يأتى دوره فى اللعب : « إنى مسرورة إذ أتى دورك فى اللعب ، لأن هذا يبعد عنك مسوح القداسة » . وكان جورج يجمع ما بين القداسة والحياة الاجتماعية بنسب متساوية تقريباً . فكان يحب سالى فيرتشيلد ولهذا دعاها وأمها إلى رشمور . ولم يكن هناك طعام كاف كالمعتاد ، لدرجة أنه فى إحدى المناسبات حدثت مشادة بينه وبين سالى على أكل آخر طبق « بودينج » مصنوع من الأرز ، انتهت بانتصاره عليها . وفى يوم رحيل سالى ، كانت تود

أن تستقل قطاراً معيناً ، ولكن مسز بت رفرز ألحت عليها أن تسافر فى القطار التالى لكى تزور أثراً من الآثار القديمة فى طريقها إلى المحطة . ولقد لجأت إلى جورج طالبة منه العون فى هذا الموقف ووعد بذلك أول الأمر ، لكن عندما حان وقت الجد تخلى عنها وبدلا من إقناع والدته بالعدول عن إلحاحها ، أخذ يعظها عن الدنيا الغرور . ولقد أدى هذا إلى رفضها خطوبته (**ولقد أبطل زواجه التالى لعجزه الجنسى**)[1]. وفى صيف ١٨٩٩ قامت سالى بزيارة طويلة لفرايدايز هل ، وأصبحت أنا مغرماً بها . إننى لا أعتقد أننى وقعت فى حبها إذ لم يصل بى الأمر حتى إلى تقبيل يدها ، ولكن بمرور السنين أدركت مدى الأثر العميق الذى تركته فى نفسى ، وأتذكر جولاتنا ، كما لو كانت قد حدثت بالأمس ، فى أمسيات الصيف وقت السحر وقد فرضت علينا تقاليد العصر كتم شعورنا وعدم التعبير عنه .

وفى خريف ١٨٩٩ نشبت حرب البوير ، وكنت وقتذاك استعمارياً ليبرالياً ولم أكن أول الأمر من مناصري البوير . ولقد شعرت بقلق شديد من جراء هزائم القوات البريطانية ، ولهذا استولت على كل تفكيري أخبار الحروب . وكنا فى ذلك الوقت نعيش فى بيلهانجر وكنت أسير أربعة أميال عصر كل يوم حتى أصل إلى المحطة لأحصل على الصحيفة المسائية . ولم تتعرض أليس لنفس المشاعر التى كنت أحس بها ، نظراً لأنها أمريكية ، ولذا كانت تغضب من شدة اهتمامى بهذا الموضوع . وفتر اهتمامى عندما بدأت الهزائم تتوالى على البوير وأصبحت فى أوائل عام ١٩٠١ من المدافعين عنهم .

وفى عام ١٩٠٠ نشر كتابى « فلسفة ليبنتز » . وفى يوليو ذهبت إلى باريس حيث بدأ فصل جديد من حياتى .

(١) قد تزوج الليدى إيديث دوجلاس أخت لورد ألفريد .

خطابات

بمبروك لودج

رتشموند ، سرى

٣٠ من مايو ، ١٨٩٥

عزيزى برتى

أرجو أن تكون أيام كامبردج ذات فائدة لك وإن كنت لا أدرى تماماً كيف . لقد سألتك قبل ذلك — ولكنى نسيت ردك — ماهو موضوع رسالتك ؟ وكيف تفكر فى إنجازه بنجاح ؟ إننى أتذكر جيداً الأخبار التى بلغتنى عن أول نجاح لك ، قبل ذهابك إلى كامبردج — عندما اندفعت إلى الطابق العلوى لتخبرنى وتخبر عمتك — ياعزيزى برتى— ثم أخيراً دموع السعادة التى طفرت من عينى فى تلك اللحظات التى يجلب فيها الشباب السعادة للعجائز الذين جف عود حياتهم . إننى كنت دائماً أشعر أن مثل هذه الأشياء لن تضفى على لحظة سعادة واحدة لولم تكن محبًّا ، وطيباً ومخلصاً .

لقد وقع بين يدى كتاب وجدت فيه شيئاً مماثلا ، وتصادفنى على الدوام ، أثناء قراءتى شتى الكتب ، فقرات يبدو وكأن من كتبها تعمد التعبير عن بعض خبراتى فى الحياة . أعتقد أن هذا أمر طبيعى عندما يطول بالإنسان العمر . وبالمناسبة لم تكتب رداً لخطاب عمتك الذى أرسلته فى عيد ميلادك — إنها شخصيًّا لم تحدثنى عن ذلك — وإن كانت قد ذكرت لى أن خطابها كان موجزاً جدًّا . على أية حال لقد بذلت جهداً كبيراً فى كتابته نظراً لمرضها . حقيقة الأمر أنك تختلس لحظة من وقتك لكتابة خطابات لنا — وعلى الرغم من شعورى بالسعادة عندما أتذكر بين الحين والحين الخطابات الطويلة التى كتبتها لنا فى الأيام الماضية ، إلا أنها لا تغنى عن خطاباتك فى الوقت الحاضر مهما كانت موجزة . على أية حال طالما أنه ليست لديك الرغبة فى كتابة

خطابات مطولة ، وهى على أحسن الفروض أمر شاق فامض فى كتابة خطاباتك القصيرة — إننى لا أنسى أنك مشغول للغاية ، وإن كان أكثر الناس انشغالا هم الذين يجدون بطريقة ما ، وقتاً لكل شيء — ألا تظن ذلك ؟ (يالها من محاولة هزيلة لتنقية الجوّ) . أما عن مقابلتك للتحدث معك ، فإننى أدركت عند رحيلك أنك لا تنوى ذلك فى الوقت القريب — كم وددت يا عزيزى أن أتحدث إليك عن أشياء كثيرة — عن الكويكرز ومعتقداتهم ونظمهم الغريبة التى نسمع عنها أخباراً متضاربة ، وعن عدة أمور أخرى . لكن كل ذلك لابد من إرجائه لوقت قريب . ما أجمل السماء والأرض . وكم تكون سعادتك عندما تعود إلى بيتك — بلغ تحيتى وشكرى لأليس .

جدتك المحبة

أرجو أن تكون قد عثرت على بيان بالمفردات والمصطلحات التى كتبتها بالقلم الرصاص على ورق منفصل داخل الكتاب . أعتقد أنها تساعدك على الاستمتاع بقراءة الكتاب . كم أتمنى أن نقرأه سويًّا .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

١٨٩٦

عزيزى برتى

تذكر أنك قد رتبت أمور إجازتك ؛ أرجو أن تخبرنى عما إذا كنت تنوى زيارة بمبروك لودج . إننى سعيدة لأن أخبرك أن جرترود[١] وأولادها سيكونون معنا من ١ إلى ١٦ من سبتمبر . أما عمك رولو فقد سافر إلى اسكتلندا وأماكن أخرى . لذلك ، لن يكفى الوقت . إننى أعتقد أن « الفلسفة الأكثر عمقاً » و « الرياضيات اللامتناهية » كتابان مثيران للغاية . إنه لمما يؤسف له ، ياعزيزى برتى أنك لم تذكر لى شيئاً عن موت مس روكر برغم علمك بمقدار حبنا لها ،

(١) زوجة رولو (عم رسل) الثانية .

كذلك لم تذكر كلمة واحدة عن لادى تنيسون برغم سكنها القريب منك — إن سير هنرى تيلور يعتبرها امرأة ممتازة للغاية . وإننى عاجزة عن أن أوفى هؤلاء الخمسة حقهم من الثناء . لقد أرسلت فى طلب كتاب « جرين » لأليس — إنه تاريخ ممتع وإن كنت أفضل شيئاً آخر هدية لها .

جدتك المحبة

لقد وصلت عمتك رسالة من هالام المسكين .

بمبروك لودج

ريتشموند ، سرى

١١ من أغسطس ١٨٩٦

عزيزتى أليس

لقد راقتنا صورة برتى — إنها رائعة ببسمتها الطبيعية غير المتكلفة. أما عن صورتك فلم تحز القبول ، وأرجو ألا تروق برتى — فلم تعجبنا الجلسة ، ولا الوجه المعتم ، ولا دثار العنق البارز — ربما كان هذا أمراً تشكر عليه أجاثا ، برغم أنه لا ذنب لها فيما حدث ، ولا ذنب لى أنا كذلك. ما هو تاريخ عيد ميلادك؟ لقد نسيته ولا أذكر سوى أنى وعدت بأن أقدم لك كتاباً ، سأحاول بالفعل اختياره ، وسأسألك عما إذا كان لديك أم لا . ولكنى لن أقدم لك كتاب « جرين » بل كتاباً ثقافياً أقل جفافاً — ألديك رسائل هنريت رينان ؟ لقد قرأتها أجاثا وأعجبت بجمالها بالطبع. يافتاتى العزيزة ! لن أجعل من صحتى أو اعتلالها سبباً للاعتراض على سفرك إلى أمريكا . لقد شعرت أن هذا أمر تقررينه بنفسك . « أذهب أو لا أذهب » . تلك هى مسألتك وحدك . وأرجو أن يكون هذا لخير برتى . إنه من المؤسف أن آخر مجموعة الكتاب البارزين ، أعنى هولمز ولوويل ، قد رحلا . لكن بلا شك هناك أناس آخرون جدير ببرتى أن يتعرف عليهم . سواء أكانوا كتاباً أم لا . حقًّا لقد كنت أتمنى أن يندمج وسط مجموعة مختلفة متنوعة من الرجال والنساء ، أكثر مما كان عليه

الحال . لكن هذه من أكبر أمانى الناس فى بلده . لقد جاء فى الأسبوع الماضى هارولد وفيتا (ابن عم هارولد رسل وزوجته) — هل أخبرتك بهذا؟ إن فيتا غاية فى اللطف والظرف غير المتكلف . شكراً على رسالتك اللطيفة. لقد أسفت للبرد الذى ألم بك . هل هناك أى شكوى من البيت الريفى ؟ إنه لوقت فظيع لا يناسب السفر والعودة بالبحر . هل هواء البحر يساعدك على الهضم .

جدتك المحبة إلى الأبد

بمبر وك لودج

ريتشموند ، سرى

١٧ من مايو ، ١٨٩٦

عزيزى برتى

سأذكرك كثيراً فى الغد وأذكر أعياد الميلاد السعيدة الماضية عندما كانت بيننا [١] تقدم لنا النصح وتلهمنا بعمل كل خير ، وعندما كنت لا تزال طفلا تملأ البيت علينا بهجة وأملا فى المستقبل الذى ينتظرك . عزيزى برتى هل اطرد تقدمك منذ تلك الأيام ؟ لعل مباهج الحياة التى تنعم بها الآن ساعدتك على ألا تقلل من محبتك وعونك وتقديرك لهؤلاء الناس الذين قد يقاسون من شدة الأسى والمرض ، والعذاب والوحشة . كلنا ، نحن الذين ندرك قيمة حب جدتك وصلواتها ودعواتها ، نحن الذين نشعر بالذكرى المباركة للمثل المدهش الذى قدمته لنا — كلنا نشعر بشىء من اليأس أحياناً ، إذ نبتعد كثيراً كثيراً عن مثلها الأعلى وعن مستوى الحياة الذى ارتضته لنفسها — لكن علينا أن نناضل ونسعى إلى مزيد من روحها . لا يمكنك أن تتصور مدى جمال كل شىء هنا فى هذه الآونة ، وعلى الرغم من الحنين المضنى لها ، إلا أننى أحب أن أتأمل كل شىء وأتذكر كم كانت تحب هذا المكان بجماله .

(١) توفيت جدتى منذ فترة قريبة .

إن عمك رولاو مريض للغاية منذ فترة طويلة . وكنت قلقة عليه جداً عندما كان يرهق نفسه أكثر من اللازم . الآن أمره الطبيب بالراحة التامة . ربما تكون قد زرت دنروزل ، لقد كنت منهمكة جداً فى البيت لدرجة أننى شعرت بالإرهاق الزائد عدة مرات . وقد أنقذتنى جوينى (جويندولين فيلرز) من الانهيار ، وذلك بعملها الدائب ومعاونتها لى بكل الطرق — لقد كان مؤلماً للغاية أن ترى الصور الجميلة قد اختفت والبيت يجرد شيئاً فشيئاً من محتوياته. سأشعر بالراحة عندما ينتهى كل شيء . لقد سررت جداً إذ أخذ عمك رولاو عديداً من الصور القيمة. إنها من حقه على أى حال. وقد شعرت بالامتنان كذلك لهربراند (دوق بدفورد) لأنه أهدى صورة جدك إلى المتحف القومى لصور الشخصيات . آسفة إذ ليس عندى هدية أقدمها لك فى هذه الآونة ، إذ أن هذا كان أمراً مستحيلا لانشغالى فى هذا الموضوع الذى لا نهاية له .

بلغ أليس عظيم اشتياقى . باركك الله ، ياعزيزى برتى [١].

عمتك المحبة

المطرانية

برين مور ، بنسلفانيا

١٣ من نوفمبر ١٨٩٦

عزيزى ولاس

لقد كنت عازماً على الكتابة إليك منذ انتخابات الرياسة ، من أجل نموذج بطاقة انتخاب سأرسلها لك ببريد المطبوعات . لقد علمت أن هذه الوثيقة أكثر تعقيداً من مثيلاتها فى أى بلد آخر . إنها عمل ممتاز بالتأكيد . يبدو لى أنها تحوى بطريقة شاملة نظرية القرن الثامن عشر عن الإيمان بحكم الشعب الذكى الحر ، وما اعتاده القرن التاسع عشر من إيمان بحكم الصفوة البارزة من رجال السياسة . لك أن تتصور استخدام عبارة مثل: « تذكرة شاملة لكل

(١) تمت كتابة هذا الخطاب بعد وفاة جدته مباشرة .

مرشحى الحزب » فى بطاقة انتخاب ، وتتصور العقلية الجبارة لرجل لا يسير على هذا النهج فى إعطاء صوته . إننى لم أر قط وثيقة تزخر بالنظريات السياسية أو تزيد عنها فى إيضاح أقصر طريق يبدأ بالميتافيزيقا السيئة وينتهى إلى الفساد السياسى . كان كل الاهتمام يتركز فى فيلادلفيا على انتخاب مأمور الشرطة . وكان كرو الجمهورى المستقل يعارض حكم الصفوة ، ومن الغريب أنه نجح فى الانتخاب وإن كانت الأغلبية التى حصل عليها ضئيلة للغاية .

إنى مرسل لك أيضاً بعض الحيل الخفية التى يلجأ إليها كبار الساسة للحصول على أصوات ناخبين وهميين . وسترى أن الاستمارات المرفقة تمكن أى إنسان من أن يدلى بصوته دون أن يكون اسمه مقيداً فى السجلات . ولقد ذهبت إلى مركز من مراكز الانتخاب فى فيلادلفيا ورأيت خارج المركز أحد أتباع النائب السياسى الكبير واسمه فلاجان — رأيته يعطى الجهلة من الناس إرشادات فى طريقة الإدلاء بأصواتهم ، ثم يراقبهم وهم يضعون علامات فى أوراق الانتخاب ، ويشهد ، إذادعا الأمر ، بأحقيتهم فى الانتخاب . ودخل مرشح جمهورى وآخر ديمقراطى ليتأكدا من أن كل شىء على ما يرام. وافترضت أن كلا منهما سيعمل ضد الآخر ، لكنهما فى الحقيقة توصلا إلى اتفاق بينهما بأن يساندا أصدقاء الطرفين من كبار رجال السياسة والحكم ، حتى ولو أدى هذا إلى التسليم بوجود أصوات مزورة للجانب المعارض . إن الأمريكان يبدون غاية فى القدرية والتشاؤم لدرجة لاتمكنهم من مواجهة هؤلاء الناس . ولقد ذهلت عندما رأيت رجلا يعمل مراقباً رسمياً من قبل جماعة تحريم الخمور ، إذ على الرغم من مراقبته واكتشافه لبعض المخالفات إلا أنه أظهر عدم اكتراث عندما سألت عن سبب عدم تدخله وإثارته للموضوع علنا . الحقيقة أن الأمريكان كسالى لدرجة لا توصف فى كل شىء لا يمس مصلحتهم الشخصية، ويغطون كسلهم هذا بروح التشاؤم الذى لا أمل معه فى إصلاح الأمور . وعندما واجهتهم متسائلا عما إذا كان أحدهم يذكر حركة إصلاح واحدة لم يقدر لها النجاح وقفوا واجمين ، اللهم إلا واحداً منهم أشار إلى السلك القنصلى —

وهذه صيحة إصلاح لا تثير الحماسة بالطبع . ولقد ذكر لى أحدهم صراحة ممن يتباهون بالتمسك بأهداب الفضيلة أنه تبين أن أى عمل من الأعمال يمكن أن يدر عليه مالاً لايستطيع الحصول عليه إذا وقف نفسه على محاربة الفساد ويبدو أنه لم يدر بخلد هذا الرجل أن هذا عذر أقبح من الذنب . على أى حال ، يبدوأن كل شىء كان يسير فى طريق الإصلاح بمعدل سريع للغاية ، وإن كان هذا القول يثير غضب المتزمتين الكسالى الذين يتصفون بالنفاق . إنهم يتباهون بأن ولايتهم أكثر الولايات فساداً ، وحينما يخلون إلى أنفسهم يتكلمون فى تيه عن أن حالة ولايتهم ميئوس منها . يبدو أن سقوط آلتجلد وهزيمة تامانى أثارت غضبهم وإن كانوا يقولون إن النتيجة كان من الممكن أن تنتهى إلى غير ما وصلت إليه ، ويأملون كثيراً فى الانتخابات القادمة . على وجه العموم إنهم ينالون ما يستحقون من جزاء . إن الكويكرز والمتطهرين [١] على قدر معرفتى بهم ، هم أكبر كذابين ومنافقين رأيتهم فى حياتى وهم عادة يفتقرون إلى الحمية تماماً . هاك قصة من فيلادلفيا : (وانا ميكر) رجل ذو نفوذ ، ثرى ومتدين لدرجة كبيرة ، تحتل ضريبة الحماية الجمركية مكاناً عزيزاً فى نفسه . وفى انتخابات ١٨٨٨ عندما كان موقف ولاية نيويورك حاسماً أرسلت برقية إلى لجنة الحزب الجمهورى فى فلادلفيا تفيد بأن انتصارهم فى الانتخابات يتطلب ٨٠ ألف دولار . دفع وانا ميكر المبلغ على الفور وكسب الجمهوريون ولاية نيويورك بأغلبية ٥٠٠ صوت ، وعين وانا ميكر مديراً عامًّا للبريد . وهاك قصة من نيويورك : فى عام ١٨٨٤ أعطى (جاى جولد) مبلغاً ضخماً للجمهوريين ، وعندما علم الديمقراطيون بهذا نظموا مظاهرات سارت فى اليوم التالى لمدة ساعات أمام بيت جاى وهى تصيح « الدم ، الدم . دم جاى جولد » عندئذ استولى على جاى جولد خوف شديد ، وأرسل تلغرافيا المبلغ المطلوب للديمقراطيين . وانتصر كليفلاند . على أى حال يعتبر

(١) Puritans البيوريتانيون من أتباع الكنيسة الإنجليزية أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا يسعون إلى تبسيط العبادات والتمسك الصارم بالأوامر والنواهى الدينية .

الأمريكان كأفراد ظرفاء ، لكنهم لا يكونون مجتمعاً من الناس الصرحاء سواء أكان هذا راجعاً إلى افتقارهم للشجاعة أم إلى اللامركزية التى تسيطر على حياتهم. إن كلا منهم يشكو بدوره من أن الناس جميعاً سوف يقاطعونه إذا ماعبر عن آرائه بصراحة . أعتقد أن هذا يعزى إلى حد كبير إلى عدم وجود عاصمة للبلاد. وثمة سبب مماثل يعلل روح الجبن والتظاهر بالدين التى نلمسها فى الجامعات . فالأستاذ (إلى) طرد من جامعة جون هوبكنز لأنه مسيحى اشتراكى . هناك إمكانيات على كل حال ، وكل شخص يظهر شغفاً بالتعليم أكثر مما نراه فى إنجلترا ، كما أن مستوى الذكاء مرتفع ، ويصرح كثير من المفكرين — وإن كانت هذه الظاهرة بدت فقط فى السنين الأخيرة ، منذ (برايس) على ما يبدو — يصرحون بأن نظام حكمهم بعيد عن الكمال . أعتقد أنك ستقضى وقتاً طيباً هنا ، كما فعلنا . ومن المرجح أننا سنبحر فى الثلاثين من ديسمبر ، وأرجو ملحًّا أن تصل قبل هذا التاريخ . إذ أننى أتمنى أن أراك وأقدمك إلى عدد من الناس الظرفاء فى نيويورك . إذا لم تكن ذكرت فى خطابك شيئاً عن موعد وصولك ، أرجو أن تسارع بالكتابة — إن هذه الكلية مكان جميل ، يفوق إلى حد كبير جرتون ونيوهام ، ومن الغريب أن أستاذ الاقتصاد السياسى الذى كان يؤمن بحرية تداول العملة الفضية مع تثبيت سعرها بالنسبة للعملة الذهبية ، استطاع أن يقنع طلبته بآرائه على الرغم من أن كثيراً منهم من عائلات ثرية فى نيويورك . إن من قابلتهم يتصفون بالذكاء وسعة الأفق بالنسبة لآرائهم حول المسائل الاشتراكية .

المخلص

برتراند رسل

كان موريس شيلدون عاموس (الذى حصل على لقب سير بعد ذلك) حلقة اتصالى الوحيدة بين كامبردج وفرايدايز هل. وكان والده الذى توفى فى الثمانينيات مشرّعاً قانونيًّا من طراز ممتاز ، ساهم بأكبر قسط فى كتابة الدستور المصرى الذى فرضه الإنجليز بعد احتلالهم لمصر عام ١٨٨١ . وبعد أن توفى

والده كرست والدته حياتها للأعمال الصالحات ، وخاصة ما يتصل منها بالطهر والعفة . ويشاع أنها قالت : « منذ وفاة زوجي العزيز وأنا أكرس حياتي لمحاربة الدعارة». وقيل أيضاً إن زوجها الذي كان كثيف الشعر أصبح أصلع كالبيضة بعد مضي ستة أسابيع على زواجه منها . ولكن لا يمكنني إثبات صحة هاتين الروايتين. وأصبحت مسز عاموس ، بحكم عملها ، صديقة لمستر بيرسل سميث . وعلى هذا عندما زارني لوجان في كامبردج أخذني لزيارة مه ريس الذي كان طالباً حديث الالتحاق بالجامعة يدرس علم الأخلاق وكان شابًّا طويلا جذاباً ، متحمساً ، بطيء الحركة . كثيراً ما كان يقول : « إن العالم مكان غريب ، كلما تجولت فيه اصطدمت بشيء ما » .

وعندما أصبح محاميا ذهب إلى مصر حيث كانت ذكرى والده ماثلة في الأذهان وهناك انتعشت أحواله المالية وعمل قاضياً لمدة طويلة اعتزل بعدها ورشح نفسه عن دائرة كامبردج على مبادئ حزب الأحرار . ولم أعرف شخصاً غيره يقرأ الرياضيات للمتعة والتسلية ، كما يقرأ غيره القصص البوليسية .

وكانت له أخت تدعى (بونته) كانت صديقة لأليس ولي . وقاست بونته كثيراً من تعصب والدتها الديني ولقد أصبحت فيما بعد طبيبة . وقبل أن تدخل امتحانها النهائي اعتادت والدتها أن توقظها في المساء وتصلي من أجلها ، ولهذا كان علينا أن نرسل لها نقوداً لتمكنها من أن تعيش بعيداً عن البيت . ولقد رافقتني أنا وأليس في السفر إلى أمريكا عام ١٨٩٦ . وذهبت بونته إلى مصر أيضاً حيث عملت فترة من الوقت طبيبة في الحجر الصحي في السويس وكان من ضمن واجباتها صيد الفئران من سفن أعلن قباطنتها أنها خالية من مثل هذه الحيوانات. وأخيراً تزوجت ضابطاً في الجيش كان رئيساً لقوة البوليس في مصر ، ولقد نجا هذا بأعجوبة من أحداث مثيرة للغاية ، كغرق في البحر ، وتمرد ، وألوان أخرى من الأخطار. ولكن عندما أبديت له ملاحظة قائلا : « يبدو أن حياتك حافلة بالمخاطر » أجابني بقوله : « أوه ، كلا ، بالطبع لم يفتني شاي الصباح قط ، على مائدة الإفطار » . وقد رفض كل من بونته وأخيها أن يستمرا في صداقتهما

لى بعد أن أصبحت منبوذاً من المجتمع الراقى . ولقد رجع موريس عن موقفه آسفاً ، فى حين ظلت بونته مصرة على موقفها .

طرف مس فريجل

القاهرة

٦ من نوفمبر ، ١٨٩٨

عزيزى برتى

إنه لمن دواعى السرور أن أسمع منك وأن أتذكر وجود أفاضل الناس أمثالك . أعلمت أن (برونيات) قد حصل على وظيفة بمرتب ١٢٠٠ جنيه فى العام ؟ إنه لطيف برغم همجيته وهو يظن على مايبدو أنه ليس هناك موضوع يستحوذ على أذهان كبار العقول حقاً سوى الرياضيات . وكان يسخر من الاقتصاد السياسى فى شخص سانجر ، ومن الميتافيزيقا فى شخص ماكتاجارت ، وآسفة إذ أنك لم تسلم منه ، إذ قال لى إن فورسايث لا يؤمن بنظرياتك . وتساءلت عن قدرة ومؤهلات فورسايث هذا للنقد ، فقال إنه قدير على الحكم على أى قضية منطقية . ولم أجد بداً من القول إن شرح قضية ميتافيزيقية لإنسان لا يعرف عنها شيئاً قط قد يستغرق ستة أشهر أو عام . يبدو أن هذا الحيوان يعتقد أن كلية ترينتى قد سلمت زمام الأمور لرجال مغفلين يمنحون وظائف محاضرين فى الجامعة لخريجين فى الاقتصاد والسياسة والميتافيزيقا لدوافع فاسدة. على أية حال ، علينا أن نتذكر أن اللعنة مصير مقدر لبعض الناس ، وأنه بدلا من أن يكلف الواحد منا نفسه مشقة إصلاحهم ، فإن من الأيسر له أن يقضى وقته فى التشدق برابطة الخريجين ولوائحها الغامضة ، هذا إذا كان يبتغى ترشيح نفسه عضواً فيها . وأعترف أحياناً أننى أؤنب نفسى إذ أصبحت إباحياً شقياً . لا أدرى ماذا يعنى (مور) مثلا بقوله إن العالم يتكون من معان كلية فحسب .

أود أن أناقش معك أمورك وأمورى . ويبدو أننى على أى حال وبمرور

الزمن أبتعد كثيراً عن الحالة التى يكون فيها الإنسان أهدافاً محددة ذات شأن ، وأسوأ ما فى الأمر هو أن يشعر الإنسان بالزهو — كما يفعل بين الحين والحين — وألا يجد مجالا للتدرب والتجربة .

لن أكون فكرة حقة عن هذا المكان إلا عندما تأتى أنت وأليس وبونته وتقدموا لى رأيا موضوعيًّا عنا . وفى الوقت نفسه أعتقد أننى أتعلم أشياء كثيرة ونافعة . ويشغلنى عملى فى الوزارة صباحاً . رتبت الأمر بحيث أقضى فترة بعد الظهر فى مكتب محام كبير ، بلجيكى الجنسية ، أعتقد أننى سأتعلم منه الكثير . ثم يأتى الليل البارد نوعاً ما ، الليل البهيج ولدىّ كثير من العمل يشغل وقتى حتى أعود إلى البيت فى الصيف حيث أجد عملا كثيراً ينتظرنى كذلك .

إن فكرة كتابك تبدو مدهشة وربما أقدر على فهم مضمونه عندما ينشر ، وقد يتعذر علىّ ذلك ، من يدرى ؟ وأعتقد أن فى الإمكان هنا أن أشتغل بالرياضيات مرة أخرى ، لأن الرياضيات بدون شك — ياليتنى ذكرت هذا أمام برونيت — أقل فروع المعرفة إرهاقاً فى متابعتها . إن الأعداد تحلق بك فى آفاق عالية ، ثم تجرفك كتيار الخليج الدافئ . ومن الناحية الأخرى فإن هذه الدراسة عمل تلقائى ، أعنى دراسة مادة دون أن يكون هناك هدف محدد من دراستها .

إننى سعيد لمعرفتى بأنك وطنى متطرف ، وإن كنت أعتقد أنه من الخير أن ننال نصراً دبلوماسيًّا دون الحاجة إلى حرب ، إذا كان هذا فى الإمكان . على أن أبانا آدم كان يريد الحرب دائماً وهذا هو الذى فعلناه فيما يبدو حتى الآن وبطريقة تدل على النصر الأكيد . إن حادثة فاشودة تعطينا مركزاً جديداً فى مصر . هى لنا الآن بحق الفتح بعد أن عرضنا على الفرنسيين أن يدخلوا معنا ورفضوا .

أحب جداً أن أكون منشغلا بعمل مثل عملك ، بحيث أكتب إليك عنه وإنى لأعجب إذا كان هناك شىء اسمه الشلل العقلى أو أن هذا المرض سيظهر يوماً ما .

صديقك المحب

م. ش. عاموس

القاهرة
٥ من مايو ١٨٩٩

عزيزى برتى

حصلت لتوى على إجازة ثلاثة أشهر ونصف شهر ابتداء من ٩ يونية وسأصل إلى أرض الوطن فى العاشر من يونية وأنا متشوق لرؤيتك أنت وأليس وسأضطر للأسف إلى الذهاب إلى باريس أثناء شهر يولية للامتحان ، ولكنى أظن أنى سأبقى فى إنجلترا مدة كافية بحيث تدفع أصدقائى للنفور منى . فأرجو أن تعطينى فرصة عادلة لكى أنفرك منى .

أعجبنى خطابك الغنائى اللهجة عن مور ، ولقد جعلته موضوعاً لأكثر من حديث مع الفرنسيين وغيرهم من المتبربرين ؛ فهو يصور الحالة الموجودة فعلا فيما يتعلق بروح المثقفين فى إنجلترا ، فأنا أقول لهم إن نشاطنا الاستعمارى والتجارى ليس إلا انعكاساً باهتاً جداً للشعلة المتوهجة التى تجتاح الدوائر الأدبية والفلسفية ، بل إن الطابع الحقيقى للوقت الحالى فى إنجلترا هو طابع عصر عظيم يتميز بنظام سياسى كامل يشرف عليه حزب الأحرار وتتصدره أرستقراطية محترمة وليست محسودة وينضوى تحته ملايين من طبقة العمال الميسورى الحال الذين يتنافسون مع طبقة المثقفين والأغنياء فى تحمسهم للإمبراطورية وولائهم للعرش واحترامهم للتعليم . نفس الجو الكريم المنعش الذى بعث الحياة فى التجارة كانت له آثار ضخمة غير مسبوقة فى الحياة العقلية للأمة . وهذا يرى خاصة فى الجامعات الكبرى التى ليست فقط مركزاً لتخريج رجال الدولة فى المستقبل وسراة البلاد الذين لا مثيل لحبهم للتحرر واللباقة ، ولكنها أصبحت فى الجيل الأخير مساوية بل إنها تسمو على مراكز العلم فى أوربا وأمريكا باعتبارها مراكز للبحث العلمى الصافى المجرد . آه لو رأيت الفرنسيين الذين يستمعون إلى وهم ينكمشون . إنهم يستطيعون أن يتحملوا استعراض طائراتنا ويتحملوا معركة فاشودة لأنهم ليسوا على ثقة أين هى على الخريطة . ولكن عندما يصل الأمر إلى الفلسفة الأفلاطونية والتجديد فى مسائلها فإنهم يشدون شعورهم .

هذا عبث منى لا يغتفر ولكن سيسرنى جداً أن أراك أنت وأليس مرة أخرى وأن نتحدث فى جميع أنواع المسائل وفى جميع أنواع الحالات النفسية .
هل قرأت كتاب باريه المسمى (من لا جذورلهم) ؟

المحب

م. شالدوزن عاموس

الفصل السادس

أصول الرياضيات (١)

PRINCIPIA MATHEMATICA

فى يوليو سنة ١٩٠٠ انعقد مؤتمر دولى للفلسفة فى باريس بمناسبة المعرض الذى أقيم فى تلك السنة ، وقررنا ، الفيلسوف هوايتهد وأنا ، أن نذهب إلى المؤتمر ، وقبلت دعوة القراءة بحث فيه . أحدث وصولنا إلى باريس دويًّا بسبب لقائنا مع عالم الرياضيات الفذ بوريل ، وكانت كارى توماس قد طلبت من أليس أن تحضر معها من لندن اثنتى عشرة حقيبة فارغة كانت قد نسيتها وراءها فى إنجلترا . كما كان بوريل قد طلب من هوايتهد وعائلته أن يحضرا ابنة أخيه التى كانت تشتغل مدرسة فى إنجلترا . فلما نزلنا فى محطة (جاردى نور) كان هناك حشد هائل فى انتظارنا وكان معنا تذكرة (عفش) واحدة لنا جميعاً . ووجدنا تذكرة عفش ابنة أخى بوريل كما وجدنا تذكرتنا بسهولة نسبيًّا. ولكن حقائب كارى الفارغة لم تظهر منها إلا إحدى عشرة حقيبة فقط . وبينما نحن فى انتظار الحقيبة الثانية عشرة ، فقد بوريل صبره وانتزع تذكرة العفش من يدى وذهب فى صحبة ابنة أخيه التى كانت معها حقيبتها . وهكذا تركنا عاجزين عن المطالبة بحقائب كارى ومتاعنا الشخصى . وتناوبت أنا وهوايتهد نقل المتاع قطعة واحدة فى المرة الواحدة ، نحملها وكأنها مدفع نشق به طريقنا بين موظفى المحطة الذين تجمعوا فى شكل حلقة . وقد بلغت بهم الدهشة إلى الحد الذى نجحت معه المناورة التى لجأنا إليها .

كان المؤتمر نقطة تحول فى حياتى الثقافية ، لأنى قابلت هناك پيانو Peano

(١) ترجم عنوان هذا الكتاب تحت اسم مبادئ الرياضيات ولكن لعل الترجمة الحالية توحى أكثر برصانة الاسم اللاتينى .

عالم الرياضيات الكبير ، وكنت أعرفه بالاسم من قبل ، وقرأت له بعض أعماله ولكنى لم أهتم بالإحاطة بها. فلما حضرت إلى المؤتمر وتتبعت مناقشاته لاحظت أنها أكثر ميلا للدقة من مناقشات أى إنسان آخر ، وأنه إذا دخل فى مناقشة مع الغير كانت حجته هى الأقوى . وبانقضاء اليوم تبين لى أن هذا لا بد أن يكون راجعاً إلى منطقه الرياضى ، ولذلك استطعت أن أحصل منه على نسخة من كل مؤلفاته . وما أن انتهى المؤتمر حتى ذهبت إلى فرنهرست وعزلت نفسى هناك حتى أعكف على دراسة كل كلمة كتبها هو وتلاميذه ، وظهر لى أن كتاباته تقدم أداة للتحليل المنطقى كنت أبحث عنها منذ سنين . وبدراسة أعمال بيانو وصلت إلى أسلوب قوى جديد فى عملى وهو ما كنت دائم البحث عنه . وقبل أن ينتهى شهر أغسطس كنت قد أصبحت على دراية تامة بكتابات مدرسة بيانو ، وأنفقت سبتمبر فى تطبيق أساليبه على منطق العلاقات. ويبدو لى الآن بعد هذه السنين الطويلة أن كل يوم من أيام ذلك الشهر كان دافئاً مشمساً . وكان الفيلسوف هوايتهد وعائلته معنا فى فرنهرست فشرحت له أفكارى الجديدة وكان النقاش ينتهى كل ليلة بمعضلة ، وفى الصباح كنت أجد الحل لها بعد أن أتوصل إليه أثناء النوم . وكنت أشعر فى ذلك الوقت بنشوة ذهنية وكانت إحساساتى تشبه إحساسات شخص فرغ من تسلق جبل قد لفه الغمام، وعندما وصل إلى القمة انجاب الغمام فجأة وأصبحت الرؤيا ممكنة على مدى البصر فى كل اتجاه لمسافة أربعين ميلا . لقد كنت أحاول منذ سنين أن أحلل الأفكار الأساسية فى علم الرياضيات ، مثل المرتبة والأرقام غير العشرية . وفجأة فى ظرف أسابيع قليلة ، اكتشفت ما كان يبدو لى إجابات نهائية للمسائل المعلقة التى كانت تحيرنى لسنين طويلة . وفى أثناء اكتشافى لهذه الإجابات ، كنت أقدم أسلوباً جديداً أمكن بواسطته أن تتحول مناطق كانت متروكة فيما سبق لأوهام الفلاسفة إلى صيغ مضبوطة لها صفة الدقة . وكان شهر سبتمبر عام ١٩٠٠ يمثل فى حياتى الفكرية أعلى نقطة وصلت إليها وكنت أقول لنفسى إذ ذاك : لقد استطعت الآن أخيراً أن أنجز شيئاً يستحق الإنجاز ،

وكان يخامرنى شعور غامر بضرورة المحافظة على نفسى حتى لا أتعرض لحوادث فى الشارع قبل أن أفرغ من كتابة نظريتى . وأرسلت بحثاً لمجلة بيانو يتضمن آرائى الجديدة . وفى بداية أكتوبر جلست إلى مكتبى لأكتب «أصول الرياضيات» الذى حاولت كتابته من قبل عدة مرات دون نجاح ، والأجزاء رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٦ من الكتاب فى طبعته المنشورة كتبت فى أشهر الخريف ، أما الأجزاء رقم ١ و ٢ و ٧ فكنت قد كتبتها فى ذلك الوقت ولكنى أعدت كتابتها فيما بعد ؛ لذلك لم يتم الكتاب فى صورته النهائية إلا فى مايو عام ١٩٠٢ .

وفى كل يوم من أيام أكتوبر ونوفمبر وديسمبر كنت أكتب عشر صفحات وانتهيت من كتابة المخطوط كله فى اليوم الأخير من القرن التاسع عشر ، وكتبت خطاباً لهيلين توماس من ٢٠٠,٠٠٠ كلمة فى نفس اليوم أزهو فيه بإنجازاتى .

والغريب أن نهاية القرن شهدت أيضاً نهاية ذلك الشعور بالزهو ، فمنذ تلك اللحظة بدأت تنتابنى نوبات فكرية وعاطفية كانت تهبط بى إلى أعمق هاوية لليأس عرفتها فى حياتى .

وفى أثناء الفصل الدراسى الثانى من عام ١٩٠١ أقمت أنا وهوايتهد وزوجته فى بيت الأستاذ ميتلاند فى كلية داوننج بكامبردج ، وكان قد ذهب إلى ماديرا بأسبانيا لأسباب صحية ، وأخطرتنا المشرفة على شئون منزل الأستاذ ميتلاند أن عوده قد جف جدًّا من أكل الخبز المقدد ، ولكنى لا أعتقد أن هذا هو التشخيص الطبى لمرضه. كانت زوجة هوايتهد فى ذلك الوقت مصابة بمرض أصبحت بسببه أكثر ملازمة للفراش وكانت تقاسى من آلام حادة نتيجة لإصابتها فى القلب . وتولانا أنا وهوايتهد شعور بالقلق عليها ، فلم يكن مجرد زوج بار بزوجته ، بل كان شديد الاعتماد عليها ، وأخذت أشك فى استطاعته بعد موتها أن يقوم بعمل علمى له قيمته . وفى يوم من الأيام قدم إلى كلية نيونهام بكامبردج (وهى كلية بنات) جلبرت مرى أستاذ الدراسات اليونانية بجامعة أكسفورد ، لكى يقرأ جزءاً من ترجمته لمسرحية يوربيدس العظيمة « هيبولايتس » ، ولم تكن قد صدرت بعد . وذهبت أنا وأليس لنسمعه وقد

حركنى جمال الشعر من أعمق الأعماق[١] ، وعندما عدنا إلى المنزل وجدنا زوجة هوايتهد فى نوبة قاسية من نوبات الألم ، وكان يبدو أنها قد قطعت صلتها بكل إنسان وبكل شىء ، كأنما أقام العذاب جدرانا تفصل بينها وبين كل ما عداها . وهنا استبد بى فجأة ذلك الشعور الرهيب بالوحشة الذى يغمر الروح الإنسانية . فمنذ زواجى سارت حياتى العاطفية مسيرة هادئة سطحية ونسيت كل القضايا العميقة واكتفيت باصطناع الذكاء فى المعابثة . وفجأة انهارت الأرض تحت قدمى ووجدت نفسى فى منطقة مختلفة تماماً . وفى غضون خمس دقائق خطرت لى التأملات الآتية ، إن وحشة الروح الإنسانية لا تحتمل . ولا شىء يستطيع النفاذ إليها إلا الحدة البالغة التى يتسم بها الحب الذى يبشر به رجال الدين ، وكل مالا يصدر عن هذا الدافع ضار ولا خير فيه على أحسن الفروض . وبناء عليه فإن الحرب شر ، وتربية المدارس الإنجليزية الخاصة تربية فظيعة ، واستخدام العنف يجب أن يكون موضع تنديد واستنكار ، وأخيراً فى العلاقات الإنسانية يجب أن ينفذ المرء إلى مكمن الوحشة فى قلب كل إنسان ويتحدث إليه.

وكان أصغر أولاد هوايتهد فى الغرفة وعمره ثلاث سنوات ، ولم أكن قد التفت إلى وجوده من قبل ولا هو التفت إلىّ . كان يجب أن يحال بينه وبين أمه وهى فى غمرة الألم الذى كان يعتصرها . وتناولت يده لأمضى به بعيداً فتبعنى طائعاً مستسلماً وقد زايله الشعور بالغربة . ومنذ ذلك اليوم حتى موته فى حرب ١٩١٨ كنا صديقين حميمين .

وفى نهاية هذه الدقائق الخمس ، أصبحت إنساناً مختلفاً تماماً . وتملكنى لبرهة شىء من نورانية الصوفية وشعرت كأننى أقف على أدق خلجات كل إنسان أقابله فى الشارع . وعلى الرغم من أن كل هذا كان بلا شك نوعاً من الخداع النفسى إلا أنى وجدت نفسى فى الحقيقة أقرب إلى كل أصدقائى مما كنت ، قبلا ، بل لقد ازداد اقترابى حتى من مجرد معارفى . ولما كنت من المتشيعين للإمبراطورية حتى ذلك الوقت ، فإننى تبدلت فجأة أثناء هذه

(١) انظر خطابى إلى جلبرت مرى ورده صفحات ٢٤٣ — ٢٤٥ وأيضاً الخطابات المتعلقة بالباكاى ص ٢٥٠ .

الدقائق الخمس وأصبحت موالياً للبوير ومن أنصار السلام . كنت طوال تلك السنين لا أهتم إلا بالدقة والتحليل فإذا بى أجد نفسى ممتلئاً بمشاعر أشبه بمشاعر الصوفية فيما يتعلق بموضوع الجمال . وأصبح لى ولع غريب بالأطفال ، وتولدت عندى رغبة عميقة كرغبة بوذا فى العثور على فلسفة تجعل الحياة الإنسانية محتملة ، وتملكتنى نشوة غريبة مثيرة فيها الألم الممض وفيها أيضاً شعور عارم بلذة النصر لأنى أسيطر على الألم وأجعله ، كما كنت أعتقد إذ ذاك، سبيلى إلى الحكمة . ولقد وهن فىّ ذلك الشعور الصوفى العميق الذى كنت أظننى أحسه ، وعادت إلى مرة أخرى عادة التحليل ، ولكن شيئاً مما خيل إلى أنى كنت أراه فى تلك اللحظة بقى معى دائماً ، وهو السبب فى موقفى دفاعاً عن السلام أثناء الحرب العالمية الأولى وهو السبب أيضاً فى اهتمامى بالأطفال وعدم احتفالى بالكوارث الصغيرة ، وفى وجود نبرة عاطفية فى كل علاقاتى الإنسانية .

فى نهاية الفصل الدراسى الثانى ذهبت أنا وأليس إلى فرنهرست حيث بدأت أعمل لكى أفرغ من كتابة القياس المنطقى للرياضيات الذى أصبح فيما بعد (أصول الرياضيات) وكنت أظننى على وشك الفراغ منه ، ولكن فى شهر مايو حدثت لى نكسة فكرية فى عنف النكسة العاطفية التى انتابتنى فى فبراير . فقد توصل كانتور إلى برهان بأنه ليس هناك حد أقصى للعدد . وكنت أرى أن مجموع الأشياء الموجودة فى العالم يجب أن يكون هو الحد الأقصى للعدد ولذلك حققت برهانه وفحصته بشىء من الدقة وحاولت أن أطبقه على أصناف الأشياء جميعاً وهذا جعلنى أختبر تلك الأصناف التى ليست أفراداً بنفسها وأتساءل عما إذا كان أى صنف من تلك الأصناف يعتبر فرداً من نوعه أم لا . ووجدت أن أى جواب من هذين الجوابين يقتضى وجود عكسه . واعتقدت فى أول الأمر أنه يجب أن أتغلب على هذا التناقض بسهولة شديدة ، ولعل هناك خطأ بسيطاً فى التدليل . غير أنه تبين لى بالتدريج أن هذا ليس صحيحاً . وكان بورالى فورتى قد اكتشف تناقضاً مماثلا وتبين بعد التحليل المنطقى أن هناك شبهاً بالتناقض اليونانى القديم حول إبيمنيديس الكريتى

الذى قال إن كل أهل كريت كذابون . إن تناقضاً مشابهاً أساساً لتناقض إبيمنيديس يمكن أن يوجد إذا أعطينا شخصاً قطعة من الورق مكتوباً عليها : « إن الكلام المكتوب على الوجه الآخر غير صحيح » حتى إذا قلبها بعد ذلك وجد على الوجه الآخر ما يلى « إن الكلام المكتوب على الوجه الآخر من هذه الورقة غير صحيح » . وكان يبدو أنه لا يليق برجل فى كامل وعيه أن يضيع وقته فى مثل هذه التفاهات ، ولكن ما ذا كان فى وسعى أن أفعل ؟ كان هناك خطأ ما مادامت مثل هذه التناقضات لا مفر منها فى المقدمات العادية . وسواء أكانت المسألة تافهة أم لا ، فقد كان يواجهنى تحد من نوع ما . وفى خلال النصف الأخير من سنة ١٩٠١ اعتقدت أن الحل سهل ، ولكن فى نهاية تلك الفترة وصلت إلى أن المسألة فعلا عويصة ، ولذلك عزمت على أن أنتهى من كتاب (أصول الرياضيات) تاركاً الحل معلقاً . وفى الخريف عدت أنا وأليس إلى كامبردج فقد دعيت للتدريس بها لمدة فصلين دراسيين عن المنطق الرياضى . وأصبحت المحاضرات هى الهيكل الأساسى لكتاب (أصول الرياضيات) ولكن لم تكن هناك إشارة إلى الطريقة التى يمكن بها معالجة التناقضات .

وعند انتهائى تقريباً من إعطاء تلك المحاضرات ، وكنا نقيم مع هوايتهد وعائلته فى ميل هاوس فى جراتشستر بالقرب من كامبردج ، تعرضت لضربة من ضربات القدر أعنف من كل الضربات السابقة . فى عصر يوم من الأيام كنت أركب دراجتى وفجأة ، وبينما كنت أقطع طريقاً زراعيّاً ، تبينت أننى لم أعد أحب زوجتى أليس . ولم أكن حتى تلك اللحظة أحس أن حبى لها قد أصابه شىء من الفتور أو أنه تضاءل ، وكانت المشكلة التى واجهتنى بعد ذلك الاكتشاف مشكلة عويصة جدّاً . فقد كنا نعيش منذ زواجنا فى أوثق صورة من صور الارتباط . كنا نشترك فى سرير واحد ولم تكن لأى منا غرفة خاصة يخلع فيها ملابسه وكنا نتبادل الحديث فى كل ما يخطر لنا . وكانت هى تكبرنى بخمس سنوات وكنت قد تعودت أن أنظر إليها ؛ على أنها أكثر منى حصافة من الناحية العملية وأكثر تبصراً بأمور الدنيا . ولذلك تركت لها التصرف

فى كثير من مسائل الحياة اليومية . وكنت أعلم أنها مازالت على إخلاصها لى ولم تكن لدى رغبة فى أن أعاملها معاملة غير كريمة ، ولكنى اعتقدت إذ ذاك (وقد علمتنى التجربة فيما بعد أن هذا الاعتقاد ربما كان فى غير محله) أن الإنسان يجب عليه فيما يتصل بالعلاقات الشخصية الحميمة أن يفضى بحقيقة ما يشعر به ، وعلى أية حال لم أكن أستطيع أن أتظاهر لمدة طويلة بطريقة مقنعة أنى أحبها ، فى حين أنى لم أكن أحبها بالفعل . وأصبحت لا أشعر بأى ميل جنسى نحوها ، وكان هذا حجر عثرة أمامى كلما أردت إخفاء حقيقة مشاعرى نحو أليس . وفى تلك المحنة ظهرت علىّ أعراض التزمت الذى ورثته عن أبى وأخذت أبرر مسلكى باعتراضات مبنية على أسس أخلاقية . لم أقل لأليس مباشرة طبعاً إنى أصبحت لا أحبها ولكنها أدركت أن الأمور لم تكن على مايرام . وذهبت أليس إلى مكان للاستجمام لمدة شهور ، فلما عادت أبلغتها أنى لم أعد أحب أن أشاركها غرفة واحدة واعترفت لها فى النهاية أن حبى لها قد مات . وبررت موقفى هذا أمام نفسى وأمامها باعتراضات أخلاقية .

ومع أن شعورى بالرضا عن نفسى إذ ذاك يبدو لى الآن شيئاً يدعو للتقزز فإن اعتراضاتى كانت قائمة على أساس قوى ، فقد كانت أليس تحاول أن تدعى العصمة من الآثام وهو مالا ينطبق على أى إنسان ، وهذا دفعها إلى أن تتصنع ما ليس فيها ، وكانت ، مثل أخيها لوجان ، تحب الشر ، كما كانت تحب أن توقع العداوة بين الناس . وكانت تلجأ بشكل غريزى إلى أساليب ملتوية . كانت تكيل المديح للناس حتى يعجبوا بدماثتها وكرم أخلاقها ، ولكنها كانت فى قرارة نفسها تنتقد الممدوح بحيث يكون خيراً له لو أنها ذمته . وكثيراً ماكان يدفعها حب الشر إلى التخلى عن الصدق ، قالت مرة لزوجة هوايتهد إننى لا أطيق الأطفال وإن أطفال هوايتهد يجب أن يبتعدوا عن طريقى ما أمكن وأخبرتنى فى نفس الوقت أن زوجة هوايتهد أم سيئة لأنها لا ترى أطفالها إلا قليلا . وعندما كنت أركب دراجتى تمثلت لى مثل هذه الخواطر وأصبحت لا أرى فى أليس تلك القديسة التى كنت أتصورها فى وقت من الأوقات . وتضخمت

الهواجس التى كانت تراودنى فى غمرة نفورى منها ، فأنستنى المزايا العميمة التى كانت تتحلى بها فى واقع الأمر .

وكان التغيير الذى طرأ على مشاعرى نحو أليس راجعاً بقدر ما إلى أنى اكتشفت فى أخلاقها ولو بصورة ضعيفة ، أشياء كنت أكرهها فى أمها وأخيها. كانت أليس تكن لأمها إعجاباً لا حد له فكانت تراها مزيجاً من القديسة وحكيم الزمان . وكانت هذه النظرة مألوفة بالنسبة للكثيرين ومنهم مثلا الفيلسوف وليم جيمس الذى كان يقدس أم أليس . أما أنا ، فعلى العكس من ذلك ، وصلت تدريجياً إلى اعتبار حماتى من أسوأ من عرفت من النساء ، فإن معاملتها لزوجها الذى كانت تحتقره ، كانت مهينة إلى أبعد حد . إذ لم تكن تخاطبه أو تتحدث عنه إلا بلهجة تكشف عن احتقارها له . صحيح أنه كان عجوزاً غبياً بما لا يدع مجالا للإنكار ، ولكنه لم يكن يستحق منها أو من أى إنسان فى قلبه ذرة من الرحمة كل هذه الزراية . وكان يتخذ له خليلة يعتقد فى غباء أن زوجته لا تعلم عنها شيئاً . فكان يمزق خطابات تلك المرأة ويلقى بقطع الورق إلى سلة المهملات ، ولكن زوجته كانت تجمع تلك القطع وتقرأ الخطابات على ابنتها أليس وولدها لوجان، فكانوا جميعاً يستغرقون فى الضحك . وعندما مات الرجل العجوز باعت أسنانه الصناعية ورفضت أن تنفذ وصيته لها وهو على فراش الموت بأن تمنح البستانى خمسة جنيهات (وقد جمعنا المبلغ دون حاجة إلى تبرعها) . وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى انتقدها فيها لوجان ، حتى إن الدموع بللت عينيه لفرط ما شاهده من قسوة أمه . ولكنه عاد من جديد إلى احترامها على عادته . فى خطاب لها كتبته عندما كان ولدها لوجان فى الشهر الثالث والنصف من عمره ، قالت : « دخلت أنا ولوجان فى أول معركة لأعلمه النظام وقد انتصر هو فى المعركة دون أن يعلم ، فيما أعتقد . فقد ضربته بالكرباج حتى أصبح لونه أسود وأزرق وحتى أصبحت بالفعل عاجزة عن الاستمرار فى ضربه ، ولكنه لم يتراجع قيد شعرة ، وأرجو مع ذلك أن يكون هذا درساً له »[1] . وقد كان . فلم تعد بحاجة إلى ضربه مرة أخرى حتى

(١) من كتاب لوجان بيرسال سميث المسمى (متمرد على الدين) ص ٨ .

يستحيل لونه إلى أسود وأزرق . وكانت تنشئ أولادها على الاعتقاد بأن الرجال وحوش وأنهم بلهاء فى حين أن النساء ملائكة يكرهن العلاقات الجنسية . ولذلك أصيب لوجان ، كما هو متوقع ، بالشذوذ الجنسى . وكانت تؤمن بجنس الإناث إلى الحد الذى جعل من الصعب عليها أن تحترم مشيئة الخالق وهو ذكر لا أنثى ، فكانت كلما مرت بحانة تقول : « هذا تدبيرك يارب ولو كان الخالق أنثى ، لما كانت هناك خمور » .

وجدت تأييد أليس لأمها شيئاً لا يمكن احتماله ، ففى مرة عرضت للإيجار فرايدايز هل ، وورد كتاب من بعضهم يسأل عما إذا كانت الشروط الصحية فى المنزل قد نفذت تحت رقابة مفتش صحة معتمد . فجمعتنا جميعاً حول مائدة الشاى وقالت لنا إن هذه الشروط الصحية لم تعتمد ولكنها ستقول إنها معتمدة . وسارعت أنا إلى الاحتجاج ، أما لوجان وأليس فقد سارعا إلى إسكاتى كما لو كنت طفلا شقياً قاطع أستاذه الذى يعلمه . وكنت أحاول أحياناً أن أتحدث إلى أليس عن أمها ولكن محاولاتى كانت بلا جدوى . وفى النهاية امتد نفورى من هذه المرأة العجوز إلى كل من حولها من المعجبين بها بما فيهم زوجتى أليس .

وأتعس أيام حياتى هى التى قضيتها فى جرانشستر ، إذ كانت غرفة نومى تطل على الطاحونة ، وكان صوت الطاحونة التى تدور بقوة دفع المياه فى النهر يختلط اختلاطاً تاماً بالصوت اليائس فى أعماقى . فلم تكن تغمض لى عين ليالى طويلة كنت فيها أستمع أولا إلى العندليب ثم إلى مجموعة الطيور التى تظهر فى الفجر ثم أشهد مطلع الشمس وأحاول جاهداً أن أستمد العزاء من جمال الطبيعة فى الخارج . وقاسيت بشكل حاد ذلك الشعور بالوحشة الذى أدركت فى العام الماضى أنه مصير كل إنسان ، وكنت أسير وحدى فى الحقول المحيطة بجرانشستر وأشعر بشكل غامض أن أشجار الصفصاف وهى تهتز بفعل الرياح تحمل لى رسالة من أرض السلام . وقرأت كتب الدين مثل كتاب (تيلر) المسمى « بالموت المقدس » وذلك على أمل أن يكون هناك شىء مستقل عن المعتقدات

الدينية يجعل الذى يؤمن بشىء يشعر بالسعادة فى إيمانه . وحاولت أن أجد ملجأ فى حياة التأمل ، وبدأت فعلا فى كتابة كتابى (عبادة الرجل الحر) . ولكن الشىء الوحيد فى الكتاب الذى عزانى بعض الشىء هو إيقاع النثر وجرس العبارات .

وطول الوقت الذى كنت فيه منهمكاً فى كتابة (أصول الرياضيات) كانت علاقاتى بهوايتهد صعبة ومعقدة ؛ كان هوايتهد يظهر للعالم الخارجى على أنه رجل هادئ ومعقول وحصيف ، ولكن ما أن يتعرف عليه المرء جيداً حتى يتكشف أن ظاهره غير باطنه . فقد كان يقاسى ، شأن الكثيرين ممن يتحلون بميزة ضبط النفس ، من نزعات أقرب ما تكون إلى الجنون . وقبل أن يلتقى بزوجته كان يفكر فى الانضمام للكنيسة الكاثوليكية ، ولم يحوله عن ذلك فى اللحظة الأخيرة إلا وقوعه فى غرامها . وكان يطارده الخوف من العوز المالى ، ولكنه لم يستطع دفع هذا الخوف بطريقة سليمة بل كان ينفق ببذخ لكى يقنع نفسه أن فى وسعه أن يكون مسرفا . وكثيراً ما كان يثير ذعر زوجته وخدمه حين يتمتم بكلام يزجر به نفسه بشكل لا يرحم . وكان يلزم الصمت أحياناً لعدة أيام لا ينبس فيها بكلمة لأحد فى البيت . وكانت زوجته فى حالة خوف دائم من أن يفقد رشده . وأعتقد ، مؤخراً ، أنها كانت تبالغ فى تصوير ذلك الخطر . فقد كانت تميل إلى المغالاة والتهويل فى تصوير الأخطار المحدقة . ولكن الخطر الذى تخشاه كان ماثلا بالفعل ، وإن لم يكن بالدرجة التى تصورتها . وقد كانت تتحدث عنه معى بمنتهى الصراحة وكنت أجد نفسى متفقاً معها فى ضرورة الحفاظ على قواه العقلية حتى لا يتسرب إليه الجنون . ومهما يكن من شىء فإن عمله لم يتأثر قط بحالته العقلية بل كان يحس الإنسان أنه يبذل مجهوداً فى ضبط نفسه فوق احتمال البشر ، حتى لقد كان انهياره ممكناً فى أية لحظة . وكانت زوجته تكشف دائماً أنه مدين للكثيرين من تجار كامبردج ولم تكن تستطيع أن تخبره أن مالديها من المال لا يكفى للسداد ، وذلك حتى لا تدفعه إلى حافة الجنون . وكنت أتابع مصادر ديونه فى سرية وأقوم بالسداد نيابة عنه ، فقد كان من أعسر الأمور على النفس خداع هوايتهد الذى كان

لا شك سيحس بالمهانة لو عرف حقيقة الأحوال . ولكن كانت هناك عائلته وهذه يتعين الإنفاق عليها ، وكان على كذلك أن أكتب « أصول الرياضيات » ولم يكن من سبيل للوفاء بهذا أو ذاك معاً ، ولكنى دفعت كل ما استطعت أن أحصل عليه من مالى بل اضطررت للاستدانة . وآمل أن تكون الغاية التى كنت أنشدها مبرراً كافياً للوسيلة التى اتبعتها . وحتى هذه اللحظة (عام ١٩٥٢) لم أكاشف أحداً قط فى هذا الشأن .

وفى أثناء ذلك كانت أليس أكثر منى تعاسة ، وكانت تعاستها أكبر مصدر لتعاستى . كنا فى الماضى نقضى وقتاً كبيراً مع عائلتها ولكنى أخبرتها أننى لم أعد أستطيع احتمال أمها وأنه يتعين علينا لذلك مغادرة فرنهرست. وأمضينا الصيف بالقرب من برودواى فى مقاطعة ورستشر . وجعلنى الألم ميالا للعاطفة فكنت أنشئ عبارات مثل : « إن قلوبنا تبنى أضرحة ندفن فيها ما تبقى من رماد آمالنا التى ماتت » . بل إننى تنازلت وقرأت (ميترلنك)[1]. وقبل ذلك الوقت وفى جرانشستر ، وفى قمة تعاستى ومحنتى انتهيت من كتابى « أصول الرياضيات ». وكان اليوم الذى فرغت فيه من كتابة المخطوط موافقاً ليوم ٢٣ من مايو. وفى برودواى بمقاطعة ورستشر ، عكفت على تنقيحه بحيث أصبح فى صورته النهائية كتاب « أصول الرياضيات » المعروف . وفى ذلك الوقت كنت قد ضمنت تعاون هوايتهد معى ، ولكن موقفى غير الواقعى وغير المخلص ثم موقفى العاطفى الذى سمحت لنفسى بالتورط فيه ، أثر على عملى العلمى ، وأذكر أننى أرسلت لهوايتهد مسودة الجزء الأول من الكتاب ، فكان جوابه « لقد ضحيت بكل شىء ، حتى موضوع الكتاب ، لأجعل مسودات الطبع تبدو قصيرة ومحكمة » . وهذا النقص فى الكتاب راجع إلى قصور فى حالتى النفسية إذ ذاك .

وعندما حل الخريف أقمنا لمدة ستة أشهر فى بيت فى (شين وولك) ، وأصبحت الحياة محتملة أكثر من ذى قبل ، فقد التقينا بأناس عديدين يتسمون

---

(١) الكاتب المسرحى البلجيكى الأصل الذى اشتهر بالرمزية فى نهاية القرن الماضى .

باللطف والظرف ، مسليين مريحين. وبدأنا نعيش حياة نتصل فيها بالآخرين ولكن كان هذا الاتصال مهدداً دائماً بالتوقف . ولما كنا ، أنا وأليس ، نعيش فى نفس البيت فقد كانت تنزل إلى فى الطابق السفلى، بين آونة وأخرى، بقميص النوم بعد أن تكون قد آوت إلى فراشها ثم ترجونى أن أقضى الليل معها ، وكنت أفعل ذلك أحياناً ولكن النتيجة كانت غير مريحة إطلاقا . وظل الحال على هذا المنوال تسع سنوات . وكانت أليس تأمل فى أن تعيد المياه إلى مجاريها طوال تلك السنين ولم تتعلق برجل آخر . وفى أثناء تلك المدة لم تكن لى علاقات جنسية بغيرها من النساء . وكنت أحاول مرتين فى السنة تقريباً أن أعاشرها معاشرة الأزواج على أمل التخفيف مما كانت تستشعره من تعاسة ، ولكنها لم تعد تجذبنى جنسياً وذهبت محاولاتى هباء . وعندما أمد بصرى عبر السنين إلى تلك الأيام أشعر أنه كان ينبغى على أن أكف عن العيش معها فى بيت واحد . ولكنها كانت تريدنى أن أبقى إلى جانبها بل إنها هددت بالانتحار إذا تركتها . ولم تكن هناك امرأة أخرى أود الذهاب إليها ولذلك كان يبدو أنه ليس هناك ما يمنع من تلبية رغبتها .

لقد قضينا صيف ١٩٠٣ وصيف ١٩٠٤ فى (تشيرت) و(تلفورد) ، وتعودت على التجول فى الحقول المحيطة بالبلدة كل ليلة من الحادية عشرة مساء إلى الواحدة ، وبهذه الوسيلة توصلت إلى تمييز أصوات ثلاثة لطائر اسمه السبد (ومعظم الناس لا يعرفون له إلا صوتاً واحدا) وكنت أحاول بكل جهدى أن أحل التناقض الذى سبقت الإشارة إليه . فكنت أجلس كل صباح وأمامى ورقة بيضاء ، وأمضى النهار كله ، باستثناء فترة قصيرة للغداء ، محملقاً فيها وعندما يحل المساء تكون الورقة فى معظم الأحيان مازالت بيضاء على حالها . وكنا نمضى الشتاء فى لندن ولم أكن أحاول العمل فى فصل الشتاء ولكن صيف ١٩٠٣ وصيف ١٩٠٤ يرتبطان فى ذهنى بالكساد العقلى ، وكان واضحاً لى أن من غير الممكن أن أتقدم بدون حل لهذه التناقضات ، وصحت عزيمتى على ألا تحول أية صعوبة بينى وبين إتمام كتاب (أصول الرياضيات) ، ولكن كان يبدو محتملا

جداً أن تذهب البقية الباقية من عمرى فى الحملقة فى تلك الورقة البيضاء . وما جعلنى أضيق بها كثيراً أن التناقضات كانت تافهة ، وأن وقتى كان يضيع فى أشياء يبدو لى أنها لا تستحق اهتماماً جدياً .

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن وقتى كله كان يستغرقه اليأس والمجهود الذهنى فإنى أذكر مثلا تلك المناسبة ، التى سبق الحديث عنها ، والتى تتعلق بزيارة (مينارد كينز) لنا فى (تيلفورد) ، من يوم السبت إلى الاثنين .

وابتداء من ١٩٠٥ بدأت الأحوال تتحسن . وقررت أنا وأليس أن نسكن قريباً من أكسفورد وبنينا لنا بيتاً فى (باجلى وود) ، (ولم يكن فى تلك المنطقة أى بيت آخر وقتئذ) وانتقلنا إلى هناك فى ربيع ١٩٠٥ وبعد استقرارنا بقليل اكتشفت « نظرية الأوصاف » التى كانت أول خطوة فى سبيل قهر الصعاب التى ظلت تحيرنى طويلا فى علوم الرياضيات . وبعد ذلك مباشرة علمت بموت (ثيودور ديفيز) الذى تحدثت عنه فى فصل سابق .

وفى عام ١٩٠٦ اكتشفت « نظرية الأنماط » ولم يبق بعد هذا إلا تحرير مادة الكتاب . وكان عمل هوا يتهد كمعلم لا يدع له الفراغ الكافى للقيام بهذه المهمة الآلية. فتوفرت عليها ما بين عشر واثنتى عشرة ساعة يوميا لمدة ثمانية أشهر فى العام ، وذلك من ١٩٠٧ إلى ١٩١٠ وتضخم المخطوط فى الحجم . وفى كل مرة كنت أخرج للنزهة ، كان ينتابنى الخوف من أن تشتعل النار فى المنزل ويحترق المخطوط . ولم يكن المخطوط بالطبع من النوع الذى يمكن كتابته على الآلة الكاتبة أو حتى نسخه ، وعندما ذهبنا به أخيراً إلى مطبعة الجامعة ، كان من الضخامة بحيث اضطررنا لاستئجار عربة ذات أربع عجلات لحمله . وحتى بعد نقله لم تنته المتاعب ، فقد قدرت المطبعة أن الكتاب سيخسر ستمائة جنيه ، وأبدى الناشرون استعدادهم لتحمل خسارة قدرها ثلثمائة جنيه ولكنهم قرروا أنهم لا يستطيعون تجاوز هذا الرقم فى الخسارة ، وهنا تقدمت الجمعية الملكية وتفضلت بدفع مائتى جنيه ، وتعين علينا أن ندفع المائة الباقية . وهكذا كان ما خسره كل منا بعد عمل عشر سنوات خمسين جنيهاً . وهى خسارة سجلت

رقماً قياسيًّا ، فى هذا المجال ، يفوق الرقم الذى وصلت إليه ملحمة « الفردوس المفقود » للشاعر جون ميلتون .

وكان لوطأة الشقاء الذى كنت أشعر به وللإرهاق الذهنى الشديد الذى امتد بى من ١٩٠٢ إلى ١٩١٠ أثرهما الهائل على[١] . وكنت أتساءل فى تلك الفترة : ترى هل يقدر لى أن أخرج من السرداب الطويل المظلم الذى يبدو أننى تورطت فيه ؟ كنت أقف على القنطرة الصغيرة فى (كننجتون) بالقرب من أكسفورد ، أشاهد القطارات وهى تمر تباعاً وأعتزم أن ألقى بنفسى تحت أحدها . وعندما يأتى الغد كنت أجد نفسى وقد عاودنى الأمل فى أن أنتهى من (أصول الرياضيات) فى يوم ما . وكانت الصعاب التى تعترضنى تبدو لى فوق ذلك وكأنها تحديات لابد من قهرها ، وهكذا ثابرت على العمل حتى فرغت من الكتاب آخر الأمر ، ولكن ذهنى لم يشف تماماً من الإجهاد المضنى الذى تعرض له . ومنذ ذلك الوقت ضعفت قدرتى عما كانت عليه من قبل فى معالجة المجردات الصعبة ، وهذا يفسر جزئيًّا تغير طبيعة العمل الذى اضطلعت به بعد ذلك وإن لم يكن يفسره تماماً .

وفى أثناء تلك الفترة كنت أقضى شهور الشتاء من هذه السنوات غالباً فى الاهتمام بالقضايا السياسية . وعندما بدأ تشمبرلن يدعو للحماية الجمركية وجدت نفسى متحمساً لإطلاق حرية التجارة . وكان التأثير الذى تركه فى نفسى (هوينز) فجعلنى أومن بالإمبراطورية وبالاتحاد الجمركى الاستعمارى قد تبخر فى لحظات المحنة التى مررت بها عام ١٩٠١ ، فأصبحت داعية للسلام . ومع هذا أصبحت فى ١٩٠٢ عضواً فى ناد صغير للعشاء كان يسمى « المعامل » أنشأه (سيدنى وب) بغرض تناول المسائل السياسية من وجهة نظر استعمارية بصورة أو بأخرى . وفى ذلك النادى تعرفت بالكاتب (هربرت جورج ولز) ولم أكن قد سمعت به من قبل . وكان أكثر تعاطفاً مع وجهة نظرى من أى

---

(١) انظر خطاباتى إلى لوسى .

عضو آخر ، بل إن معظم الأعضاء أصابونى فى الواقع بصدمة عميقة ، وما زلت أذكر عينى (إيمرى) وهما تتقدان كلما وردت على خاطره فكرة حرب مع أمريكا تستحق ، كما قال لى فى زهو وحماسة ، أن يجند لها كل الذكور البالغين من سكان بريطانيا . وفى ليلة من الليالى ألقى السيد (إدوارد جراى) ولم يكن فى الحكومة إذ ذاك خطبة يحبذ فيها سياسة التفاهم الودى ، ولم تكن هذه السياسة قد تبنتها الحكومة بعد . وأبديت اعتراضى على هذه السياسة بقوة شديدة وبينت أنها ستؤدى إلى حرب محتملة ولكن لم يتفق معى فى الرأى أحد فاستقلت من النادى . ومن هذا يتضح أنى بدأت معارضتى للحرب العالمية الأولى فى لحظة مبكرة جداً . وبعد ذلك اعتدت التحدث مدافعاً عن حرية التجارة باسم هيئة « رابطة إطلاق حرية التجارة » ولم أكن قد حاولت التحدث فى اجتماع عام ، ولذلك كنت فى أول الأمر خجولا مضطرباً لدرجة أنه لم يكن لكلامى أى تأثير . ولكنى بالتدريج تخلصت من الشعور بالاضطراب . وبعد انتخابات ١٩٠٦ وعندما فقدت قضية الحماية الجمركية أهميتها فى أذهان الناس ، تحولت للدفاع عن قضية إعطاء المرأة حق الانتخاب . واستناداً إلى مبادئ المناهضة للحرب كنت ضد القائلين باستعمال العنف وفضلت دائماً أن أعمل مع الحزب الدستورى . بل إننى فى سنة ١٩٠٧ رشحت نفسى للبرلمان فى انتخاب فرعى رافعاً شعار إعطاء المرأة حق الانتخاب وكانت الحملة الانتخابية فى (ويمبلدون) قصيرة ومشتعلة الحماس . ومن المحال على من هم أصغر منى سناً أن يتخيلوا مبلغ المرارة التى قابل بها الناس الدعوة لمساواة المرأة بالرجل . وعندما قمت فى السنوات اللاحقة بحملة ضد الحرب العالمية الأولى لم تكن المقاومة الشعبية التى واجهتنى لتقارن بالمقاومة التى لقيتها الداعيات لإعطاء المرأة حق الانتخاب فى عام ١٩٠٧ . وكان الموضوع كله ، عند الغالبية الساحقة من الناس ، يعالج باعتباره موضوعاً للتفكه . فكان الجمهور يصرخ فى عبارات ملؤها السخرية موجهاً كلامه للنساء : « لماذا لا تعدن إلى البيوت وتوجهن عنايتكن للأطفال ؟ » وموجهاً كلامه للرجال قائلا : « هل تعلم أمك

أنك تركت البيت وجئت إلى هنا ؟» وكان هذا الكلام يوجه بصرف النظر عن عمر المتحدث . وكان البيض الفاسد يصوب إلىّ وقد أصاب زوجتى بعضه فعلا . وفى أول اجتماع لى كانت الفئران تطلق لتخويف السيدات بل كانت المشتركات فى المؤامرة ضدى يصرخن متظاهرات بأنهن مذعورات حتى يلطخن جنسهن بالعار . وهنا صورة من هذه الاجتماعات فيما كتبته إحدى الصحف فى ذلك الوقت .

ضجة انتخابية

إطلاق الفيران لتخويف المطالبات بحقوق المرأة

معركة فى ويمبلدون

افتتح صاحب السعادة برتراند رسل ، المرشح عن دائرة ويمبلدون والذى ينادى بإعطاء المرأة حقوقها السياسية ، حملته الانتخابية يوم السبت الماضى . فقد خطب فى اجتماع حاشد صاخب فى قاعة « و يربل » وكان استقبال رئيس الجلسة السيد او . هـ . بيتى (وهو عضو مجلس إدارة رابطة حزب الأحرار) استقبالا اختلط فيه الاستحسان بالاستهجان . وكان المتحدثون فى الاجتماع هم : حرم برتراند رسل وهى مرشحة والسيد / سانت جورج كلين فوكس بت الذى لم ينجح فى الانتخابات العامة عن حزب الأحرار ، وحرم فيليب سنودن والآنسة أليسون جارلاند وغيرهم ممن لهم صلة بالاتحاد القومى للجمعيات المطالبات بحقوق المرأة .

وكان واضحاً من البداية أن قسماً من الجمهور — حوالى ألفين — معاد لمروجى هذه الدعوة وكثيراً ما كان رئيس الجلسة يطلب إلى المجتمعين أن يكفوا عن الكلام دون جدوى . وفى ظرف عشر دقائق من ابتداء الجلسة حدثت معركة فى ركن من القاعة اختلط فيها الحابل بالنابل وانقضت خمس دقائق قبل أن يسود الهدوء مرة أخرى . وقد قفز كثيرون على المنصة والكراسى وأخذوا يشجعون المشتبكين فى العراك .

وفى مرحلة أخرى من مراحل الاجتماع أطلقت فيران كبيرة الحجم من حقيبة، واندفعت تجرى على أرض الصالة فى كل اتجاه بين عدد من السيدات الجالسات فى الصفوف الأولى . وقد ساد الهرج والمرج لحظة، وقفزت السيدات فوق الكراسى فى حين أخذ الرجال فى صيد الفيران من بين المقاعد واستطاعوا آخر الأمر أن يقتلوها . وفى نهاية الاجتماع أخذوا فأراً من الفيران الميتة إلى (فكتوريا كرسنت) وألقوا به فى غرفة اللجنة الانتخابية للمرشح .

على أن الهرج الذى ظهر فى الاجتماع اقتصر على حشد ضخم من الرجال والشبان الذين لا يشعرون بالمسئولية والذين كان يجب ألا يسمح لهم بدخول الاجتماع ، وليس من الإنصاف لوم ناخبى ويمبلدون جميعاً على التصرف المشين الذى بدا من الغوغاء المشتغلين بالسياسة .

وقد قابل المجتمعون السيد رسل بالتصفيق الحاد وبمقاطعة حديثه ، ولما استمرت المقاطعة توجه رئيس الجلسة إلى المجتمعين قائلا : « ليست هذه بالتأكيد هى الطريقة التى يعامل بها رجال ويمبلدون ونساؤها ضيفاً غريباً » وهنا انطلق صوت يقول : « هل يؤثر هذا فى عزيمتنا ؟ » وأجابته صرخات كثيرة «لا» وبعد ذلك بدقيقة أو اثنتين طلب رئيس الجلسة إلى المشاغبين مرة أخرى أن يكفوا ، ولكنه لم ينجح فى تهدئتهم إلا لمدة قصيرة وبعد أن ناشدهم ألا يجلبوا العار على اسم ويمبلدون . وأعلن السيد / رسل أنه مرشح أولا وقبل كل شىء للمناداة بإعطاء المرأة حقوقها السياسية على قدم المساواة مع الرجل، وبالشروط التى تمنح للرجل . وصاح صوت من القاعة : هل نريد ربات الحجال ؟ وأجابته صيحات مدوية : كلا . واستأنف المرشح كلامه قائلا إنه يؤيد الحكومة الحاضرة ، (صيحات استحسان وصخب فى نفس الوقت) وإن أهم مسألة يختلف عليها الحزبان ، الأحرار والمحافظون، هى مسألة إطلاق حرية التجارة، ومن المسائل المتصلة بحرية التجارة مسألة ربط الضريبة على الأرض حسب قيمتها . وهنا نهض السيد / فوكس بت ، وقد كست وجهه ابتسامة عريضة . وكان ينوى أن يحدثهم عن شىء من تاريخ السيد/ تشابلن ولكن الحاضرين لم يمكنوه من ذلك فاستسلم يائساً .

أما حرم فيليب سنودن فقد أبدت همة أعلى ، وعلى الرغم من أنهم قابلوها فى البداية بالصفير والسخرية إلا أنها استطاعت أن ترغمهم على الإنصات بدرجة لا بأس بها. وقد تحدثت أيضاً حرم آرثروب والآنسة أليسون جارلاند والسيد/ والتر ماكلارين . ووافق المجتمعون على قرار بتأييد السيد برتراند رسل بأغلبية ساحقة .

كانت شراسة الذكور المهددين بفقدان سيادتهم على النساء أمراً مفهوماً ، ولكن إصرار أعداد ضخمة من النساء على إطالة بقائهن فى وضع مزر بجنسهن كان أمراً عجيباً حقاً . فلست أذكر أن السود فى أمريكا أو عبيد الأرض فى روسيا قد لجأوا إلى أعمال العنف ضد حركة تحريرهم ولكن فى إنجلترا كانت الملكة ڤكتوريا من أشد أعداء منح المرأة حقوقها السياسية .

ومنذ أن قرأت فى سن المراهقة كتاب الفيلسوف (جون ستيوارت مل) فى الموضوع وأنا من المتحمسين لمساواة المرأة بالرجل . وكان ذلك قبل أن أعلم باشتراك والدتى فى حركة تحرير النساء فى الستينيات من القرن الماضى . وليس هناك ما يدعو للدهشة أكثر من انتصار قضية المرأة فى العالم المتحضر بهذا الشكل السريع الحاسم . وإنى لسعيد بأنى شاركت بنصيب فى أمر قدر له هذا النجاح .

ومع ذلك فقد أصبحت أعتقد أن الحقوق السياسية المحدودة التى كنا نطالب بها للمرأة فى ذلك الوقت كانت أصعب منالا من الحقوق الموسعة التى لو طالب بها الأحرار لفازوا وهم فى السلطة بمزايا كبيرة . ولكن الداعين فى ذلك الزمان لإعطاء المرأة حقوقاً محدودة كانوا يمانعون فى توسيع هذه الحقوق ، لأنها كانت ستؤدى إلى إتاحة الفرص أمام عدد أكبر من النساء ، إلا أنها لن تساوى فى الحقوق بينهن وبين الرجال . وبذلك لن يتحقق مبدأ المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة . وعند هذه النقطة تركت المتطرفين من أعضاء الحركة وانضممت لجماعة كانت تدعو إلى منح حق التصويت لبالغى سن الرشد من الجنسين . ومؤسسة

هذه الجماعة هي مرجريت ديفيز (أخت كرومبتون ديفيز وأخت ثيود وردیفیز) ورئيسها هو آرثر هندرسون . وكنت في ذلك الوقت لا أزال عضواً في حزب الأحرار وحاولت أن أتصور آرثر هندرسون ثورياً عنيفاً ، ولكني لم أكن موفقاً في تصوری هذا .

كانت السنوات الثمانية ما بين ١٩٠٢ و ١٩١٠ سنوات أليمة جداً بالنسبة لى برغم ما تخللها لفترات قصيرة من الشعور بالراحة والطمأنينة . صحيح أنها كانت سنوات مثمرة جداً من ناحية العمل ، ولكن اللذة التي كنت أستمدها من كتابة « أصول الرياضيات » اقتصرت فقط على الشهور الأخيرة من ١٩٠٠ وبعدها ثقلت علىّ وطأة العمل فلم تدع مجالا للذة . وكانت السنوات الأخيرة خيراً من السنوات الأولى لأنها كانت أغزر منها ثماراً . ولكن البهجة الوحيدة الحقة التي شعرت بها نحو هذا العمل لم تتم إلا عندما سلمت النسخة المخطوطة لمطبعة جامعة كامبردج .

خطابات

من وإلى جلبرت مرى

كلية داوننج

كامبردج

٢٦ من فبراير ١٩٠١

عزيزى جلبرت

فرغت من قراءة ترجمتك لمسرحية « هيبولايتس » ليوريبديس وأراني مدفوعاً إلى التعبير لك عن تأثيرها العظيم على . فمن يحبون الشعر منا يقرأون روائع الأدب الحديث قبل أن يتاح لهم أن يعرفوا الانفعالات القوية التي تزخر بها هذه الروائع القديمة . والتقدم إلى رائعة جديدة بعقل أكثر نضجاً يشكل تجربة رائعة ، وجدتها تكاد تطغى على كل ماعداها .

لم تحدث لى هذه التجربة من قبل ولم أكن أصدق إلى أى مدى ستؤثر فىّ . وهذه المأساة التى ترجمتها تحقق تماماً فيما يتراءى لى الغرض من إظهار ذلك الجانب النبيل الرائع فى شعورنا بالحزن . وهى بالنسبة لأولئك الذين لا يعتنقون منا ديناً معيناً ، تشكل العزاء الوحيد الذى لا يستطيع عرض الدنيا أن يحرمنا منه .

إن المسرحية الأصلية كانت جديدة علىّ وقد شعرت بقوتها بشكل حاد ولكنى أشعر أيضاً أن شعرك أنت يستحق موضوعه تماماً ، ويجب أن يدرج فى شريحة خاصة محدودة جداً تشتمل على القصائد الإنجليزية العظيمة حقاً . وأشد ما استهوانى من قصائد تلك القصيدة الغنائية التى ختمت بها قراءتك الشعرية فى كلية (نيونهام) . لقد حفظتها عن ظهر قلب فى الحال ، وظلت عالقة بذهنى منذ ذلك الوقت إلا أن هناك كلمة واحدة لست راضياً عنها تماماً وهى كلمة bird-drove فهى من ناحية القافية فى محلها تماماً ، ولكن يبدو لى أن كلمة drove تعنى شيئاً يسوقه أحد ، وهذا يتنافى مع ماتوحى به الفكرة إلى ذهنى من الهدوء والسكينة .

أخوك إلى الأبد

برتراند . رسل

بارفورد تشيرت

فارنهام

٢ من مارس ١٩٠١

عزيزى برتى

لن أقول إننى مسرور ومنشرح الصدر لاستمتاعك بهيبولايتس لأن مشاعرى مختلفة تماماً . ولكن مدحك القوى يمثل شبه مرحلة فى حياتى ونظرتى إلى أعمالى . لقد شعرت طبعاً بانفعال كبير وأنا أعمل فى هيبولايتس فقد كانت تسحرنى ، ولكن الفكرة التى كانت دائماً تراودنى أن هناك عشرات من التراجم لكتاب المأساة الإغريق فى كل المكتبات التى تبيع الكتب المستعملة ، وأننى

لا أستطيع أن أقرأ أيـًّا منها بأقل نصيب من الاهتمام ، وربما كان مؤلفو هذه الكتب جميعهم يشعرون كما أشعر أنا تماماً بروعة الجمال وقوة البيان فيما يتصدون لنقله . والمترجم ، إذا وفى الترجمة حقها ، إنما يدرك قصد المؤلف أكثر من القارئ العادى ، ومن حين إلى آخر توحى له القصيدة بشىء قريب مما كان يقصده المؤلف .

إن كل المؤلفين طبعاً ، وبدرجات متفاوتة ، يفشلون فى توصيل المعنى الذى يريدونه . والمترجمون فشلهم أكبر من باب أولى ، لأن قدرتهم على الكتابة أضعف والمهمة التى تواجههم أعسر . هذا ما يجرى عادة فى مثل هذه الأحوال ولكن الذى يبدو أنه حدث فى حالتنا هو أنك استطعت بطريقة أو بأخرى أن تفهم وتشعر بكل ما أردت أن أوصله للقارئ .

ولا أعنى أن هناك شيئاً غامضاً أو شيئاً غير عادى فيما أقول ، ولكن ما أعنيه ببساطة هو أنه حتى فى حالة الشاعر الردىء أو رجل الشارع فى بعض أطواره إذا أمكنك أن تفهم حقيقة ما يدور فى ذهنه فإن هذا يكون شيئاً جميلا ومدهشاً إذا قورن بما يحصل عليه الإنسان عادة إذا قرأ قصيدة غاية فى الجودة . وعندما أضيق بالشعر يساورنى الشعور دائماً أننى ببساطة لا أفهم الشاعر أو أنه لم يعبر عن نفسه ، إذ من المحتمل أن يكون هناك شىء لطيف جداًّ لم يجد طريقه إلى التعبير . وفى لحظة من لحظات الإشراق ، يستطيع المرء أن ينفذ إلى أعماق الشاعر ويستخلص ذلك الشىء اللطيف .

إننى أدرك ما ترمى إليه بالنسبة لكلمة Bird-Drove وسأحاول أن أغيرها ولكنى لا أستطيع أن أجد بديلا خيراً منها حتى الآن . لقد وصلتنى المخطوطات .

أخوك إلى الأبد

جلبرت مرى

فرايدايز هل
١٣ من أبريل ١٩٠٢

عزيزى جلبرت

ألاحظ فى كل مناقشاتنا حول المسائل الأخلاقية اختلافاً بيناً حول المقدمات المنطقية ، وتعارضاً حقيقيًّا فيما يختص بالمقاييس التى تقيس بها السلوك . ولما كنت حريصاً على توضيح رأيى فى موضوع النوازع الأخلاقية التى تنبع من داخل النفس مباشرة (وكل الأخلاق ، كما هو بديهى ، لابد أن تعتمد على هذه النوازع) ، ولما كان التعارض حول الأساسيات يثير الشكوك ، لذلك أود أن أحاول تبين هذه الاختلافات بشىء من الدقة والتثبت وخاصة أن موقف كل منا لا يحتمل التوفيق مع موقف الآخر الأخلاقى .

إن خلافاتنا ، فيما يبدو ، ناشئة من أنك تؤمن بالمذهب النفعى فى الأخلاق فى حين أحكم أنا على اللذة والألم باعتبارهما أقل أهمية من المعرفة مثلا ومن تذوق الجمال وتأمله والتفوق الذهنى الحقيقى الذى يعتبر مزية بصرف النظر عن تأثيره العملى فى واقع الحياة . والذى أريد أن أتحقق منه هو ما إذا كانت مبادئك الأخلاقية ليست مستمدة من المذهب النفعى وليست بالتالى مما نتفق عليه . (لا بد من ملاحظة أن طريقة سدجويك فى كتابه عن الأخلاق ، طريقة خاطئة ، فهو يناقش فيه عدداً من المسلمات الأخلاقية ويبرهن على أنها ، بصفة عامة ، كتلك التى يعتبرها المذهب النفعى ، على درجة متوسطة من الأحكام الأخلاقية ، وذلك إذا قبلنا طريقة سدجويك فى تحليل الأساس الفطرى العام أى أن نظريته مؤداها أن النوازع الفطرية المباشرة هى المصدر الوحيد للأحكام الأخلاقية ، وذلك لأن هذه الأحكام إذا كانت تعبيراً عن وعى أخلاقى فيجب أن تقبل حتى فى تلك الظروف الاستثنائية التى تتعارض فيها مع المذهب النفعى ، وهكذا فكل حكم لا يستمد بصفة مباشرة من المذهب النفعى لا يمكن أن يتفق معه) .

ويحسن هنا أن أبادر بالاعتراف بأنه كان يبدو لى بدهيًّا لسنين طويلة

أن اللذة هى الخير الوحيد . أما الآن فإن العكس يبدو لى بدهياً . وسبب هذا التغير الذى طرأ على تفكيرى يرجع إلى ما يمكن أن أسميه بتجربتى الأخلاقية . فالفيلسوف العادى سيقول لك إن التجربة لا صلة لها بالأخلاق ، لأنها تدلنا على ما هو واقع فقط ، لا ما يجب أن يكون ، ولكن هذا الرأى يبدو لى خاطئاً من الناحيتين الفلسفية والعملية . وهو يعتمد على نظرية مشهورة فى المعرفة يعتنقها للأسف كثير من الشبان ، فلاسفة المستقبل . وأنا أعلم أن الذى يحدث فى عملية الإدراك ، هو أن المعرفة ليس سببها الشىء المدرك ، ومن الواضح أنه ، إذا كان الإدراك تجربة فكذلك كل ما يتكون فى إطار الزمن لأى سبب من الأسباب بالنسبة للمعرفة التى نتوصل عليها عن طريق معرفة أخرى بالاستنتاج . إن الظروف من شأنها أن تولد معتقدات أخلاقية ملموسة تماماً . فهذا أو ذاك مما هو حاضر الآن ، خير أو شر ، وبسبب قصور فى الخيال يستحيل عادة التكهن سلفاً بما سيكون عليه رأينا الأخلاقى فى أى حقيقة من الحقائق . ويبدو لى أن النوازع الأخلاقية الأصيلة هى من هذا النوع الملموس ، وأننا فى الحقيقة نرى الرأى فى الأشياء بالخير أو الشر كما نرى أشكالها وألوانها . والرأى بأن الأحكام الأخلاقية مستكنة فى الضمير يبدو لى خطأ شجعت عليه الوصايا العشر . وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن الطريقة المثلى فى علم الأخلاق هى الاستنتاج من حقائق تتأكد بالتجربة ، وتؤخذ من ذلك المعمل الأخلاقى الذى تقدمه الحياة لكل من يفتح عينيه لها . وهكذا تجد أن المبادئ التى أود أن أدعو لها هى استنتاجات من مثل هذه التجارب الأخلاقية المباشرة الملموسة .

لقد كان أول ما حولنى عن المذهب النفعى هو إيمانى بأنه ينبغى علىّ أن أدرس الفلسفة ولو أنه لم يكن يخامرنى شك (ولا يخامرنى الآن) فى أن دراسة الاقتصاد والنظريات السياسية أكثر تحقيقاً لمزيد من سعادة بنى البشر . فقد كان يبدو لى أن كرامة الوجود الإنسانى لا تتحقق بالانقطاع لوجوه الحياة الآلية ، وأنه مالم يتوفر لنا تأمل الأشياء الخالدة ، فلن يكون حال الإنسان خيراً من الخنازير المعلوفة جيداً . على أنى لا أعتقد أن مثل هذا التأمل سيؤدى

بنا إلى السعادة بوجه عام . إنه يعطى لحظات من البهجة ، ولكن هذه اللحظات تقابلها سنوات من الجهد والضنى . وقد فكرت أيضاً فى أن قيمة العمل الفنى ليست لها علاقة من أى نوع باللذة التى يحدثها هذا العمل الفنى ، وكلما قلبت هذا الموضوع فى رأسى آثرت التقشف والزهد وفضلتهما على الترف والنعيم . ويبدو لى الآن أن الرياضيات فيها من الجمال الفنى قدر مماثل لما فى الموسيقى إن لم يكن قدراً أكبر ، لا لأن اللذة التى تتحقق (ولو أنها لذة خالصة) يمكن مقارنتها ، سواء فى حدتها أو فى عدد الذين يشعرون بها ، باللذة التى تتم عن طريق تذوق الموسيقى ، ولكن لأنها توفر صورة من الكمال المطلق ، ذلك الخليط الرائع الذى يميز الفن العظيم والذى يتكون من حرية تشبه حرية الآلهة والإحساس بالقدر الغلاب الذى لا مفر منه . فالرياضيات فى الحقيقة تبنى عالماً مثالياً كل ما فيه كامل وإن كان أيضاً حقيقة واقعة . ثم إنه فيما يتعلق بوجود الإنسان ، أرانى أمجد الذين يشعرون بمأساة هذا الوجود ، والذين يفكرون فى الموت والذين يضيقون بالتوافه والسخافات حتى إن كان لا مناص منها . على أن هذه الأمور جميعها لا تحقق السعادة فيما يبدو ، بل تفسدها ، ليس فقط بالنسبة للذين يملكونها بل بالنسبة لكل من يتأثرون بها . وأحسن حياة فى نظرى هى ، بعامة ، تلك التى تجعلنا نفكر بحق ونشعر بعمق حيال كل ما يتصل بالإنسان ، وتتيح لنا ، علاوة على هذا ، أن نتملى الجمال ونستمتع بالحقائق المجردة . وهذا الاستمتاع بالحقائق المجردة هو أقوى عامل يبعدنى عن المذهب النفعى . فأنا أومن بأن كل معرفة تتعلق بالأشياء الموجودة فعلا ، أى بكل ما يسمى عادة بالعلوم الطبيعية ، ليست إلا ذات قيمة ضئيلة إذا قورنت بتلك المعرفة الأخرى التى تتمثل فى الفلسفة والرياضيات مثلا مما يتعلق بالأشياء المثالية الخالدة التى تحررت من ربقة هذه الحياة الدنيئة .

إن النقطة التى أريد تأكيدها من وراء هذا كله هى أن كل من تعنيهم الأخلاق وممن لا ينحازون لنظرية معينة ، يشاركونى هذا الرأى الذى أراه . لقد كان (أرشميدس) فيما أعتقد محتقراً من كل المشتغلين بالهندسة فى عصره

لأنه استخدم الهندسة فى ابتكار اختراعات مفيدة . وقد كان أصحاب المذهب النفعى حريصين حرصاً غريباً على إثبات أن حياة الخنازير ليست أسوأ من حياة الفلاسفة ، وهذا موقف مثير جداً للشك والارتياب . ولو قدر لهم أن يفحصوا الأمر جيداً لما وصلوا إلى هذه النتيجة جميعاً . وكذلك الشأن فى الفن ، وقد استطعت أن أقنع برأيى فيه كل من له رأى بصير ، فليس هناك من يفضل أغنية من الأغانى الشائعة على موسيقى باخ . ويجب أن ننوه فى هذا الصدد إلى أنه يتحتم على أصحاب المذهب النفعى أن يؤمنوا بأن الشىء الجميل ليس جميلا فى ذاته ، ولكنه جميل باعتباره وسيلة لشىء آخر ، وهكذا يصبح من الصعوبة بمكان أن نفهم لماذا يكون خيراً لنا أن نتأمل الجمال ، لأنه لاسبيل إلى إنكار أن هذا الشعور الذى يشعر به من يستطيع تذوق الجمال فى الشىء الجميل يمكن أن يحصل عليه شخص آخر إذا نظر إلى شىء قبيح . ولا يمكن تعريف الشخص الذى يتذوق الجمال إلا بأنه ذلك الشخص الذى يختبر هذ االشعور الذى ذكرته من خلال تعرضه للجمال لا للقبح . على أننا جميعاً نحكم على شخص ما بأنه أفضل من غيره لأن عنده ذوقاً ، ولا يمكن إلا لشخص يتبع النظرية تبعية عمياء الاعتقاد بأن الذوق بهذا المعنى يؤدى إلى السعادة وينميها ، وهنا مشكلة بالنسبة لأصحاب المذهب النفعى .

كل هذه الحجج التى أسوقها قديمة قدم أفلاطون . ولكنى أريد أن أعرف منك ، عندما يتوفر لديك الفراغ الكافى ، بماذا يرد أصحاب المذهب النفعى عليها . إن الكتب لاتحتوى إلا على سفسطة وأكاذيب وآراء ربما كانت منطقية فقط بالنسبة لمن يعيشون فى غرفة مكتبهم ولا علم لهم مطلقاً بالحياة ، ولكنها لا تستقيم بالنسبة لكل من يواجه هذه الحياة القميئة بكل ما فيها من خسة ، والتى لا يظفر فيها المحسن إلا بالعقاب ولا يظفر فيها المسىء إلا بالثواب والتى يحيا فيها صاحب الرذيلة بالرذيلة فإذا مات ، مات بها سعيداً مكرماً .

أخوك للأبد

برتراند رسل

١٤ شينى ووك
تشلسى . ج . غ .
٢٧ من نوفمبر ١٩٠٢

عزيزى جابرت

كنت أقرأ (الباكاى) مرة أخرى ، وتبدو لى هذه المسرحية أعظم من هيبولايتس وأروع فى الحقيقة من أية مسرحية قرأتها على الإطلاق ، ربما باستثناء مسرحية هاملت ومسرحية الملك لير [1] . لقد أخذت تستحوذ على بالتدريج منذ قرأتها للمرة الأولى ، وهى كشأن كل الأشياء العظيمة لا يمكن إطلاقاً أن نعيها بالكامل ، ولكن تتكشف لنا نقاط جديدة فيها على الدوام .

إن الشعور العجيب الغامض الذى يسمو بالمرء وهو يقرأ كلام الجوقة له تأثير طاغ متسلط ، وهذا العالم الجبار الذى يصوره ، مزيجاً من روعة الجمال وأفانين الأوهام ، يصمد حتى النهاية أمام العالم الدنيوى الذى نعيش فيه عامة يومنا . وأعترف أن المسرحية فى مجملها ليست معضلة فى فهمها على الإطلاق بل إن فهمها يسير وهين على الذين تملؤهم النشوة المقدسة سخطاً على أولئك المتشككين الذين يشدونهم من جديد إلى مألوف الحياة . ومن الأشياء المعروفة أن عبادة الجمال تؤدى إلى الفوضى . لم يكن من المعقول جعل (بنثيوس) شخصية تثير الرضا . وأعتقد أنه يمثل الجمهور البريطانى ورغبة الطبقة الوسطى فى أن تحظى بالاحترام والتوقير . فهؤلاء المحترمون ، وإن كانوا من الناحية الأخلاقية أعلى قدراً من عباد باكوس (إله الخمر) ، إلا أنهم لا يحركون شعوراً بالمحبة نحوهم فى الصراع الذى يثيرونه .

أعتقد أن البحور الشعرية التى تستخدمها ، وذلك بعد أن درستها وفحصتها. بحور جميلة جداً ومناسبة تماماً للمشاعر التى تعبر عنها ولو أنه ربما لا يوجد

---

(١) لير وهاملت من مسرحيات وليام شكسبير .

كلام جوقة بجمال الكلام الذى جرى على لسان الجوقة فى هيبولايتس ، إذ أعتقد أنك أظهرت هنا براعة أكثر مما فعلت هناك . وإذا وضعنا كل شىء فى الاعتبار فلابد أن تكون جديراً تماماً بالتهنئة . ألاترى أنك تحسن صنعاً لو مضيت فى مثل هذه التراجم ؟ إن الترجمتين اللتين قمت بهما كانتا بالنسبة لى عوناً كبيراً فى أوقات الشدة ، إذ عاونتانى على الإيمان بالجمال وبكرامة الإنسان التى لا بد أن تنتصر فى النهاية ، وبعد أن كنت مهدداً بفقدان هذا الإيمان . ولولاهما لوجدت يومى بالتأكيد أثقل وطأة فى المضى إلى غايته . لابد أن يكون هناك كثيرون يشعرون بنفس الشعور ، ومادامت عندك القدرة فلا بد أن تشعر بواجبك نحوهم أيضاً ، أليس كذلك ؟ إن كلاً منا أشبه بشخصية أطلس فى الأسطورة اليونانية يحمل عل كاهله مثله العليا . والشاعر ، أكثر من سواه ، يجعل الحمل خفيفاً على الكواهل التى أصابها الكلال والإجهاد .

ياليتنى أعلم كيف أوفق بين عالم الجمال وعالم الأخلاق . هناك فضائل معينة لا شك فى أنها جميلة ولكن هناك فضائل أخرى كثيرة ليست كذلك فيما يظهر .

كنت أقرأ جمهورية أفلاطون ، وأنا مع أفلاطون فى أن شعراء المأساة يجب أن يشعرونا بأن فى الفضيلة جمالا ، ويجب (بصفة عامة) أن يتحاشوا مدح الرذيلة . إن تشدد أفلاطون فى مسائل الفن يحظى منى بالرضا ، لأنه ليس من قبيل التشدد أو السخط الذى يتشدق به المتزمتون من أهل الماديات .

الممتن لك

برتراند رسل

١٤ من شينى ووك
تشلسى ج . غ .
٤ من ديسمبر ١٩٠٢

عزيزى جلبرت

سرنى أن تقديرى لعملك كان مشجعاً لك . صحيح أن قضاء وقت الفراغ فى ترجمة الروائع الكلاسية ليس فيما يبدو بالذى يدرج ضمن مآثر الميت عندما يعلن موته . ولكن على المرء أن يختار عبارات أكثر إشراقاً لوصف مثل هذه الخواطر .

لقد عدت إلى كلام الجوقة الذى يبدأ بهذه العبارات « أيتها الكلاب النابحة المغناة » وليس فيه أدنى صعوبة فى الفهم . ويبدو محتملا جداً أن عبارة «القارورات القديمة » فيها المعنى الحقيقى للوحشية . ولكن من السهل ، إذا استهوت الشخص مثل هذه الأشياء ، أن يبحث لها عن تفسير سيكولوجى . هل خطر لك يوماً وأنت تتأمل غروب الشمس أن يقطع عليك هذا التأمل من يصيح : « يااللعنة . يا للجحيم . لقد نزل علينا فلان الزائر ! » . فى مثل هذه الظروف يمكن أن يكون زائرك أشبه بالذى (يتلصص على من أخذته الجلالة) . ولعلك لا تعلم أنه عندما يزورك أحد ممن أعماهم حب المادة ، وعندما يقطع عليك خلوتك فى عالمك اللطيف الذى تمثله فى خيالك ، يحدث التذبذب بين حالتين نفسيتين ، حالة يعز عليك فيها أن تتخلى عن صفائك ، وحالة يستبد بك فيها شعور بالغيظ من ذلك الفظ الغليظ القلب الذى دنس عليك قدس الأقداس . هل تذكر ما أشار إليه الشاعر (وليام بليك)[1] عن تدنيس المعبد المقدس فى عباراته التى يبدأها بقوله : « لقد رأيت معبداً مصنوعاً كله من الذهب » وينتهى بقوله : « لذلك رجعت إلى مربط الخنازير ، وشاركتها ماهى فيه » . إن هذا يصدر عن شخص يعبد إله الخمر باكوس بعد أن عجز أمام بنثيوس ولعله بسبب توارد هذين الاثنين دائماً ، ضربت أنت المثل (بليفين) . ولكنى أشعر أنك لجأت إلى ذلك من قبيل التوضيح ، وهذا هو الذى جعل (الباكاى) تبدو سهلة القراءة فى الترجمة .

---

(١) وليام بليك ١٧٥٧ – ١٨٢٧ شاعر وفنان وصوفى إنجليزى .

نعم أعرف من هم آل ستورز ، وأستطيع أن أتخيل كيف يصعب عليك أن ترحل فى الوقت الحالى ، ولا بد أن غيابك سيضاعف العبء على مارى . يؤسفنى أنك مؤرق مهموم . أحياناً تكون ليالى الأرق فرصة للتفكير فى أشياء تكون مصدراً للراحة النفسية طوال النهار . إننى أجد الظلام يساعدنى فى استخلاص جوهر الأشياء والتركيز عليها بالكامل . ولكنى فهمت من خطابك أنك لا تجد مثل هذا العزاء .

أليس بخير . والنهر يتألق كالبرونز الذى يلمع تحت شمس تشرق على الصقيع ، والزوارق الطافية تنساب بظلالها المعتمة فى وسط هذا الضياء وكأنها أضغاث أحلام من ذكريات الطفولة .

تحياتى لزوجتك مارى ، اكتب ثانية كلما وجدت الوقت . فإنى أحب أن أعرف كيف تسير الأحوال المنزلية — وكيف حال روزالند إلى آخر هذه الأنباء .

أخوك إلى الأبد

برتراند رسل

١٤ شينى ووك

تشلسى ج . غ

١٢ من ديسمبر ١٩٠٢

عزيزى جلبرت

يناسبنا جدا أن نراك اليوم الاثنين على الغداء ، وقبل موعد الغداء إذا أمكنك الوصول مبكراً . سأنتظرك حول الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة . ولكن يبدو أن مس هاريسون ستكون قد رحلت . لقد كنا نحاول أن تبقى ولكنها تؤكد (حاليًا) أن هـــذا غير ممكن . وهى ترجوك أن تذهب لرؤيتها بعد الغداء وبأسرع ماتستطيع وذلك فى عنوان لا أعرفه . ولكنها ستخبرك به ولا شك فى الوقت المناسب .

سيسرنى جدًّا أن أراك وأنا أتطلع إلى هذه المناسبة بلهفة وتشوق ، ولكنى آسف لأنك لن تقابل مس هاريسون . لقد غلبتنى فنشرت قصيدتك مطبوعة .

أحضر لى نسخة معك يوم الاثنين . ألا تستطيع أن تمضى ليلة الاثنين معنا هنا ؟ سيسرنا جداً أن ندبر لك فراشاً ، وذلك فى حالة غياب عمتى روزالند فى المدينة ولكننا ستنعشى خارج المنزل . إن لندن مكان متعب ، ومن المستحيل التفكير أو الشعور بشىء جديد بالإنسان وكرامته — إننى أشعر بالضياع القاتل هنا . ليس لى هنا أصدقاء إلا النهر وطيور النورس وهذه لا تؤتى مالاً ولا سلطة . تعرفت فى الليلة الماضية على (مكيل) وزوجته وقد سررنا لذلك . إن زوجته جميلة حقاً . وقد سمعت الكثير عن اتزانه وحكمته فدهشت عندما وجدته متعصباً إلا أنه بالنسبة لى ديمقراطى جداً — قال لى إن المرأة التى تنظف له المدخنة على صلة بواقع الحياة أكثر من أى إنسان عرفه — ولكن ماذا يمكن أن تعرف هذه المرأة عن أرواح العظماء أو تاريخ الإمبراطوريات التى بادت أو الرؤية الفنية والفكرية ؟ كنت أريد أن أقول هذا كله وأكثر منه ، ولكن الكلمات وقفت فى حلقى . ولا داعى لأن نخدع أنفسنا ونتعلق بأمل كاذب يصور لنا أن فى وسع كل منا أن يحصل على أعمق ألوان الانفعال العاطفى حيث لا يصاحبه فكر يمكن أن يصل بنا إلى أعلى المستويات . كل هذه التفاؤلات تنطوى على خطر بالنسبة للحضارة وهى عبارة عن تمنيات قلب لم يتعذب بما فيه الكفاية بعد. من الأمثلة السائدة فى القديم « مت من أجل نفسك » أما « أحبب جارك كما تحب نفسك» فمن العبارات الجديدة فى هذا المقام ولكن فيها شيئاً من الحقيقة . «من السماء إلى إخوتنا فى البشرية» — هذا ما يجب أن توجه إليه أنظارنا ، ولا داعى لأن نتخلى عن السماء هنا على الأرض ، بل يجب أن نحب جارنا من خلال حبنا لله ، وإلا كان حبنا من النوع الدنيوى . أو هكذا يتراءى لى . ولكن برود هذه النظرية التى أنادى بها شىء منفر لى اللهم إلا فى لحظات يتجلى فيها حب الله إن الحياة الحديثة صعبة وأتمنى لو عشت فى دير ألبس قميصاً من الشعر وأنام على الصليب . ولكن الحياة الآن من شأنها أن تحد فى نطاق معين كل نزعة من نزعاتنا وتجعلنا نرتدى سترة سوداء ونتمسك بأهداب الوقار ، يا إلهى الحى .

أخوك إلى الأبد

برتراند رسل

تاتى ، ستينيانو

فلورنسا

٢٨ من ديسمبر ١٩٠٢

عزيزى جلبرت

تم لقاؤنا ورحلتنا بنجاح وبدون ضجة ، وهذا أجمل ما فى الموضوع. ياليتك استطعت أن تحضر . لقد نعمنا بيوم بعد يوم من الشمس الساطعة — صقيع فى الصباح ودفء فى النهار يجعل الجلوس فى الخلاء مستحبًّا . وخلف المنزل يوجد تل مغطى بأشجار الزان والصنوبر والسنديان التى مازالت تحتفظ بأوراق الخريف ، والجو ملىء بأجراس إيطاليا ذات النغم العميق . لقد قام على تأثيث المنزل بذوق رفيع (بيرنسون) وبه عدد من اللوحات الجميلة ومكتبة من النوع الممتع جدًّا . ولكن حكاية الاستمتاع بوجود الإنسان ، إلا إذا كان هذا استعداداً موروثاً ، تؤذى دائماً شعورى باعتبارى من المتطهرين فى الدين — وتراود ذهنى بصفة دائمة أفكار عن الطرف الشرقى من لندن (حى الفقراء) وعن سيدات ذكيات يضحين بحياتهن ليجمعن بنسات ، وعن شبان مضطرين للاشتغال ببحوث علمية — ولكنى لا أحاول تبرير شعورى هذا ، مادام ينبغى أن يكون هناك من يتمسك بالمثل العليا فيما يتعلق بالبيوت الجميلة وما يجب أن تكون عليه . على أنى أرى أن الإنسان يشتط فى طلباته بالنسبة للأثاث الذهنى حيث المظهر الخارجى يوحى بالعناية والدقة ، وكثيراً ما يصاب الإنسان بصدمة عندما يرى السقطات التى يحتملها عادة . . .

إننى مسرور لأنك تركت مشروع قراءة كتاب فى الرياضيات لأن أى كتاب فى التكامل والتفاضل لا بد أن يحيطك بأكاذيب ، ولا أعتقد أن كتابى للأسف ، يستحق منك عناء القراءة إلا فى فقرات منه . وإذا كانت له قيمة عامة فهى مطمورة فى دقائق الموضوعات وفى مجادلات لا تصلح فى الحقيقة إلا للمتخصصين فى مثل هذه المسائل . إنّ الجزء الأخير من كتابى فى الرياضيات ،

والذى لن يكون معداً للطبع إلا بعد سنتين أو ما يقرب من هذا ، سيكون فيما آمل تحفة قيمة . ولكنه لن يكون كذلك إلا للمشتغلين بالرياضيات . أما هذا الجزء فإنه يدعونى للتقزز عموماً . وعلى الرغم من أنى أنكرت ما قاله (لينارد هوبهاوس) بشأن الفلسفة ، إلا أنها على العموم من المواد التى لا يرجى منها أمل . ولا أدرى كيف أقدر قيمتها التى أعترف بها فى أوقات كثيرة . ياليتنى عشت فى أيام الفيلسوف سبينوزا عندما كان ممكننا التوصل إلى فروع جديدة فى المعرفة .

أخوك للأبد
برتراند رسل

١٤ شينى ووك
تشيلسى . ج . غ
٢١ من مارس ١٩٠٣
عزيزى جلبرت

نظريتك فى الجمال لا تصدنى بحال من الأحوال ، بل إننى فى الحقيقة متفق معها اتفاقاً تاماً فيما عدا سخريتك من المتخصصين . إن التخصص أدعى للكفاءة والكفاءة نوع من الإيثار . ومهما بلغ من ضيق أفق المتخصص فلا بد أن نتسامح معه إذا أتقن عمله . إننى أومن بهذا إيمانا قوياً لأن إغراء التشويق والإثارة ، بدلا من الفعالية فى مجال التخصص ، إغراء يؤدى إلى المخاطر .

سيسعدنى أكثر مما أستطيع التعبير عنه أن أراك مرة أخرى فى العودة . ولو أننى لن أستطيع أن أمنحك شيئاً ذا قيمة فى حديثى . لقد طغت علىّ مؤخراً رتابة المشاغل وشعور الملل والزيف الذى يصاحبها . لا شىء يثيرنى ، لا شىء يبدو أنه يستحق أن يعمل فى الماضى أو المستقبل ، والشىء الوحيد الذى أشعر بقوة أنه يستحق أن يعمل هو أن أقتل أكبر عدد أستطيع قتله من الناس وذلك لكى أقلل من الحساسية والوعى فى العالم . هذه الأزمنة خلقت لكى نمر فيها ، ولا شىء يمكن أن نفعله بها .

أخوك إلى الأبد
ب . رسل

خطابات إلى لوسى مارتن دونللى

ميل هاوس
جرانتشستر . كامبردج
تلجرامز ، ترامبنجتون
٢٣ من مايو ١٩٠٢
عزيزتى لوسى

ستتعجبين أنى أكتب إليك . الحقيقة أننى فرغت اليوم من العمل العظيم الذى تعرضت فيه لأصول الرياضيات والذى استغرقنى منذسنة ١٨٩٧ . لقد ترك لى الآن فراغاً وحرية بحيث أستطيع أن أتذكر أن هناك أحياء فى هذا العالم . وهذا ما كنت أحاول جاهداً أن أنساه . لا أدرى هل تدركين مدى الجهد والتضحية (بما فى ذلك تضحية الآخرين) وقوة الإرادة ، والصرامة التامة فى كبت حتى ما هو خير ، مما تتطلبه كتابة كتاب له وزنه ، عام يتلوه آخر وأنا أعثر على أخطاء فى عملى وبعدها يتعين على أن أعيد كتابة الكتاب كله من البداية للنهاية . ففى كل نظام منطقى أى خطأ يحدث يؤثر على البناء كله . لقد تركت أصعب الأجزاء إلى النهاية حين تناولته فى الصيف الماضى على أمل أن أفرغ منه وأستريح ، ولكن فجأة اعترضتنى صعوبة تفوق كل ما عرفت قبلها من الصعاب وكانت من التعقيد لدرجة أن مجرد التفكير فيها كان يقتضى مجهوداً فوق طاقة البشر منذ أمد طويل وأنا أشعر بضيق من العمل كله إلى حد الغثيان ، لدرجة أننى كنت أتمنى أن أفكر فى أى شىء آخر تحت الشمس ، ولقد أصبح مجرد التعب الجسمانى يشلنى عن العمل . ولكن الآن وقد انتهى الأمر أشعر ، كما لا بد أن تتخيلى ، أنى إنسان جديد . لأننى فقدت الأمل فى الانتهاء من هذا العمل. إن العمل المجرد ، إذا أراد المرء أن يعمله على وجه الإتقان ، لا بد أن يمكنه من القضاء على إنسانيتـــه فالإنسان يقيم أثراً من الآثار هو فى الوقت نفسه مقبرة

يقبر فيها نفسه تدريجياً بمحض إرادته . إن آلهة الفكر لا تسمح بأن يشرك بها المؤمنون . فهى آلهة غيورة جداً . ولا تظنى ، إذا أردت الكتابة أن النظرية السائدة عن ضرورة ممارسة التجارب بالنسبة للفنان ليست نظرية صائبة . لا بد أن يكون للفنان مشاعر عميقة ولكنه يخدع نفسه إذا تصور أن من مصلحته الانغماس فى الشهوات . كما أن النظرية التى تقول بأن الكتابة تأتى من مجرد إتقان الصنعة هى الأخرى نظرية خاطئة . إن الكتابة هى المخرج من المشاعر المستبدة بالنفس التى يمكن مع ذلك الإفلات من قبضتها والسيطرة عليها لا بد من التمكن من شيئين : سمو المشاعر والسيطرة على هذه المشاعر وكل شىء آخر بمحض الإرادة . ليس هناك شىء من هذه الأشياء مفهوم فى أمريكا كما هو مفهوم فى العالم القديم [١] . بل إن سمو المشاعر يبدو أنه يعتمد فى المقام الأول على وعى متصل بالماضى وبقوته الهائلة الرهيبة وبوعى عميق بالفرق بين الحقائق الخالدة والعرض الزائل الذى يتمثل فى المشاعر التى تتعلق بالحياة الشخصية . إذا ذكرت هذه الأشياء كلها للفصل الذى تدرسين له فن الكتابة الجميلة ، فستكون معلوماتهم أقل مما لو تمسكت بأهداب الصمت .

سلامى وتحيتى لهيلين . ونصيحتى لكل من يكتب أن يحفظ كنوز الأدب وذخائره عن ظهر قلب . وأن يتجاهل ماعدا ذلك بقدر الإمكان .

المخلص إلى الأبد

برتراند رسل

ملحوظة : هذا الخطاب ليس لكارى أن تقرأه .

---

(١) العالم القديم هو أوربا والقارات التى تم اكتشافها قبل أمريكا وكانت هذه تعرف إذ ذاك بالعالم الجديد .

ترينتى كولج — كامبردج
٦ يوليو ١٩٠٢

عزيزتى لوسى

تقبلى شكرى على خطابك الطريف جداً ، ووصفك الممتاز لهارفارد وباريت وندل . ما أفظع أن تقوم الجامعة بتدريس الصحافة . كنت أظن أوكسفورد هى الوحيدة التى تقوم بهذا العمل . إن هذا الاحترام الزائد للغوغاء والدهماء هو الذى يقضى على هذه الحضارة . لقد بلغت القحة وسوء الأدب بأحدهم أن يصرح فى حضورى بأن كل طالب يجب عليه أن يوضح وجهة نظره للجماهير فى اجتماعات شعبية مفتوحة ، ووجدتنى أرفع صوتى محتجاً لمدة ربع ساعة اضطر بعدها صاحبنا إلى الإخلاد للسكينة واحترامى كما تحترم الوحوش الضارية — أعتقد أن شخصية (وندل) فى الحياة أفضل مما تبدو فى كتبه . ولقد أصبت بخيبة أمل فيما يتعلق بأدبه الأمريكى ، مع أننى أشاركه الرأى فى أن أمريكا ، شأنها شأن الحيوانات الثديية ذات الكيس ، أثر طريف من آثار عصر اندثر ، إلا أننى لا أكترث بما يقال من أن كتاب أمريكا انحدروا من عائلات كريمة ، وأن هارفارد تفوق ييل دان بكثير[1]. وهذا التقصير فى حق الشاعر (والت هويتمان) ، والإحجام عن إعطائه حقه من التقدير شىء مؤذ جداً . إن وندل يذكر قصيدة هويتمان عن قوارب بروكلين وما أشبه ، وينسى قصيدته عن (مهد الطفل الذى يهتز اهتزازاً لا ينقطع) وقصيدته عن « زهور الليلق التى تفتحت آخر مرة عند عتبة الباب » وهذا يبدو لى مجاراة للذوق الشائع وللأحكام الفجة الشائعة بشكل يدعو للرثاء وخاصة بالنسبة لهويتمان .

عندما تم كتابى ، أخذت أجازة من عشرة أيام بعدها كنت أعمل كالمعتاد ، فيما عدا أربعة أيام قضيتها مع عمتى أجاثا فى بمبروك لودج . وكان

---

(١) هارفارد وييل من أشهر جامعات أمريكا وبينهما تنافس كالذى بين أوكسفورد وكامبردج .

وقتا كثيباً عجيباً ذلك الذى قضيته معها . تحدثنا عن النعماء التى استحالت إلى شقاء منذ أمد طويل ، وعن المآسى التى ذهب المشاركون فيها ، وعن الأحزان التى تولت إلا من ذكرى باهتة . إن حياة الحاضر قد أصبحت مقطوعة الصلة فى ذهنى بما هو قائم ، وبدت أشبه بالحلم ، بينما تمثل لى الماضى المجيد الذى ثبتّه مرور الأيام وملأته الحكمة التى يقصرعنها الوصف — تمثل لى (وسيطر) على كيانى كله . إن الماضى ليس إلا ربّاً رهيباً وإن كان يعطى الحياة كل ما فيها من جمال أخاذ تقريباً . أعتقد أن أولئك الذين قضوا طفولتهم فى أمريكا ليس فى وسعهم أن يتصوروا مدى تسلط الماضى علينا فى العالم القديم . واستمرار تيار الحياة ورسوخ التقاليد وتوالى مراحل العمر من الشباب إلى الشيخوخة إلى الموت فى موكب أبدى . كل هذه المعانى يبدو أنها ضاعت فى زحمة التفكير فى المستقبل التى تسيطر على الحياة فى أمريكا . وهذا سبب من الأسباب التى تحول دون إنتاج أدب عظيم فى أمريكا على يد الأمريكان من مواطنيك .

أنا أقيم فى الوقت الحالى بمفردى فى الكلية . وليس معى أحد من أصدقائى ، وعندما ينتهى وقت العمل ، أجد الفراغ الكافى للتأمل . لقد كنت أقرأ مؤلفات ميترلنك من أولها إلى آخرها . وقد فرغت منها كلها تقريباً . إن كتابه « الزمن المقبور » يبدو لى كتاباً يدعو حقّاً إلى الإعجاب ، من الناحية الأدبية ومن الناحية الأخلاقية ، وعلى الرغم من عالم الآنسة جوين ومستر هودر الجاد الوقور (فأنا لست جاداً أو وقوراً) فإننى ساذج فى تفكيرى إلى حد أنى لا أعتقد أن من الضرورى أن تكون للأدب أهداف لا أخلاقية . إننى أكره فكرة أن يكون الكاتب أميناً فى نقله عن الحياة ، فالحياة ، ولله الحمد ، هى فى معظمها من صنع إرادتنا ، والمثل العليا ليست لها صلة بالواقع بالنسبة فقط لأولئك الذين يريدون لها أن تكون كذلك . أبلغى الآنسة جوين ، مع تحياتى ، أن كل كلمة فى « اعترافات » القديس أوغسطين أمينة فى النقل عن الحياة ، وأن حب الشاعر دانتى لبياتريس قطعة من الواقعية التى لا تشوبها شائبة من زيف . وما لم يدرك الناس هذا فلا بد

أنهم سيُحرمون من أجمل وأندر وأثمن ما فى الحياة من تجارب . وعلى كل فهذا موضوع كبير .

المخلص

برتراند رسل

فرايديز هل

هاسلمير

١ من سبتمبر ١٩٠٢

عزيزتى لوسى

إن الغرور فى كتابة الخطابات ليس بالنزعة التى تستحب . أصدقاء المرء يسرون حتماً لأخباره، حتى إذا لم توصف بعبارات خلابة . ولكنى وجدت خطابك فى الحقيقة هاماً جداً . نعم إن أهل الإنسان مصدر متاعب . إنهم أشبه بالكاريكاتير الحى بالنسبة له ، وهم أشبه فى تأثيرهم المهين ، بتأثير القرود فى حديقة الحيوان . وشعور الإنسان حينما يراهم هو شعور من يعثر بالحقيقة العارية بلا رتوش فى نهاية المطاف . والأهل بالنسبة لمعظم الناس هم فى الحقيقة أقرب إلى الواقع الحى من أى إنسان يتعرف عليه المرء حتى ولو كان زوجاً أو زوجة. قد تلاحظين ذلك بالنسبة لكارليل وأهله فى (أنانديل)، كان وجودهم حقيقياً بالنسبة له أكثر من وجود زوجته التى لم يحس بها إلا بعد أن ماتت . والنـــاس أقل انطواء على نفوسهم من الأطفال ، وأولئك الذين نعرفهم فى طفولتنا يتركون فينا أثراً لا يمحى ولا يمكن لأى معرفة لاحقة أن تمحو أثرهم . إنهم يعيشون فى ماضينا أشبه بنزعة فطرية كامنة . وهذا مصدر دائم للمتاعب فى الزواج – إننى لم أقرأ أحداً من كتاب عصر إليصابات فى إنجلترا منذ أن كنت طالباً فى الجامعة . وعندما أتذكرهم فكل ميزتهم حصيلة لغوية غاية فى السخاء والجزالة . إن الدراما القديمة ليست كالإنجيل الذى يبعث فيك الحياة فإن العالم الذى تصوره عالم لا يمكن أن يتحقق فى الواقع . إن حياتك كما تقولين هى بالطبع حياة أوراق ، أى أن التجربة تأتى عن طريق الكتب ولا تأتى

مباشرة من الحياة . ولن يشفيك من ذلك مزيد من الكتب . إن الحياة الحقيقية هى الدواء الوحيد لما تشكين منه . ولكن هذا مطلب عسير المنال . فعنى الحياة الحقيقيـــة هو أن يكون لها صلة بحياة كائنات بشرية أخرى — أما ما ينادى به (هودر) من حياة عاطفية فشىء لا وجود له فى الواقع على الإطلاق . وبمعنى آخر فالحيـــاة الحقيقية تستتبع ممارسة الشخص لا نفعالات هى التى يستخدمها الدين والشعر . أما الطريق إليها فهو نفس الطريق الذى يصلح لمن يريد أن يقوم بتأسيس دين جديد . فعليك أن تتعرضى للصلب ثم تقومى فى اليوم الثالث من بين الأموات .

إذا كنت مستعدة لما تتطلبه هذه العملية بشقيها فلا ضير إذن من ممارسة الحياة ا لحقيقية . ولكن فى العصر الحديث ، الذى يقوم بالصلب هو الشخص نفسه وبمحض إرادته ، والقيامة أيضاً تتطلب ، من أجل العثور على آمال جديدة فى مزيد من الصلب ، عزيمة وهمة . ويبدو لى أن الصعوبة التى تلاقينها تأتى من أن عالمك خال من الناس الحقيقيين . فالصغار لا يمكن أبداً أن يكونوا فى وجودهم حقيقيين بالنسبة لك ، وغير المتزوجين قلما يكونون كذلك . وعلاوة على هذا ، إذا سمحت لى ، فإن مدى تمكن العاطفة فى أمريكا أقل ، وهى أكثر جنوحاً إلى الخفة والسطحية والتفاهة مما هو الحال فى أوربا ؛ هناك تفاهة فى الشعور تجعل الناس الحقيقيين نادرين — أنا أجد فى إنجلترا أن معظم النساء فى سن الخمسين وما فوقها قد خاضوا تجربة التعرض للعذاب واحتماله بمحض الرغبة على مدى سنوات طويلة ، وهذا يعطى لطبائعهن عمقاً وخصباً لا يمكن أن تتصوره نساء أمريكا باستخفافهن وسعيهن وراء اللذة . إن الحياة الحقيقية ، لا تتوفر على العموم ، كما يريد هودر أن يقول لك ، فى المغامرات الغرامية مع المتزوجين . إذا كان كل مايريده المرء عبارة عن تجارب غير مألوفة فإن قليلا من التقشف وقليلا من أداء الواجب سيعطيه إحساسات غير عادية أكثر بكثير مما يجده فى العواطف الجامحة التى يزخر بها العالم . ولكن حياة القراءة والكتب فيها هدوء وسكينة ، صحيح أن التطلع لشىء أكثر جدية يغالب

المرء أحياناً ، ولكنه يكون خالياً من الشعور بالندم والخوف والعذاب وتلك الحسرة المريرة بسمها القاتل الذى يؤدى إلى الجنون . أما بالنسبة لى فإننى أبنى ديراً فكرياً تعيش فيه روحى الداخلية فى سلام . وصورة منسوخة منى هى التى تتعامل مع العالم الخارجى . هناك قدس الأقداس حيث أجلس وأهيم بين أطياف الفكر . بالأمس وأنا أتحدث فى الشرفة ، تمثلت لى جميع المناسبات الماضية حيث نهضت الأطياف وقامت وسارت أمامى فى موكب رهيب — أطياف ميتة ، لها آمالها ومخاوفها ، مباهجها وأحزانها ، تطلعاتها وشبابها الذهبى ، وقد ذهبت ، ذهبت جميعاً فى خضم الحماقة الإنسانية الذي لا قرار له . وكلما أمعنت فى الحديث ، شعرت بنفسى وبالآخرين وقد جرفنا الماضى وأصبحنا صغاراً جداً — بكفاحنا وآلامنا وكل شىء قد أصبح سراباً وضجيجاً خالياً من كل معنى . وهكذا أحصل على الهدوء ، ورعود القدر تصبح مجرد حكايات للأطفال يخيفونهم بها . الحياة هنا دائماً — فى الصيف — خليط غريب من الأوهام — زارتنا بالأمس (جريس) وعائلة (آموس) وعائلة (روبنسون) والمستر (ج ب . روبرتسون) الرجل الذى أخذ مكانة الملحد الإنجليزى الذى رفض أن يحلف اليمين على الإنجيل فى البرلمان الإنجليزى فى القرن التاسع عشر واسمه برادلو . كان لابد من إنقاذ الآنسة (كريتون) ، لأن روبرتسون بدأ يناقش فيما إذا كان الله مصنوعاً من جبن أخضر أو أن له سوالف — وسائر هذه الاحتمالات التى لا تنتهى .

كنا جميعاً نقرأ باستمتاع كبير آراء وليام جيمس فى [1] (التجربة الدينية) وكل شىء فى الكتاب ماعدا النتائج الأخيرة التى استخلصها لاغبار عليه . كما كنت أقرأ للمرة الثانية أعظم وأجمل كتب كارليل فى التاريخ واسمه (العقد الماسى) . إن كارليل هو المؤلف الوحيد الذى يدرك قيمة التاريخ بين الفنون الجميلة . سلامى لهيلين .

المخلص

برتراند رسل

---

(١) وليام جيمس الفيلسوف الأمريكى صاحب مذهب البراجماتية .

١٤ شيني ووك
تشلسي جنوب الغرب
٢٥ من نوفمبر ١٩٠٢

عزيزتى لوسى

شكراً كثيراً على خطابك . أنا ممتن لك لكتابتك عن نفسك . وليس فى وسع الناس أن يتحدثوا فيما هو أهم من شعورهم تجاه الحياة . ومن دواعى الراحة والسرور أنك الآن فى صحة أحسن وتستطيعين مرة أخرى أن تستمتعى بالحياة ، وهذا الذى تكتبين عنه قلما يعثر عليه الناس فى واقع الحياة . ولكنى لم أكن أفكر ، عندما كتبت لك عن « التجارب » إلا فى المعرفة الحقيقية التى تأتى من الانفعال القوى . هذا ، إذا كان الإنسان سلبيا ، يحتاج إلى حد أدنى من المناسبات الخارجية التى تطهره . وهذا القدر المطلوب يكفى لتطوير الشخصية ولبعض أنواع الكتابة . ولكن لا فائدة من الانفعال إلا إذا تعلم المرء أن يسيطر عليه ويجرده من الشعور الشخصى . لأن أمثالى وأمثالك ، ممن تشغلهم القراءة والكتب ، أميل إلى الاعتقاد بأن تجربة الحياة يجب أن تكون بقدر الإمكان مستعاضاً عنها بشىء آخر ، وإذا كانت لدى المرء قدرة على التعاطف طبيعية ، فى وسعه أن يتعرف على التاريخ الحقيقى لمجموعة من الناس ، ويستطيع كذلك بصور أو بأخرى أن يخلق عالمه الخاص . أما الانغماس فى صميم الحياة فإنه يستهلك وقتاً ومجهوداً طائلين ، وهو لا يتفق عند معظم الناس مع ما يريدون أن يتمسكوا به من موقف المتفرج على ما يجرى . ويحتاج المرء فى تفسيره لتجربة غير تجربته ، معاناة شخصية لشقاء كبير ، ولكن هذا شىء لا يحتاج المرء أن يبحث عنه ، إنه يأتى عفواً ودون ما حاجة إلى عناء . وعندما يتوفر لدى الشخص هذا المفتاح الذى يفض به تجارب الآخرين ، يصبح ذلك الخليط من الناس فى تعلقهم بالأمل ومعاناتهم للعذاب ثم تعرضهم للموت ، كافياً فى صورته الغريبة المؤسية هذه ، دون أن يحتاج المرء للقيام بدور فعلى ، إلا إذا

كان ذلك على هيئة كلمة طيبة يشجع بها الآخرين فى مناسبات معينة كلما أمكن ذلك .

لم أقرأ كثيراً مؤخراً .. شاقتنى خطابات فتزجيرالد ، وكذلك تاريخ كامبردج فى طبعته الجديدة وهكذا يمكن بواسطته تجميع أشياء قرأها القارئ بشكل متناثر ، إن ترجمات جلبرت مرى عن يوريبيديس قد ظهرت ، وأنا أزكيها (الناشر جورج آلن) . وقد كنت أحاول الاهتمام بالسياسة دون جدوى . إن الإمبراطورية البريطانية ليس لها وجود حقيقى بالنسبة لى ، إننى أتمثل البلد الأم والمستعمرات على هيئة فرخة تنادى على فراخها الصغار ، والأمر كله يبدو لى باعثاً على الضحك والسخرية . إننى أعرف أن هناك كثيرين من أهل الجد يأخذون هذه المسألة مأخذاً جديًّا ولكنها تبدو لى غير ذات شأن كبير إذا قورنت بالحقائق العظيمة الخالدة . أما أهل لندن ، الذين يتمثل لهم الخلود فيما تكتبه المجلات الشهرية ، فإنهم يرتقون إلى هذا المستوى [فوق المستوى الذى تمثله الجرائد اليومية. هؤلاء الناس أشبه فيما يبدو لى بالدمى ، إنهم تجسيد أعمى لقوى الطبيعة ، ولن يحصلوا على ذلك الشعور بالحرية الذى يأتى لمن يتوقف عن اشتهاء الأشياء ويبدأ فى إدراك أسرار التأمل .

بالفكر وحده يستطيع الإنسان أن يرقى إلى مرتبة الآلهة ، أما فى أفعالنا وشهواتنا البهيمية ، فنحن عبيد للظروف التى [تتحكم] فينا .

المخلص جداً

برتراند رسل

كانت حياة لوسى دونللى على مدى سنين طويلة تدور حول صداقتها لهيلين توماس . فلما تمت خطبتها للدكتور سيمون فلكسنر ، قاست لوسى عذاباً بالغاً . والخطاب التالى محاولة للتخفيف عنها .

١٤ شينى ووك
تشلسى . جنوب الغرب
٧ من فبراير ١٩٠٣
عزيزتى لوسى .

سمعت بخبر خطبة هيلين . وسررت من أجلها ، لقد كان يبدو لى دائماً أنها تحاول العثور على زوج ، وأن حياة الكلية كانت بديلا لها عن الزواج إلى حين . ولكن بالنسبة لك ، ولا شك ، الموقف صعب جداً ، صعب غاية الصعوبة . إن من أخطر الأشياء أن يدع المرء أحاسيسه الوجدانية تتركز كلها فى شخص واحد ، لأنها عرضة لأن يعترضها عائق ، والحياة نفسها لا يمكن الاعتماد عليها لتقلب أحوالها . وما أكثر ما يتعلمه المرء سنة بعد سنة كلما ثقلت عليه أعباء الحياة ، وأعتقد أن على رأس ما يتعلمه هو القدرة على الارتفاع بجميع أنواع الحب إلى حد التأمل المجرد . هل قرأت قصيدة والت هويتمان «من وسط عباب المحيط يأتى الحشد الحاشد » ؟

يتعلم الإنسان فى الحياة أن يحب كل ما هو خير بنفس الدرجة ، حباً واعياً بالذات ، حباً تجعله هذه المعرفة الذاتية أدفأ وأعمق ، ولكنه حب بعيد عن المكاسب الشخصية ولا يستهدف إلا الرغبة المجردة . ولا شك أن هناك مزايا حقيقية فى ذلك الشعور بالخسارة ، فالحب يصبح أوسع مدى ؛ وقدرة الإنسان على النفاذ إلى سرائر الآخرين تكون أعمق . وكل من يعرف حياة البشر حق المعرفة لابد أن يشعر فى الوقت نفسه بذلك الشعور الغريب بالوحدة الذى تحسه كل روح منعزلة على حدة . إن الوحدة تخلق رباطاً جديداً قوياً ، وتنمى شعوراً بالرحمة يزداد حدة وقوة حتى يصبح بديلاً عما فقدناه وخسرناه .

أعلم أن العبارات لا طائل وراءها ، ولكنها تساعد على احتمال الشقاء ، ومواجهة المرء للحياة بمفرده ، وبلاسند يستند إليه وهى بداية الحكمة والشجاعة .

اغفرى لى أنى أكتب فى هذه المسائل الخاصة جداً ، ولكن الدنيا أحياناً تكون جادة بحيث لا ينفع التجمل والأدب المصطنع .

سنأمل أن نراك كثيراً عندما تحضرين إلى إنجلترا ، وأملى كبير أنك ستحضرين إلينا . وسيسرنى جداً أن أسمع منك كلما نازعتك الرغبة فى الكتابة .

المخلص جداً

برتراند رسل

تشيرت ، فارنام

١٣ من أبريل ، ١٩٠٣

عزيزتى لوسى

من المستحيل أن أخبرك كم كان جميلا كإشراق الشمس بالنسبة لى أن أعرف أن خطابى قد بعث الراحة إلى نفسك . ولكن وا أسفاه . فمن السهل أن يرى الإنسان الخير ، ولكن ليس من السهل أن يمارسه . وبالرغم من أن الزمن قد أبلى جدة هذا القول المأثور ، إلا أننى لم أتعود عليه بعد ، ولم أستبن جليته . غير أنى رأيت وعرفت ، فى بعض الأحيان ، حياة أعلى فى المستوى بكثير من حياتى الحاضرة . وإن آرائى لأسمى بكثير من أى شىء أنجح فى الوصول إليه . نعم ، إن منطق الحياة لشىء رائع : وإنى لأفكر أحياناً فى تأليف بعض الأقوال المأثورة ، أسميها « أفراح الشيطان » وذلك مثل : العطاء يسبب الحب أما الأخذ فيسبب الضجر . إن الحب الصادق هو جزاء مانسديه من خدمات للغير : وهذا ملخص لقصة حياة الأمهات ، وكثير من الزوجات . إن الانغماس فى الشهوات يشوهها كما أن الكبت يقضى عليها : ولا مفر من الخسارة فى كلتا الحالتين : وهكذا . . .

غير أنه بالرغم من أن هذه الحقائق المريرة جديرة بأن يعترف بها بقدر ماهى

صحيحة . فليس التفكير فيها بالشيء المستحب . فكلما شعر الإنسان بالمرارة ، كان ذلك دليلا على الفشل العاطفي أما سعة الصدر وضبط زمام النفس فإنهما يتركان حزناً خريفياً هادئاً مكان صيحة الألم الغريزى . وإن أحد الأشياء التى تجعل الأدب عزاء كبيراً ، هو أن مآسيه تنتمى كلها للماضى ، وتبعث فينا ذلك الشعور بالتكامل ، وبالراحة ، الذى يأتى نتيجة لكونها لم تعد فى متناول إرادتنا وإنه لمن المفيد تماماً إذا اشتد حزن الإنسان ، أن ينظر إليه على أنه شيء قد حدث فى الماضى السحيق : وأن ينضم بالخيال ، إلى تلك الجماعة الحزينة من الأرواح القاتمة التى ضحت بحياتها للآلة الضخمة التى مازالت تدور . وإنى لأنظر إلى الماضى ، على أنه منظر طبيعى يسطع بنور الشمس ، قد كف نائحو العالم فيه عن النواح . فعلى ضفاف نهر الزمن ، يسير موكب الأجيال البشرية الحزين ، ببطء نحو القبر . غير أنه فى بلاد الماضى الهادئة ، يجد الشاردون المتعبون راحتهم ، ويبطل عويلهم .

أما بالنسبة لى ، فلم أشعر بعواطف من أى نوع ، إلا فى مناسبات نادرة ومنذ زمن طويل . وهذه حالة تلائم العمل كثيراً ، بالرغم من كآبتها . ونحن نحيا حياة ريفية هادئة : أليس بخير ، إلا من حين لآخر ، وليوم أو يومين . ونحن نقرأ (مونتين)[١] بصوت عال : وهو ممتع ومريح ، ولكنه غير مثير بالمرة . أما أنا فأقرأ لنفسى تاريخ روما فى العصور الوسطى بقلم جريجوريوس وهو كتاب ممتع . وقد أخبرنى جارنا جلبرت مرى عن ألواح أورفية [٢] ، وما عليها من إرشادات للروح بعد الموت : ولسوف تجد شجرة سرو ، وبجانب الشجرة ينبوعاً ، وبجوار الينبوع ، ملاكين حارسين ، ولسوف يقولان لك : من أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ ولسوف تجيب : أنا ابن الأرض والسماء المرصعة بالنجوم . لقد تشقق حلقى عطشاً ، إنى أموت ، ولسوف يخبرانه بأن

---

(١) مونتين كاتب فرنسى ١٥٣٣ – ١٥٩٢ مشهور بمقالاته المحشوة بالتأملات .

(٢) نسبة إلى أورفيوس أعظم موسيقى ومغن فى الأساطير اليونانية .

يشرب من الينبوع ، وأحياناً يتكلم الينبوع نفسه . هذه غيبيات جميلة بلا شك .

المخلص

برتراند رسل

فرايديز هل

هاسلمير

٢٩ من يوليو ، ١٩٠٣

عزيزتي لوسي

من المستحيل أن أخبرك عن مدى سروري لكون خطاباتنا عوناً لك . إن أعظم مكافأة يحصل عليها الإنسان من فقدان الشباب ، هو أن يجد نفسه قادراً على أن ينفع الآخرين . ولا أستطيع أن أعبر عن شعوري بعظمة هذه المكافأة ، دون أن أظهر بمظهر الثرثار ، وأرجوك ألا تشعري بأي حرج من عرض كل متاعبك ، فأنا أنتظر سماعها والتفكير فيها بفارغ الصبر . . .

نعم فإن الطريقة التي ينظر بها الناس إلى العلاقات الحميمة باعتبارها فرصة لهدم السعادة شيء مفزع للغاية . . أليس مفزعاً أن يراقب الإنسان ، في معظم الزيجات ، ذلك التنافس بين الزوجين أيهما يقوم بالتعذيب وأيهما يتعذب . وبعد سنوات قليلة على الأكثر يحسم الأمر ، وبعد أن يحسم ، تكون السعادة من نصيب طرف منهما والفضيلة من نصيب الطرف الآخر . ويبتسم القائم بالتعذيب ابتسامة مصطنعة ويتكلم عن السعادة الزوجية ، أما الضحية ، فإنها ، خوفاً من أن يحدث ما هو أسوأ ، تبتسم مؤمنة في فزع فللزواج ككل العلاقات الوثيقة المشابهة ، إمكانيات للألم لا نهاية لها . ولكني بالرغم من ذلك أعتقد أنه من المفيد أن يكون للإنسان علاقة وثيقة بالناس . وإلا ، فسيبقى الإنسان جاهلا بالكثير مما يحسن معرفته ، لمجرد أنه يزيد الإخاء الإنساني الذي يجعلنا نقاسي ما يقاسيه الآخرون . غير أنه من الصعب ألا نحن في لحظات الضعف ، لحياة سهلة ،

حياة مع الكتب والأشياء ، وبعيداً عن الأسى الإنسانى وإنى لأدهش أمام العدد الهائل من الناس الذين لا يحتمل بؤسهم . حقًّا إن الألم هو زاد الإنسان . وعلى الإنسان أن يتعلم أن ينظر إلى السعادة ، بالنسبة للآخرين وبالنسبة له ، كشيء عديم الأهمية ، بشكل أو بآخر — ولكن بالرغم من أنى أظل أردد لنفسى هذا الكلام ، فلم أومن به كلية ، وبشكل تلقائى ، بعد .

يسعدنى أن أسمع أن هيلين قد استراحت . ولم يدهشنى أنها لا تكتب لى . ولكن أخبريها ألا تنسانى ، وأن تكتب لى ثانية حينما تستطيع . إن رؤية جريس قبيل رحيلها ، منذ أيام ، جعل أمريكا تبدو قريبة . وإنى أشعر عادة ، حين أكتب لك أو لهيلين ، كأنى أكتب ، تقريباً ، لموتى قرأت عنهم فى الكتب — فالمكان يبدو بعيداً جداً ، وغارقاً فى ذكريات شخص مختلف جداً الاختلاف — كان يعيش داخل جسدى منذ سبع سنوات ، حتى إنى لا أكاد أصدق أنه حقيقى ، أو مأهول بأناس حقيقيين . ولكنك حين تأتين فى الخريف سوف أشك فيما إذا كنت فى أمريكا حقيقة كل هذا الوقت .

فى الأربعة الشهور الأخيرة كنت أعمل بجد كالحصان ، ولكنى لم أنجز شيئاً ذا بال . واكتشفت على التوالى ، سبع مصاعب جديدة تماماً . قمت بإيجاد الحلول للست الأولى منها ، فلما قابلتنى الصعوبة الأخيرة ، فترت همتى ، وقررت أن أقوم بإجازة قبل أن أواصل العمل . وكانت كل صعوبة تتطلب بدورها ، إعادة تشييد لبنائى كله . وأقيم الآن مع آل ديكنسون ، وسوف أكون فى المدينة خلال الأيام القليلة المقبلة ، وأنغمس فى مسألة حرية التجارة (كطالب فقط) . فنحن فى غاية الاهتمام بموضوع حرية التجارة . إنى أعتبرها آخر ما تبقى لنا مما يمكن أن نسهم به فى تدعيم العلاقات الدولية السليمة فإذا ضاع فإنى سوف أشعر بميل لأن أقطع رقبتى . غير أنه يبدو أن لا فرصة هناك لنجاح تشمبرلن — فكل العقول فى كل طبقات المجتمع ، ضده .

المخلص

برتراند رسل

١٤ تشيني ووك ، تشلسي
٢٨ من فبراير ، ١٩٠٤
عزيزتي لوسي

. . . حقـاً إن الشعور بتفاهة ما يقوم به الإنسان، حيث لا يكون هناك مبرر له ، لهو آخر ملجأ لحب الذات . إذ أنه يأتى نتيجة لما عند الإنسان من مثل أعلى يحاول أن يصل إليه — وهو نوع من الكبرياء . هذا سبب ، والسبب الآخر هو الثورة على شقاء الإنسان الخاص ، لا يقضى عليه إلا عمل عام ضخم . غير أنى أعرف أنه من الصعب جداً أن نطرد حب الذات هذا من ذلك الحصن المنيع . وأنا ، بكل تأكيد ، لم أنجح فى ذلك بعد . ليتنى كنت الآن معك ، ليس فقط من أجل جمال صقلية ، ولكن لأنه يسعدنى كثيراً أن أراك ، ولأنه سوف يكون من السهل بمكان أن أقول هذه الأشياء التى تبث فيك احترام النفس الذى تستحقينه . إنك فى الحقيقة متواضعة جداً . غير أن حب أصدقائك يجب أن يقنعك بأن لديك ما تعطينه مما يقدره الناس ، ولقد وجدت أن السبيل الوحيد إلى الخلاص من الذات هو العمل . ولما كنت غير قادر على العمل ، فذلك الخلاص صعب جداً بالنسبة لى .

يسعدنى أن هيلين تكتب خطابات لطيفة . ولكنى أفهم مما تقولين أن سعادتها ليست من العمق بحيث تنسى الألم . وهذا مما يؤسف له . ومع ذلك فربما يكون ذلك واقياً ضد آلام أعظم فى المستقبل . هذه الأفكار معروفة للجميع ، وأنا أعترف أنه من الأجدى أن يعرف الإنسان الألم واللذة فى أشد درجاتهما من أن يعرفهما بدرجة معتدلة . غير أنه لا يجب أن نرفض التعازى ، حتى ولو كانت عادية . .

لا جديد هنا يذكر . ولقد كنت منهمكاً فى العمل ولكنى الآن انتهيت بالفعل مما كنت أقوم به . وسوف نمضى فى كامبردج يومين هذا الأسبوع . ولسوف

تقوم آليس بزيارة لوجان و بالبحث عن أرض للبناء فى أكسفورد ، كما كنت أقوم بقراءة بعض الروايات : وآخر روايتين قمت بقراءتهما هما : ديانا وحياة بوشامب ، وكتابات ميريديث النفسية جيدة بوجه عام ، بالرغم من أننى لا أظن أن خيانة ديانا مقنعة . ولقد وقعت فى غرامها فى الحفلة الراقصة ، وظللت أحبها فى كل مغامراتها .

ذهبت مساء الأمس إلى ضاحية بعيدة فى لندن كى ألقى محاضرة فى الفرع المحلى لجمعية المهندسين المتحدة . وهم يجتمعون فى بار ولكنهم لا يسمحون بالشرب أثناء اجتماعاتهم . وهم كما يبدو أناس ممتازون ، ومحترمون جداً — وفى الحقيقة ما كنت لأحسبهم عمالا . وهم ينتمون إلى كافة المذاهب السياسية من أول المحافظين حتى الاشتراكيين . وقد طلب منهم رئيس الجمعية . بعد أن انتهيت من محاضرتى ، ألا يتملقوا المحاضر كما هى عادتهم . وحتى بالرغم من ذلك ، لم ألق كثيراً من النقد . ولقد فسر لى السكرتير ذلك . ونحن عائدون ، بقوله إن « حججى قد أفحمتهم » ولقد أحببتهم جميعاً ، وشعرت باحترام متزايد للعامل الماهر الذى هو فى العادة جدير بالاحترام .

سوف أنتهى ، خلال أسبوعين ، من الأمور المالية ، وبعد ذلك سوف أقوم بجولة على الأقدام فى ديفونشير وكورنوال قبل أن أعكف على الفلسفة . وسوف يذهب مكارثى معى .

اكتبى لى بمجرد أن تسمح لك الظروف . وأشعر أنى أريد أن أقول أكثر مما قلت رداً على خطابك ، غير أن السياسة قد شتتت أفكارى ، حاولى أن ترفعى من معنوياتك ، وأرجوك ألا تتخيلى أن حياتك عديمة النفع .

المخلص

برتراند راسل .

سانت كاترينز هاوس
فندق درجة أولى
فوى ، كورنال
٢٩ من مارس ، ١٩٠٤
عزيزتى لوسى

. . . أما من ناحية العمل فأنا لم أفكر بتاتاً ، سواء عن رضى ، أو بالعكس ، فى الناحية المالية لعملى الذى انتهيت منه على خير — فهذه الفترة من حياتى قد ولت . كما أنى لم أفكر كثيراً فى الفلسفة بالرغم من أننى حين أفكر ، فإن أفكارى تبعث إلى حد ما على السرور . وقد تركنى مكارثى الذى كان لى نعم الرفيق منذ خمسة أيام . ومنذ ذلك الوقت وأنا وحدى . ولقد كان الوقت ثميناً جداً . إن شعوراً بالسلام يستولى على وأنا أسير فوق التلال الخضراء التى تطل على البحر ، بلا إنسان أستشيره ، وبدون أن يزعجنى أحد . وأنا أفكر ، بطريقة غريزية هادئة (وهو شىء غير عادى بالنسبة لى) فى المصاعب العملية التى بدت لى بلا حل ، وأختزن راحة عقلية لتكون عوناً لى أثناء اضطرابات ومتاعب الحياة العادية . وحين لا أفكر فى الطريق الممتد أمامى أو فى المناظر فأنا أفكر فى أمور الناس ، محاولا أن أصل إلى الحقائق مباشرة ، وأن أقرر ما يمكننى عمله لتحسين هذه الحقائق . وإنى أحتاج إلى وقت كبير وتفكير عميق ، كى أتخيل نفسى فى موقف ما ، وأرى إذا كنت أستطيع أن أصل إلى نتيجة هامة يكون لها تأثير . ولكم تسخر منى نفسى حين أفكر فى معرفتى الكبيرة بأمور الناس ، وفى رغبتى فى أن أكون موضع ثقتهم ، غير أنى أحاول جاهداً أن أجعل النفس قادرة فى هذا الإطار على أن تخدم أغراضاً صالحة . .

وعندما أصل إلى حانة ما ، أجد متعة فى مشاهدة الرواد بعد تجولى وحيداً لفترة طويلة . إننى ألاحظ صغائرهم ، وأقارن بين صاحبة حان وأخرى ، وأصغى إلى ثرثرتهن حول ما يجرى من حولهن من أحداث ، وكما أصغى إلى ما يقال

عن متاعب حيـــاة أصحاب الفنادق . يمكننى أن أكتب بإسهاب عن هذا الموضوع ، وإن كان ما أكتبه سيبدو وكأنه شيء مماثل لما كتبه د يكنز فى رواية « مستر بيكويك » .

فى هذا الفندق الذى نقيم فيه نكون عائلة سعيدة ، تجتمع كلها على مائدة العشاء . وعندما نزلت مرة إلى الطابق الأسفل رأيت سيدة فى منتصف العمر تضع اللمسات الأخيرة لزينتها أمام مرآة فى بهو الفندق . ولقد ألقت نظرة سريعة إلى ثم تابعت زينتها عندما تبينت أننى لست رجلها الذى تنتظره .

وكانت هناك امرأة أخرى فى منتصف العمر رائعة الجمال ، نحيلة الخصر ، رزينة . كانت تشعر بالزهو لأن الشاب الذى تحبه كان قد أعطاها باقة من زهور البنفسج تتزين بها . ثم هناك المنظر الذى لابد منـــه ، ألا وهو منظر سيدة عجوز تجلس على مائدة منفصلة وتشترك فى الحديث بين الحين والحين ، بأن تلقى ملاحظة عن جمال زهور الربيع مثلا — وهناك رجل متعاظم كان يقول : « حسن ، فى رأيى أن المديرين قد أضاعوا هباء ١٢,٠٠٠ ألف جنيه من أموال حملة الأسهم » . وكنت بين هذا الجمع أشعر بخجل لأننى لم أرتد الملابس المناسبة للمقام ، وأعتقد أنهم كانوا ينظرون إلى بازدراء لنفس السبب ، ولذا كنت كالرجل الذى وقف وحيداً عند دفة السفينة « سنارك » لا يكلم أحداً ، ولا يوجه إليه الحديث أحد ما ، وإن كان هذا لا يعنى أننى لم أتمتع بوجودى وسط هذا الجمع . وقضيت أمس فى مكان يسمى « ميفاجيسى » ، حيث كانت تجرى انتخابات مجلس الأبرشية . وكانت ابنة صاحبة الفندق تعد لى العشاء عندما سألتها إذا كانت المنافسة بين مرشح من الأحرار وآخر من المحافظين . فأجابت : « كلا ، يا سيدى ، إن هناك محاولة من البعض لترشيح دكتور اللاهوت ، بينما البعض الآخر يعارض لأنه ليس من بلدة مفاجيسى إذ أنه لم يعش فيها أكثر من ست أو سبع سنوات » .

فأردفت قائلا : « إن هذا أمر مشين » .

إنه مشين بالطبع . وعندما أخذ الرأى على الموضوع برفع الأيدى لم يكن

له إلا أنصار قليلون ، ولذا فإنه طالب بإجراء انتخاب ، يأمل الصيادون أن يفوز فيه .

فاستطردت قائلا : « على أى حال ، يبدو أن فرصته فى الفوز ضئيلة جداً » .

« أنت ترى يا سيدى أن أنصاره أناس ذوو نفوذ ، إنهم تجار سمك ، يشترى بعض الصيادين منهم شباكهم ، ثم إن من بين أنصاره ما يسمونهم الناس " المسيحيون " ، هؤلاء الناس الذين يناصبوننا العداء ، نحن أصحاب الحانات » فقلت : « آه ، إن الأمر يتضح لى شيئاً فشيئاً — أهو من المنشقين على الكنيسة ؟ »

« طبعاً ، يا سيدى ، إنه ليس من أتباع الكنيسة » — قالت هذا بنبرة تنم على الاحتقار .

ولقد اكتشفت أن مناصريه من الأثرياء المنشقين عن الكنيسة وأنهم عطوفون للغاية على من يبتعد عن شرب الخمر ، وفى منتهى القسوة على السكارى المخمورين ، الأمر الذى أغضب منهم عديداً من أصحاب الحانات . ومن الطريف أن أتبين أن رجال الكنيسة يرددون كلمة « مسيحى » على أنها تعنى رجلا ليس من أتباع كنيستهم . وتبينت أيضاً من صاحبة الفندق أن هؤلاء الوحوش الذين يتنكرون فى زى بشر (تقصد المنشقين على الكنيسة) قد اقترحوا نظاماً جديداً للمجارى ونظاماً جديداً لتوفير الماء ، على الرغم من أن العوائد التى يدفعونها مرتفعة لدرجة فظيعة .

عندما سألتها عن مدى ارتفاع العوائد التى يدفعونها ، أجابت : « لا أدرى ، يا سيدى ، ولكنى أعلم أنها مرتفعة لدرجة فظيعة » .

ولم ينجح الدكتور فى الانتخاب ، لكن وجدت عزاء فى أن القس لم يقدر له النجاح أيضاً . إن هذه الأمور الصغيرة التى كان الذهن يشرد فيها بين الحين والحين لم تترك لى لحظة أشعر فيها بالملل .

المحب

برتراند راسل

قلعة هوارد

يورك

١٥ من أغسطس ١٩٠٤

عزيزتي لوسى

إننى أقيم في بيت كبير يرجع طرازه للقرن الثامن عشر ، ويتمثل فيه على حد سواء كرم المحتد والافتنان بالعقل . إنه حفل عائلى يجمع عائلة مارى التى تعرفينها ، ثم سيسيليا وروبرتس – أما عن سيسيليا فهى تكرس ولاءها لعائلتها وعلى الأخص أمها ، وهى هادئة فى العادة وإن كانت تنفجر فجأة بغضب عنيف تستخدم فيه عبارات ضخمة من عبارات السب والقدح . وباستثناء هذه الحالات فهى قديسة سمينة مرحة ، ومن الغريب جداً أنها من المنشقين على الكنيسة . أما زوجها روبرتس فرجل طويل ، نحيف ، عصبى ، يرتعد كشجرة الحور عند ما تهب عليها الريح ، مثالى خاب ظنه فى المثالية فانقلب إلى الانتهازية . وهناك أيضاً هوارد الذى عاد مؤخراً من نيجيريا حيث كان يدير باقتدار ونجاح باهر شئون مقاطعة استولينا عليها منذ عهد قريب ، تحوى مدينة يبلغ عدد سكانها ٥٠٠,٠٠٠ نسمة لم يكن بينهم رجل أبيض سواه تقريباً . إنه ذكى ، نحيف رقيق ، متمسك بالتقاليد تخفى رقة سلوكه قسوة شرقية وقوة غضب تتسبب فيه والدته وينصب على زوجته – وعلى الأقل قد يحدث هذا فى المستقبل – وهو وزوجته غاية فى الجمال ، وكلاهما منشق على الكنيسة . وزوجته كذلك ذكية جداً وشديدة التمسك بالتقاليد ، وإن كانت طيبة القلب حقاً ، وشخصية لطيفة على وجه العموم . ويبدو ظاهراً للعيان أن كلاً منهما متيم بالآخر ، وإن كان الواحد منا يشعر شعوراً خفياً أن وراء هذا يكمن ذلك النوع من الغيرة الذى يؤدى إلى جريمة قتل إذا ما أثيرت ثائرته : وإن كان أوليفر يشبه أمه فى شخصيته إلا أنه يختلف عنها فى كل الآراء ، ومن ثم فالعلاقات بينهما متوترة لدرجة مؤلمة ثم هناك دوروثى التى تبدو لى كجدتى من أمى – فهى غشوم ، قاسية أحياناً ، جريئة ، شديدة التمسك بالشرق ومليئة

بالحيوية الفطرية والأحاسيس السليمة ، وتسيطر عليها بشكل غريب مبادئ أمها ، وأخيراً هناك ليف جونز[1] السكرتير الخاص لليدى كارليل وهو شخص محبوب للغاية ، ويقدم كل عون لكل إنسان . وضحى بمستقبله وبرغباته الذاتية ، وبكل أمل فى حياة خاصة من أى نوع ، ولذا تنظر إليه الأسرة على أنه شىء ثابت فى حياتها . ولا تنتظر منه أية مطالب على الإطلاق أكثر من توقعهـا أن ينطق الحجر الأصم طالباً طعاماً . وتوجه ليـدى كارليل الحديث بشكل يجعل منه مباراة فى المهارة من أجل مراهنات كبيرة — إن الحديث دائماً يتخذ طابع جدال تتجاهل فيه بكل ما أوتيت من قدرة فنية ، الالتزام بالموضوع ، فهى تغير موضوع الجدال حتى تحين الفرصة المواتية لها ، وحينئذ تهاجم وتشتت العدو كالتبن الذى تذروه الرياح وتوجه نسبة كبيرة من ملاحظاتها لإيلام أى شخص يبدو منه استقلال فى الرأى. أو كان سبباً فى إثارة أى لون من ألوان الغيرة العديدة . إن لها عيوب النساء اللاتى عرفهن نابليون وإن كانت أقل منهن كذباً وأكثر قسوة ، وإنه لأمر فظيع أن ترى فيها هـذه الرغبة فى إثارة الشجار الذى ينتهى بالتصافح والتصافى . ومن الناحية الأخرى ، أن لها روحاً اجتماعية كبيرة ، ولذا فهى تكرس وقتها ومالها للقيام بأعمال عظيمة حقاً. إنها تتسم بالاتزان والشهامة بالرغم من أنها شخصية معقدة .

المحب

برتراند رسل

اوديرن فيبستر

٣ من أكتوبر ، ١٩٠٤

عزيزتى لوسى

ليس هذا بخطاب بالمعنى الصحيح إذ أنه فقط يصحح ما قلته فى الخطاب السابق . فبمجرد رحيلى بدأت أنظر للأمور فى أبعادها الحقيقية ولم

---

(١) الآن لورد رايادر (١٩٥٢) .

أعد أرزح تحت وطأة الأمور المعقـــدة . على أى حال لقد عزمت بوجه عام على ألا أكوِّن علاقات وثيقة مع أناس لا أحترمهم ، أو أحاول مساعدتهم إذ يبدو أن هذه مهمة لا أصلح لها .

إن مقاطعة بريتانى رائعة تماماً ــ فيها كثير من الجمال الريفى الصافى ، بغاباتها وجداولها وحقول التفاح التى تمتد إلى مالا نهاية وهى ملأى بالتفاح الأحمر الكبير الذى يملأ أريجه الهواء ــ وفوق ذلك كله فهى تجمع ما بين جمال مقاطعة ديفون ومقاطعة كورنوال . وكنا نسير مؤخراً حول الساحل الجنوبى الغربى حيث يســيطر المحيط الأطلسى كإله . وتوجد فى كل قرية صغيرة كنيسة قوطية كبيرة وعادة ما تكون فى غاية الجمال . وهناك كنائس كثيرة منعزلة تواجه البحر كشاهد على شجاعة القدماء ــ وتعجبت أول الأمر من هؤلاء الناس الذين يؤمنون بالله مع وجود شىء أكثر عظمة وأكثر قوة كالبحر ، ولكنى سرعان ما جعلتنى قوة البحر الرهيبة أرى أن الله ينتمى إلى عالم البشر ، وأنه يبدو فى أذهانهم كقائد لجيش وهم جنوده . إن الله هو أكبر دليل على أن العالم لا تتحكم فيه المادة فحسب . ولهذا كان الصيادون ولا يزالون أكثر الناس تديناً . إن هذه المقاطعة الغريبة مقفرة ، كثيرة التعرض للرياح ، ازدهرت فيها فى الأزمان الغابرة مدن ، حيث كان يعيش ازولت فى قلعة تطل على البحر ، وحيث تبدو الأساطير القديمة أكثر أصالة من الحاضر . حتى الأطفال يبدون كباراً فى السن ، فهم لا يلعبون أو يصيحون ، كما يفعل الأطفال الآخرون ، بل يجلسون فى سكون ، مكتوفى الأيدى وعلى وجوههم عناء الاستكانة فى انتظار للأحزان التى سيأتى بها الزمن لامحالة . أما الرجال فتغشاهم الكآبة التى يحاولون التخلص منها بشرب الخمر . إننى لم أر قط فى حياتى أناساً مدمنين على شرب الخمر مثل هؤلاء القوم ، ففى كل قرية رأينا عديداً من السكارى يتمرغون فى الوحل . إن الأيام العادية هنا مملة ، مثلها مثل يوم عطلة البنوك عندنا إلا أن السيدات ، كما أظن لا يكثرن من شرب الخمر .

وعلى النقيض من سكان مقاطعة بريتانى رأيت صاحب آخر حانة نزلت

بها ، وتقع فى مكان يسمى « سان جينوليه » . بالقرب من برنى دى بمارش ، وهو رجل طويل ، معتدل القامة ، ذو لحية سوداء ضخمة ، يقوم بحركات سريعة ، قوية، ومثيرة ، ونظراً لأن المطر قد بللنا فقد جلسنا فى المطبخ حيث كان يطهو طعام العشاء بنشاط ومتعة لم أر مثيلهما قط . وسرعان ما تبينت أنه من باريس ، إن له أختاً متزوجة من صاحب فندق فى لانكاستر ، وأختاً أخرى تعمل فى خدمة اللوردجيرارد فى مصر . ولقد كان هذا الرجل يعمل طاهياً على سفينة تعمل فى الشرق الأقصى ، وانتهى به المطاف بالبدء بهذه المجازفة بعد أن اقتصد ما يكفى من رأس المال . ولقد أخبرنا أنه فى الحقيقة نحات وليس بطاه ، وأنه فى الشتاء عندما لا يأتى رواد للحانة يكرس وقته فى صنع التماثيل . ويتمتع بصوت عال يمكن أن يملأ دويه أرجاء قاعة ألبرت للموسيقى ، ويستخدم صوته هذا بدلا من جرس العشاء . وفى الحقيقة ، أن روحه المرحة تتجلى فى كل الأحوال فنراه يجأر بنكتة ما أو يصدر أمراً مما يجعل حوائط الفندق تدوى من علو صوته . وكان طهيه ممتازاً ، بلا شك . ولقد رأينا صياداً فقيراً يبيع له سردينا للعشاء ، وكانت كمية كبيرة جداً ، بثلاث بنسات ، أنفقها هذا الشقى التعس ، على ما يبدو لى ، فى الشرب فى بار الحان .

المحب

برتراند رسل

٤ شارع رالستون

شارع تايت ، جنوب غرب لندن

٨ من فبراير ، ١٩٠٥

عزيزتى لوسى

والآن وقد عدنا إلى تشلسى ، كثيراً ما أتمنى أن تعودى إلينا ، وعندما أتجول فى متنزه باترسى أفتقدك كثيراً . إن به كثيراً من روائع المحيط الأطلسى . وهذا العام ، عندما أقوم بالتنزه ، أصطحب عادة ماكارثى الذى أجد فى صحبته راحة

وهدوءاً وفى مزاحه اللطيف ما يبعث على البهجة . وأســير أيضًا فى صحبة جورج تريفيليان الذى يعتقد أن العالم أفضل مما أظن ، وإن كان اعتقاده هذا يتسم بكآبة تبدو نكتى عن التفاؤل ، إذا ما قورنت بها ، مرحة للغاية . وبهذه المناسبة أود أن أقول إن زوجته من أحب الشخصيات التى رأيتها . إنها قليلة الكلام ، وكثيراً ما أشعر أن الحديث بدأ يفتر عندما أكون معها . رغم هذا فهى تزخر بعواطف الحب والصداقة الكريمة ، وتتجلى فيها الأمانة والإخلاص لدرجة نادرة الوجود . إنها تجهل هذا العالم ، مثلها مثل كل شخص لم ير فى حياته إلا الكرم وحسن الطالع ، ولهذا تتوقع تلقائياً من كل من تقابله حسن المعاملة . وهذا يجعلها تكسب عطف الشباب ، وتجعل الواحد منا تواقاً لأن يجنبها الأحزان ، برغم ما فى هذا من استحالة . لقد أحببت واحترمت أناساً أكثر منها ، لكن لم تكن لدى رغبة لأن أقيهم من الآلام ، إننى أشعر نحوها بنفس الشعور الذى أوليه لطفل ما .

وفى لندن نرى الآن كثيراً من الشخصيات ، فالليلة الماضية تناولنا العشاء ، عند سدنى وب لنقابل ليون فيليمور ، وماكندر الذى تعرفينه بلا شك — ذاك الحيوان عميد كلية الاقتصاد — وجرانفيل باركر ، الممثل الشاب الوسيم الذى يخرج مسرحيات شو ، ومرى[١] — وسير أوليفر لودج العالم ، المؤمن بتناسخ الأرواح — وآرثر بلفور[٢] ، ثم وورنر أعظم الجميع شأناً وهو صاحب شركة وورنر وأكبر مليونير فى جنوب أفريقيا . إنه رجل ألمانى طيب القلب ، خفيف الظل ، بدين ويحمل كذلك سلسلة ساعة ذهبية سميكة ، ويتكلم بلهجة ألمانية قوية (هو نموذج لأعظم المستعمرين البريطانيين) . لا يكاد يشعر بوزر دماء الشعوب التى دمرت والكراهية التى تولدت ، واستعباد الصينيين وفساد الإنجليز ، وهى أشياء كان ينبغى ، طبقاً للقواعد القديمة ، أن ترهق كاهله كما لو أنها قبة من رصاص . إن هذا العشاء مناسبة لطيفة . وعندما حضر جميع الضيوف ماعدا

---

(١) جلبرت مرى مترجم مسرحيات اليونان القدماء وصديق راسل .

(٢) آرثر بلفور وزير خارجية إنجلترا إذ ذاك .

بلفور وورنر طلبت منا مسز وب أن نرى مَن منهما يظن أنه أكثر أهمية من الآخر، ويأتى آخر الجميع. وبكل تأكيد، لقد حضر وورنر آخر المدعوين وعلى الرغم من أن بلفور يتحكم فى الإمبراطورية فإن وورنر يتحكم فيه. إن بلفور إنسان لطيف للغاية لا تصدر منه أية حركة أو إشارة تنم على أنه شخصية هامة، عطوف، وتواق لأن يصغى أكثر مما يتكلم. وكثيراً ما يضع أصبعه فى فمه، كما لو كان طفلاً مستغرقاً فى التفكير. ومن الواضح أنه ضعيف، وأنه يفتقر إلى العواطف القوية، وأنه لطيف ولكن غير كفء. على الأقل لم ألاحظ شيئاً يدل على مقدرة ما، اللهم إلا لباقته وهى السبب الرئيسى، على ما أظن، لنجاحه. ولقد صرح أنه لا يدرى إذا كانت الحكومة ستبقى أسبوعين آخرين أم لا، كما ذكر أنه لم يتمكن من مشاهدة مسرحية شو خوفاً من احتمال إجراء انتخابات عامة. لقد اعتبرت هذا الكلام نوعاً من المداهنة والتملق. ولقد جرنى للحديث عن فلسفة مور، ثم أصغى إلى محاضرة ألقتها مسز وب عن « المبادئ الأولية للحكومة، للمبتدئين » وكان يمكن أن يكون هذا على الأقل عنوانا مناسباً لما جرى على مائدة العشاء من حديث.

أما سير أوليفر لودج فقد بدا لى لطيفاً، برغم شعورى بالتحامل عليه من جراء اختلاف عقائدنا الدينية. إنه هادى، يميل إلى الفلسفة وإلى النظر للأمور نظرة موضوعية، أما ماكندر التعس فقد آثر جانب السلام مع بلفور ودخل معى فى جدال، كان مصدر متعة كبيرة لى، وكان امتحاناً مريراً تخلى فيه عن السلوك المهذب ومراعاة شعور الغير[1].

إننى لا أقوم بعمل ما فى هذه الآونة، إذ يقتصر نشاطى على مقابلة الناس وقضاء وقت أمتع فيه نفسى. وتنتابنى نوبات من الضيق قصيرة الأمد، ولقد تأثرت إلى حد معقول بالمآسى التى حدثت للغير مؤخراً، بعضها كشف عن سلوك سيئ لأصدقاء حميمين، الأمر الذى سبب لى عظيم الألم، والبعض الآخر كان مبعث عذاب أكبر إذ أنه كان على أن أراقب ما تحدثه من آثار

(١) لقد كتبت مسز وب وصفاً لحفلة العشاء هذه فى كتابها « جهادنا المشترك » ص ٣٠٠ .

مدمرة ، وأنا أقف عاجزاً بلا حول ولا قوة إزاء هذا الأبله عديم الإحساس الذى يقول إن حب الناس يجلب السعادة للإنسان. على أية حال ، ورغم كل الآلام التى يسببها هذا الحب ، فإنه يعين الإنسان بالفعل على تحمل متاعب الحياة .

المحب

برتراند رسل

لووركوبس

باجلى وود ، أكسفورد

١٣ من يونيو ، ١٩٠٥

عزيزتى لوسى

لا أذكر ولم يتطرق إلى علمى أن مجلة الإسبكتاتور قد تحدثت عن مؤلفاتى ولذا فإن إشارتك قد جعلتنى متلهفاً لمعرفة ما كتبته . إننى لم أكتب شيئاً جديداً من هذا النوع من الكتب ، وإن كنت أسير قدماً فى ذلك . ومنذ عهد طويل أناقش بين الفينة والأخرى هذا اللغز : إذا انطبق اسمان أو وصفان على شىء واحد ، فإن ما يصح على أحدهما يصح على الآخر. أراد جورج الرابع مثلا أن يعرف إذا كان سكوت هو مؤلف روايات « ويفرلى » ، وسكوت فى الحقيقة هو نفس الإنسان الذى ألف روايات « ويفرلى » . ومن ثم فإذا نحن وضعنا الإنسان محل المؤلف ، تبين لنا أن جورج الرابع أراد أن يعرف إذا كان سكوت المؤلف هو سكوت الإنسان الأمر الذى يوحى باهتمام بقوانين الفكر أكثر من اهتمامنا بمعرفة أول إنسان سكن القارة الأوربية . إن حل هذا اللغز الصغير غاية فى الصعوبة إذ أن الحل الذى اكتشفته هذه الأيام يلقى ضوءاً على أسس علم الرياضيات وعلى مشكلة العلاقة بين الأفكار والأشياء... إنه لأمر عظيم جداً أن تجد لغزاً ما إذ أنه طالما ظل بلا حل فإن هذا يعنى أن الإنسان لم يصل بعد إلى أعماقه . إننى عازم على ألا أقوم ، طالما حييت ، بعمل مضن كما فعلت فى العامين

السالفين . إن عملى هذا العام ، وحتى هذه اللحظة ، لم يصل بعد إلى هذه الدرجة من الصعوبة ، إذ ما زلت أجنى ثمار عملى السابق .

إن هذا المكان مناسب للغاية . البيت جميل مريح ، وأقوم بكثير من البحث والاطلاع لدرجة تكاد تكون مخجلة ، فالمناظر الريفية التى تحيط بالبيت مثال لما نراه فى إنجلترا من جمال الحقول والمروج والمناظر الفسيحة الشاسعة التى تضم أكسفورد والنهر . ويبدو أن أليس معجبة بهذا المكان تمام الإعجاب وصحتها هنا على وجه العموم أفضل مما كانت عليه وهى تعيش فى المدن . إننى أشعر بالمزايا العظيمة التى أجنيها من اختلاطى بالناس فى أكسفورد — إذ أنه لمما ييسر على الإنسان الاحتفاظ بالرغبة فى العمل ، أن يربط بينه وبين اهتمامات الغير . وكان على أن أسير على نظام صارم ، تيسر لى بفضل وجودى هنا .

أرجوأن تكتبى لى ثانية بأسرع ما يمكنك وأن تفيديني بأخبارك وأخبار هيلين ، إذ أن خطاباتك مبعث سرور لى دائماً . إننى الآن وسط نوبة من نوبات الحماس للعمل ، وسرعان ما تنتهى على الرغم منى . إن الحياة بسيطة وممتعة لو أن الانسان تمكن من التمتع بأداء واجباته ، كما يفعل البعض ، وتكون أكثر بساطة إذا قام الإنسان بواجبات لا يشعر فيها بمتعة ما . وإذا لم يتيسر له هذا أو ذاك فإن الحياة تكون معقدة لحد مفزع . إننى أعيش الآن على أمل الوصول إلى منتصف العمر ، الذى يجعل كل شىء على حد قول البعض ، سهلا ميسوراً .

المحب

برتراند رسل

١ ، شارع بارتون
وستمنستر
٣ من أغسطس ١٩٠٥

عزيزتى لوسى

قبل أن يصلك خطابى ربما تكونين قد علمت بالكارثة التى حلت بنا جميعاً؛ لقد غرق تيودور ديفيز عندما كان يستحم بمفرده فى بركة بالقرب من كيركبى لونسديل ، ومن المعتقد أن رأسه اصطدم بصخرة أثناء غطسة أفقدته الوعى . إنها خسارة لعديد من الناس ، وسنشعر بها طالما حيينا ، ولا يتسنى لأحد أن يقدر مدى خسارة الشعب الإنجليزى بفقده . إلا أن هذا يتضاءل إذا ما قورن بالخسارة التى يشعر بها كرومبتون إذ أنهما كانا دائماً متلازمين ، متفاهمين فى كل شىء ، بل كان تيودور يرعى كرومبتون ويشمله بحنان الأم لابنها ، وبرغم أن كرومبتون يحتمل الصدمة بشجاعة مذهلة ويصبر عقله عليها فى جلد ، إلا أننى أشك فى مدى احتمال بدنه لهذه المصيبة . ولذا فإننى هنا أحاول أن أفعل كل ما أستطيع من أجله — وإن كان هذا لا يزيد كثيراً عن الجلوس معه فى صمت ومشاركته الأسى . وحالما تسنح له الظروف للرحيل ، فسأرافقه فى السفر للخارج . إننى أقيم الآن فى منزل مس شبشانكس التى كان لطيفاً منها أن تؤجره لى ، نظراً لرحيلها ورحيل السكان الآخرين . ولقد جزعت أليس جداً عندما سمعت خبر وفاة تيودور ، وكنا وقتئذ نهم بالرحيل إلى إيرلندة لنقيم مع عائلة مونتيجلز ، وبما أنه من الخير لها ألا تترك وحيدة بمفردها فقد اصطحبتها إلى إيرلندة ، وعدت إلى هذا المكان . وستمضى هناك حوالى عشرة أيام أخرى فى رعاية هؤلاء الناس الطيبين . إننى لا أدرى كيف أحتمل رؤية الأسى الممض الذى يشعر به كرومبتون ، وإن كنت أجد عزاء فى شعورى بإمكان تقديمى بعض العون له . لقد كان لتيودور أصدقاء أوفياء كثيرون ولقد عمل هؤلاء ما بوسعهم وساعدوا كرومبتون على تخطى الصدمة الأولى . ولكن سيستمر القلق على كرومبتون لفترة طويلة فى المستقبل .

لقد كتبت مقالا عن جورج الرابع فى مجلة « الفكر »، سينشر فى الوقت المناسب ، وستجدين فيه « الجراب » . . .

إننى مرهق لدرجة لاتمكننى من الكتابة أكثر من هذا . لقد أردت أن أقصر خطابى على تيودور الذى ملأ علىّ كل تفكيرى.

المحب

برتراند رسل

روزارين ، جريشوت

هاسلمير ، سرى

٣ من سبتمبر ١٩٠٥

عزيزتى لوسى

أشكرك جدًّا على خطابك الرقيق . لقد سافرت مع كرومبتون إلى فرنسا لمدة أسبوعين ، وهى كل الإجازة التى استطاع أن يحصل عليها . وأعتقد أن هذه الفترة كان لها أثر طيب عليه . لقد أقمنا أول الأمر مع عائلة فراى ثم عائلة هوايتهد . وبرغم أنه مضت عشرة أيام لم أره فيها منذ عودتنا ، إلا أننى عظيم الرجاء فى أنه سينجو من الانهيار التام .

وعلى نحو أقل من كرومبتون كانت هذه الفترة مريعة بالنسبة لى . إنها جعلتنى أنظر لكل شىء نظرة ريبة وشك مادامت تتحكم فيه الصدفة المحضة، ولذا كان من الصعب على الإنسان أن يحتفظ بهدوئه وبسكينته وهو يشعر بالخوف من فقد كل غال وثمين . كما أنها أحيت ، كما تفعل المصائب دائماً ، ذكرى الأحزان الدفينة التى كان الإنسان قد عزم على نسيانها تماماً . بدأت هذه الأحزان تندفع من قبورها واحدة بعد أخرى ، وترفع عويلها فى صحراء العقل وكأنها ريح عاتية . ولم تكن هذه الحالة التى مررت بها تسمح بفلسفة على الإطلاق — فلم أر أى شىء يمكن قوله للتخفيف من وقع الكارثة . على أية حال ، لقد ملكت زمام نفسى الآن ، وغدا سأعاود العمل بعد جولة لمدة

أسبوع أقوم بها بمفردى وسأكون يوم الأحد مع عمتى أجاثا لنتحدث عن الأمور الغابرة وعن الموتى وعن الذكريات القديمة ، وهو حديث يشعر الإنسان بشيء من الراحة . من الغريب أن المشاعر العائلية يثيرها أى شيء يجعل الإنسان يعتقد أن الكون عدو له .

المحب

برتراند رسل

لوور كوبس
باجلى وود ، أكسفورد
١٠ من نوفمبر ١٩٠٥

عزيزى لوسى

إنه مبعث سرور عظيم لى أن أسمع منك ثانية . إننى أعتقد أن الخطابات لها أهمية أكبر مما نظن . فإذا لم يكتب الإنسان فلن يتسنى معرفة أعماله وحالته الفكرية العامة ، وعندما يحين الوقت للشرح والإيضاح يجد الإنسان أن هناك تمهيديات كثيرة لدرجة تجعل التعبير عنها كتابة أمراً مستحيلا . وأرجو ألا يحول بينك وبين الكتابة الخوف من الإطناب — ولا يصح أن تنتظرى حتى تكونى فى أوج حالاتك النفسية . إن ما تقولينه عن أليس و «الطريقة السليمة» لحياتى تجعلنى أشعر بأن هناك ثمة خطأ ما — استغراق فى الحديث عن المهنة والفضيلة لأننى بالتأكيد أعرف أناساً أفضل منى فى طريقة حياتهم ، كما أنهم أقدر على إنجاز واجبات صعبة طويلة دون أن تصيبهم لحظة ضعف أو وهن ، إلا أنهم لا يتحدثون كثيراً عنها كما أفعل ، ولذا لا يعلم الناس مدى صعوبة الواجبات التى يقومون بها فى صمت .

إننى شاكر سؤالك عن هيلين وأدرك تماماً ذلك الألم الذى يعاودك حين ترينها ، والفزع من مواجهة وقائع الحياة بما فيها من عذاب ممض بعد الاستكانة إلى الحياة الروتينية . إننى أشعر بالأسف لأن الأمور مازالت على حالها من

السوء . وإن كنت أتساءل عما إذا كان هنـــاك أناس يشعرون بهذا ، ماعدا السفهاء . إن الحياة عبء ثقيل إذا وجد الإنسان أن من يوليهم أعظم حبه يفضلون غيره عليه ، وإذا لم يجد ركناً فى هذا العالم يقضى فيه على الوحدة التى يشعر بها . إنه من الصعب أن أدرك كيف تكون الحياة غير هذا . ومشكلتك هى أن تواجهى هذا كله بشجاعة ، مع الاحتفاظ بقدر الإمكان بكل اهتمامك وقد يكون أيسر على الإنسان أن يتخلى عن كل شيء دفعة واحدة ، ويقضى بذلك على أشد ما يهواه ، وإن كان هذا سيفضى إلى الصلابة التى تتطور آخر الأمر إلى صرامة ، كالتى يشعر بها الناسك . إن السبيل الآخر له مضاره كذلك ، فهو مرهق للذهن والبدن ، محطم لراحة البال ، ويجعل الإنسان يفكر دائماً فى كيفية الاحتفاظ بقيمته دون التعدى على حدود غيره من الناس . إنه أمر غاية فى الصعوبة . وتراودنى نفسى أحياناً بأن أجعل حياتى الواقعية كلها ذكرى وخيالا ، لامجال فيهـــا لقيود الواجب والحقائق ، وأن أجعل علاقاتى الحالية مع الناس مجرد ظل زائف ، وهذا سبيل من مزاياه الاحتفاظ بالماضى نقياً بلا شوائب .

لكن لنتحدث عن أمور عملية أكثر . إننى أعتقد أنه إذا كان هناك شخص لايحتل المكانة الأولى فى حياة شخص ما ، فمن الضرورى ، على مافى هذا من صعوبة ، أن يجعل مشاعره تجاه هذا الشخص مجرد مشاعر سلبية . أعنى أنه يجب ألا يعطى رأياً ، إلا إذا سئل فيما يجب على هذا الشخص أن يقوم به من أعمال ، ويجب ملاحظة حالاته النفسية ، بحيث يقتصر على ترديد صداها فلا يظهر إلا قدراً من العاطفة مساوياً لحالته النفسية ، ويكبت من المشاعر ما يجاوز هذا النطاق ، ويجب أن يكون على استعداد بأن يشعر بألا يرتب لنفسه حقوقاً ، ولن يرضى بما حصل عليه . وهذا يشبه على سبيل المثال موقف الأم الطيبة تجاه ابنها المتزوج . ورغم ما فى هذا الموقف من صعوبة فهو أمر عادى بالنسبة للعواطف ، وواجب على الإنسان أن يروض نفسه على القيام به دون أن يعرض نفسه لموت روحى .

إننى أقابل كرومبتون ديفز كثيراً هذه الأيام . وهو مازال يشعر بشقاء عميق ، وأعتقد أنه سيظل كذلك لفترة ما ، كما أنى لا أعتقد أن الزواج أو أى شيء آخر سيشفى جراحه ، وبرغم هذا فهو شجاع ويتظاهر بالجلد أمام الناس ، كما أنه محبوب بين أصدقائه لدرجة نادرة .

يبدو لى أن التحالف مع اليابان أمر عظيم للغاية — ولقد سررت لأن إنجلترا بدأت تدرك أن الرجل الأصفر رجل متحضر ، ولا أشعر بأسى كبير لما يتضمنه هذا الإدراك من نزاع مع أستراليا . لقد كفت حكومة بلفور عن القيام بأعمال ضارة ، بعد أن أصبحت عاجزة تماماً . ويسود الاعتقاد بأنه سيستقيل فى فبراير ، وأنه يحاول دفع الأحرار لتأليف وزارة قبل حل البرلمان . ومهما يحدث فإن الأحرار على ثقة تقريباً من الحصول على أغلبية ساحقة فى البرلمان المقبل .

من الطريف أن أعلم أن هناك من يتتلمذ علىّ فى برين مور ، ولقد قام شابان أحدهما يسمى هنتنجتون فى جامعة هارفارد ، والآخر يسمى فيبلن فى جامعة برنستون ، بتأليف كتب فيها إشارة كريمة إلىّ . وثانيهما على الأقل ، شاب ممتاز كفء .

لقد طلبت منى أليس أن أخبرك أنها لم تستطع كتابة خطاب إليك يلحق بريد يوم السبت. إنها جد مشغولة ما بين استقبال الزوار وحضور الاجتماعات وتشعر بإرهاق شديد . على العموم إن صحتها جيدة هذه الأيام ، ولقد طلبت منى أيضاً أن أذكر لك قصة فورستر « حيث يتحرج الملائكة من الدخول » — يبدو لى أنها قصة بارعة ، فيها كثير من الأصالة ، وإن كان فى أجزاء منها إفراط فى الهزل . كما أن الخاتمة عاطفية بدرجة مبالغ فيها . إن فورستر أحد أفراد مجموعتنا فى كمبردج ، وأظن أنه يبلغ حوالى السادسة والعشرين من العمر ويبدو أنه يتمتع بموهبة أكيدة .

لقد ظهر كتاب ديكنسون[1] الجديد المسمى « معرض الآراء الحديثة » ،

---

(١) جامعة مشهورة فى شرق الولايات المتحدة .

إنه كتاب رائع أظهر فيه تحمساً وموالاة للمحافظين أكثر من الأحرار ، وإن كان تحمسه وتعاطفه لم يفتر إلا عند حديثه عن جلادستون وعالم البيولوجيا . ونرى فى الكتاب بجانب جلادستون ، دزرائيلى وهنرى سدجويك وأصدقاء عديدين مثل بوب تريفيليان وفرديناند شيلر أودبون وأشتاتاً من الشخصيات أمثال بيرنسون وسانتيانا وسدنى وب وآخرين من غير ذوى الشأن . إنه كتاب لا بد من قراءته .

لقد سار عملى هذا الصيف على مايرام ، على الرغم من فترة انقطاع طويلة نظراً لوفاة تيودور ، وأحرزت تقدماً كبيراً أكثر من المعتاد . ولكن نهاية المجلد الثانى تبدو بعيدة المنال — فالعمل ينمو باستمرار . فيما عدا هذا ، كنت منهمكاً فى مصائب الغير — وبعض هذه المصائب المؤلمة لدرجة غير عادية اعترضت طريقى فى الفترة الأخيرة . ومما زاد من وطأتها استحالة الحديث عنها للغير — على أى حال ، لا قبل لى بتحمل الحياة مالم تكن لى علاقة بأناس يفرضون علىّ مشاركتهم الأسى والأحزان . وأينما وجدت الأحزان فإننى أوثر معرفتها ، فقط ولكنى أشعر شعوراً متزايداً بالعجز أمام المصائب فقد كنت قادراً من قبل على مواساة الناس بكلمات مشجعة ، ولكننى أشعر الآن بالكلال أكثر من اللازم ، ولم أو من بغير الصبر والتجلد دواء للأحزان .

المحب

برتراند رسل

لوور كوبس

باجلى وود ، أكسفورد

١ من يناير ١٩٠٦

عزيزتى لوسى

سرنى أن إحساسك بالقيم قد تغلب على تزمتك البيوريتانى ، وأنا واثق أن إحساسك بالقيم كان صادقاً . إن الخطابات هامة جداً ، وأهتم كثيراً بوصول

خطابات منك ، إذ أنها السبيل الوحيد الذى لا يجعلنا نلتقى كغرباء مادامت اللقيا لا تتيسر إلا بعد فترات من البعد تقاس بالسنين . على العموم أعتقد أنك محقة فى عدم تكريس أفضل ساعاتك للعمل الروتينى ، إذ أن الناس الذين يفعلون ذلك يجرفهم الروتين بكل تأكيد لدرجة تجعلهم يفقدون كثيراً من شخصيتهم ومهاراتهم الروتينية كذلك . وفى هذا المجال ، على الأقل ، أنفذ عملياً ما أنادى به ، فأنا أقضى الساعة الأولى والنصف ساعة فى جدل حول الأخلاقيات مع الشاب آرثر داكينس وهو على ما أعتقد تلميذى الوحيد هنا ، وإن كان تلميذاً عنيداً صلب الرأى دائم السعى وراء المعتقدات الفلسفية الكاذبة التى ينادى بها أتباع الفيلسوف هيجل . (إننا نقيم مع أهله فى هسلمير) وأبوه رجل لطيف ، يتمتع بود ومشاعر كريمة نادرة الوجود ولقد ورث عنه ابنه كثيراً من جاذبيته وباستثناء عائلة مدى فهو الشخص الوحيد الذى أعده صديقاً بحق — ومن عداه فهم غرباء ، لا أعرفهم إلا قليلا .

إننى تواق جداً لزيارتك ، وأرجو رجاء حاراً ألا يحدث ما يحول دون إتمامها ولن أكون منهمكاً فى العمل فى ذلك الوقت ، إذ أننى سأكون قد قمت بعمل مستمر طوال الربيع ، وأخشى أن تجدينى قد اكتسبت كثيراً من صفات الكهولة وقلت قدرتى على التحلل من الواجبات المفروض علىّ القيام بها ، فمشاغل الحياة وأعباؤها كثيرة ومن شأنها أن تضعضع الكيان الروحى للإنسان بما تسببه من الإرهاق الشديد . لقد بدأت أعتاد شيئاً فشيئاً على شغل بالى بما ينبغى على القيام به من أعمال يوماً بعد يوم ، مما باعد بينى وبين أشياء تفوقها فى الأهمية ، قد يكون هذا أمراً لا مفر منه ، لكنه أمر مؤسف إذ بدأت أشعر بأنى أصبحت أكثر ميلا للانقباض . وعلى الرغم من ذلك فإن هذا المنهاج يتناسب مع عملى لدرجة مدهشة . فعملى خلال عام ١٩٠٥ أفضل كماً وكيفاً من العمل الذى أنجزته فى أى عام مضى ، باستثناء العمل الذى أتممته عام ١٩٠٠ . إن الصعوبة التى صادفتنى فى عام ١٩٠١ والتى شغلتنى كثيراً طوال فترة إقامتك فى أوربا قد انتهت تماماً ، على حد تقديرى . ولقد نشأ الإشكال من جراء تساؤلنا

عما إذا كان ملك فرنسا أصلع الرأس — وهو سؤال أجبت عليه فى نفس المقال الذى أثبت فيه اهتمام الملك جورج بقانون التطابق— وعلى هذا فمن المنتظر أن تسير الأمور بينى وبين هوايتهد سيراً طيباً إلى حد ما من الآن حتى نشر كتابنا الذى أرجو أن يتم فى بحر أربع أو خمس سنوات . وفى الفترة الأخيرة كنت أعمل بمعدل عشر ساعات فى اليوم ، وأعيش فى حلم لا أرى فيه عالم الواقع إلا من خلال ضباب معتم . وبما أنه على أن أزور عمتى أجاثا فى هندهد وبعد ذلك عائلة داكين ، فإننى أصحو على حين فجأة من الحلم الذى أعيش فيه لكنى الآن سأعود إليه حتى أسافر إلى الخارج مع مستر ديفيز وابنته يوم ٢٥ يناير .

لقد وجدت عند عودتى اليوم هديتك الرقيقة إلى أليس التى لم تستلمها بعد لأنها سافرت إلى وستام للاشتراك فى الدعاية الانتخابية لماسترمان ، وما هو بالشخص الذى أرشحه لوكان الأمر بيدى ، ولكنها كانت قد وعدته منذ مدة طويلة بأنها ستساعده فى الانتخابات . إن المستقبل السياسى يبشر بالخير على وجه العموم . لقد أحسن الأحرار صنعاً فى منعهم جنوب أفريقيا من استرقاق الصينيين ، وقد أحدث كل من كامبل وبانرمان ضجة شديدة بتصريحاتهم التى تؤيد منح الحكم الذاتى لإيرلندة ، ولكن اليوم نصح كل من ردموند ودوق ديفونشر الناخبين ليدلوا بأصواتهم مع الأحرار ، وهكذا ضمن كامبل و بانارمان أصوات أنصار الحكم الذاتى دون أن يفقدوا أصوات الاتحادات التى تنادى بحرية التجارة . ولولا الحظ ، لانعكست الآية . على أية حال ، قبل أن يصلك خطابى ستبدأ نتائج الانتخابات فى الظهور . إن مجلس الوزراء الجديد ممتاز ، ولقد سررت لأن جون بيرنز من أفراد الوزارة التى أرجو ألا تتحطم بعد ذلك على صخرة المشكلة الأيرلندية . إننى الآن أتنفس الصعداء لأن هؤلاء الأوغاد قد تركوا الحكم ، وأتوق لمعرفة الأغلبية التى سنحصل عليها والقضية الآن هى : هل فى وسع الأحرار عدم الاعتماد على الأيرلنديين؟ من المؤكد أن النتيجة ستكون متقاربة سواء فاز هذا أو ذاك .

أتمنى أن تتمتعى بقراءة كتاب « معرض الآراء الحديثة » ، الذى ألفه

ديكنسون ، وستتعرفين فيه على بوب تريفيليان وسدنى وب ، إننى شديد التعلق بالكتاب .

المحب

برتراند رسل

١٤ شارع بارتون

وستمنستر

١٨ من فبراير ، ١٩٠٦

عزيزتى لوسى

لقد انتابتنى كآبة فظيعة فى الأيام الأخيرة . فرجريت ديفيز مازالت فى هاوية الشقاء ، وتحتاج إلى قدر كبير من العزاء الصامت ، وهو أشد إرهاقاً من العزاء الذى يجهر به المرء ، وتجديننى كالمعتاد أرزح تحت وطأة عديد من المشاغل وألوان شتى من القلق لا أستطيع الكلام عنها ، إننى أتحرق شوقاً للعمل ، الذى أعتبره ملاذى . ونظراً لأنى أرهقت نفسى قبل السفر إلى الخارج فإنى ما زلت أشعر بشىء من الفتور ، ولذا فقد أمد فترة عطلتى . أحياناً يستولى على شعور بألا أتوقف عن العمل أبداً ، ولكن هذا ما تعجز عنه قوة الإنسان البدنية ، إننى أجد راحة كبيرة فى علم الرياضيات ، إذ بدونه لا أدرى كيف تسير بى الأمور . فلست أنا الذى يصلح لإسداء النصح عما يبدد الكآبة ، ومع هذا فليس أمامى إلا أن أقدم لك هذه النصيحة التى أعلم أنها ليست مجدية ورغماً عن هذا فهناك شيئان أدخلا فى نفسى حقاً مزيداً من السعادة ، أولهما نتيجة الانتخابات العامة التى تعنى أنه فى السنين القليلة المقبلة على الأقل ستسير الأمور فى إنجلترا حسبما يتمنى المرء ، وثانيهما أمر شخصى يتعلق بالتقدم المذهل الذى أحرزته فى عملى والذى كان من نتيجته أن توصلت إلى حل أعوص المشكلات التى كان على أن أتصدى لها ، ولهذا فإننى أتوقع تقدماً

سريعاً ميسوراً لعدة سنين مقبلة . لقد قضيت أياماً قليلة فى باريس ، أعدّوا فيها حفل عشاء تكريماً لى ، جمع فلاسفة وعلماء فى الرياضيات . وكان جميلا أن أقابل الناس وأشعر بتقديرهم لى ، وكان طريفاً أن ألاحظ ، بعد أن استعرضت أنوف المدعوين وشكلها المتميز ، أن غالبيتهم من اليهود ، وكان يبدو عليهم سيماء التحضر ، وروح الخدمة العامة وشغف شديد بالعلم . وذكر أحدهم أنه قرأ قصيدة باللغة الإنجليزية تسمى «الجندى العجوز» ولم أستطع أول الأمر أن أتذكر الشاعر الذى كتب هذه القصيدة ، إلا أنه سرعان ماخطر ببالى أنها للشاعر هود . ولقد تمتعت أيضاً فى باريس بمقابلة الآنسة منتيرن وسانتيانا — سأعود إلى أكسفورد فى نهاية الأسبوع المقبل . أليس فى صحة جيدة هذه الأيام ، ولا تشعر بإرهاق من جراء الجهد الذى تبذله فى الدعاية الانتخابية فى وستهام . أرجو أن يصلنى منك خطاب فى القريب العاجل .

المخلص

برتراند رسل

بروفيدانس هاوس

كلوفيللى ، بالقرب من بيدفورد

٢٢ من أبريل ، ١٩٠٦

عزيزتى لوسى

. . . . إنى هنا فى عزلة مطلقة منذ حوالى شهرين ، وأجد فيها حتى الآن مايحقق الغرض منهـــا . فالبلدة جميلة ، فوق ما يتصور العقل — غابات ملتفة تشبه الجميلة النائمة [١] ، وهى تنحدر إلى البحر ، ووديان صغيرة مليئة بنباتات الخنشار والطحالب والأزهار البرية من جميع الأنواع . وأقوم بعد الظهر من كل يوم بجولات طويلة على الأقدام ، وأعمل بقية النهار والمساء . أما فى أثناء تناول الطعام فأقوم للمرة الثانية بقراءة قصة « الحرب والسلام » [٢]

---

(١) إشارة إلى الأسطورة التى تقول بأن إحدى الأميرات الجميلات ، كانت قد استسلمت بفعل السحر ، للنوم فى قصر تحيط به الغابات الملتفة .

(٢) القصة المشهورة التى ألفها تولستوى فى القرن الماضى .

التى أقدر أنهـــا ستشغل معظم وقتى . أما فى أثناء سيرى ، فإنى أتوقف وأقرأ بعض فقرات كتاب والتن عن « حياة العظماء » ، أو غيره من الكتب التى تسمو بالنفس . وهكذا يسير عملى بخطوات حثيثة ، وإنى لأستمد منه متعة بالغة [١] . وحينما أكون وحدى ، أهرب من عناء التفكير فى مسائل أخرى ومن البت فى مسائل لا قبل لى بحلها الآن لشدة تعقدها . ولهذا فإنى قانع ، وأجد لدى ما يكفى من العمل لشغل تفكيرى ، وما يكفى من النشاط ليجعل من العمل متعة لا عذاباً .

أما عن الشهرة ، التى تتحدثين عنها ، فليست لدى رغبة واعية فى الحصول عليها وهم ينظرون إلى فى أكسفورد ، بكل تأكيد ، كمغرور ، وكإنسان بلا روح ، يهتم بالشكليات . ولكنى لا أهتم كثيراً بآراء الناس فيما أقوم به من أعمال . ولقد كنت فيما مضى أهتم ، حتى توفر لى من الثقة بالنفس ما يكفى لأن يجعلنى أستغنى عن مديحهم . وإن البهجة التى أتحصل عليها من مديحهم الآن ، لأقل من تلك التى أتحصل عليها من يوم صحو جميل . وأشعر أننى أقدر من أى إنسان آخر ، على الحكم على قيمة عملى ، هذا إلى أن المديح الذى أحصل عليه من الجمهور المثقف هو قطعاً بسبب أشياء كتبتها منذ وقت طويل ، وهى تبدو لى الآن ، مليئة بالنقائص إلى الدرجة التى لا أحب معها أن أتذكرها . فالعمل ، إذا سار على ما يرام ، هو فى حد ذاته متعة كبيرة ، وإنى لأنظر إلى أى عمل قيم أقوم به ، بنفس الرضا الذى يشعر به الإنسان بعد أن يتسلق جبلاً . وأهم شىء بالنسبة لى هو احترام الذات الذى أحصل عليه من العمل ــ أما إذا فعلت شيئاً أندم عليه (وهو كثيراً ما يحدث) فإن العمل يعيد لى الشعور بأن الحياة أفضل لى من الموت . وشىء آخر أقدره كثيراً ، هو نوع من الاتصال الروحى بالمخترعين فى الماضى وفى المستقبل وكثيراً ما أعيش فى محاورات خيالية مع لا يبنتز أقول له فيها إن أفكاره قد آتت أكلها ، وإن النتيجة أجمل بكثير مما كان يتوقعه . وفى لحظات الثقة بالنفس ،

---

(١) لقد اتضح أنه كلام فارغ .

أتخيل طلبة يأتون بعدى ، ويكون لهم عنى أفكار مماثلة . فهناك اتصال روحى بين الفلاسفة ، تماماً كالاتصال الروحى بين القديسين ، وذلك هو الذى يحول بينى وبين الشعور بالوحدة . على كل ، إن هذا البحث يبين كم يصبح الإنسان مستغرقاً فى ذاته حينما يكون وحيداً . .

يسعدنى أن أسمع أن صاحبتك الريفية قد تزوجت الرسام . والعبرة بالخواتيم ، والمرثية التى سوف أضعها على شاهد قبرى لوكنت آخر رجل على قيد الحياة .

وأنا على العموم راض عن بيرل . ولقد ارتكبت الحكومة بعض الأخطاء الفاحشة ، ولكنها على العموم حكومة لا بأس بها .

اكتبى ثانية حينما تسنح الفرصة ، على العنوان الحالى .

المخلص
برتراند رسل

إلى لويس ديكنسون
ليتل بكلاند
تورث برودواى ، رشستر
٢ من أغسطس ، عام ١٩٠٢

عزيزى جولدى

. . . هذا الحى الذى لم أكن أعرفه من قبل ، له جاذبيته ، فالقرية مبنية كلها من نوع جيد من الأحجار ، ومعظم المنازل على الطراز اليعقوبى[١] أو الطراز السابق له . ويوجد سهل عظيم ملىء بأشجار الصفصاف التى تتخللها أشعة الشمس الغاربة ، وفى الناحية الأخرى ترتفع جبال عالية . ونحن نقيم فى منزل ريفى قديم وجميل جداً . والمكان يبعث على النشاط ، وأنا أعمل بين ثمانى أو تسع ساعات يومياً ، مما أصاب ذهنى بالبلادة فى نهاية الأمر . ولسوف يظهر كتابى ، وربما أيضاً كتاب مور ، خلال الشتاء . ومن وقت لآخر

---

(١) طراز القرن السابع عشر فى المعمار .

تأتيني أصول الكتاب ، الذى يبدو لى عديم القيمة . وحينما أفكر فيما كان ينبغي أن يكون عليه الكتاب ، تتضاءل قيمته فى نظرى ، لقد حضر هوايتهد إلى الكلية . ولكنى لم أره إلا قليلا ، حيث إنه كان منهمكاً فى تصحيح أوراق الامتحان . وإنه حقاً لنظام مضحك ذلك الذى تتناسب فيه مكافأة الأساتذة عكسياً مع قيمة عملهم . وأتمنى أن يوجد نظام أفضل . لاشك أن الحياة فى كامبردج ممتعة ، وأستطيع أن أقول إننى سوف آتى لأعيش فيها يوماً ما . . ولكن ليس الآن قطعاً . وعلى كل فإننا سوف نعود إلى لندن بعد ١٥ سبتمبر ولمدة ستة أشهر . وآمل أن تزورنا أثناء رحلاتك الأسبوعية إلى هذا المكان الذى يعج بالحركة والضجيج فى غير ما هدف ، وحينما أرى الناس الذين يسعون خلف المال أو الشهرة ، أو السلطة ، أجد أنه من الصعب تخيل الفراغ العاطفى الذى يعيشون فيه ، والذى يترك لهم وقتاً للتفكير فى مثل هذه التفاهات .

المخلص

برتراند رسل

العنوان . فرايديز هل

هاسلمير

ليتل بكلاند

قرب بردواى ، ورشستر

٢٦ من أغسطس ١٩٠٢

عزيزى جولدى

سررت كثيراً لخطابك ورأيت نفسى متفقاً معك فى كل ما قلته عن الفردوس [١] على الرغم من أنه قد انقضت على قراءتى له سنوات كثيرة . كما أننى أتعاطف تماماً مع ماقلته عن إيطاليا وبلاد الشمال ، وإن كنت فى أعماقى أختلف معك فى الرأى . فأنا لاأعتقد ، بادئ ذى بدء ، أن من الممكن اعتبار دانتى إيطاليا ، فالقومية الإيطالية لا تبدأ إلا بعد عصر النهضة ، أما فكر العصور الوسطى [٢]

(١) كتاب الفردوس تأليف الشاعر الإيطالى دانتى .

(٢) الذى سبق عصر النهضة .

فهو فكر مشترك بين كل الدول . ولكن إيطاليا بالنسبة لى تتميز بخاصة شاعت فى باقى أوربا فى القرن الثامن عشر ، وهى البعد عن الغموض تماماً . إن ضوء الشمس شيء محبب ، ولكن الضباب والغيوم لهما من الآثار ما لا يمكن لضوء الشمس أن يرقى إليه . وصدقنى إن النظرة التعقلية إلى الحياة ، الخالية من الغموض ، تبدو لى وكأنها تلغى أهم وأجمل ما فى الحياة . صحيح أنه ليست هناك حقيقة لم يدركها العقلانيون ، يستطيع الصوفى أن يكشف عنها ، ولكن الصوفية تخلق الحقيقة التى تؤمن بها ، بنفس الطريقة التى تحس بها الحقائق الأساسية كشعور الإنسان بالعجز أمام سطوة الزمن ووطأة الموت ، وأعماق الشعور الغريبة التى تظل كامنة ، حتى يدعونا أحد آلهة الحياة إلى عبادته . ويبدو لى أن الدين والفن جميعاً محاولات لإضفاء صفة إنسانية على الكون بادئة دون شك ، بالإنسان ، فإذا رفضت إحدى الحقائق العنيدة أن تغادر الوعى فلاسبيل على النفس للدين أو الفن إلا إذا أفسحت مكاناً لهذه الحقائق ، وهكذا يصبح الدين كله قوة فعالة ، وانتصاراً ، وتأكيداً بأنه على الرغم من أن الإنسان لا حول له ولا قوة إلا أن مثله العليا ليست كذلك . وكلما ازداد عدد الحقائق التى يأخذها أى دين من الأديان فى اعتباره كان ذلك دليلا على اقتدار أعظم ، وهذا هو السبب فى أن الديانات المجردة عن الزخرف ، تطيب للأمزجة البيوريتانية[1] . وتقديرى لدين من الأديان يتناسب مع ما فيه من صرامة — فإذا لم يكن صارماً ، بدا لى مجرد لعبة من لعب الأطفال ، تتبدد من أول لمسة للآلهة الحقيقيين ، ولكننى أخشى أن أى دين ، مهما كان صارماً ، لا بد أن يكون أقل صرامة من الحقيقة . ومع ذلك فأنا لا أحتمل أن يكون العالم مفتقراً إلى شيء من الوقار والهيبة ، وشيء من الجلال والجد . فتعاقب الحياة والموت ، والرغبة والأمل والتشوق والحب فى عالم مادى ، لا يدرك الخير والشر ، عالم يحطم بغير اكتراث كل ماخلفه بطريق الصدفة ، وذلك على الرغم مما بذله من إخلاص

(١) البيوريتانيون هم جماعة من البروتستانت الذين اعتبروا إصلاح الكنيسة الذى تم على يد الملكة إليصابات الأولى فى إنجلترا لم يكن كاملا ، ودعوا إلى مزيد من التطهير والبعد عن الطقوس الكنسية الكاثوليكية .

وتجرد — كل هذا لا صلة له بضوء الشمس ، ولا بالمناظر الطبيعية التى ترى من خلال الهواء الصافى ، ويرفرف عليها السلام ، ولكن الحياة لها القدرة على أن تطبع هذه الأشياء فى روح الإنسان حتى يبدو كل ماعداها تفاهة ولغواً باطلا . ولأن يختص مجرد جزء من الكون بمعرفة الخير وحبه — ولأن يصير هذا الجزء ألعوبة فى يد قوى هائلة تفوق العقل ولا سبيل إلى دفعها ، فهذا دعابة تنطوى على القسوة من جانب الله والقدر ، وأعتقد أن أفضل الكتب المقدسة هو كتاب الرواقيين ،ومع ذلك فحتى هـــذا مبالغة فى التفاؤل ، فالمادة تستطيع فى أية لحظة أن تدمر حبنا للفضيلة .

وبعد كل هذا الكلام الكئيب ، سيتأكد حبك لجنوب أوربا ، وهذا ما أشعر به أيضاً، ولكن باعتباره وسيلة للخلاص من وطأة الحياة الجادة . وأنتم تعلمون يا أصدقائى ، بأى نخب نمرح ، ولا شك أن لابنة الكرم سحرها وغوايتها ، كشأن غوايات إبليس كلها . فلتذهب إلى الجحيم وحدة الوجود ، وجلال الفن ، والفراسة التى تبصر الخير فى آلام الآخرين فهذا كله ثقيل على نفسى (وإن كنت أعلم أن له نصيباً من الصدق) .

نعم ، يجب أن يتعلم المرء أن يعيش فى الماضى ، وأن يسيطر بهذا عليه حتى لا يكون شبحاً مقلقاً أو طيفاً مهزاراً. فظيعاً يمشى مختالا خلال الأبهاء الفسيحة العارية التى كانت يوماً ما تفيض بالحياة ، وليكن الماضى رفيقاً مؤنساً يذكر المرء بإمكان فعل الخير ، ويرده عن الغلظة والقسوة على أن هذه غوايات لا أظنك تعانى منها . أما أنا ، من جانبى ، فلا أرغب حتى فى أن أعيش مع الأشياء الخالدة ، وإن كنت غالباً ما أمتدحها بطرف لسانى ، ولكننى فى أعماق أومن أن أفضل الأشياء هى تلك الأشياء العرضية الزائلة ، وأجد فى الماضى سحراً لا يتوفر فى الأزل السرمدى . وفضلا عن ذلك فليس هناك ماهو أكثر خلوداً من الماضى — فالحاضر والمستقبل مازالا يخضعان للزمن ، أما الماضى فقد أفلت إلى رحاب الخلود — فرغماً عما أنزله بنا الزمن من كوارث ، إلا أنه ما زال يعيش بيننا .

لا يدهشنى أن تمقت العودة إلى نظام حياتك العادى مرة أخرى . فبعد أن يكون الإنسان قد تمتع بحريته الفكرية ، وسمح لآرائه وعواطفه أن تنمو وتتسع ما أثقل عليه أن يعود إلى السجن وأن يربط مشاعره بسياج من التزمت العاطفى والجرى وراء شهواته العاجلة ومنفعته المادية — ياللسخف ولكن ما أسرع الأشرار إلى اقتناص ما فى الحياة من طيبات — حتى الفضيلة لا سبيل إلى المحافظة على سلامتها إلا بوضعها فى صندوق زجاجى مغلق بحيث لا تستخدم إلا للزينة .

لقد كنت أعمل تسع ساعات يومياً حتى الأمس ، أعيش فى حلم لا أفكر إلا فى فضاء الكون الرحيب . أما اليوم فقد بدأت أدرك أن فيه أشياء وأن هذه الأشياء تبدو عموماً أنها ليست خيراً منه ، لكننى أرجو أن أراك فى المدينة .

المخلص إلى الأبد

برتراند رسل

تشيرت ، فارنام

١٦ من يولية ١٩٠٣

عزيزى جولدى

أرفق مع هذا الخطاب الترجمة ، ولكننى أود لو أنك استعنت بشخص له معرفة أوثق باللغة الفرنسية ليلقى عليها نظرة ، حيث إن فرنسيتى ليست سليمة وبالمناسبة فإننى أتوقع ، أن تكون كلمة « مذكرات » أفضل من كلمة « مقال » لكننى لست واثقاً من هذا .

يسرنى أنك تكتب عن الدين . فلقد حان الوقت لكى تقال أشياء نعلمها جميعاً ، ولكنها غير معروفة بشكل عام . ويبدو لى أن موقفنا من الموضوعات الدينية موقف يجب علينا أن نبشر به فى حدود إمكاننا ، وهو مختلف عن موقف أى معارض من معارضى المسيحية المعروفين . فهناك التقليد الذى وضعه

ڤولتير ، وهو يسخر من الأمر كله من وجهة نظر عقلانية ، شبه تاريخية ، وشبه أدبية ، وهذا بالطبع ، لا يكفى إطلاقاً ، إذ أنها تتناول النظم التاريخية بأحداثها وآثارها . ثم هناك الاتجاه العلمى ، وهو اتجاه داروين وهكسلى ، الذى يبدو لى صحيحاً كل الصحة ، ومدمراً تماماً ، إذا فهم على وجهه الصحيح وهو شديد البرودة فى نقده ، وأبعد ما يكون عن العواطف ، وهولا يستطيع فضلا عن هذا ، الوصول إلى جوهر الأمور دون سند من الفلسفة . ثم هناك الفلاسفة ، من أمثال برادلى ، الذين يحتفظون بأثارة من دين ، لاتسمن ولا تغنى من جوع ، ولكنها كافية لهدم كل ما بنوه من نظم فكرية . أما ما ينبغى علينا أن نفعله ، وما نفعله فعلا فيما بيننا وبين أنفسنا فهو معاملة النزعة الدينية باحترام عميق ، ولكن يجب أن نصر على أنه لا يوجد أى نصيب أو ذرة من الحقيقة فى أى من الميتافيزيقيات التى توحى بها . وأن نخفف من هذا بأن نحاول أن نبرز جمال العالم والحياة ، حيثما وجد ، وأن نصر فوق كل هذا على التسليم بجدية الاتجا ه الدينى ومنحاه فى طرح أسئلة عن المطلقات . وإذا كانت السير الطيبة هى أفضل ما نعلمه ، فإن فقدان الدين يعطى مجالا جديداً للشجاعة والتجلد ، وقد يجعل الحياة الطيبة أفضل من أى حياة كانت ممكنة أيام كان الدين بمثابة مخدر فى وقت الشدة .

وكثيراً ما يراودنى الشعور بأن الدين شأنه فى هذا شأن الشمس ، قد طغى على النجوم الأقل لمعاناً وإن لم تكن أقل جمالا ، تلك التى تشرق علينا من ظلام كون بلا إله . إننى أشعر فى قرارة نفسى بأن روعة الحياة الإنسانية أكثر عظمة بالنسبة لأولئك الذين لاتعشى أبصارهم أنوار القداسة ، ويخيل إلىّ أن الأخوة الإنسانية تصبح وثيقة العرى ، رقيقة الحواشى ، إذا ما اعتبرنا أنفسنا أشبه بالمنفيين على شاطئ مهجور لا خير فيه .

المخلص

ب . رسل

تشيرت ، فارنام
١٩ من يوليو ١٩٠٣
عزيزى جولدى .

أشكرك شكراً جزيلا لإرسالك المقالات الثلاث عن الدين . وأرى أنها جيدة للغاية ، وأنها تقول أشياء يجب أن تقال . وكل فقراتها البليغة تبدو لى موفقة تماماً ، كما أن المثل الذى ضربته فى نهاية كلامك مثل يروق لى كثيراً وأرفق مع هذا بضع ملاحظات على بعض النقط البسيطة التى عرضت لى أثناء القراءة — وأغلبها نقط لفظية .

أعتقد أننا بحاجة ماسة إلى الهجوم على الروح الكنسية ، ويجب أن أقول إنك تقلل من خطر الروح الكنسية فى هذا البلد . فحينما تقابلنى بياتريس كرمبتون بالصدفة أشعر بهذا الخطر تماماً ، فهى تبرهن على قيمة توضيح نقطة من أسوأ النقط من وجهة نظر عملية ، وهى أنه حتى عندما يتوفر لرجل ينتمى إلى نظام كنائسى أن يكون متحرراً واسع الأفق ، فإنه يتحاشى دائماً هذه الخاصية عند غيره ممن يستطيع التأثير فيهم .

لماذا تفترض أننى أرى من السخف أن يتمنى الشخص أن يرى الناس الذين يحبهم ؟ هل هناك ما هو أكثر عوناً لنا على احتمال الحياة ؟ إننا نقف على شاطئ محيط نستصرخ الليل وأحيانا يجيبنا صوت من أغوار الظلام . ولكنه صوت إنسان يغرق ، ثم يسود الصمت بعد لحظة . إن العالم يبدو لى مخيفاً تماماً والتعاسة التى يشعر بها معظم الناس هائلة ، وكثيراً ما أتساءل كيف يحتملونها فمعرفتك للناس معناها معرفتك لمآسيهم . فعادة ما تكون هذه هى المحور الذى تدور حوله حياتهم . وأعتقد أنه إذا لم يتيسر لهؤلاء الناس أن يعيشوا بقلبهم فيما يعترض حياتهم بين لحظة وأخرى فإنهم سيعجزون حتما عن مواصلة الحياة .

المخلص

ب . رسل

آيفى لودج
تيلفورد فارنهام
٢٠ من يولية ١٩٠٤

عزيزى جولدى

نعم ، أعتقد أنه يجدر بك أن تعيد طبع مقالاتك عن الدين فى كتاب . ومن الصعب أن أحدد ما يمكن أن يستخلصه المرء منها بطريقة بناءة ، ومع ذلك ففى هذه المقالات شىء إيجابى على وجه اليقين . وأعتقد أن المرء يقتنع فى النهاية بالحقيقة التى تتضمنها الفقرة التى تقتبسها من ميترلنك ، ألا وهى أن العاطفة التى نتأمل بها العالم قد تكون دينية ، حتى ولو لم تكن لدينا معتقدات لا هوتية محددة . (لاحظ أنه لو لم يكن ميترلنك يكتب بالفرنسية ، لقال نفس ما تقوله قصيدة « الذكرى » للشاعر تنيسون « إن فى الشك الصادق كثيراً من الإيمان » وهذه ملحوظة لغوية) ومن المحتمل أن تقنع عدداً معيناً من الناس بأن فقدان العقيدة لاينتج عنه عدم التفكير بطريقة دينية ، وهذا مفيد بالنسبة للشخص الذى يصر على ضرورة العقيدة لكى ينقذ حياته الدينية ، وللشخص الذى يكف عن التفكير بجدية لأنه قد فقد عقيدته .

لقد بدا لى شيللر فى مقاله ، أحمق بصورة تدعو إلى الأسف فقد تشبث بالمذهب البرجماتى [١] ، كما يتشبث الغريق بقشة . وأنا متفق معك تماماً فى أن الفلسفة لايمكن أن تمنح الدين للإنسان ، أو أن تعطيه حقاً فى أى شىء له أكثر من قيمة فكرية . ويبدو لى بدرجة تزداد وضوحاً مع الأيام أن ما يمنح المرء المعتقدات التى يعيش بها شىء له طبيعة التجربة . وهو إدراك مفاجئ ، أو ربما إدراك تدريجى ، للقيم الخلقية التى كانت سابقاً موضع شكه وكانت تؤخذ على علاتها ، وهذا الإدراك ، فى تصورى ، ينشأ ، كقاعدة ، من موقف يتضمن الأشياء التى يدرك المرء أنها خيرة أو شريرة . وعلى الرغم

(١) المذهب الذى أسسه ويليام جيمس .

من أننى لا أظن أن الفلسفة نفسها تعطينا أشياء ذات أهمية إنسانية ، فإنى أرى أن التدريب الفلسفى يمكن المرء من الحصول على تجارب أكثر ثراء ، وأن يستغل تلك التجارب التى يكتسبها فعلاً استغلالاً أفضل . وأنا لا أتمنى أن تقتنع البشرية اقتناعاً راسخاً بأنه لا يوجد طريق يفضى من الفلسفة إلى الدين ، لأننى أعتقد أن محاولة إيجاد مثل هذا الطريق مفيدة جداً ، إذا لم تقض على صراحة الإنسان مع نفسه .

وفى رأيى أن قيمة تولستوى تكمن فى قدرته على الأحكام الخلقية الصحيحة وإدراكه للحقائق الملموسة ، أما تنظيراته فهى طبعاً عديمة القيمة . إن أعظم كوارث الجنس البشرى هى أن له قدرة ضئيلة على التفكير .

إننى لم أقرأ قط كتابات ليدى ويلبى . ولكنها أرسلت لى بعض ملحوظات على كتابى ، وصلت فيها إلى الحكم بأنها مهتمة بمسائل عديدة تهمنى . ومع ذلك فأنا شديد الشك فى فهمها لكتابى ، وليست معرفتى بها بالدرجة التى تسمح لى أن أحكم إذا كانت تفهمنى أم لا . أعتقد أن برنارد شو على العموم رجل فاسد الأخلاق أكثر من كونه عبقرياً ، وإن كنت أعترف له بالاقتدار . ولكنى لا أسلم بأنه أخلاقى . وأعتقد أن الحسد يلعب دوراً كبيراً فى فلسفته ، بمعنى أنه لو سمح لنفسه أن يعترف بقيمة الأشياء التى تعوزه والتى يملكها الآخرون فإن الحسد سيتمكن منه إلى الدرجة التى لا تطاق معها الحياة . وهو أيضاً يكره التحكم فى النفس ويختلق نظريات بقصد البرهنة على أن التحكم فى النفس له أثر مدمر . لم أستطع أن أكمل قراءة مسرحيته « الإنسان والسوبرمان » ، لقد أثارت اشمئزازى . ولا أعتقد أن روحه ستحمى فى نار جهنم على حديد متوهج أحمر ، وإنما ستتلظى فى جحيم من الغرور المريض والخوف القاتل من التعرض للسخرية ..

إن بيرنسون[1] معنا الآن ، وشد ما أنا متلهف على ما تود أن تقوله عن الموسيقى ولم أقرر تماماً إذا أتيح لى أن أنشئ جمهورية على غرار جمهورية أفلاطون ،

---

(١) بيرنسون ناقد فنى أمريكى مشهور .

ما إذا كنت سأسمح لفاجنر أو حتى بيتهوفن بالدخول فيها . ولكن لن يكون السبب أنى لا أحبهما .

إننى أعمل بهمة فى الجزء الثانى وعندما يسير العمل بشكل مرض يبعث ذلك فى نفسى سروراً بالغاً ، أما إذا تعسر على العمل فإن عذابى وشقائى بنفس الدرجة من القوة .

المخلص

برتراند رسل

ايفى لودج

تيلفورد ، فارنهام

٢٢ من سبتمبر ١٩٠٤

عزيزى جولدى

أشكرك على إرسال الكتاب المرفق طيه ، الذى قرأته باهتمام . وأظن أنك تحدد موقفك بوضوح وبشكل طيب ، وهو ليس موقفاً أستطيع أن أتفق معه . إننى أوافق على أن « الإيمان بشكل أو بآخر يبدو شرطاً ضرورياً تقريباً ، إن لم يكن للحياة ، فلأنبل أنواع الحياة وأكثرها خصوبة » . لكننى لا أوافق على أن الإيمان من الممكن أن يكون مشروعاً ، طالما أنه يحتل منطقة لم تغزها المعرفة بعد . وأنت توافقنى على أنه من الخطأ أن نقول : « إننى أعتقد ، وإن كانت الحقيقة لا تشهد فى جانبى ، وسأذهب إلى أبعد من ذلك ، ففى رأيى أنه من الخطأ أن نقول إننى أعتقد » ، وإن كانت الحقيقة تشهد ضدى ، ففى اعتقادى أن الصدق يتطلب قطعاً أن نشك فيما يبعث على الشك بنفس الدرجة التى ينبغى علينا بها أن نكذب ما هو زائف ، ولكن من الضرورى هنا وفى كل المحاولات بشأن المعتقدات التى لايقوم عليها دليل ، أن نميز بين القضايا التى يمكن أن نقول إنها لا تحتاج إلى برهان ، والتى تهيئ بالتالى أساساً لبرهان غير مباشر ، وبين القضايا التى يتحتم أن تقوم على أدلة كى يتسنى تقبلها . وهذه عملية

صعبة ، وقد لا يتوفر أداؤها بدقة . أما فيما يختص بالإيمان ، فأنا أعتقد : (ا) أن هناك قضايا معينة يؤدى الإيمان بها ، بغض النظر عن سوء الاعتقاد فيما هو زائف ، إلى تحسين حال المؤمن بها ، (ب) أن أكثر هذه القضايا زائف ولكننى أظن أن الإيمان مشروع فى عالم الأحكام الخلقية ، حيث إن هذه الأحكام من النوع الذى ينبغى ألا يحتاج إلى برهان ، ولا ينبغى أن يتطلب إقامة الدليل عليه . ولممارسة هذا الإيمان ، يبدو لى أنه يمكن الوصول إلى درجة عالية جداً من الانتفاع به من خلال الإيمان بحرارة فى إصلاح أشياء معينة طيبة فعلا ، والتى تستطيع أفعالنا أن تخلقها بشكل ما . وأنا أعترف أن حب الله إذا كان هناك إله ، قد يمكن بنى الإنسان أن يكونوا أفضل مما هو ممكن فى عالم بلا إله . ولكننى أظن أن الإيمان الخلقى الذى له سند يعطى أغلب الأشياء الضرورية لأرقى حياة يمكن تصورها ، وكل ما هو ضرورى لأرقى حياة ممكنة ، يتضمن ، شأن كل ديانة ، أحكاماً خلقية وأحكاماً تتعلق بالحقائق ، والأخيرة تؤكد أن أعمالنا تؤثر ولو إلى حد بسيط ، فى القيمة الأخلاقية للعالم . وأنا أجد فى هذا ما يكفى من الإيمان لكى أعيش به ، وأعتبره مستنداً إلى المعرفة ، وما أبعد من ذلك فيبدو لى زيفاً ، وإن لم يكن من السهل التدليل على زيفه .

أبلغنى ردك وأرسله على عنوانى هنا ، برغم أننى سأكون مسافراً . فسأذهب غداً إلى بريتانى مع تيودور لمدة أسبوعين . أرجو أن يكون عرق النسا قد تحسن .

المخلص

برتراند رسل

٣٠٦

آي تاتي

ستسنيانو ، فلورنسا

٢ من مارس ١٩٠٣

عزيزي برتي

لقد قرأت مقالك ثلاث مرات . وفي كل مرة كان حبي له يتزايد . ولعل أعظم ما يمكن أن يحظى به من تقدير هو أنه ليس منافياً لروح القطعتين الرائعتين اللتين كتبتهما ، بل هو منسجم معهما وجدير بهما ، وليس لدى أي اعتراض على هذا النوع من المقال ، وليست لي رغبة معينة بخصوص الشكل الذي تأخذه كتابتك . فما أتوق إليه هو أن تعبر عن نفسك عاجلا أو آجلا ، وفي هذه الأثناء لابد أن تكتب وتكتب حتى تبدأ في الشعور بأنك تقول ماتريد أن تقوله ، بالطريقة التي تريد الآخرين أن يفهموا بها قولك .

كان أعظم حدث حقًّا في الأسابيع القليلة الماضية هو جلبرت مري. وأشعر أنني قد أنزلق إلى مستوى فتيات المدارس إذا تجاسرت على أن أقول لك كم أحبه . وستحكم أنت على هذا عندما أقول إنه لم توجد امرأة واحدة في سني شبابي تجعلني أتكلم عن نفسي أكثر مما فعل هو . كان الحديث يمتد أمامنا كشيء لانهائي ، أو بالأحرى كشيء يتفتح بطريقة أنبل وأعظم كلما امتد بنا الحديث . وقد وجدته رقيقاً ، معقولا ، يكاد يكون الرفيق المثالي ، بل إنني قد أغفر له حبه لديكنز وتنيسون . وقد كان مسئولا عن تأخير تسطير هذا ، لأنه استوعب معظم نشاطي . أما القليل الذي تبقى منه ، فقد أنفقته في مراجعة أصول الطبع . وقد انتهيت لحسن الحظ منها تقريباً .

ويسعدني أن أليس قادمة ، هذا فضل منها ، ولسوف تمتعني زيارتها وترفع من معنوياتي . أخشى أن ديكنسون سيفقد الكثير إذا قارناه بمري .

إنني في منتصف كتاب أكرمان « محاورات مع جوته » وهو كتاب شيق للغاية . . . ماذا فعلت ببحثك في الرياضيات ؟ . .

المخلص

ب . ب . بيرنسون

جريبشوت
هاسلمير ، سرى
١٠ من يناير ١٩٠٤

عزيزى برتى

أسفت جداً جداً عندما سمعت أنك لم تكن فى جنازة دورا (كانت دورا مربيتى السويسرية السابقة ، مس بوهلر) وكنت متأكدة تماماً أنك ستكون حاضراً ولا يمكن إلا أن أتصور أن المانع عذر قهرى — إننى أعلم أنك قد تشعر أن مثل هذا الشاهد الأخير على الاحترام لا يعنى إلا قليلا ولا جدوى منه . لكننى واثقة تماماً وبعد كل ما أسديته إليك فى الماضى وبعد كل ما منحتك من حنان أن أختها وأصدقاءها قد تألموا لتغيبك — ليته كان فى استطاعتك أن تذهب . شكراً جزيلا لأليس على خطابها وسجل الذكريات الصغير الذى أرسلته — وقد استنتجت أن لديكما واحداً . ربما لاتكون قد سمعت هذا قط عند قبر إنسان تحبه — ولكن مراسيم الدفن من أكثر الأشياء تأثيراً وجلالا ، وخصوصاً مع الموسيقى التى تكون أحياناً عوناً حقيقياً فى ساعات الأسى الرهيبة على الارتفاع بمعنويات الإنسان إلى آفاق أرحب منها — لقد وصلنى خطاب ثالث من شقيقة دورا التى كتبت إليها لتعاطفى العميق معها : ياللخسارة الهائلة — فهى تعيش وحدها وكانت تأمل أن تعيش دورا معها يوماً . أرجو أن تكون قد كتبت إليها .

يحتمل أن تذهب مس سدچفيلد (رفيقة عمتى) يوم الثلاثاء إلى هايجيت لمدة أسبوع وهى تأمل أن تحضر محاضرتك يوم الجمعة المقبل . ويجوز أن تراها ولكن أرجوك على أى حال أن تطلب من أليس انتظارها . ولقد أرسلت خطاباً فى طلب تذاكر . كما طلبتْ منى أن أخبرك أنها تأمل على وجه الخصوص أن تجعل كلامك مفهوماً لأقل المستويات ذكاء — وغير مسموح بأى زوايا ومربعات ومثلثات ولا ميتافيزيقيات أو رياضيات .

بلغ أليس شكرى الجزيل لما أرفقته بخطابها الذى سرنى أن أجده طريفاً

للغاية كما أننى أريد بعض الصور لإرسالها إلى بضعة أشخاص قد يهمهم هذا . لكنى لا أحب الجملة الخاصة بالثأر فالكلمة وحدها كريهة وقد كشفت عنها فى قاموس جونسون — فكلمة « يثأر » ليست من الكلمات التى يقرها تولستوى أو تقرها المسيحية بالأحرى . — أرجو أن تتضمن محاضراتك شيئاً من الحرارة وبعض المثل العليا . فحتى من وجهة نظر النجاح الرخيص ستكون محاضراتك أكثر فاعلية — كم أود لو أننى كنت أستطيع أن أحضر وأسمعك — وسأقرأ المحاضرة فى مجلة أدنبرة ولكنها تكون أكثر طرافة لو أننى سمعتها . وأنا لم أسمعك أو أسمع أليس مرة واحدة .

مع مزيد الحب إليكما وأطيب تمنياتى لعملك فى سبيل الهدف السامى (قضية حرية التجارة) .

المحبة

عمتك

آيفى لودج
تيلفورد ، فارنهام
١٧ من مايو ١٩٠٤

عزيزى برتى

أرجو ألا يسوءك أننى أكتب إليك خطاباً حقيقيًّا فى يوم عيد ميلادك . إننى أحاول جاهدة أن أكون سطحية ، كما تريد ، ولكننى واثقة أنك ستذكر كيف أن بعض المشاعر تنشد التعبير عن نفسها .

إننى أريد مجرد أن أخبرك كم أحبك ، وكم أنا سعيدة أننى جزء من وجودك . فعندما أمكننى أن أشاركك حياتك وأن أعتقد أننى ذات فائدة لك كانت هذه أعظم سعادة عرفها إنسان . إننى ممتنة لهذه الذكرى ، وممتنة أننى مازلت أستطيع أن أكون قريبة منك وأن أراقب تطورك . فعندما تكون فى حالة طيبة وسعيداً وتؤدى عملا طيباً ، أشعر برضا تام ، وأتمنى فقط لو أننى كنت

امرأة أفضل، قادرة على أن أعمل أكثر وأن أكون أهلا لك . فأنا لا أستيقظ في الليل أو أفكر فيك في النهار دون أن أدعو بالخير لحبيبي ، وسأظل أحبك دائماً ، وأرجو أن يتزايد حبي إيثاراً لك .

المخلصة إلى الأبد

أليس

كامبو

نورثامبرلاند

(يوليو ١٩٠٤)

عزيزي برتي

أود أن أقول لك إلى أي حد استهواني ذلك الجزء الأخير من مقالك . لو أنني كنت أستطيع من آن لآخر أن أكتب بهذا الأسلوب لشعرت بالتأكيد أكثر مما أشعر الآن أنني على حق في اتخاذ الكتابة مهنة لي .

عندما أسافر إلى الجنوب مرة ثانية في بداية أغسطس أود أن أتحدث معك فعندي الآن الكثير مما أريد أن أسألك عنه . فلقد جعلني خطاب تولستوي المنشور في التايمز أفكر — أو بالأحرى أشعر — بقلق بالغ . فإنه يملأني(١) بإحساس جديد بالشك والمسئولية فيما يتعلق بأسلوب حياتي(٢) — وفيما يتعلق بهذه الحرب ، وأشعر كما لو كنا جميعاً نعيش في مدينة الخراب ولكنني لست متأكداً مما إذا كان ينبغي عليّ أن أهرب — أو إلى أين ؟

قد لاتصل الأمور إلى شيء محدد ، ولكنها على الأقل ستخلف وراءها روحاً مختلفة .

لقد كنت لفترة طويلة سعيداً جداً وقانعاً بكل شيء بما في ذلك عملي . ولكن السمو الخلقي الشديد الذي ينطوي عليه موقف الذين رفضوا الحرب من المجندين من أتباع تولستوي بدد ذلك الشعور بالرضا والارتياح الذي أشعر به

كشخص إنجليزى محافظ :

١ ــ فى نصف صفحة ، هل تتفق مع رأى تولستوى بشأن الحرب ؟

٢ ــ أين تكون فى أغسطس ؟

المخلص لك

جورج تريفيليان

كامبو نورثامبرلاند

١٧ من يوليو ١٩٠٤

عزيزتى برتى

إننى شديد الامتنان لك لكتابتك مثل هذا الخطاب الطويل الذى أمعنت النظر فيه بروية . ولكنه لم يكن مضيعة للوقت . إننى شديد الاهتمام به وأظن أننى متفق مع ما جاء به تماما .

ومن ناحية أخرى أعتقد أنك على حق فى افتراض أن الاستعداد للحرب وظيفة من وظائف الدول الحديثة الضرورية ، بالروح و بالقيود التى ذكرتها. و برغم ذلك فإن إحدى الوسائل التى ستقضى على الحرب فى النهاية هى مقاومة المجندين السلبية فى البلاد التى يوجد بها نظام التجنيد الإجبارى (التى قد نلحق بها إذا ساءت الأمور) ولسوف تنقضى مئات السنين قبل أن يقضى على الحروب ، ولسوف تكون هناك قائمة متوهجة من الشهداء ،وعلى رأس هذه القائمة أولئك المجندون من أتباع تولستوى . فهؤلاء الناس الذين رفضوا الحرب سيتزايد عددهم بشكل مستمر فى طول أوربا وعرضها ، وسيحركون فى شعوب أوربا فى النهاية الإحساس بالخزى بحيث تنظر إلى الحرب والكراهية الدولية بنفس منظارك ، بدلا من أن تنظر إليها كما تفعل الآن ، فالتغيرات العظيمة تحدث عموماً بهذا الشكل ، ولكن بعملية مزدوجة ــ تغيير تدريجى فى الشعور العام وفى نوع العمل يقوده ويحض عليه قوم لهم فكر وعمل متطرف يستنكره عامة الناس ، وإن كانوا يتأثرون به .

فأهلا بخطاب تولستوى برغم كل هذا . وأنا أظن أيضاً أن أى اقتراح لإدخال نظام التجنيد الإجبارى فى إنجلترا لا بد أن يلقى مقاومة على هذا الأساس (ضمن أسس أخرى) وهو أن الحكومة لا حق لها فى أن ترغم ضمير شخص على القتال أو التدريب للحرب إذا كان يرى فى هذا خطأ .

وأظننى أتفق معك أيضاً بشأن واجبنا فى أن نحيا ونعمل فى مدينة الخراب ، بدلا من الهروب منها . ولكن القيام بمثل هذا الواجب هو فى نفس الوقت متعة ، وإن يكن مع ذلك واجباً يحمل فى أطوائه أخطاراً . ومن الصعب بمكان ، عندما يحاول المرء أن يحتفظ بالجزء الأكبر من ممتلكاته ووقت فراغه رهن إرادته ، أن يعيش بهدى هذا المبدأ ، إن للمرء حظاً فى ذلك القدر من الممتلكات الذى يؤدى أكثر إلى رفاهية الآخرين فى المدى الطويل .

أرفق مع هذا خطاباً ونشرة دورية . هل تنضم إلينا ؟ لقد فعلت أنا ذلك وأظن أنه من المحتمل أن ننتخب جولدى ديكنسون الذى أبدى استعداده للانضمام . وسيكون هناك بالتأكيد مناقشة حرة تماماً وسيكون الناس أهلا لأن تتعرف بهم . وليس هناك إلزام على الأعضاء لقراءة الأبحاث ، وأظن أن وجهات النظر العديدة التى يؤمن بها المتدينون الذين هم فى نفس الوقت باحثون أحرار عن الحقيقة (وهم فئة ضئيلة) تستحق منك أن تتعرف عليها . وقد عبروا عن آمالهم الكبيرة فى أن تنضم .

المخلص للأبد

جورج تريفيليان

٨ تشينى جاردنز

الثلاثاء

١١ من أكتوبر ١٩٠٤

عزيزى رسل

سرنى أن أراك ثانية . كانت تجيش بصدرى قصة كرب ويأس أريد أن أزيحها — غامضة ، وإن لم تكن غامضة تماماً ، هكذا بدت بينما كنت أقلبها

فى ذهنى هذا الصباح ، ولكننى بعد أن قضيت معك فترة وجيزة لم أشعر أننى تعس تعاسة تستدعى أن أشتط فى لغة اليأس . فقد تذكرت أشياء كثيرة جديرة بالتذكر . وبدت لى متاعبي شيئاً لا يستطيع الجلد أو التعقل ، أو القواعد المألوفة أن تتغلب عليه .

إننى أتطلع إليك أكثر من أى شخص آخر لكى تساعدنى فى هذه اللحظة بالذات . وأشعر أن كل تلك الرقة التى ترمقها بعين الشك ليست إلا من قبيل الضعف . إن شعورى أنك لا تتمسك بقواعد صارمة فيما يجب ومالا يجب أن يقوله شخص لشخص آخر يعنى الكثير بالنسبة لى ، ومع ذلك فأنا أعلم كم تكره أن يضار أحد فى حياته الزوجية .

لاترسل رداً على هذا الخطاب مالم تكن تريد ذلك أو مالم يكن لديك شىء تريد أن تقوله . إننا نستطيع أن نتكلم فى أى شىء حتى نبلغ قراره وهذه نعمة النعم .

أريد أن أبقى فى لندن لمدة أسبوعين لكى أنتهى من بعض العمل . عندئذ سأكون أقدر على أن أقول لك كيف حالى . فيجب على أن أبدأ بالأمل قليلا قبل أن أستطيع أن أتكلم عن يأسى .

المحب لك

ديزموند مكارثى

٤١ جروفنر رود

جسر وستمنستر

١٦من أكتوبر ١٩٠٤

عزيزى برتى

كان كريماً منك أن تكتب لى برأيك فى كتيب لينارد هوبهاوس ، ويسعدنى أنه يلتقى تماماً مع رأيى . فأنا أوافقك تماماً فى اعتقادك أنه ليست هناك علاقة

بين « نظام الأشياء » وبين الشعور بأن «الحالة النفسية » لها خطرها (مثل الاعتقاد الغريزى بوجود قانون التحرج الأخلاقى ، واعتقادى الغريزى بجدوى الصلاة) .

إننى أفصل فَصْلاً تامًّا بين عالم البرهان (أى المعرفة بمسار الأشياء) وبين عالم التشوف أو الإيمان (اختيار أهدافك) وكل ما أطلبه لهذا العالم الأخير أن يوجد التقبل والتسامح، أى سياسة المعايشة . وفى تفسيرى لسياسة المعايشة قد أختلف فيه معك ومع لينارد هوبهاوس حيث إننى أسمح بأن تقوم كل جماعة محلية بنشر شكل « التشوف » والإيمان الخاص بها وأن ينفق عليها من مخصصات عامة . بل إننى أرغب فى هذا لأولادى . إذ أننى قد اكتشفت أنه بدونه كان من الممكن أن ينحط وجودى، ولولاه ماكنت « أرغب » فيما نسميه بنبل الهدف ، فإننى أتمنى الوسائل التى يمكن تحقيقـــه بها . ولا علم لى بأى سبيل آخر لاكتشاف هذه الوسائل إلا الخبرة والتجربة ، ولقد أدت بى تجربتى وخبرتى حتى الآن إلى النظرية القائلة بالصلاة التى لاتنقطع . ولا أود على الإطلاق أن أفرض على الآخرين ممارسة هذا، ويسعدنى أن أمول أى مدرسة تقوم بتجربة التقريب بين الدين والدنيا (ضد معرفة مسار الأشياء وحدها) أو أى فرقة مسيحية أخرى . وكل ما أرغب فيه هو أن يكون كل قطاع أوجهة حرة ، فى حدود الإمكان ، فى أن تقوم بتدريس ما تراه أوما لا تراه .

هل تستطيع أن تحضر مع أليس للغداء يوم الخميس ١٠ نوفمبر لتقابل مستر بالفور؟ فسأصطحبه إلى مسرحية برنارد شو . ألم تستطع حجز تذاكر ذلك المساء ؟ سيكون من مصلحتك أن تعرف مستر بالفور فقد ينفعك فى تعيينك أستاذاً بمنحة ملكية وما شابه ذلك .

المخلصة دائماً

بياتريس وب

روزلدين جريشوت

هاسلمير ، سرى

٢٠ من مارس ١٩٠٥

عزيزى برتى

أكتب إليك اليوم عن موضوع واحد أود أن أخبرك عنه . فلقد كنت قد أخذت ساعة جدك الذهبية وسلسلتها واحتفظت بها بعناية منذ موته — ولست بحاجة لأن أذكر لك كم هى عزيزة جداً جداً على ، لأنها ستذكرنى دائماً به .

ولكنى أود الآن أن أهبها لك — بشرط واحد فقط ، وهو أن تتركها لآرثر — أو لجونى إذا لم يتيسر هذا — إذ أننى حريصة على أن تظل ملكاً لآل رسل . وأنا لا أذكر إذا كان لديك الآن ساعة أو إذا كنت ترتدى واحدة لها ذكرى قديمة — إذا كان الأمر كذلك فلا تتردد فى إخبارى وسأحتفظ بهذه لآرثر فيما بعد . ولكنك تستطيع طبعاً أن تتخلى عن ساعتك الحالية (أو أن تحتفظ بها إذا كنت تفضل ذلك). أما إذا لم يكن الأمر كذلك — فإنى أود أن أشعر أنك سترتدى هذه الساعة وتستعملها — وأنك لن تنحيها جانباً — ولكنك على أى حال ستخبرنى بهذا .

عزيزى برتى ، يسعدنى أن أشعر أنك ستحاول دائماً — وأنا أعلم أنك ستعمل فعلا فى هذا السبيل — أن تكون جديراً بصلتك به كحفيد له ، فقد كان حقاً واحداً من أفضل من عرفه العالم — كان باسلاً رقيقاً ، صادقاً ، ذا طبيعة نادرة ، فيها أجمل ما لدى الأطفال من بساطة وصراحة . يطيب لى أن أعتقد أنك تذكره ، وأن آخر كلماته لك « ياولدى الصغير الطيب » ، والتى قالها بفيض من الرقة والحب وهو على فراش الموت ، ستظل معك مصدر إلهام ودفعة للخير طوال حياتك . بيد أنه من الطبيعى أن تقصر ذاكرتك ويقصر فهمك عن الإحاطة بكل نواحى شخصيته . ومع ذلك فإذا كان مما يروقك أن

تحتفظ بساعته فإنه لمما يسعدنى أن تلبسها وتحتفظ بها تذكاراً منه ، وذكرى للأيام القديمة العهد والتى قضيناها فى منزل طفولتنا الحبيب (١) .

وليباركك الله

عمتك المحبة

عرضت الساعة للفحص فى لندن ، وهى فى حالة ممتازة . وستكون معدة فى الثامن والعشرين . أشكرك لرسالتك الرقيقة التى تسلمتها فى الأسبوع الماضى .

الابرشية

كيركبى لونسديل

٢٧ من يوليو ١٩٠٥

برتى

مات تيودور . . . غرق وهو يستحم وحده يوم الثلاثاء فى بركة وسط الهضاب ، ولعله فقد وعيه إذ ارتطم رأسه وهو يقفز من عل ، ثم غرق .

سأعود إلى لندن يوم الاثنين . بودى لو رأيتك قريباً .

كرومبتون

٣١ من أكتوبر ١٩٠٥

عزيزى برتى

أرفق بهذا صورة فوتوغرافية أرجو أن تفى بالغرض . لدىّ صور أخرى لـــ « تيو » أود لو أطلعتك عليها . متى تأتى لتقضى ليلة معى ؟

فشلت محاولاتى مع ....(٢) كانت تأمل أن تفعل أى شىء من أجلى ولكنها ترفض بإصرار أن تصبح زوجة لى ولذا انتهى الأمر عند هذا الحد .

---

(١) لم تفارقنى هذه الساعة والسلسلة منذ سنة ١٩٤٩ .

(٢) المرأة التى أحبها تيودور ، وبعد وفاته أراد كرومبتون أن يتزوجها .

عزمت أنا وهارى على الرحيل إلى جرانتشستر يوم السبت القادم . لم أتمكن حتى الآن من زيارة بداليز .

أعددت وصيتك ، ولكنى سأحتفظ بها حتى أراك وتتهيأ لنا فرصة تدارسها سويًّا .

لا أكاد أصدق أن تيودور قد مات ، فموته يبدو أشبه بالأوهام ، فهذا الخليط العجيب من أحلام الليل وأفكار النهار من الذكريات والحقائق يتركنى فى حيرة من أمرى ، ولكنى أشعر رويداً رويداً بآثار ما تبقى لى من حياة عرجاء، كأنما قد حرم الجسد من أطرافه وقوته ، ولم يعد يستطيع أن ينهض دون معاونات صناعية ونظام طبى للتغذية ، أو أن يرضى بالتخلى عما اعتاده من إنجاز للآمال وتطلعات فى أيام الصحو والإشراق .

قلبى يهفو إليك وليباركك الله لما أسبغته على من محبة وفضل .

كرومبتون

ستوكس كوتج

ترينج

٢٣ من مايو ١٩٠٧

عزيزى برتى

الآن وقد خضت المعركة الانتخابية ، حق عليك قول تويفلسدروك ، إن هذه الخبرة تأتى فى المرتبة الثانية بعد خبرة الحب باعتبارهما أهم الخبرات الإنسانية . وإننى لأشعر بالجبن أنى لم أقدم على مثل ما أقدمت عليه ، وأغلب الظن أنى لن أفعل . فى اعتقادى أن السنوات المائة القادمة لن تشهد مرشحين على هذا القدر من التناقض الموجود بينك وبين تشابلن .

يالك من مغامر . فى المرة القادمة ، عندما يستولى النمسويون على إيطاليا ، سيرتدى كل منا قميصاً أحمر ونرحل إلى حيث نموت فى هدوء فى أحد ممرات جبال الألب . لم أكن أتصور أنك ستصبح مغامراً ، وأن تحتفظ بهذا القدر من الصفات الآدمية

العتيدة ، حتى عدت إلى الوطن (كما فعلت الأم هوبارد العجوز) وإذا بى أراك تقود حملة انتخابية . .

أجزل شكرى لك للمقال الذى كتبته فى أدنبره ريفيو [١] لقد أفاد الكتاب فائدة جليلة ، وساعد على بيعه بعد أن بدأ التوزيع بطيئاً . فهمت من إليوت أنه لم يتسع لك الوقت للكتابة فى هدوء ، وهو سر شعورك بالضيق ، بيد أنى أود أن أؤكد لك أنى أقدر هذه التضحية ، من جانبك ، التى أملتها صداقتنا ، وأن مما أفادنى حقاً أن ينشر التعليق فى أبريل .

اهتممت كثيراً بنقاط متعددة فى مقالك ، وبالأخص الجملة التى وردت فى مطلع ص ٥٠٧ عن المهام التى يضطلع بها الثوريون . ولم أكن قد اهتديت إلى شخصية الكاتب حتى أخبرتنا أليس ، ولو أنه كان يمكننى أن أخمن مصدرها من قصتك الخاصة بتعليق جويت على ماتزينى .

آمل أن تكونا قد عدتما إلى العش الأكاديمى ، وأن يكون لهدوء أكسفورد أثره المحبب بعد كل هذا الصخب .

أخوك

جورج تريفى

٦٧ بلسايز بارك جاردنز

هامبستيد . الشمال الغربى

٢٣ من أكتوبر ١٩٠٧

عزيزى رسل

قرأت مقالك عن الرياضيات (فى مسودة الطبع) ولا أستطيع أن أقاوم إغراء الكتابة لأقول لك إنى تأثرت بها تأثراً عميقاً . كم هى رائعة حقاً ، إنها تنقل المرء إلى آفاق سامية ، لعلها أسمى من أى شىء آخر . إن عرضك للجانب الحيوى منها يبدو لى غاية فى الوضوح والإقناع ، إنه يعطى للمرء مفهوماً جديداً

---

(١) مقال لجورج تريفيليان « دفاع غاريبالدى عن الجمهورية الرومانية » .

عن أمجاد العقل الإنسانى . إن التشبيه الذى أوردته عن الحصن الإيطالى لفت نظرى إلى جماله بصفة خاصة ، كما أن لبساطة التعبير أثرها الواضح . ما أفظع هؤلاء المحررين الذين يدعون أنهم « المستقلون » [١] . وما أحمقهم . أستطيع أن أسترسل فى كتابة صفحات وأنا على هذه الحال من التأثر والحماس . عظيم أن أتصور أنى أعرفك ، وأنى أستطيع أن أتحدث إليك ، وحتى أن أخالفك الرأى . أوه . سوف أطلب أن تنقش هذه العبارة على شاهد قبرى : لقد عرف مور وراسل . وحسبى هذا .

المخلص

ج . ل . ستريتشى

٥٧ جوردون سكوير

لندن ، المنطقة الوسطى من الحى الغربى

٣ من مارس ١٩٠٨

عزيزى برتى

قرأت فى الصحف أنك أصبحت زميلاً فى الجمعية الملكية . ياله من شرف . . خاصة فى هذه السن المبكرة . منذ أن قرأت النبأ وأنا أمشى بين الناس مختالا . وقد تولانى الزهو . إن هذه هى أول مرة أرى فيها الفلاسفة وقد عادت بالخير على أصحابها . إلى هذا الحد يستطيع المرء أن يفهم ، إذا لم يتيسر له فهم كتبك .

أهنئك تهنئة حارة . كنت دائماً أعتبر لقب زميل فى الجمعية الملكية أرفع من أى منصب آخر فى العالم ، بل لعله يتجاوز منصب رئيس الأساقفة أو رئيس الوزراء ، وما زال هذا الشعور يلازمنى بالرغم من أنى أعرف عدداً كبيراً من هؤلاء عن كثب .

من رسل المخلص

---

(١) رفضوا نشر المقال .

فندق تشارنج كروس
٤ من أكتوبر ١٩٠٨

عزيزى رسل

قضيت ثلاثة أيام من الأسبوع الماضى فى أكسفورد ، وراودنى الأمل حتى آخر يوم فى أن أزورك ومسز رسل ، ولكن كانت هناك مقتضيات أخرى استحال معها تنفيذ ما اعتزمت عليه .

قابلت شلر وقضيت ليلة فى غاية الإمتاع فى منزل ماكدوجال ، كنت أرجو أن أتمكن من قضاء ليلة معك ، لأعوض الطريقة الجافة التى اعتذرت بها عن قبول دعوتك لى فى يونيو الماضى . كنت حينذاك متعباً جداً ، وقد استرددت نشاطى نسبياً الآن ، وقد رزقت منذ ذلك الحين بولد وبنت ، ومطالبهما كما هى العادة ، تبدو أكثر إلحاحاً من مطالب والديهما ، ومن ثم فقد قصر الوقت عن أداء أعمال كثيرة كنت آمل أن أقوم بها . وينتظر أن يبقى الابن فى أكسفورد ، مع عائلة ا . ل . سميث (مدرس فى باليول) . أما نحن فننتوى أن نبحر على الباخرة ساكسونيا فى يوم الثلاثاء القادم .

إن من أول الأعمال التى أرجو أن أقوم بها عند عودتى إلى مكتبتى هى أن أقرأ مرة أخرى الفصل عن الحقيقة فى كتابك فلسفة الرياضيات ، وهوأمر لم أفعله منذ أن صدر الكتاب . أود أن أتفهم بدرجة أعمق من تلك التى تتوافر لديك عن نظريتى أن ملاحظاتك عن ديوى (بالرغم من دقة صياغتك للعبارات) فى مقالك الأخير تبين أنك لم تتمكن من الموضوع بصفة عامة . إن نصيحتى الأخيرة لك هى : « ودّع المنطق الرياضى إذا أردت أن تحتفظ بصلتك بالحقائق المحسوسة » . تحادثت وبيرجسون فى هذا الصباح مدة ثلاث ساعات ، ولعل فى هذا ما يفسر عبارتى السابقة . تحياتى لكما ، وهى تحيات كان يمكن أن تشترك فيها زوجتى لوكانت هنا .

المخلص

وليليام جيمس

٨ جروفنر كرسنت
الجنوب الغربى
٢٦ من أبريل ١٩٠٩

عزيزى برتراند رسل

إنه ليسعدنى كل السعادة أن أعلم أنك انتخبت عضواً فى نادى الأثينيوم... إن تجربتى فى هذا الصدد — والتى ترجع إلى عام ١٨٧٧ — لم تكن سهلة لدرجة أنى أشعر بسرور عندما أرى صديقاً ، يتعرض لنفس هذه المحنة ويجتازها بنجاح ، إنى لم أتأخر عن حضور هذه المناسبة ، بل قضيت جزءاً كبيراً من المساء أثناء عملية الانتخاب .

إن وجودك كعضو سيضيف كثيراً إلى اهتمامى واهتمام الكثيرين بالنادى[١].

صديقك المخلص
جورج . تريفيليان

١١ ، كرانمر رود
كامبردج
٢٧ من مايو ١٩١٠

عزيزى برتى

قرر مجلس الكلية اليوم أن يعرض عليك منصب محاضر لمادتى المنطق وأصول الرياضيات ، وسيستمر عملك مدة خمس سنوات ، على أن تكون واجباتك كالآتى :

١ — أن تعطى برنامجاً من (٢٤ محاضرة) فى كل فصل دراسى .
٢ — أن تقيم فى كامبردج أثناء الفصل الدراسى .

يضاف إلى هذا أن من حقك أن تقيم فى مكان مخصص لك فى الكلية

---

(١) لا أفهم لماذا لم أقابل سير جورج تريفيليان هناك .

وأن تحصل على عشاء بالمجان بشرط أن تلتزم بقضاء عدد من الساعات فى الجامعة (أعتقد أنه ١٥ ساعة أسبوعياً أثناء الفصل الدراسى) . وذلك مقابل ٢٠٠ جنيه فى العام .

إن كل هذا بالطبع لم يتخذ بعد طابعاً رسمياً . ولعلى لست فى حاجة لأن أعبر عن مدى سرورى بهذا العرض ، إذ سيهيئ لك فرصة رائعة لعرض الموضوع وهو عين المراد . وبهذه المناسبة يحق لى أن أقول إنه ليس هناك ما يوحى بأن هذا المنصب سيستمر إلى ما بعد خمس سنوات ، إن المشكلة كلها فى هذه الناحية ناشئة من عدم إقبال أعداد كثيرة من الطلاب الذين سوف تقوم بالتدريس لهم مباشرة فى المحاضرات ، على قدر ما أستطيع التنبؤ به . وهناك أمل أن تتوافر فرص للقيام بما هو أكثر مما هو معروض بصفة مؤكدة فى الوقت الحالى ، ما دمنا قد عرفنا الموضوع الأثير لديك . ولكن العرض الحالى يستمر خمس سنوات لا أكثر ، إما مباشرة أو بطريق غير مباشر .

كان المجلس كثير الإنجازات ، فقد اخترنا فى نفس الجلسة محاضراً فى مادة الكيمياء الحيوية .

هذه كل الأنباء فى الوقت الحاضر .

صديقك المخلص

ا.ن. و.

ترينتى لودج

كامبردج

٣ من يونيو ١٩١٠

عزيزى ب. رسل

أسعدنا أن نسمع أن هناك أكثر من أمل فى أن تكون معنا مدة مقبلة من الزمن ، لست أدعى أنى قمت بأى دور فى تحقيق الخطوة السديدة التى اتخذناها ، ولكن يسرنى أننا وافقنا بقلوبنا على نصيحة أصدقائك العاملين فى ميدان العلم.

أملى ضعيف أن أعاصرك طوال السنوات الخمس السعيدة التى ستقضيها معنا . ولكنى على الأقل أتطلع إلى أن أقدم لك مبكراً تحياتى القلبية .

مع أطيب تحياتنا جميعاً لمسز رسل .

ثق أن صديقك المخلص جداً هو

مونتاجيو . بتلر

لا أعتقد أن هناك كثيرين من الأحياء قد رأوا مثلى ، اللورد جون رسل يسير من الفندق فى كالندر تحت وابل من المطر الإسكتلندى ، فى عام ١٨٥٠ ، حتى يصل إلى نزل « استرح واشكر الله » . ترى هل تعرف هذه الأماكن الجميلة ؟

مرتون كولدج

أكسفورد

١١ من أبريل ١٩١٠

عزيزى مستر رسل

أشكرك لخطابك . لا يساورنى أى شك أنى فى رسالتى إليك قد أسأت فهمك على نحو ما ، ولعل هذا هو الذى ثنانى عن الكتابة ، ولكنى لم أجد أحداً فيما يبدو يتقدم ليكتب إليك . إنى أتطلع إلى قراءة المستخرج من مقالك من الريفيو وسأتدارس ما كتبت فى خطابك .

وأعترف أنى أشعر بشىء من الخوف إزاء احتمال انشغالك بالسياسة ، إذا كان هذا يعنى أن وقتك لن يتسع للفلسفة . ألا يمكن الجمع بينهما ؟ إذا لم يتيسر هذا فليس لى أن أغامر بالحكم على أى من الاتجاهين تشعر بأنك أقدر على المضى فيه . والشىء الوحيد الذى أحسه بوضوح هو أنه لن يقوم بعملك فى الفلسفة ، بقدر ما تسمح به الاحتمالات الإنسانية ، شخص آخر . لا أعتقد أن من حقى أن أقول أكثر من هذا .

إذا كان فى استطاعتك أن تكتب أى شيء لمجلة « العقل » فإنى على ثقة أن القراء سيرحبون به ، ولن يكون ترحيبى أقل منهم .

المخلص

ف . ه . برادلى

لا أعرف من سيحصل على منصب الأستاذية . سمعت أن فرصة ويب كبيرة على أساس أن رجلى الدين سوف يمنحانه صوتيهما ، وكذلك وارين . ولكن ليس هناك شيء محقق .

مرتون كولدج

أكسفورد

٢٠ من أبريل ١٩١٠

عزيزى مستر رسل

يسعدنى حقاً أن أسمع أنك لا تنتوى أن تتجه إلى السياسة بصفة دائمة ، وما من شك أنها يمكن أن تستغرق معظم وقتك . ومن الناحية الأخرى فلعل من الأنسب أن يغير المرء عمله مؤقتاً ، ولا بد أنك أضنيت نفسك بالعمل فى ميدان الفلسفة عدة سنوات ، وما من شك أنه فى دراسة الفلسفة ، وربما فى دراسات أخرى ، يصبح شيئاً مرهقاً أن يعمل المرء وحده . لست أرى علاجاً لهذا ، فمدى تعاون المرء مع غيره ضئيل جداً . لم يحدث أن كانت صحتى تسمح لى أن أغير عملى ، ولو أنى أخشى أن أكون قد اضطررت إلى التغيب فى عطلات كثيرة عن عملى كبديل لبقائى فيه مدة أطول . ولعله كان من الأنسب أن أجد عملا آخر .

أظننى من بطء التفكير الآن بحيث لا أستطيع أن أقرأ مقالك حتى لو حصلت عليه ، ومع ذلك فإنى أتطلع إلى قراءته .

إنى دائماً أحترم كتاباتك ، ولا يخالجنى أى شك فى أن الفلسفة ستخسر

كثيراً لو انسحبت من ميدانها نهائيًّا . لا أعتقد أن هناك من يمكنه أن يقوم بالعمل فى هذا المجال سواك وهو عمل أشعر أنك ستحب أن تقوم به ، بل آمل أن تقوم به فعلا .

صديقك المخلص

ف. ه. برادلى

الفصل السابع

كامبردج مرة أخرى

عندما فرغت من كتابى « أصول الرياضيات » شعرت بشىء من التوزع والحيرة . وكان ذلك الإحساس على الرغم من ذلك لذيذاً ، يشبه إحساس من أفرج عنه من السجن . ولما كنت فى ذلك الوقت شديد الاهتمام بالصراع بين الأحرار وبين اللوردات حول الميزانية وحول القرار الذى اتخذه البرلمان ، فقد شعرت بميل نحو الاشتغال بالسياسة . وتقدمت بطلب دائرة انتخابية إلى قيادة حزب الأحرار ، واتخذت توصية بترشيحى عن دائرة بدفورد فمضيت إليها وألقيت خطاباً أمام (رابطة الأحرار) ، وقوبل خطابى بالحماس . غير أنهم اقتادونى ، قبل أن ألقى خطابى ، إلى حجرة خلفية صغيرة تعرضت فيها لاستجواب عسير على الوجه التالى فيما أذكر :

س : هل أنت عضو فى كنيسة الدولة ؟

ج : لا ، فقد ربيت منشقاً عليها .

س : وهل ظللت منشقاً ؟

ج : لا ، لم أظل منشقاً .

س : هل نفهم من هذا أنك غير ملتزم فى الدين ؟

ج : نعم ، هذا ما يجب أن تفهموه .

س : هل ترغب فى الذهاب إلى الكنيسة من آن لآخر ؟

ج : لا ، لا أرغب .

س : هل ترغب زوجتك فى الذهاب إلى الكنيسة من آن لآخر ؟

ج : لا ، لاترغب .

س: هل هناك احتمال أن يعرف عنك أنك غير ملتزم فى الدين ؟

ج: نعم ، من المحتمل أن يعرف هذا .

ونتيجة لهـــذه الإجابات اختاروا مرشحاً غيرى ، مستر كيلاوى الذى أصبح مديراً للبريد وكان يتمسك بالآراء المقبولة أثناء الحرب ، ولا بد أنهم شعروا أنهم كانوا محظوظين لتخلصهم منى . ولكننى أيضاً شعرت أننى كنت محظوظاً لتخلصى منهم ، فبينما كانت بدفورد تتشاور فى الأمر ، تلقيت دعوة من كلية ترينتى بكامبردج لكى أصبح مدرساً فى أصول الرياضيات [١] . وكان هذا أكثر إغراء لى من السياسة ، ولكن لو أن بدفورد قبلتنى لرفضت كامبردج . ومع بداية الفصل الدراسى فى أكتوبر ١٩١٠ انتقلت إلى مسكنى بكامبردج . وتمكنت أنا وأليس من العثور على مسكن فى شارع بريدج ، وكان لى جناح فى مجموعة حرف I فى فناء نيفيل . وقد أحببت هذا الجناح الذى كان أول مكان خاص بى وحدى منذ أن غادرت كامبردج فى عام ١٨٩٤ . وقد قمنا ببيع بيتنا فى غابة باجلى ، وبدا لنا أن الحياة تسير بنا إلى مستقر جديد .

غير أن الأيام أثبتت عكس هذا . ففى انتخابات يناير ١٩١٠ ، عندما كنت لا أزال أعيش فى غابة باجلى ، قررت أنه ينبغى على أن أساعد الأحرار قدر استطاعتى ، غير أنى لم أكن أريد مساعدة عضو الدائرة التى كنت أعيش فيها؛ لأنه كان قد حنث ببعض التعهدات الهامة فى رأيى . ولذلك قررت أن أساعد عضو الدائرة المجاورة التى تقع على الضفة الأخرى من النهر . كان هذا العضو هو فيليب موريل ، الذى كان يدرس بجامعة أكسفورد مع شقيق زوجتى ، لوجان ، وكان شديد التعلق به . كان فيليب موريل قد تزوج من ليدى أوتولين كافنديش بنتنك، شقيقة دوق بورتلاند . وكنت أعرفها معرفة طفيفة منذ نعومة أظفارنا، فقد كان لها عمة اسمها مسز سكوت [٢] وكانت تعيش

(١) انظر الرسائل .

(٢) جدة الملكة الوالدة ، إليزابيث .

فى هام كومون . وكانت هناك تجربتان مازلت أذكرهما بجلاء ترتبطان بمنزل مسز سكوت ، ولا تتعلق أيتهما باوتولين . أولى هاتين التجربتين عن حفل للأطفال تذوقت فيه لأول مرة « الآيس كريم » وقد ظننت أنه مجرد « بودنج » عادى ، فتناولت ملعقة كبيرة منه . وكان نتيجة الصدمة التى تلقيتها أن انفجرت فى البكاء مما أفزع الكبار الذين لم يتبينوا ما حدث ، وكانت التجربة الثانية أكثر إيلاما . فعندما كنت أغادر العربة خارج منزلها ، وقعت على أحجار الرصيف ، وأصبت فى قضيبى . واستلزم الأمر بعد ذلك أن أجلس مرتين فى اليوم فى حمام ساخن وأن أدلكه بالأسفنجة بعناية . ولما كنت قد تربيت حتى ذلك الوقت على أن أتجاهله ، فقد أثار حيرتى . وقد استشاط لوجان غضباً وغيرة عندما تمت خطبة فيليب لأوتولين ، وراح يسخر منها بقسوة . غير أنه امتثل فيما بعد ، على أية حال . وكنت أراهما هى وفيليب من آن لآخر ، ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام موضع تقديرى ، كما كانت هى تسىء إلى تزمتى البيوريتانى بما كنت أعتبره إسرافاً فى استعمال الروائح والمساحيق . وكان كرومبتون ديفز أول من أقنعنى بأن أراجع رأيى فيها . لأنها كانت تعمل فى منظمة تقييم الأرض التى أسسها بطريقة حازت إعجابه .

وفى انتخابات يناير ١٩١٠ كنت أخطب فى الاجتماعات السياسية داعياً لفيليب موريل فى معظم الليالى ، وأقضى معظم الأيام فى الحملة الانتخابية . وأذكر أننى استملت إلى جانبنا عسكريًّا متقاعداً برتبة عقيد فى إيفلى كان قد اندفع من إحدى الحجرات الجانبية إلى الصالة وهو يصيح « أتظن أننى سأعطى صوتى لوغد كهذا ؟ اخرجوا من المنزل ، وإلا أطلقت عليكم الكلاب » وألقيت خطباً فى كل قرية تقريباً فيما بين أكسفورد وكافرشام . وفى أثناء هذه الحملة الانتخابية أتيحت لى فرصة معرفة الليدى أوتولين . واكتشفت أنها امرأة تعطف على كل أنواع الناس بدرجة غير عادية وأنها تأخذ الحياة العامة مأخذ الجد . ولكن فيليب فقد مقعده ، شأن كل المرشحين الأحرار فى هذه الناحية ، ثم عرضت عليه دائرة جديدة فى بيرنلى أصبح نائباً عنها ابتداء من

ديسمبر ١٩١٠ حتى الانتخابات التى كانت تنادى بشنق قيصر ألمانيا . وكانت النتيجة أننى لم أرآل موريل كثيراً فترة من الوقت لكننى فى مارس ١٨١١ تلقيت دعوة لإلقاء ثلاث محاضرات فى باريس ، واحدة منهما فى السوربون ، واثنتين فى مكانين آخرين . وكان من المريح أن أقضى الليل فى لندن فى طريقى إلى باريس ، وطلبت من آل موريل أن أنزل ضيفاً عليهم فى بيتهم ، ٤٤ ميدان بدفورد ، ، وجدت ذوق أوتولين مذهلا ورائعاً ، وكان بيتها آية فى الجمال . أما زوجتى فقد كانت دائماً فريسة لصراع بين تقشف الكويكرز وشغف أخيها لوجان بالجمال . كانت ترى أنه من المناسب أن يتبع المرء أفضل القوانين الفنية فى حياته العامة ، مثل ارتداء أفخر الثياب عند ارتياد الصالونات أو اعتلاء منصة الخطابة ، ولكنها إذا خلت لنفسها وجرت على سجيتها غلبت عليها بساطة الكويكرز ، فكانت على سبيل المثال ترتدى دائماً قمصان نوم من الفانلة. أما أنا فقدكنت دائماً أحب الأشياء الجميلة ، وإن كنت عاجزاً عن إحاطة نفسى بها . وقد غذى جو بيت أوتولين فى نفسى شيئاً طال حرمانى منه طوال سنوات زواجى الأول . فما إن دخلت البيت حتى شعرت براحة من متاعب العالم الخارجى . وعندما وصلت هناك فى ١٩ مارس ، فى طريقى إلى باريس ، وجدت أن فيليب قد اضطر على غير انتظار أن يذهب إلى بيرنلى ، وأننى وحيد مع أوتولين . وأثناء العشاء دار بيننا الحديث حول بيرنلى ، والسياسة ، وأخطاء الحكومة . وبعد العشاء أصبح الحديث بالتدريج أكثر ألفة . وعندما راودتها على استحياء ، لم أجد لدهشتى أى صد لمحاولاتى من جانبها . ولم يكن قد خطر ببالى حتى تلك اللحظة أن أوتولين كانت امرأة تسمح لى أن أطارحها الغرام ولكن بالتدريج عندما تقدم بنا الليل ، اشتدت بيننا هذه الرغبة وألحت . وتغلبت الرغبة أخيراً ، ووجدت لدهشتى أننى كنت أحبها حباً عميقاً ، وأنها تبادلنى هذا الشعور . وحتى تلك اللحظة لم تكن لى علاقات كاملة مع أية امرأة فيما عدا زوجتى أليس. ولأسباب خارجية وعارضة ، لم أصل مع أوتولين فى تلك الليلة إلى نهاية المطاف ، لكننا اتفقنا على أن نصبح عشاقاً فى أسرع وقت ممكن . كان شعورى جياشاً غامراً ، ولم أبال بما يترتب على هذا . كنت

أريد أن أنفصل عن أليس ، وأن أطلب من أوتولين أن تنفصل عن زوجها فيليب . ولم أبال قط بما يمكن أن يظنه فيليب أو يشعر به . ولو أنني علمت أنه كان سيقتلنا معاً (كما أكدت لى مسز هوايتهد) لرضيت بدفع هذا الثمن لقاء ليلة واحدة مع أوتولين . فلقد وصلت السنوات التسع التى قضيتها فى إنكار الذات المشحون بالتوتر إلى نهايتها . لم يكن هناك من الوقت ما يسمح لنا بتنظيم خطط للمستقبل خلال تلك الأمسية الوحيدة . وكان الوقت متأخراً عندما تبادلنا أول قبلة ، وبرغم أننا لبثنا حتى الرابعة صباحاً ، إلا أن الحديث أصبح بعد ذلك متقطعاً . وفى اليوم التالى كان على أن أذهب مبكراً إلى باريس ، كان على أن أحاضر بالفرنسية جمهوراً على مستوى عال من القدرة على النقد ووجدت صعوبة فى تركيز تفكيرى على مايجب أن أفعله ، وأظن أننى ألقيت محاضرة سيئة . كنت أعيش فى حلم ، وبدت الأشياء المحيطة بى غير حقيقية تماماً . كانت أوتولين ذاهبة إلى ستدلاند (التى كانت فى تلك الأيام مكاناً صغيراً) وقد اتفقنا على أن ألحق بها لمدة ثلاثة أيام . وقبل ذهابى ، قضيت عطلة نهاية الأسبوع مع أليس فى فرنهيرست . وقد بدأتُ العطلة بذهابى إلى طبيب الأسنان ، الذى أخبرنى بأنى قد أكون مصاباً بالسرطان . ونصحنى أن أعرض نفسى على أخصائى . لم أستطع على أية حال أن أراه مدة ثلاثة أسابيع لأنه كان قد سافر لقضاء عطلة عيد الفصح . وقد أخبرت أليس عندئذ عن أوتولين . فاستشاطت غضباً ، وقالت إنها ستصر على طلب الطلاق ، وأنها ستذكر اسم أوتولين . ولكن أوتولين كانت راغبة عن الطلاق ، بسبب طفلها ، وبسبب المودة الصادقة التى كانت تكنها لزوجها ، ولهذا تحتم علىّ ألا أزج باسمها فى الموضوع . قلت لأليس إنها تستطيع الحصول على الطلاق فى أى وقت شاءت ، على ألا تزج باسم أوتولين ، ولكنها مع ذلك أصرت على أن تذكر اسمها . وعندئذ أبلغتها بهدوء وحزم أنها ستجد ذلك مستحيلا . فلو أنها أخذت أى خطوة فى هذا السبيل ، فإنى سأقدم على الانتحار . وكنت أعنى ما أقول ، ورأت هى أننى جاد فى قولى ، وعندئذ ازدادت سورة غضبها

إلى درجة لاتحتمل . وبعد أن أرغت وأزبدت بضع ساعات أعطيت درساً في فلسفة لوك لابنة أختها ، كارين كوستيللو ، التى كانت على وشك أن تجلس فى الامتحانات الشفوية للسنة النهائية فى كامبردج ، ثم ركبت دراجتى ورحلت ، وبذلك انتهى زواجى الأول ، ولم أر أليس مرة أخرى حتى عام ١٩٥٠ ، عندما التقينا كصديقين متحابين .

وبعد هذه المشاحنة انتقلت مباشرة إلى ستدلاند ، وأنا مازلت أعتقد أننى مصاب بالسرطان . وفى سوانيدج حصلتُ على عربة عتيقة يجرها حصان بطىء للغاية . وأثناء رحلته البطيئة بلغت روحى الحلقوم وهو يتهادى صاعداً وهابطاً فوق التلال . ورأيت أوتولين ، على أية حال ، تجلس فى غابة صنوبر بجوار الطريق ، فنزلت ، وتركت العربة تكمل الرحلة بأمتعتى . ولا تزال الأيام الثلاثة بلياليها التى قضيتها فى ستدلاند ماثلة فى ذاكرتى مثل لحظات تبدو فيها الحياة وقد تم لى فيها ما أريد إلا قليلا ، فنادراً ما تصفو الحياة تماماً . ولم أخبر أوتولين ، بالطبع ، أننى كان لدى من الأسباب ما يحملنى على الاعتقاد بأننى كنت مصاباً بالسرطان ، ولكن فكرة احتمال وجود هذا ضاعفت من سعادتى ؛ فقد اكسبتها تركيزاً ، كما ساعد على هذا إحساسى أننى كنت أنتزع هذه اللحظات من بين أنياب الهلاك . فعندما أنبأنى الطبيب بهذا كان أول ما خامرنى هو التوجه بالشكر لله على أنه تمكن منى فى النهاية فى الوقت الذى بدت فيه السعادة قيد ناظرى . وأظن أننى فى جزء خفى من نفسى كنت أعتقد فى إلٓه يجد متعته فى صنوف مبتكرة من التعذيب . ولكننى خلال الأيام الثلاثة التى قضيتها فى ستدلاند ، كنت أشعر أن هذا الإلٓه الخبيث لم ينجح تماماً برغم كل شىء . وعندما رأيت الطبيب الأخصائى أخيراً ، اتضح أنه لم يكن فى الأمر شىء .

كانت أوتولين طويلة القامة جداً ، ذات وجه نحيل طويل أشبه بوجه الحصان ، وشعر جميل للغاية ذى لون غير مألوف أقرب إلى لون مربة النارنج . وإن زاد عنها دكنة بعض الشىء . وكانت السيدات اللاتى يحسن الظن يعتقدن أنه مصبوغ ، ولكنهن كن مخطئات فى هذا الاعتقاد . وكانت ذات

صوت رقيق بديع رخيم ، وذات عزم لا يفل ، وإرادة من حديد . ولكنها كانت شديدة الحياء . وكان كل منا ، فى البداية ، يستحى من الآخر ، ولكن حبنا كان عميقاً ، وكان تلاشى الحياء بالتدريج متعة إضافية . كان كلانا متحمساً غير متمسك بالتقاليد ، أرستقراطياً بحكم المنبت والتقاليد دون الترفع المقصود الذى كانت بيئتنا تقضى به . وكان كلانا يكره القسوة ، والغطرسة الطبقية ، وضيق أفق الأرستقراطيين ، ومع ذلك فقد كنا معاً كالغريبين فى العالم الذى اخترنا أن نعيش فيه ، وهو عالم كان ينظر إلينا بعين الريبة وعدم الفهم لأننا كنا غريبين عنه . وكنا نتقاسم كل المشاعر المعقدة التى نتجت عن هذا الموقف كما كان هناك تعاطف عميق بيننا لم ينقطع أبداً طيلة حياتنا . وبرغم أننا لم نعد عاشقين فى ١٩١٦ ، إلا أننا ظللنا دائماً صديقين حميمين .

كان لأوتولين أكبر الأثر على وكان أثرها نافعاً من كل وجه تقريباً . وكانت تضحك منى كلما تصرفت بحـذلقة الأستاذ أو غروره ، وكلما ظهر منى ميل إلى الاستبداد فى الحديث . وقد خلصتنى بالتدريج من اعتقادى أننى أفيض بشر مستطير لا يمكننى أن أسيطر عليه إلا بأن أملك زمام نفسى بقبضة من فولاذ ، كما جعلتنى أقل تركيزاً على نفسى ، وأقل رضاً عنها . وكان لها ميل شديد نحو الدعابة ، حتى إننى أدركت خطورة استثارتها عن غير عمد . وقد جعلتنى أقل تزمتاً ، وأقل ميلا للتهكم على الآخرين . فقد كانت حقيقة الحب السعيد ، بالطبع ، أن جعل ، بعد سنين طويلة من الفراغ ، كل شيء سهلا . إن الكثير من الرجال يخشون أن يخضعوا لتأثير النساء ، ولكن هذا الخوف حسب تجربتى ، خوف سخيف . فيبدو لى أن الرجال يحتاجون إلى النساء ، وأن النساء يحتجن إلى الرجال ، عقلياً وجسدياً . وفيما يختص بى أقول إنى أدين بالكثير للنساء اللاتى أحببتهن ، ولولاهن لظللت محدود الأفق إلى حد بعيد .

وبعد الفترة التى قضيناها فى ستدلاند بدأت صعاب عديدة تعترض طريقنا . كانت أليس ما زالت ترغى وتزبد ، وكان لوجان حانقاً مثلها تماماً . وأقنعهما آل هوايتهد ، الذين كانوا يعطفون علينا عطفاً بالغاً فى تلك الظروف ،

أن يتنازلا عن فكرة طلاق يزج فيه باسم أوتولين ، وصممت أليس على أن الطلاق فى تلك الحالة لم يكن يستحق الحصول عليه . ولقد كنت أتمنى أن تترك أوتولين فيليب ، ولكنى سرعان ما رأيت أن ذلك كان مستحيلا . وفى تلك الأثناء ذهب لوجان إلى فيليب ، وفرض شروطاً اضطر فيليب بدوره أن يفرضها على أوتولين . وكانت هذه شروطاً مجحفة تهدد سعادة حبنا تهديداً خطيراً . وكان أسوأها أننا لا ينبغى أن نقضى ليلة واحدة معاً . وثارت ثائرتى مثلما ثارت ثائرة فيليب ولوجان وأليس . وكان هذا مضنياً بالنسبة لأوتولين ، كما خلق جواً من العسير أن نستعيد فيه النشوة الأولى . وتفتحت عيناى على تماسك حياة أوتولين ، وعلى حقيقة أهمية زوجها وطفلها وممتلكاتها بالنسبة لها . أما بالنسبة لى فلم يكن هناك ما يضارعها هى فى الأهمية ، وأدى بى عدم التكافؤ هذا إلى أن أصبح غيوراً صارماً فيما أتطلبه . ولكن قوة العاطفة المتبادلة انتصرت على كل هذه العقبات ، على أية حال . كانت تمتلك بيتا صغيراً فى بيبارد ، فى تلال شيلتيرن [١] ، حيث كانت تقضى شهر يوليو . وقد نزلت أنا فى أبسدن ، على مسافة ستة أميال من بيبارد ، وكنت أذهب على دراجتى كل يوم ، فأصلها ظهراً ، وأغادرها حوالى منتصف الليل . وكان الصيف حاراً بشكل غير مألوف ، بلغت فيه درجة الحرارة فى أحد أيامه ٩٧° فهرنهايت فى الظل . كنا نحمل معنا غذاءنا إلى غابات الزان ، ونعود للبيت لتناول الشاى فى وقت متأخر . كان شهراً من السعادة الغامرة ، برغم سوء حالة أوتولين الصحية مما اضطرها أخيراً إلى الذهاب إلى مارينباد ، حيث لحقت بها بعد فترة ، وأقمت ، على أية حال ، فى فندق آخر . ومع حلول فصل الخريف عادت إلى لندن ، واستأجرت أنا شقة قرب المتحف البريطانى ، حتى يمكنها أن تحضر لزيارتى . وكنت طوال الوقت أحاضر فى كامبردج . ولكننى كنت أحضر فى الصباح ، وأعود إلى محاضرتى فى الوقت المناسب ، فى الساعة الخامسة والنصف . وكانت تعانى من نوبات صداع فظيعة ، مما كان يجعل لقاءاتنا فى أغلب الأحيان مخيبة

(١) سلسلة من التلال تمتد بين أكسفورد ومقاطعتى بدفورد وهرتفورد ، بمقاطعة بكنجهام .

لآمالنا ، وفى تلك المناسبات كنت أقل مما ينبغى مراعاة لإحساسها . ومع ذلك فقد اجتزنا فصل الشتاء بحادث شقاق خطير واحد فقط جاء نتيجة لاتهامى لها بأنها متدينة . لكن مشاغباتى لها تزايدت بالتدريج لشعورى أنها لم تكن تهتم بى قدر اهتمامى بها . وكانت هناك لحظات يختفى فيها هذا الشعور كلية ، وأظن أن اعتلال صحتها فى أغلب الأحيان كان يبدو لى عدم مبالاة ، ولكن بالتأكيد لم يكن هذا هو السبب دائماً . وكنت أعانى ، دون علمى ، من تقيح باللثة ، وكان هذا سبباً فى أن تكون رائحة أنفاسى كريهة ، وهو مالم أكن أشعر به . ولم تكن نفسها تطاوعها على أن تخبرنى بهذا ، ولم تبح لى بتأثيره عليها إلا بعد أن اكتشفت الداء وشفيت منه .

وفى نهاية عام ١٩١٣ ذهبت إلى روما لأراها ، ولكن فيليب كان هناك ، وكانت زيارة غير مثمرة . وتعرفت بسيدة ألمانية كنت قد التقيت بها فى الصيف عند بحيرة جاردا . وكنا قد قضينا ، سانجر وأنا ، شهراً فى رحلة على الأقدام فوق جبال الألب من انزبروك ، ووصلنا إلى بنتوسان فيليو ، حيث لحقنا بمجموعة من الأصدقاء تتكون من مس سيكوكس ، ناظرة مدرسة سانت فيليكس ، ومليان ستاول ، فتاة قاصرة كانت ميليان وصية عليها نسيت اسمها . وجذب انتباهنا امرأة شابة تجلس بمفردها على إحدى الموائد ، ورحنا نتجادل فيما إذا كانت متزوجة أو غير متزوجة . وقلت أنا إنها مطلقة . ولكى نحسم المشكلة تعرفت عليها ، ووجدت أننى كنت مصيباً فى رأيى . كان زوجها يشتغل بالتحليل النفسى ، ويبدو أن آداب المهنة كانت تتطلب ألا يستمر فى الحياة مع زوجته . وبالتالى فقد كانت مطلقته فى الوقت الذى تعرفت عليها فيه ، وبمجرد أن ثأر كل منهما لكرامته ، تزوجا مرة أخرى وعاشا حياة هنية . كانت صغيرة السن ، جذابة ، وكان لها طفلان صغيران . وفى ذلك الوقت كنت نهباً لرغبتى فى أن أنجب أطفالا ، ولم تكن عيناى تقعان على طفل يلعب فى الطريق دون أن ينتابنى ألم ممض . وصادقت السيدة ، وخرجنا ، فى رحلة إلى الريف . ورغبت فى أن أطارحها الغرام ، لكننى رأيت أن أخبرها عن أوتولين

أولا . وكانت مستسلمة لى ، حتى تكلمتُ عن أوتولين ، فأقلعت عن استسلامها بعد ذلك . لكنها قررت ، على أية حال ، أنه من الممكن أن تتغاضى عن اعتراضاتها ذلك اليوم فقط. ومنذ ذلك اليوم لم أرها قط ، برغم أننى مازلت أتلقى منها خطابات على فترات متباعدة .

كانت بداية صداقتى لجوزيف كونراد [1] فى عام ١٩١٣ حدثاً هاماً فى حياتى أدين به لصداقتنا المشتركة مع أوتولين . كنت من المعجبين بكتبه لسنوات عديدة . ولم أكن لأجرؤ على السعى إلى معرفته دون أن أقدم إليه . وقد ذهبت إلى منزله قرب آشفورد فى مقاطعة كنت ، فى حالة من القلق والترقب وكان انطباعى الأول عنه مليئاً بالدهشة فقد كان يتكلم الإنجليزية بلكنة أجنبية واضحة . ولم يكن فى سلوكه ما يوحى بأن له صلة ما بحياة البحر . بل كان سيداً بولندياً أرستقراطياً من مفرق شعره إلى أخمص قدميه . وكان شعوره نحو البحر ونحو إنجلترا ، شعوراً بالحب الرومانسى — حب من بعيد ، كاف لأن يحتفظ بقصة الحب نقية لا تشوبها شائبة . وقد بدأ حبه للبحر فى مرحلة مبكرة جداً من حياته . وعندما أخبر والديه بأنه كان يرغب فى أن يعمل بحاراً راحا يحثانه على الالتحاق بالبحرية النمسوية ، ولكنه كان ينشد المغامرة فى البحار الاستوائية والأنهار الغريبة التى تحيط بها غابات سوداء ، ولم تكن البحرية النمسوية لتتيح له المجال لإرضاء هذه الرغبات . وذعرت عائلته عندما شرع فى البحث عن عمل فى البحرية التجارية الإنجليزية. ولكن لم يكن من السهل أن يزعزعوا عزيمته .

---

(١) عاش جوزيف كونراد بين ١٨٥٧ و١٩٢٣ وهو روائى إنجليزى كبير من أصل بولندى ، كان أبوه كاتباً بولندياً مجاهداً ونفى بسبب الثورة البولندية على روسيا ، وأغرم كونراد منذ صباه بأدب البحر والبحارة فاشتغل بحاراً أولا على السفن الفرنسية ثم على السفن الإنجليزية وهكذا ذرع بحار العالم وزار أقصى الشطئان وكل القارات ، وقد استقبلت باكورة رواياته حماقة ايلمر فى ١٨٩٥ كباكورة عبقرية جديدة فى فن الرواية . ومن أهم رواياته اللورد جيم فى ١٩٠٠ والإعصار فى ١٩٠٣ ونوسترمو فى ١٩٠٤ والعميل السرى فى ١٩٠٧ والانتصار فى ١٩١٥ والنجدة فى ١٩٢٠ . وقد اشتهر كونراد فى الأدب الإنجليزى بغرابة أسلوبه واهتمامه بجمال العبارة مع الاهتمام بالتكوينات الموسيقية فى تركيب الجملة . وأدبه يدور حول حياة البحر والأدغال ويعالج الصراع بين الخير والشر وبين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والطبيعة . وكان شديد الاهتمام بوصف الجوانب المظلمة فى قلب الحياة .

كان كاتباً صارماً فى أخلاقياته ، كما تدل على هذا كتاباته ، ولم يكن متعاطفاً مع الثوريين على الإطلاق . ولم نكن هو وأنا على وفاق فى معظم آرائنا بحال من الأحوال ، ولكننا التقينا تماماً على شىء أساسى جداًّ، إذ كانت علاقتى بجوزيف كونراد مختلفة عن أى علاقة من علاقاتى الأخرى . كنت نادراً ما أراه على فترات تمتد أعواماً طويلة وكنا أقرب ما نكون إلى غريبين فى استحكاماتنا الدفاعية ونحن نمضى فى حياتنا ، ولكننا كنا نشاطر أحدنا الآخر نظرة معينة فى الحياة الإنسانية والمصير الإنسانى ، مما ربط بيننا ، منذ البداية ، برباط قوى . وقد تلتمس لى العذر فى الإشارة إلى جملة وردت فى خطاب كتبه إلىّ بعد أن تعارفنا مباشرة . وأشعر أن الحشمة تمنعنى من الإشارة إلى هذا التعبير لولا أنه يعبر بالضبط عن شعورى نحوه . كان تعبيره وشعورى المساوى له ، كما صاغه هو فى كلماته : (شعور عميق بالمودة والإعجاب ، سأظل أحتفظ لك به دون أن يعتريه تغيير إلى الأبد ، حتى إذا لم ترنى مرة ثانية قط ونسيت وجودى غداً) .

ومن كل ما كتبه كونراد كنت معجباً أشد الإعجاب بروايته المخففة « أعماق الظلمة » ، التى يصيب الجنون فيها شخصاً مثالياًّ ضعيفاً بسبب ذعره من الغابات الاستوائية ووحدته بين المتوحشين. وهذه الرواية ، فيما أظن ، تعبر عن فلسفته فى الحياة تعبيراً كاملا — وقد كان شعورى ، برغم أننى لا أدرى إذا كانت هذه الصورة الذهنية ستحوز قبوله ، أنه كان يرى أن الحياة الإنسانية المتحضرة التى يمكن تقبلها خلقياًّ أشبه شىء بطريق تحف به الأخطار يمتد فوق قشرة رقيقة من الحمم البركانية التى لم تبرد والتى قد تنهار فى أية لحظة لتغوص بالإنسان الغافل القليل الحيطة إلى أعماقها المتأججة . وكان كونراد عارفاً أتم المعرفة بأشكال الجنون العاطفى العديدة التى يتعرض لها الناس . وكان هذا هو ما ملأه بكل هذا الإيمان العميق بأهمية النظام ، وربما أمكن القول بأن وجهة نظره كانت على نقيض وجهة نظر روسو ، فهو يؤمن بأن الإنسان يولد مكبلا بالأغلال ، ولكنه قادر على أن يصبح حراًّ ، وأعتقد أن كونراد يؤمن

بأن الإنسان يصل إلى حريته لا عن طريق إطلاق العنان لنوازعه ، ولا عن طريق الاستسلام للصدفة بدون سيطرته على نفسه ، ولكن عن طريق إخضاع قوة الإصرار فى الإنسان لخدمة غرض عام .

ولم يكن كونراد يهتم كثيراً بالأنظمة السياسية ، برغم أنه كان ذا مشاعر سياسية قوية . وكان أقوى مشاعره السياسية حبه لإنجلترا وكراهيته لروسيا ، وقد عبر عنهما فى رواية « العميل السرى » ، أما بعد الثورة ، فهو ما يصوره بقوة فائقة فى رواية « تحت العيون الغربية » . وكانت كراهيته لروسيا هى الكراهية التقليدية فى بولندا ، وقد بلغت به حداً جعله لايعترف بقدر تولستوى أو دستويفسكى ، وقد أخبرنى مرة أن ترجينيف هو الروائى الروسى الوحيد الذى كان يعجب به .

وفيما عدا حبه لإنجلترا وكراهيته لروسيا ، لم تكن السياسة تعنيه كثيراً . وإنما كان ما يهمه هو الروح الإنسانية الفردية فى مواجهة اللامبالاة التى تحكم الطبيعة ، وفى مواجهة عداوة الإنسان للإنسان بوجه عام . وفى تعرض النفس للصراعات الداخلية بعواطفها الجارفة التى تؤدى للتهلكة سواء أكانت هذه العواطف خيرة أم شريرة . وكانت مآسى الوحدة تشغل الجزء الأكبر من فكر كونراد وإحساسه . ومن رواياته النموذجية رواية « الإعصار » . وفى هذه الرواية يخرج الربان ، وهو إنسان بسيط ، بسفينته من الورطة بشجاعة لا تتزعزع ، وبعزيمة لا تفل . وعندما تنتهى العاصفة يكتب لزوجته خطاباً يروى لها قصة العاصفة ويحكى لها دوره هو بمنتهى البساطة . إنه أدى واجبه كربان ، كما يمكن أن يتوقع أى إنسان طبعاً . ولكن القارئ يدرك ، من خلال سرده ، كل ما كابده وما واجهه وما تحمله فى جسارة . وقبل أن يرسل الربان خطابه ، يقرأه خادمه خفية ، ويكون خادمه هو قارئه الوحيد لأن زوجته تجد الخطاب مملاً وتلقى به دون أن تقرأه .

والموضوعان اللذان يشغلان بال كونراد أكثر من غيرهما فيما يبدو هما الوحدة والخوف من كل ما هو غريب . ورواية « طريد الجزر » ، شأنها فى هذا شأن « أعماق الظلمة » تصف الخوف من كل ما هو غريب . والموضوعان يمتزجان

فى روايته المؤثرة « إيمى فوستر » . وفى هذه الرواية تكتب النجاة من حطام سفينته لفلاح صقلى جنوبى ، وهو فى طريقه إلى أمريكا ، وتلقى به الأمواج على شواطئ قرية من قرى مقاطعة كنت . وتخشاه القرية كلها وتسىء معاملته ، ماعدا إيمى فوستر ، وهى فتاة بسيطة على قدر من البلادة الذهنية تحضر له الخبز وهو يتضور جوعاً ، ثم تتزوجه فى النهاية ، ولكنها أيضاً يتملكها الخوف من غرابته ، عندما يعود إلى الهذيان بلغته الأصلية فى نوبة حمى ، فتختطف طفلها وتهجره . ويموت وحيداً مغلوباً على أمره . ولطالما تساءلت بينى وبين نفسى إلى أى حد شعر كونراد ، وهو بين الإنجليز ، بمثل هذا الشعور ، ولكنه استطاع أن يكبحه بإرادة لا تلين .

وقد كانت وجهة نظر كونراد أبعد ماتكون عن روح العصر . فقد كان يرى أن هناك فلسفتين فى العالم الحديث . فلسفة تنبع من روسو وترفض النظام رفضها لشىء غير ضرورى ، وفلسفة تجد التعبير الكامل عنها فى النزعة الشمولية وترى أن النظام شىء مفروض أساساً من الخارج . وكان كونراد يكره الفوضى ، ويكره النظام الذى يأتى من الخارج فى وقت واحد .

وفى هذا كله كنت أجد نفسى على اتفاق تام معه . وفى لقائنا الأول رحنا نتكلم بمودة تتزايد بشكل مستمر . وخيل إلى أننا كنا نغوص خلال طبقة إثر طبقة من القشرة الظاهرية حتى وصلنا بالتدريج إلى جوف الأرض الملتهب . وكانت تجربة مختلفة عن أى تجربة أخرى مررت بها . كنا ننظر فى عينى أحدنا الآخر ونحن نتأرجح بين الخوف والنشوة إذ نجد نفسينا سوياً فى مثل هذه المنطقة وكان شعوراً قوياً أشبه بالحب المتأجج ، وشاملا فى آن واحد . وانصرفتُ وقد تملكتنى الحيرة ، وأنا أكاد أجد صعوبة فى التعرف على طريقى وسط الأمور العادية .

ولم أر كونراد خلال الحرب أو بعدها حتى عودتى من الصين عام ١٩٢١ . فعندما ولد ابنى الأول فى تلك السنة وددت لو أن كونراد كان أباه فى العماد دون إقامة احتفال رسمى . وكتبت إليه قائلا : « أود بعد إذنك ، أن أسمى ابنى

جون كونراد ، فقد كان اسم أبى جون ، واسم جدى جون ، واسم جدى الأكبر جون ، وكونراد اسم أرى فيه مزاياه » ، وقبل وسارع بتقديم القدح المألوف فى تلك المناسبات إلى ابنى .

ولم أره كثيراً ، لأننى كنت أعيش معظم العام فى كورنول ، كانت صحته قد بدأت فى التدهور . ولكننى كنت أتلقى منه رسائل ساحرة ، وخاصة رسالة عن كتابى عن الصين [1] . إذ كتب يقول: « لقد كنت دائماً أكن الحب للصينيين ، حتى أولئك الذين حاولوا قتلى (وقتل آخرين) فى فناء بيت خاص فى تشانتابون ، بل حتى الشخص الذى سرق كل أموالى ذات ليلة فى بانكوك ، لكنه نظف ملابسى بالفرشاة وطواها بعناية لكى أرتديها فى الصباح ، قبل أن يختفى فى أغوار سيام (وإن لم أكن أحبه قدر حبى للآخرين) . ولقد أسدى إلىّ صينيون عديدون الكثير من المعروف . وهذا ، بالإضافة إلى حديث مع سكرتير صاحب السعادة تسنج الذى التقيت به ذات مساء فى شرفة أحد الفنادق وقمت معه على مضض بدراسة إحدى القصائد اسمها "الصينى الوثنى" وهذا كل ما أعرفه عن الصينيين ». ولكننى بعد قراءة رأيك الشيق فى المشكلة الصينية ، بدأت أنظر بتشاؤم إلى مستقبل بلدهم ، وراح يقول إن آرائى عن مستقبل الصين « تبعث البرودة فى روحى » خاصة وأننى ، كما قال ، كنت أعلق آمالى على الاشتراكية الدولية . وعلق على هذا بقوله : « وهو الأمر الذى لا أستطيع أن أجد له معنى محدداً . فلم يحدث مطلقاً أن وجدت فى كتاب خطه أى إنسان ، أو فى حديث مع أحد ، أى شىء مقنع يستطيع أن يصمد للحظة أمام إحساسى العميق بالقدرية التى تحكم هذا العالم الذى يعيش فيه الإنسان » . وواصل كلامه قائلا: إنه بالرغم من أن الإنسان قد شرع فى الطيران إلا أنه لا يطير مثل النسر ، بل يطير مثل الخنفساء . ولا بد أنك لا حظت أن طيران الخنفساء قبيح ومضحك وأبله ، وفى مثل هذه الملاحظات المتشائمة ، شعرت أنه كان يبدى من الحكمة أعمق مما أبديته فى آمالى الزائفة بشأن حل مشاكل الصين

---

(١) انظر الرسائل .

حلاً سوفقاً . ولا بد لى أن أقرر أن الأحداث قد أثبتت حتى الآن صحة رأيه .

كان هذا الخطاب هو آخر ما بينى وبينه . فلم أره بعد ذلك مرة ثانية لأتبادل معه الحديث . ورأيته مرة عبر الشارع ، وقد انخرط فى حديث جدى مع شخص لا أعرفه ، وكانا واقفين أمام باب بيت كان يوماً ما بيت جدتى ، لكنه أصبح بعد موتها نادياً للفنون . ولم أشأ أن أقاطع هذا الحديث البادى الجد، فانصرفت . وعندما مات بعد ذلك بفترة وجيزة أسفت على أننى لم أكن أكثر جرأة . ولقد ذهب البيت ، دمره هتلر . وأظن أن كونراد فى سبيله إلى أن ينسى ، ولكن نبله الشديد الذى يفيض حماسة ، يتلألأ فى ذاكرتى مثل نجمة نراها من قاع بئر . وكم أود لو استطعت أن أجعل نوره يتلألأ للآخرين مثلما كان يتلألأ بالنسبة لى .

وفى ربيع عام ١٩١٤ ، دعيت إلى بوسطن لإلقاء سلسلة من المحاضرات تعرف باسم محاضرات لويل ، ولأعمل فى نفس الوقت أستاذاً مؤقتاً للفلسفة فى جامعة هارفارد . وأعلنت عن الموضوع الذى اخترته لمحاضرات لويل ، ولكننى لم أجد القدرة على التفكير فيما أقوله . كنت أقضى الوقت جالساً فى فندق (الخنفساء والوتد) فى مولسفورد ، وأنا أتساءل عما يمكن قوله عن معرفتنا بالعالم الخارجى ، وهو الموضوع الذى كان على أن ألقى سلسلة المحاضرات عنه قبل مضى وقت طويل . وعدت من روما إلى كامبردج فى يوم رأس السنة ١٩١٤ ، ولما كنت أرى أن الوقت قد أزف لكى أعد محاضراتى ، فقد رتبت الأمر مع كاتبة مختزلة على الآلة الكاتبة على أن تحضر فى اليوم التالى ،رغم أننى لم يكن لدى أقل فكرة عما ينبغى على أن أقوله لها عند ما تحضر . وعند ما جاءت إلى غرفتى ، بدأت أفكارى تنتظم ، ورحت أملى عليها بشكل منظم تماماً وبدون انقطاع حتى انتهى العمل . وقد نشرت هذه المحاضرات فيما بعد فى كتاب بعنوان (معرفتنا بالعالم الخارجى باعتباره ميداناً للأسلوب العلمى فى الفلسفة) .

وأبحرت على الباخرة «موريتانيا» فى ٧ من مارس. وكان سير هيويل موجوداً على ظهر السفينة . وقد قضت زوجته الرحلة بطولها تبحث عنه ، أو تضبطه مع فتاة جذابة . وحينما كنت ألتقى به بعد ذلك بعد غرق الباخرة « لوزيتانيا »

كنت أجده يؤكد أنه كان قد أبحر على الباخرة لوزيتانيا .

ومن نيويورك سافرت مباشرة إلى بوسطن ، ومن دواعى راحتى فى القطار أن سمعت حديثاً يدور بين جارىّ الاثنين عن جورج تريفيليان . وفى هارفارد التقيت بكل الأساتذة ، وبكل فخر أقول إننى شعرت بكراهية عنيفة نحو البروفيسور لويل الذى اشترك فيما بعد فى جريمة اغتيال ساكو وفانزيتى . لم يكن لدى فى ذلك الوقت باعث على كرهه ، ولكن الشعور كان قوياً بنفس درجة شعورى نحوه فى السنوات التالية عندما برزت خصائصه كمنقذ اجتماعى . وكان كل أستاذ أقدم إليه فى هارفارد ، يلقى بالخطبة التالية : « إنك تدرك يادكتور رسل ، دون شك ، أن هيئة التدريس بقسم الفلسفة قد منيت بثلاث خسائر فادحة . فلقد فقدنا زميلنا المبجل بروفيسور ويليام جيمس بموته المأسوف عليه وبروفيسور سانتيانا قد استقر به المقام فى أوربا لأسباب يراها هو دون شك وجيهة ، وأخيراً ، وليس آخراً ، أصيب بروفيسور رويس بالشلل ، وإن كان يسعدنى أن أقول إنه مازال معنا » ، كان هذا الخطاب يلقى بهدوء وجدية وعظمة . وجاء الوقت الذى شعرت فيه أننى يجب أن أفعل شيئاً إزاء هذا . ولذلك رحت أتشدق فى المرات التالية ، عندما كنت أقدم إلى أحد الأساتذة بالكلام بأقصى سرعة ، وأثبتت هذه الحيلة ، على أية حال ، عدم جدواها فقد كان الأستاذ يجيبنى قائلا : « نعم ، يادكتور رسل ، تماماً كما لاحظت ، لقد منيت هيئة التدريس . . . » وهكذا مضت الخطبة حتى نهايتها المحتومة . ولا أدرى إن كان هذا ينطبق على جنس الأساتذة أم أنه يتعلق بالأمريكيين وحدهم ، وأعتقد أنه ربما كان الغرض الأول هو الأصح . كما لاحظت شيئاً آخر عن أساتذة جامعة هارفارد : وهى أنهم كانوا دائماً يرشدوننى إلى الطريق إلى منزلى ، عندما كنت أذهب لتناول العشاء معهم ، بالرغم من أننى كنت آخذ طريقى عند ذهابى إلى بيوتهم دون مساعدة منهم ، وكانت هناك حدود لانتشار الثقافة بهارفارد . فقد كان سكوفيلد أستاذ الفنون الجميلة ، يعتبر الفريد نويس شاعراً عظيماً جداً .

ومن الناحية الأخرى كان انطباعى عن الطلبة ، وخصوصاً طلبة الدراسات العليا ، انطباعاً رائعاً . فقد كان قسم الفلسفة بهارفارد ، حتى الوقت الذى منى فيه بهذه الخسائر الثلاث التى سبق ذكرها ، أحسن قسم فى العالم . ففى عام ١٨٩٦ كنت أقيم فى هارفارد مع ويليام جيمس ، وأعجبت بإصرار رويس على إدخال المنطق الرياضى فى برنامج الفلسفة. وكان سانتيانا ، الذى كانت روابط الصداقة تربطه بأخى ، معروفاً لى منذ عام ١٨٩٣ . وبقدر ما كنت أختلف معه ، كنت أعجب به . كان التراث الذى خلفه هذان الرجلان مازال قوياً. وكان رالف بالون بيرى يبذل غاية جهده لكى يحل محلهما ، وكان ممتلئاً بالحيوية الدافقة التى كانت تغذى ما كان يطلق عليه « الواقعية الجديدة » وكان قد تزوج شقيقة بيرنسون . لكنه كان يصدر فى تصرفاته عن أخلاقيات نيوإنجلند التى كانت سبباً فى إفلاسه الفكرى وذلك عند نشوب الحرب العالمية الأولى . وفى إحدى المناسبات التقى فى منزلى بروبرت بروك[1] ، الذى لم يكن قد سمع عنه . وكان روبرت عائداً إلى أرض الوطن من جزر البحر الجنوبى ، وكان يتحدث بإسهاب عن تحلل الرجولة التى جاءت نتيجة الكف عن أكل لحوم البشر فى هذه المناطق . وقد آلم هذا القول بروفيسور بيرى . أو لم يكن أكل لحوم البشر خطيئة ؟ ولا يخالجنى أدنى شك فى أن بروفيسور بيرى اشترك فى تمجيد روبرت بعد موته ، ولا أظن أنه أدرك بتاتاً أن الشاب المستهتر الذى التقى به فى مسكنى كان هو نفس الإله الذهبى الشعر الذى بذل حياته فى سبيل الوطن .

وعلى أية حال ، فقد كان الطلبة ، كما قلت ، مثيرين للإعجاب . كنت أقوم بالتدريس لفصل من طلبة الدراسات العليا يبلغ عددهم اثنى عشر طالباً ، وكانوا يحضرون لتناول الشاى معى مرة كل أسبوع . كان أحدهم ت.س. إليوت ، الذى كتب فيما بعد قصيدة بعنوان « مستر ابوليناكس» ولم

(١) شاعر إنجليزى عاطفى رقيق مات فى الحرب العالمية الأولى . ترجم له كمال الدين الحناوى ديوانه (أحزان المساء) إلى اللغة العربية ، عاش من ١٨٨٧ إلى ١٩١٥ .

أكن أعلم عندئذ أن إليوت كان يقرض الشعر . وأظن أنه كان قد انتهى فعلا من كتابة قصيدتىْ « صورة سيدة » و « بروفروك » ، ولكنه لم يجد المجال ملائماً لذكر هذه الحقيقة . كان صامتاً بدرجة غريبة ، وقد أبدى مرة حدة فقط ملاحظة أذهلتنى . كنت أثنى على هراقليطس ، فقال : « نعم إنه يذكرنى دائماً بفييون »[1] وأعجبت بالملحوظة التى أبداها حتى إننى صرت أتمنى أن يبدى واحدة غيرها . وكان أحد الطلبة الآخرين الذين أثاروا اهتمامى شاباً يدعى ديموس كان يونانياً ، كان أبوه راعياً إنجيلياً اهتـــدى على يد المبشرين . وكان ديموس قد نشأ فى آسيا الصغرى ، ووصل إلى وظيفة أمين إحدى المكتبات الصغيرة هناك . ولكنه شعر بعد أن قرأ كل الكتب التى كانت فى تلك المكتبة أن آسيا الصغرى لم يكن عندها ما تعطيه أكثر من ذلك . ولذلك ادخر حتى يستطيع دفع ثمن الرحلة إلى بوسطون . وبعد وصوله هناك اشتغل جرسوناً فى أحد المطاعم ، ثم التحق بهارفارد وكان يعمل بجد كما كان ذا قدرة فائقة . وبمرور الوقت أصبح فى النهاية أستاذاً . ولقد شرح لى فى عام ١٩١٧ أنه وإن كان يرى وجهة النظر التى تعرضها الدول الأخرى المشتركة فى الحرب ويدرك بوضوح زيف حججها إلا أن الأمر كان مختلفاً تماماً فى حالة اليونان ، التى اشتركت فى الحرب على أساس خلقى أصيل .

وعندما انتهى الفصل الدراسى الأول فى هارفارد ، ألقيت محاضرات متفرقة فى بضع جامعات أخرى . ومن بينها جامعة آن آربور ، حيث طاف بى المدير بكل المبانى الجديدة ، وعلى الأخص بالمكتبة ، التى كان شديد الاعتزاز بها ويبدو أن فهارس المكتبة كانت على أحدث نظام علمى فى العالم ، وأن أسلوب التدفئة المركزية كان حديثاً لدرجة غير مألوفة . وبينما كان يشرح لى كل هذا ، كنا واقفين فى منتصف قاعة واسعة ذات مناضد تثير الإعجاب . سألته : « وهل يقرأ الكتب أحد على الإطلاق ؟ ». وبدت عليه الدهشة ، لكنه أجاب : « بالطبع هاهو ذا رجل يقرأ الآن » . ومضينا لنراه ، فوجدناه يقرأ رواية للتسلية .

---

(١) Villon شاعر فرنسى عاش فى القرن التاسع عشر .

ومن جامعة آن آربور ذهبت إلى شيكاغو ، حيث أقمت مع طبيب شهير فى أمراض النساء . وكان هذا الطبيب قد ألف كتاباً يتضمن صورة أمامية للرحم . وقد أهدانى هذا الكاب ، ولكننى وجدته محرجاً بعض الشيء . فأعطيته فى النهاية إلى صديق طبيب . وكان هذا الطبيب متحرر الفكر فى الدين ، لكنه كان متزمتاً فى الأخلاق . ومن الواضح أنه كان رجلا ذا فورات جنسية شديدة ، وكانت محاولة السيطرة على نفسه قد عاثت فى حياته فساداً . وكانت زوجته سيدة عجوزاً جذابة ، أريبة فى مجالها ، تقف للجيل الشاب بالمرصاد . وكان لهما أربع بنات وابن واحد . ولكننى لم أر مطلقاً هذا الابن الذى مات بعد الحرب بوقت وجيز . وقد جاءت إحدى بناتهما إلى أكسفورد لتدرس اليونانية على يد الأستاذ جلبرت مرى ، عندما كنت أسكن فى غابة باجلى ، وجاءت بخطاب توصية من مدرس الأدب الإنجليزى فى جامعة (برين مور) ، موجه إلى أليس وإلىّ . وقد رأيت هذه الفتاة عدةمرات فى أكسفورد ، فأثارت اهتمامى إلى درجة كبيرة ، ووددت لوعرفتها معرفة وثيقة . وعندما ذهبت إلى شيكاغو ، كتبت إلى تدعونى للإقامة فى بيت والديها . وقابلتنى فى المحطة ، وشعرت فى الحال أننى كنت أستريح إليها أكثر من أى شخص آخر قابلته فى أمريكا . واكتشفت أنها تكتب شعراً جيداً ، وأن حبها للأدب قوىّ إلى حد غير مألوف . وقضيت ليلتين فى بيت والديها ، وقضيت الليلة الثانية معها . وقامت شقيقاتها الثلاث بالحراسة ، لكى تحذرننا إذا اقترب الأب أو الأم . وكانت ممتعة للغاية ؛ لم تكن جميلة بالمعنى التقليدى ، ولكنها كانت حامية غريبة الأطوار وتهوى الشعر . وكانت قد قضت فترة الشباب وحيدة تعسة ، ويبدوأننى كنت أستطيع أن أعطيها ماتريد . واتفقنا على أن تحضر إلى إنجلترا بأسرع ما يمكن وأن نعيش معاً علناً ، وربما تزوجنا فيما بعد إذا استطعت الحصول على الطلاق . وعقب هذا مباشرة عدت إلى إنجلترا ، ومن الباخرة كتبتُ إلى أوتولين أخبرها بما حدث ، ووصلنى منها فى نفس الوقت خطاب تقول فيه إنها تود أن تصبح علاقتنا من الآن فصاعداً علاقة أفلاطونية . ولكن

ما أرسلته لها من أخبار وكونى قد شفيت فى أمريكا من تقيح اللثة جعلاها تغير رأيها . كانت أوتولين مازالت قادرة ، عندما تريد ، على أن تكون ممتعة لدرجة أن مسألة هجرها كانت تبدو مستحيلة . وعدت إلى إنجلترا فى يونية ووجدتها فى لندن . ودرجنا على أن نذهب كل ثلاثاء إلى بيرنام بيتش ، لقضاء اليوم كله . وكانت آخر هذه الرحلات فى اليوم الذى أعلنت فيه النمسا الحرب ضد الصرب . وكانت أوتولين فى أحسن حالاتها وفى تلك الأثناء كانت فتاة شيكاغو قد أقنعت أباها ، الذى كان يجهل الأمر ، أن يصاحبها إلى أوربا وأبحرا فى الثالث من أغسطس . وعندما وصلت الفتاة إلى إنجلترا لم أكن قادراً على التفكير فى شىء سوى الحرب . ولما كنت قد صممت على أن أجاهر برأيى ضد الحرب ، لم أشأ أن أعقد موقفى من الحرب بفضيحة شخصية قد تجعل أى شىء بلا جدوى . لذلك شعرت أنه من المستحيل أن أقوم بتنفيذ ما خططناه . وأقامت الفتاة فى إنجلترا وكان لى معها علاقات من آن لآخر ، ولكن صدمة الحرب قتلت عاطفتى نحوها ، وقطعت نياط قلبها . وفى النهاية سقطت صريعة مرض غريب ، أصابها بالشلل أولا ، ثم بالجنون . وفى جنونها باحت لأبيها بكل ما حدث . وكانت آخر مرة رأيتها فيها فى عام ١٩٢٤ . وفى ذلك الوقت كان الشلل قد جعلها عاجزة عن المشى ، ولكنها كانت تستمتع بلحظات من الصفاء . غير أننى عندما تحدثت إليها استطعت أن أحس بأفكار مجنونة سوداء تكمن فى خلفية عقلها . وقد علمت أنها منذ ذلك الوقت لم تمر بلحظة صفاء . وقبل أن يهاجمها الجنون كانت ذات عقل نادر متوقد ، رقيقة الطبع إلى حد غير مألوف . ولو لم تتدخل الحرب لكان من المحتمل أن ننفذ الخطة التى وضعناها فى شيكاغو ، وأن يأتينا تحقيقها بسعادة عظيمة . وما زلت أشعر بالأسى لهذه الفاجعة وكأنها حدثت بالأمس .

الرسائل

١٥ من يناير ١٩١١
نادى كولونيال
كامبردج
ولاية ما ساشوسيتس

عزيزى رسل

أبعث إليك بشكرى على كتابك « مقالات فلسفية » وإن جاء متأخراً بعض الشيء ، ولكنك سوف ترى فى القريب العاجل دليلاً لا يمكن أن تخطئه على اهتمامى الشديد بها ، إذ أننى أقوم بكتابة عرض مستفيض ، فى ثلاث مقالات ، لمجلة الضريح المبيض ، وهو الاسم الذى نطلقه على (صحيفة الفلسفة) بكولومبيا ، إلخ . ولا تتوقع منى أن أتفق معك فى كل ماورد بها ، ولكن مهما كان رأيك فى أفكارى ، فإننى أشعر على الدوام أن أفكارك ، وأفكار مور أيضاً ، تؤدى إلى إعادة بناء الفلسفة بشكل أرحب . إن إحدى الروابط القوية بيننا أننا نكره نفس الأشياء ، وربما كانت الكراهية ذات دلالة أعمق على طبيعتنا الحقيقية أكثر من المشاعر الودية الصريحة . إذ أن الأخيرة قد تكون وليدة الظروف ، بينما النفور هو رد فعل ضدها .

كنت آمل أن أحضر إلى كامبردج فى يونيه ، ولكننى قد رتبت أمورى الآن على أن أذهب بدلا من هذا إلى كاليفورنيا التى لم أزرها أبداً . وأنا مغتبط وآسف على هذا فى آن واحد ، ولكن يحسن بى أن أرى الغرب الأقصى [١] مرة واحدة فى حياتى ، خصوصاً وأننى قد عقدت العزم على أن أدير وجهى فى القريب العاجل فى الاتجاه المضاد .

مرة ثانية أشكرك شكراً جزيلا لإرسالك الكتاب إلى .

المخلص
ج . سانتيانا

(١) الغرب الأقصى بالنسبة للولايات المتحدة يشمل ولاية كاليفورنيا مثلا .

(يونية ١٩١١)
كلية نيونام
كامبردج
عزيزى برتى

لقد تسلمت خطاباً من أليس . ولا أستطيع إلا أن أقول إننى آسفة من أجلك ومن أجلها أيضاً — وأنا أعلم أنك مررت بوقت عصيب — كما ينبئ وجهك بهذا .

هل لى أن أقول مجرد هذا ؟ لقد وقفت على الدوام إلى جانبى مدافعاً عن التقوى والتقشف وسأظل دائماً أذكرك — حتى تطلب منى أن أكف عن ذكرك — لنضالك فى سبيل كل ما هو قويم وصعب المنال .

المخلصة إلى الأبد
جين . ا. هاريسون

هذا الخطاب لا يتطلب رداً ، واغفر لى أننى كتبته . فلا بد أنك مررت خلال الأيام الثلاثة الماضية بفترة عصيبة لدرجة أنك لا تريد أن ترى الناس ، ولكن مجيئك يسعدنى دائماً .

تلجراف هاوس
تشستر
٦ من يونية ١٩١١
عزيزى برتى

تلقيت أنا وموللى أنباءك بأسف شديد . وقد كان لدينا فكرة كما تقول ، ولكنها كانت مجرد فكرة . إن الإخلاص الذى بدأتما به حياتكما قد انتهى ، وإن كلاً منكما قد وجد الآخر مرهقاً ، ولكننا كنا نأمل ألا يصل الأمر إلى شىء بعينه مثل الانفصال . فإن ذوى الأخلاق الطيبة غالباً ما يستطيعون أن

يواصلوا حياتهم فى نفس البيت ، إذا ما اتفقا على ألا يتفقا ، ومن أجل راحتكما أنتما الاثنين ، ومن أجل راحة أصدقائكما أرجو أن يكون هذا هو الحال بينكما . ولكنكما بالطبع الحكمان الوحيدان الممكنان فى هذا الشأن .

ولا يسعنا فى نفس الوقت إلا أن نأسف على المضايقة التى تسببها إعادة ترتيب حياتكما وانهيار وحدة كانت تبشر بالخير فى البداية . فإن الزواج المحطم مأساة دائماً .

المخلص

ج . مرى

كلية ترينتى

كامبردج

١١ من يونية ١٩١١

عزيزى جلبرت

أشكرك شكراً جزيلا على خطابك الرقيق . إن القرار [١] كما تعلم ، ليس فجائيًّا ولا متسرعاً ، ورغم أن الحاضر مؤلم ، إلا أننى لا أشك أن كلاًّ منا سيكون فى المدى البعيد أسعد حالا .

وصحيح أننى أراك أندر مما اعتدت قليلا — وكم أود لم يكن هذا هو الحال؛ ولكن يبدو أن العمل يستغرقنى أكثر وأكثر . وخلال إقامتى بأكسفورد لم أكن أستطيع أن أتحلل من العمل إلا بالرحيل . وأظن أن هذا هو جوهر الكهولة . ولكننى لا أجد أن مشاعر الود تتأثر بهذا السبب — فلا يتأثر بهذا إلا المظهر فقط .

أرجو أن تبلغ مارى حبى .

المخلص إلى الأبد : رسل

---

(١) قرار الانفصال عن أليس .

١٧ من يونية ١٩١١
تاتى
سيتنيانو (فلورنسا)

عزيزى برتى

تسلمت الآن توًّا برقية تنبئنى بنجاح كارين فى الامتحانات الشفوية النهائية . ولا يسعنى إلا أن أكتب إليك لأعبر عن امتنانى للدور الكبير الذى قمت به فى سبيل تحقيق هذا . إننى أشعر حقًّا ببالغ الامتنان . ولا أستطيع إلا أن أرجو أن تكلفها بمزيد من العمل المماثل وبصورة مغرية ، إذ يبدو أن لديها القدرة على أن تؤديه بشكل طيب . وقد يجعل هذا منها شيئاً ، على حد القول . لذلك أرجو ألا ينصرف ذهنك عنها ، وأن تقترح عليها أى عمل تراه مجدياً .

لن أقول شيئاً عن القرار الذى اتخذته أنت وأليس . إلا أن أبعث إليك بحبى وتعاطفى مع كل مالا بد أنك كابدته حتى استقر رأيك على هذا ، وأن أؤكد لك مودة ب.ب [١] الدائمة ومودتى وأطيب تمنياتنا .

المخلصة

مارى بيرنسون

سلسلة كتب الجامعة المنزلية
١٤ شارع هنريتا
كوفنت جاردن ، غرب وسط لندن
١٠ من أغسطس ١٩١١

(من جلبرت مرى . بشأن كتاب مشاكل الفلسفة)

يسر شركة السيدين ويليامز ونورجيت [٢] أن تحقق لمستر رسل رغباته فى حدود الإمكان ، ولكنها تجد بعض الصعوبة فى فهم وجهة نظره . فإذا

---

(١) برنارد بيرنسون .
(٢) ناشر سلسلة كتب الجامعة المنزلية التى كان جلبرت مرى أحد رؤساء التحرير بها .

كانت شكوك مستر رسل بشأن وجود حشرة (أبى قفص) فى غرفته تقلق راحته فإنها على استعداد أن تدفع لصائد فئران (يكون معتاداً أيضاً على اصطياد حشرة أبى قفص) شلنين فى الساعة لكى يبحث عنها و يتأكد من وجودها ، على ألا يزيد المبلغ المدفوع كله عن عشرة شلنات . وستعتبر الحشرة فى حالة اصطيادها ملكاً لمستر رسل . ولكن لن يعتبر اقتناصها ، أو الفشل فى اقتناصها ، معفياً للسيد رسل بحال من الأحوال من العقد الذى أبرمه مع السيدين ويليامز ونورجيت . وإنه بخصوص شكوى مستر رسل الأخرى من أنه لا يعرف إمبراطور الصين فإن شركة السيدين ويليامز ونورجيت لا يمكنها أن تعزو هذا إلى أى سهو أو إهمال من جانبها. فكان ينبغى على السيد رسل أن يشترط تقديمه للإمبراطور قبل أن يوقع العقد . أما بشأن ماذكره السيد رسل عن إفطاره وانزعاجه الذى يعاوده بشكل مستمر خوفاً من أن تسبب له الوجبة التالية أى تسمم ، فإن شركة السيدين ويليامز ونورجيت تعبر عن بالغ تعاطفها مع السيد رسل فى هذا الموقف العسير ، ولكنها تود أن توجه نظره إلى أن الاحتجاجات يجب أن تقدم إلى رئيس الطباخين بكلية ترينتى لا إليها . وهى فى نفس الوقت لا تتجاوز حدودها حين تذكر السيد رسل أن الفيلسوف ، حسب قوله ، لا يجب أن يركز تفكيره على مثل هذه الموضوعات . وهى تود أن تبدى ملاحظة أن رئيس التحرير قد سر أبلغ السرور من تسليم السيد رسل الصريح بأن الرجل الأصلع رجل برغم كل شىء فى حين أن جملته التالية كانت سبباً فى بعض المتاعب بين أعضاء هيئة التحرير . فالمحررون الثلاثة كلهم ذوو قوام رشيق ، أو على الأقل ليس بينهم من يمكن إطلاق لفظ « بلدى » فى هذا الخصوص عليه . وربما كان مستر رسل يقصد مستر بريس [1] ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فإننا على أى حال لم نفهم تماما من هو المقصود بكلمة الشاعر . ونود أن نتجاسر فنقترح إلغاء كل هذه المسائل الشخصية ، فهى إذ ترضى شخصاً واحداً إنما تؤلم الآخرين دائماً .

(١) مساعد رئيس التحرير .

فندق ميستشيف
شارع مادينجلى
٢٦ – ٨ – ١٩١١

عزيزى رسل

أرسل إليك كل ما استطعت أن أجده من المذكرات التى أرسلها إلى (فريج) للدراسة التى أقوم بها عنه .

قد أخبرنى هاردى عن ترجمتك لقصة شقيقة الزوجة الراحلة إلى الأسلوب الرمزى . فهل تسمح بإرسالها إلىّ إذا سمح بذلك وقتك لكى أضمنها كتاب فلسفة مستر برتراند رسل (١) . وقد أخبرنى هاردى أيضاً عن إثباتك وجود الله عن طريق تركيبة معقدة للغاية من قضايا منطقية زائفة (٢) . فهل أستطيع الحصول على هذا أيضاً ؟

المخلص إلى الأبد
فيليب جوردين

كان جورج كانتور ، موضوع الخطاب التالى ، فى رأيى ، واحداً من أعظم المفكرين فى القرن التاسع عشر . والمجادلة التى يذكرها مع بوانكاريه مازالت (١٩٤٩) مستعرة ، رغم أن الشخصيات الرئيسية قد ماتت من زمن بعيد . وبعد قراءة الخطاب التالى ، لن يدهش أحد عندما يعلم أنه قضى ردحاً من حياته فى مستشفى المجاذيب . ولكنه كرس فترات صفائه لخلق نظرية الأرقام اللانهائية .

وقد أعطانى كتاباً عن مسألة بيكون ـ شكسبير ، وكتب على الغلاف : « أرى أن مبدأك هو " كانط أو كانتور " ولسوء الحظ أننى لم ألتق به قط » .

---

(١) ملخص فكاهى لأحاديثى مع جوردين .

(٢) لسوء الحظ نسيت هذا البرهان ، ولا يوجد لدى أى مذكرة به ، ولذلك يتحتم أن يظل هذا الأمر الهام موضع شك .

٧٥ شارع فيكتوريا
جنوب غربي لندن
١٦ – ٩ – ١٩١١

عزيزي مستر رسل

التقيت اليوم صدفة ببروفسور جورج [كانتور]، أستاذ الفلسفة بجامعة هال، وأمنيته الرئيسية أن يلتقي بك أثناء إقامته في إنجلترا، وأن يحادثك عن كتبك. وقد غلبه السرور عندما علم في معرض حديثنا عن كامبردج أنني أعرفك قليلا. وأرجو أن تغفر لي تفاخري بمعرفتي لعالم رياضة إنجليزي[!]، وقد اضطررت إلى أن أعده بأن أحاول أن أرى ما إذا كان يستطيع مقابلتك. وهو يقيم الآن لمدة أسبوع في ٢٦ ميدان نيفيرن ساوث كنزنجتون، ويقترح زيارة كامبردج يوم الثلاثاء وأكسفورد يوم الخميس.

كانت مقابلتي له ممتعة للغاية رغم أنك، إذا تكرمت بمقابلته، ستتعاطف مع شعوري بالإرهاق بعد أن قضيت أربع ساعات تقريباً في الحديث معه. كان – بالنسبة لي – أشبه بالنفير الذي يدوي في الضباب في حديثه عن الرياضيات وعن نظرية بيكون (١).

هل يمكنك كتابة خطاب إليه، أو إليّ على عنواني وودجيت، ديتهل، سسكس. إنه سليل عائلة جيهيمراث وما إلى ذلك. وأستطيع أن أسرد عليك تاريخ عائلته بأكمله.

المخلصة لك ومع اعتذاري الشديد
مارجري ا. كوربت آشبي

(١) كان يرى أن بيكون كتب مسرحيات شكسبير وأن المسيح هو الابن الطبيعي ليوسف النجار.

١٩ من سبتمبر ١٩١١
٢٦ ميدان نيفيرن
ساوث كنزنجتون
لندن .

صاحب الفخامة برتراند رسل
كلية ترينتى ، كامبردج

سيدى وزميلى العزيز

أتقدم إليك بالخطاب التالى من مسز مارجريت كورت آشى . إننى أقيم الآن هنا لمدة أسبوع تقريباً ، مع ابنتى مارى ، وقد تستمر إقامتى حتى يوم الأحد ٢٤ سبتمبر وهو التاريخ الذى يحتمل أن أرحل فيه إلى باريس لمدة أسبوع ، أو أن أعود للوطن . وستكون سعادتى بالغة إذا استطعت أن ترافقنا إلى باريس . فقد نستطيع أن نلتقى هناك بمسيو بوانكاريه ، وسيكون هذا (ثالوثاً) ممتعاً .

أما عن نفسى فربما تعلم أننى غارق فى كثير من المسائل العلمية ، والأدبية أيضاً ، ولأضرب لك مثالين فقط : فأنا من أنصار بيكون فى مسألة بيكون شكسبير — وخصم عنيد لكانط العجوز الذى أرى أنه أضر أبلغ الضرر بالفلسفة ، بل وبالبشرية ، كما يمكنك أن تتبين بسهولة من الانحراف البالغ فى تطور الميتافيزيقا فى ألمانيا فى كل من جاءوا بعده ، مثل فيختة ، وشيللنج ، وهيجل ، وهربارت وشوبنهاور ، وهارتمان ، ونيتشه ، الخ. الخ. حتى يومنا هذا . إننى لم أستطع يوما أن أفهم هذا ولا لماذا انقادت شعوب معقولة نبيلة مثل الإيطاليين ، والإنجليز ، والفرنسيين وراء ذلك المتعصب السفسطائى . الذى كان عالماً رياضياً سيئاً .

ولقد وقع مسيو بوانكاريه فى غرام هذا المومياء الكريه ، الذى هو كانط ، اذا لم يكن قد وقع تحت تأثير سحره . وأنا لهذا السبب أفهم تماماً سر معارضة مسيو بوانكاريه لى ، هذه المعارضة التى تشرفنى رغم ثقتى أنه لم يقصد أن يشرفنى . وإذا كان يظن أننى سأرد عليه لأدافع عن نفسى فهو مخطىء تماماً .

وأظن أنه يصغرني بعشرة أعوام . ولكنني قد تعلمت أن أنتظر في كل الأمور ، وأنا أتنبأ الآن أنني لن أكون الخاسر في هذه المعركة . لكنني أتركه يفعل مايحاوله ولا أجدني مضطراً إلى الدخول في المعركة ، فلسوف يورطه آخرون في ذلك تاركين لي الفرصة لكي أوجه اهتمامي إلى أشياء أعظم وأكثر أهمية . أما بخصوص الاختلافات الضئيلة بيني وبينك فأنا واثق أنها ستختفي بعد حديث معك .

إنني أنوي أن أزور الرائد ماكماهون اليوم . أرجو أن أراك هذه الأيام في كامبردج أو لندن ، وسأظل ياسيدي .

المخلص جداً

جورج كانتور

لقد قبلنا دعوة لقضاء يومي الخميس والجمعة مع مسز كونستانس بوت ، وهي صديقة قديمة لي من لندن كنت أتبادل معها الرسائل ، وتقيم الآن في فوكستون ، ١٥ كليفتون كرسنت .

أما بخصوص كانط وأتباعه فإنني أرى السبب الحقيقي لوقوفه فيما يبدو على أرض صلبة من النجاح والاحترام والتبجيل والتقديس ، وسأوضح لك ذلك السبب . إن البروتستانتية الألمانية في تطورها نحو (التحررية) تحتاج إلى أساس تبنى عليه مسيحيتها الظاهرية ، ولذلك تلتقط اللاهوتيين البروتستانت من المدارس المختلفة ، مثل كانط أو أحد أتباعه ، ليكون الدعامة التي ترتكز عليها . فإحدى اليدين تغسل الأخرى ، والواحدة تعتمد على الأخرى ، ولابد أن تهوى الواحدة مع الأخرى .

لم أسئ قط إلى مسيو بوانكاريه ، بل على العكس أمجده بقوة في رسالتي .

لندن
١٩ من سبتمبر ١٩١١

صاحب الفخامة برتراند رسل
كلية ترينتى ، كامبردج

سيدى العزيز

كنت قد انتهيت من كتابة خطابى الأول إليك عندما تسلمت رسالتك — ولو كنت حراً لا أعتمد على مشيئة آنستين ألمانيتين ، هما مارى وابنة شقيقتى الآنسة أليس جوتمان من برلين ، لحضرت اليوم بالذات لأقابلك فى إبسدن وولنجفورد . ولذلك فيحتمل ألا أحضر .

المخلص
جورج كانتور

عندما فرغت من هذا الخطاب الثانى ، وصلتنى الرسالة التالية من زوجتى العزيزة فى ألمانيا . « إريك مريض ، عد سريعاً إلى هالى » .

هل ترى ياسيدى العزيز ، كيف يعبث بى القدر . لقد ذهبت الآنستان اللتان أشرت إليهما لتوهما لرؤية وستمنستر .

إنه ابنى الوحيد إريك ، الذى كان فى أتم صحة عندما تركته ، وهو طبيب فى إحدى وحدات مستشفى كبير للمبعدين بنزلاء (سيليزيا) وهو فى الثانية والثلاثين من عمره .

أرجو ألا يكون المحظور قد وقع .

لقد تزوج منذ ثلاثة أشهر مضت ، وحضرنا حفل زفافه إلى فتاة لطيفة طيبة ذكية ، وهى ابنة أحد دباغى الجلود فى بلدة نوسن السكسونية الصغيرة فى مملكة سكسونيا .

عنوانى فى هالى هو : ١٣ شارع هاندل . وسنسافر هذا المساء . وأرجو أن أعود فى النصف الأخير من أغسطس ١٩١٢ لحضور المؤتمر الدولى .

كنت أكتب الآن وصفاً قصيراً لزيارتى التى قمت بها إلى سانت أندروز وإقامتى فيها ، وأنوى تقديمها إلى رئيس تحرير (مجلة المجلات) .

لم أستطع أن أذهب إلى الرائد ماكماهون كما كان فى نيتى أن أفعل ، كما ذكرت فى خطابى الأول .

لقد سررت سروراً بالغاً بلقائى مع صديقى الطبيب مستر هوبسون فى سانت أندروز ، وهو من كامبردج ، وكان فى طريقه إلى المؤتمر الذى يعقده مستر فيليكس كلاين ، وهو كبير العلماء الرياضيين الألمان . لم يكن أبى ولا أمى من أصل ألمانى . فقد كان الأول دانمركيًّا ، ولد فى كوبنهاجن وأمى من أصل نمسوى هنغارى . ولا بد أنك تعلم ، ياسيدى ، أننى لست ألمانيًّا بمعنى الكلمة ، فقد ولدت فى ٣ مارس ١٨٤٥ فى بطرسبرج ، عاصمة روسيا ، ولكننى رحلت مع أبى وأمى وإخوتى وأخواتى وعمرى إحدى عشرة سنة فى عام ١٨٥٦ إلى ألمانيا ، وأقمنا فى فيسبادن ، ثم زيورخ فبرلين فجوتنجن ، ثم جئنا فى عيد الفصح عام ١٨٦٩ للإقامة فى هالى حيث قضيت الآن أكثر من اثنتين وأربعين سنة .

سيدى العزيز

إن آخر كلمة أكتبها إليك تحمل أنباء سعيدة فلقد تلقيت الآن من زوجتى البرقية التالية : « تحسنت حالة إريك » ولكنك تدرك أننا ينبغى أن نعود إلى أرض الوطن .

٤١ شارع جروفنر
جسر وستمنستر .
١١ من أكتوبر (١٩١٢)

عزيزى برتراند

يؤسفنى جدًّا أننى لم أرك عندما حضرت لزيارتنا ، وأشعر أننى لا أستطيع أن أدع هذه الزيارة تمر دون أن أكتب إليك .

لا تغضب منى إذا طلبت إليك أن تضع نفسك فى مكاننا . فافترض أنك أنت وأليس كنتما تعيشان فى سعادة مطلقة ورفقة كاملة ، وشعرتما أن سيدنى قد لفظنى ، وأننى أعيش فى حالة من اليأس المطبق أو لم تكونا

لتشعرا ، أنتما الاثنان ، أنكما متألمان من سدنى ؟

إننى لا أعلم شيئاً عن سر نفوركما ، كل ما أعلمه أن أليس تريدنا أن نكون أصدقاء لكما . وهذا أيضاً شعورى الشخصى . ولقد كنت دائماً معجبة بذكائك الخارق، ورغم أن الشكوك كانت تساورنى أحياناً فى قوة شخصيتك، إلا أننى كنت أشعر تماماً بسحرها العجيب .

لذلك لا تظن أننى قد سحبت صداقتى ، وإذا استطعت فى أى وقت من الأوقات أن أكون ذا فائدة لك ، سواء أوليتنى كامل ثقتك أم لا ، فأرجو أن تبلغنى وأن تحضر لزيارتى. والآن وقد عبرت بصراحة عما يدور بخلدى تعال وزرنا إذا شعرت برغبة فى هذا ، وناقش معنا أمور العالم دون أدنى إشارة إلى متاعبك ومتاعب أليس .

لقد قضينا وقتا ممتعاً فى الشرق الأقصى والهند — وهناك نظرات جديدة مدهشة فى الهدف الإنسانى والمصير الإنسانى ، فى كل من اليابان وبين الهندوسيين فى الهند . ولكننا عجزنا تماماً عن تقدير الصين ، كما عجزنا عن التعاطف مع الهند المسلمة .

أما الآن فنحن غارقون فى المشاكل البريطانية . ولكن ذكرى رحلاتنا تعيد إلينا نشاطنا على الدوام . لماذا لا تسافر أنت فى إجازة طويلة من أجل تغيير أفكارك تغييراً كاملا ؟

صديقتك المخلصة

بياتريس وب

٧٣ ميدان الفريد
ساوث كنزنجتون ، جنوب غربى لندن
١٣ من أكتوبر ١٩١٢

عزيزى مستر رسل

أشكرك على خطابك الرقيق . وسأطلب من دكتور سيل أن يزورك فى كامبردج حتى تتاح لك فرصة التعرف إليه .

قرأت مقالك عن جوهر الدين فى العدد الأخير من مجلة (هيبرت) بشغف عظيم . وقد ذكرتنى ببيتين من الشعر فى الأدب السانسكريتى الميتافيزيقى يجريان على النحو التالى :

« عنده ترتد الكلمات ، كما يرتد العقل ، متحيره . ولكن من يعرف بهجة براهمان (اللانهائى) يتحرر من الخوف » .

فأنت لا تستطيع سبر غور اللانهائية من خلال المعرفة ، ولكنك تدرك البهجة الكبرى التى تعلو على كل متع حياتنا الأنانية وآلامها ، عندما تعيش فى اللانهائية ولا تصبح مقيداً داخل حدود النفس المحدودة ، وبذلك تتحرر من كل أنواع الخوف .

وهذه البهجة نفسها هى الإدراك الإيجابى لبراهمان . وهى ليست عقيدة تفرضها علينا السلطة ولكنها إدراك مطلق للانهائية التى لا نستطيع الوصول إليها إلا بالتحرر من إسار النفس الضيقة وتحرير إرادتنا وحبنا .

المخلص

رابندرانات طاغور [١]

---

(١) طاغور ١٨٦١ — ١٩٤١ شاعر هندى حاز على جائزة نوبل للأدب .

كلية ترينتى
١٣ من فبراير ١٩١٣

عزيزى جولدى

أسعدنى أن أتسلم رسالتك ، وقد أثارت الأجزاء التى استطعت أن أفك طلاسمها اهتمامى ، (والواقع أنه لم يكن فى النهاية إلا أقل القليل الذى لم أستطع أن أفهمه) . وقد أثار اهتمامى أن أعلم أن الهند أكثر تديناً من أن تحتملها . إن مسألة الدين والخبز اليومى — الإيمان بالخرافات والبطن — أمر لا يروق لى ، وأتوق أن تجد الصين أكثر إثارة — وأكثر تحضراً وأكثر إدراكاً للقيم الخفية — على الأقل إذا استطعت أن تتصل بالناس المتعلمين .

ليس لدى أخبار كثيرة . وأظنك قد علمت أن المحافظين قد ألغوا الضرائب على الطعام ، وأنهم يعملون جاهدين فيما يتعلق بفرض حماية على التجارة ؟ وأيضاً أن الألمان قد قبلوا إنقاص نسبة بحريتهم من ١٦ إلى ١٠ ، وأن العالم سعيد بهذا النبأ . وكل شىء يجرى فى كامبردج كالمعتاد . وهناك هياج آخر بشأن الامتحان الأول فى اليونانية ، والجميع يرددون ما كانوا يرددونه دائماً . والأمر كله يبدو أبعد ما يكون عن الأهمية الحقيقية . ولقد انتخب صديقى فيتجنشتين للجمعية ، ولكنه رأى أن فى هذا مضيعة للوقت ، فحذا حذو جون روبى [(١)] وانصبت عليه اللعنات . وأعتقد أنه على حق برغم أننى حاولت أن أثنيه عن عزمه . إنه أقدر من عرفت منذ مور وأشدهم إخلاصاً لرسالته .

لم أفعل شيئاً فى بحثى . فقد حاولت جاهداً طوال الصيف الماضى أن أستعيد الحالة النفسية التى بدأت كتابته فيها ، ولكن لما كان الشتاء على أية

---

(١) انتخب هنرى جون روبى عضواً فى الجمعية ، ولكنه كتب قائلا إنه كان أكثر انشغالا من أن يستطيع حضور الاجتماعات ، وقد صبت اللعنات عليه بطريقة طقوسية . فأصبح اسمه منذ تلك اللحظة يكتب بأحرف صغيرة ومنذ ذلك الوقت واللعنة تقرأ بكل وقار عندما ينتخب عضو جديد .

حال ميئوساً منه لمثل هذا النوع من الكتابة فقد أجلت العمل فيه مؤقتاً ، وشرعت فى العمل فى فلسفة المادة التى يبدو أننى أرى فيها منفذاً إلى شىء هام ، وأن مسألة معرفتنا بالعالم الخارجى داخلة بأسرها فيها . وسأذهب فى ربيع العام القادم إلى هارفارد لمدة ثلاثة أشهر لإلقاء بعض المحاضرات . وأشك فى أن الناس هناك يرجى منهم الكثير ، ولن يكون الأمر مثيراً . لقد أصدر سانتيانا كتاباً جديداً « النظرية فى مهب التغيير » ، ومعظمه عن برجسون وعنى . ولم أفعل أكثر من تصفحه حتى الآن ، وهو يحوى خصائصه المألوفة ، وقد قرأتْ كارين ذات يوم بحثاً أمام الجمعية الأرسططالية تمتدح فيه برجسون — وهاجمها مور ، وهاجمتها أنا بكل العنف الذى يمكنك أن تتخيله ، ولكنها أظهرت شجاعة لا تلين .

سيتزوج فرانك داروين ، كما أظن أنك سمعت ، من مسز ميتلاند . والآن — هذا كل ما أستطيع التفكير فيه من أخبار — وكلها تبدو تافهة. إننا هنا فى كامبردج يشجع أحدنا الآخر على الاستمرار فى طريق الافتراض الذى لم نتوقف لحظة لمناقشته وهو أن كل ما نفعله هام ، ولكننى كثيراً ما أتساءل هل هذا صحيح فى الواقع ؟ إننى أتساءل ما هو الشىء الهام ؟ أظن أن موت سكوت ورفاقه فى العاصفة الثلجية أمر لا يقبل الشك . وتسجيله لها رائع فى بساطته . ولكن الفكر يميل إلى التفاهة ، إلا عندما تتوهج جذوته .

وأنا أشعر أن المرء لن يكشف الهدف الذى يجب أن يعيش من أجله إلا على سرير موته ، ويدرك بعد فوات الأوان أنه قد أضاع عمره هباء . إن أى حياة عاطفية شجاعة أمر طيب فى حد ذاته ، ولكن المرء يشعر أن هناك عنصراً من الوهم فى إضفاء فيض من المشاعر العاطفية على أى هدف إنسانى ممكن التحقيق . وهكذا تتسرب السخرية إلى ينابيع الحياة ذاتها فى كيان الإنسان . هل تجد السر الأعظم فى الشرق ؟ أشك فى ذلك . فليس هناك أى شىء من هذا؛ بل ليس هناك حتى لغز . فهناك العالم وضوء النهار الصراح والعمل اليومى . والباقى

ليس إلا أطياف الغسق . ومع ذلك فأنا أعلم أننى سأغير اتجاه تفكيرى عندما يحل الصيف .

كم أود لو أننى كنت معك ، أو كنت أنت معى . بلغ . حبى لبوب [١]

المخلص

ب . رسل

مطبعة دڤز

أبريل ١٩١٣

عزيزى برتى

أخيراً انتهى تجليد كتب ميلتون وأرسلتها لك على عنوانك فى ترينتى . لقد كنت أنا أيضا فى ترينتى فى مثل هذا العام من نصف قرن مضى ، وفى نفس هذه السنة ومن نفس هذه المدة الطويلة رأيت أمك التى كانت فى ذلك الوقت كيت ستانلى . ولذلك فأنا لست آسفاً إذا كنت قد تأخرت كل هذا الوقت الطويل حتى أرسل لك هديتى الصغيرة فى نفس هذه السنة .

ستغلق هذه المطبعة أبوابها بعد وقت قصير ولن أقوم بطباعة كتب أخرى. هل أرسلت إليكَ أغنية البجعة [٢] التى قمت بطباعتها ؟ لقد نسيت . ولكن قبل أن أغلق المطبعة سأكون قد طبعت الرسائل فى مناسبتها السنوية ، ١٩١٤ وستكون هذه نهاية ملائمة .

اكتب إلى ودعنى أراك عندما تحضر إلى المدينة فى المرة القادمة .

المخلص

ت . ج. كوبدن ـ ساندرسن

---

(١) تريفيليان .

(٢) أغنية البجعة هى آخر أغنية قبل الممات .



٢٩ شارع سباركس
كامبردج ، ماساشوسيتس
١٥ من يونيه ١٩١٣

صاحب الفخامة ب. ا. و. رسل
كلية ترينتى
كامبردج ، إنجلترا

الزميل المبجل

سوف يمنح ابنى ، نوربرت فاينر ، هذا الأسبوع درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد ، وقد كان موضوع بحثه « دراسة مقارنة بين نظرية جبر النسبيات عند شرويدر ونظرية هوايتهد ورسل » . وقد كان يتوقع أن يكون هنا فى العام القادم وأن يحظى بشرف كونه طالباً من طلابك فى الفصل الدراسى الثانى ، ولما كان قد حصل على درجة زمالة فى أكثر من جامعة ، فإنه مضطر إلى قضاء العام كله فى أوربا ، وهو لذلك يرجو أن يتمتع بحظوة الدراسة على يديك فى ترينتى فى النصف الأول من العام الدراسى . وقد كان ينوى أن يكتب إليك بهذا الخصوص ، ولكن صغر سنه — فهو فى الثامنة عشرة من عمره فقط بما يترتب على ذلك من انعدام الخبرة بما ينبغى له أن يحيط به فى إقامته بأوربا — يدفعنى إلى أن أؤدى له هذه الخدمة وأن أسألك النصح .

لقد تخرج نوربرت فى الكلية ، وحصل على درجة الليسانس ، وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، لا نتيجة لنمو سابق لأوانه أو نضوج مبكر غير عادى ، ولكن أساساً نتيجة لعناية منزلية خاصة خالية من كل ما يضيع الوقت فى غير طائل ، وهو أمر أطبقه على كل أبنائى . ونوربرت قوى البنية (يزن ١٧٠ رطلا) متزن تماماً خلقيًّا وعقليًّا ، ولا يبدى أى أثر لتلك العلامات التى ترتبط عادة بالنضج المبكر . وأنا أذكر هذا لك حتى لا تظن أنك ستتعامل مع طالب غير عادى أو غريب الأطوار ، ولكن مع طالب عادى أحسن توجيه قدراته . وبخلاف دراسته العريضة المتحررة للكلاسيكيات ، بما فى ذلك من يونانى ، ولاتينى ولغات حديثة ، فقد درس برنامجاً كاملا عن العلوم ، كما درس حساب التفاضل والتكامل ، والمعادلات التفاضلية ، ونظرية جالوا فى المعادلات ، وبعض فروع الجبر الحديث (على يدى بروفسور هنتينجتون) وقد قام بدراسة الفلسفة على

أيدى الأساتذة رويس وبيرى وبامر ومنستربرجر ، وشميدت ، وهوايت ، إلخ ، بجامعتى هارفارد وكورنل [1] . وهو يميل إلى المنطق الحديث ميلا تامًّا ، ويرجو أن يفيد خلال سنة أو سنتى إقامته فى أوربا من أولئك الذين قاموا بأعمال شهيرة فى ذلك المجال .

فهل فى إمكانه أن يدرس على يديك ، أو أن تقوم بتوجيهه إذا حضر إلى كامبردج فى سبتمبر أو أوائل أكتوبر ؟ وماذا يستطيع أن يفعله حتى ينال هذه الحظوة ؟ إن أمامى دليل الطالب إلى كامبردج لعام ١٩٠٨ ، ولكننى غير قادر على التأكد من خلاله من الشروط اللازم توافرها فى الخريجين الذين يريدون أن ينالوا تعليما خاصًّا أو توجيهاً خاصًّا . ولا أستطيع أيضاً أن أجد أى شىء بخصوص سكناه هناك ، وما إذا كان عليه أن يجتاز امتحان الدخول إلى كلية ترينتى أو يستطيع أن يسكن فى المدينة . وهذه نقطة هامة نوعاً ما بالنسبة له إذ يهمه أن يستطيع المعيشة فى حدود دخله الشهرى الضئيل . وسأكون بالغ الامتنان لك إزاء أى معلومات فى هذا الشأن قد تسهل له دخوله إلى عالم غريب عليه إلى حدٍّ مَّا .

وسيسعدنى أن أشكرك شخصيًّا على أى رعاية تبديها نحو ابنى ، عندما تحضر إلى كامبردج الأمريكية فى العام القادم لإلقاء محاضرات فى قسم الفلسفة .

المخلص — ليو فاينر
أستاذ اللغات السلافية وآدابها
بجامعة هارفارد

كابل هاوس
أورلستون
قرب آشفورد ، كنت
٤ من سبتمبر ١٩١٣
سيدى العزيز

لماذا تحضر راكباً دراجة فى هذا الجو العاصف المتقلب ؟ إن الحل الحقيقى هو أن تشترى تذكرة (فى قطار ١١ صباحاً من محطة تشارنج كروس فيما أظن)

---

(١) ومع ذلك فقد أثبت أنه شخص جدير .

إلى هامستريت (ثم تغير القطار فى آشفورد بعد انتظار بضع دقائق) حيث سينتظرك ابنى بعربتنا العتيقة ويوصلك إلى الباب قبل الواحدة والنصف . وهناك بعد ذلك قطار لا بأس به فى الساعة ٥ر٤٨ من آشفورد يصل إلى المدينة بعد السابعة بقليل .

ولا أدرى ما إذا كنت ستجد فىّ ما يعوضك عن مشقة السفر . ولكن الشيء الوحيد المؤكد هو أن مجيئك سيسرنى أبلغ السرور . ولذلك تستطيع أن تعتبر الرحلة ذات طبيعة أشبه « بالأعمال الخيرية » وأود أن أقترح عليك يوم الأربعاء ، إذ لم يصدر حتى الآن ، فيما أعلم ، قانون يحرم سير القطارات فى هذا اليوم من أيام الأسبوع الذى يعد بمثابة يوم أحد دنيوى جديد بالنسبة لنا .

المخلص

جوزيف كونراد

كابل هاوس

أورلستون ، قرب آشفورد

١٣ من سبتمبر ١٩١٣

عزيزى رسل

لقد أثلج خطابك صدرى للغاية . ويبدو أنى كنت أتكلم طول الوقت فى غمرة الإعجاب بالذات . ولكننى فى مكان ما من عقلى كنت أومن أنك ستفهم ثرثرتى غير المألوفة . فأنا عادة لا أعرف ماذا أقول للناس . لكن شخصيتك حلت عقدة لسانى ، وأخبرتنى غريزتى أنك لن تسيء فهمى .

أشكرك بحرارة على المتعة التى جلبتها زيارتك وعلى الخطاب الذى كتبته بوحى من شعورك الودى .

المخلص

جوزيف كونراد

كابل هاوس
أورلستون ، قرب آشفورد
٢٢ من ديسمبر ١٩١٣

عزيزى رسل

أرسل لك مجرد كلمة تتسع للتعبير عن أطيب تمنياتنا جميعاً . يسرنى أننى قرأت الكتاب الصغير قبل أن أقرأ مقالاتك . وإذا كنت قد شعرت أثناء قراءة الكتاب كما لو كنت أتحرك خطوة خطوة ، فى متعة ، على الأرض الصلبة ، فقد أعطتنى المقالات الإحساس برؤيا مترامية فى جو واضح نقى . كانت كلماتك الكاشفة التى جمعت بطريقة لها دلالتها تبدو وكأنما توقظ قدرة جديدة فى داخلى ، وهى تجربة رائعة لا يستطيع المرء حتى أن يعبر عن شكره لها — ولا يسعنى إلا أن أتقبلها فى صمت كهبة من الإله . لقد نظمت أفكار عمر كامل كانت مشوشة ، وحددت وجهة لحركات الروح الغامضة التى لا تجلب إلا المتاعب على أيامنا المتعبة على هذه الأرض إذا ما تركت دون توجيه . والشىء الوحيد الذى أستطيع أن أقوم به إزاء الصفحات الرائعة عن عبادة الإنسان الحر هى أن أبادلك « أعمق المودة والإعجاب » التى ستكون لك دون أن تتغير إلى الأبد ، إذا لم ترنى مرة ثانية أبداً ، ونسيت وجودى غداً .

المخلص

جوزيف كونراد

ملحوظة — كنت أقرأك أمس واليوم وأنا أستقبل أنواعاً شتى من المتعة « وأنا أتكلم الآن وأنا متمالك لنفسى » حتى إننى لا أستطيع أن أكتب أكثر من هذا اليوم .

٣ شارع كليرمونت
وستون سيوبر–مار
٣١ من يناير ١٩١٤

عزيزى مستر رسل

شكراً جزيلا على خطابك الذى وصلنى هنا حيث أتغلب على فترة قصيرة من المرض والإعياء . وأنا متأكد أننى لست فى حاجة إلى أن أخبرك أن تعبيرى عن الإعجاب بعملك لم يكن مجرد كلام . ولا يمكننى أن أتفق مع آرائك فى بعض النقاط (كما أفهمها على الأقل) لكننى لا أشعر بأقل شك فى قيمتها العظيمة ، وكلى أمل وتطلع إلى أنك ستواصل عمل ماهو أحسن وأحسن ، برغم أننى أخشى أننى لاأستطيع أن آمل أن أكون قادراً على تذوق أى تأملات والتمتع بها لفترة أطول .

أظن أننى أفهم ماتقوله بشأن الطريقة التى تصوغ بها فلسفتك . ويخيل إلى أنها الطريقة الصحيحة وأن ما تعد به ليس مجرد أوهام على الإطلاق ، برغم أنه لا يمكن التمسك بها حرفياً . وربما كان فى الأشياء ككل ما يفتقده المرء إذا ما تأمل النظريات التى أمامه ، (وكما يحدث أحياناً) يشعر المرء أنه يعرف ما يريده وأنه موجود هناك — لو استطاع فقط أن يجده بشكل أو بآخر— ومع ذلك فلا بد أن أعتقد أن المرء لا يجد الكل المتكامل، ولا يستطيع أن يجده، وأنه ليس هناك فيلسوف لم يصل إلى الحقيقة التى ينشدها ، إلا عن طريق التميز ورؤية الأشياء من جانب واحد . وأن هذه هى الطريقة الوحيدة الصحيحة وهذا على أية حال مجرد إيمان لا أستطيع إثباته .

وأنا واثق أننى عمدت فى عملى ، بقدر ما أمكن ، إلى تصوير هذا التحيز— إذا لم أكن قد فعلت أى شىء آخر . وأخشى أننى أكتب دائماً عن ثقة زائدة — وإلا لتخليت عن الكتابة كلية ، ولا أعتقد أننى بهذا أقترف ذنباً كبيراً أو أفرض آرائى على أحد لآرائه الذاتية قيمة خاصة . وإذا كنت قد عاونتك

على وجه من الوجوه بالاعتراضات التى أثرتها ، فهذا فيما أشعر تبرير كاف لهذه الاعتراضات حتى ولو كانت خاطئة — وسيكون من دواعى ارتياحى دائماً أن أحظى بحسن ظنك فى عملى . ولعلى أضيف هنا أننى أشعر بالميل شيئاً فشيئاً نحو المجهول والذى لا يمكن الإحاطة به — بطريقة أعتقد أنها صائبة وإن كانت لم تبلغ بعد ما أريده .

أتمنى لك النجاح والتوفيق فى عملك وأتجاسر هنا على أن أنصحك بالتريث ونبذ التعجل .

المخلص

ف. هـ . برادلى

من هـ .

شكراً جزيلا على الزهور التى أرسلتها . وهى مبعث راحة وطمأنينة لنفسى وكذلك خطابك الذى قرأته مرات ومرات . ما كان أقسى ذلك المساء ! وكم كانت قسوته ستزداد لو لم نتلاق ! وقد كنت سأحس بأننا لن نلتقى أبداً، ولكن هذا كله ماض الآن وأنا أدرك مشاعرك وأشعر أكثر من أى وقت مضى أنه فى الإمكان تكوين صداقة دائمة عميقة . وأملى أن يتم ذلك قريباً جداً ، وبمجرد استعادتى لصحتى . ولن يؤثر ما حدث مهما يكن فى نهاية الأمر — وما حدث كان خيراً ولا يعلى عليه .

وداعاً الآن . وإذا جاز للإنسان أن يتحدث عن السلام فى هذا العالم المضطرب فسلام عليك .

هـ .



مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

